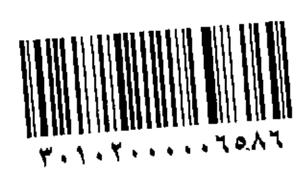
يوصي مجلس الكلية بمنح الدرجة
بتقدير جيد جداً
١٢/٥/١٤١٧هـ


المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى - مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية


# علاقة الدولة الخوارزمية بالقوى في بلاد الشام

( ٦٢٤هـ - ٦٤٥هـ / ١٢٢٧ - ١٢٤٧م )

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي


إعـداد
عابد بن عبدالرزاق بن عبدالله الغريبي

إشراف الدكتور
محـمـد المنســي عــاصـي


١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) عابد بن عبدالرزاق بن عبدالله الغريبي كلية: الشريعة قسم: .. الدراسات العليا التاريخية والحضارية ..

الأطروحة مقدمة لنيل درجة: ...... الماجستير ................ في تخصص: ............ التاريخ الإسلامي ..........................

عنوان الأطروحة: (( علاقات الخوارزميين بالقوى في بلاد الشام (٦٢٤-٦٤٥هـ/١٢٢٧-١٢٤٧م) ............ )).

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤١٧/٢/١٥هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

| المشرف | المناقش الداخلي | المناقش الخارجي |
| --- | --- | --- |
| الاسم: د/محمد المنسى عاصي | الاسم: د/علي عودة الغامدي .. | الاسم: د/عبدالله سعيد الغامدي |
| التوقيع: ........ | التوقيع: ........ | التوقيع: ........ ١٤١٧/٤/٢٤ يعتمد |

رئيس قسم

الاسم: د/سعد بن عبدالله البشري

التوقيع: ........

١٤١٧/٤/٢٦هـ

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم


ملخص رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي بعنوان «علاقات الخوارزميين بالقوى في بلاد الشام»

وتشمل الرسالة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول بينت في المقدمة أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهم المصادر التي اعتمدت عليها في البحث والصعوبات التي واجهت الباحث.

وفي التمهيد موجز عن أوضاع الدولة الخوارزمية والممالك الأيوبية قبيل موضوع الدراسة.

أما الفصل الأول: ففيه الحديث عن العلاقات بين السلطان جلال الدين الخوارزمي والأيوبيين في شمال الشام والجزيرة وتتبع الفصل أيضاً تجدد الخطر المغولي على الدولة الخوارزمية ونهاية جلال الدين.

أما الفصل الثاني: فقد تطرق للحديث عن علاقات الخوارزميين بالقوى الإسلامية ببلاد الجزيرة والشام بعد مقتل جلال الدين واحتدام الصراع بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل وختم بهجوم الناصر داود على بيت المقدس.

وفي الفصل الثالث: بينت موقف الخوارزميين من الخلافات المتجددة بين ملوك بني أيوب وتحالف بعض ملوك بني أيوب مع الصليبيين.

وفي الفصل الرابع: تم إبراز الجوانب الإيجابية للخوارزميه حيث قاموا باسترداد بيت القدس من الصليبيين بعد أن سلمه لهم الصالح إسماعيل وهزموا الصليبيين في موقعة غزة سنة ٦٤١هـ.

أما الفصل الخامس والأخير فقد ناقش تطور العلاقات بين الصالح أيوب والخوارزميين وبين كذلك طبيعة الدور الخوارزمي وأثره في قيام الصليبية السابعة

وأخيراً الخاتمة، وفيها نتائج البحث ومنها :

١ – أن الدولة الخوارزمية عجزت عن تحقيق المهمة التي كان ينبغي أن تقوم بها وهي حماية السور الشرقي للعالم الإسلامي من الخطر المغولي.

٢ – برهنت الدراسة على أن هذه الفترة تعتبر من المراحل المهمة جداً في التاريخ الإسلامي.

٣ – عدم إدراك حكام المسلمين لخطورة موقفهم عقب سقوط الحاجز بينهم وبين التتار.

٤ – أن القوات الخوارزمية التي تفرقت في البلاد لم تلعب دوراً يذكر لاستعادة مجدها.

٥ – إلقاء الضوء على بعض الجوانب الإيجابية للخوارزميين إذ تمكنوا من استعادة بيت المقدس وتطهيره من دنس الصليبية سنة ٦٤٢هـ.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.


| الطالب | المشرف | عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية |
|---|---|---|
| عابد بن عبد الرزاق الغربي | د/محمد المنسي عاصي | د/محمد بن صامل السلمي |

# المحتويات

# مُقَدِّمَة

١- أهمية الموضوع وسبب اختياره.

٢- عرض لأهم مصادر البحث.

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية الموضوع وسبب اختياره :

الحمد الله رب العالمين، اللهم إياك نعبد، وإياك نستعين، وعليك نتوكل، وإليك نسعى ونحفد. ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائك ورسلك.

أما بعد :-

فقد كانت الدولة الخوارزمية التي قامت في إقليم خوارزم في ما وراء النهر في الفترة بين ( ٤٩٠هـ - ٦٢٨هـ) إحدى القوى الإسلامية وكانت لها مهمة محددة لم تتنبه إليها هي حماية السور الشرقي للدولة الإسلامية كما لم توفق في توحيد الصف الإسلامي لمواجهة الأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية والمتمثلة في الخطر المغولي والصليبي نتيجة لسياسة العداء الطويلة مع حكام البلاد الإسلامية في الشام والجزيرة.

ومن هنا وجدت أن دراسة موضوع علاقات الدولة الخوارزمية بالقوى السياسية في بلاد الشام له أهمية بالغة لأن معظم الدراسات التاريخية الخاصة بالدولة الخوارزمية قد تركزت حول الجوانب السياسية العسكرية البارزة من تاريخ هذه الدولة بينما لا تزال بعض فترات هذه الحقبة التاريخية يكتنفها شيء من الغموض وخاصة علاقات هذه الدولة بالممالك الأيوبية في الشام والجزيرة - رغم ما تمثله من تأثير بالغ على حاضر عالمنا الإسلامي ومستقبله. إذ المعروف أن الهدف من دراسة الحوادث التاريخية ليس مجرد سردها واستذكارها، بل لكونها تؤثر سلباً وإيجاباً في حاضر الأمم والشعوب ومستقبلها.

ومن ناحية أخرى فقد جاءت أهمية دراسة هذا الموضوع كونه يجسد معليه العالم الإسلامي اليوم من اختلاف في الآراء وتفرق الكلمة مما جعله عرضه لأطماع أعدائه، فما أحوج الآمة الإسلامية في وقتنا الحاضر إلى تجنب هذه الخلافات ورأب

الصدع حتى تتمكن من الوقوف صفاً واحداً في وجه أعداء الأمة الإسلامية الذين باتوا يتربصون بها الدوائر من كل مكان متى ما لمسوا منها ضعفاً أو تفككاً.

ولهذا أحببت أن أتناول علاقات الخوارزميين بالقوى السياسية في بلاد والشام والجزيرة لأخذ العظة والعبرة من هذه الأحداث موضوع الدراسة، فالتاريخ ذاكرة الشعوب والشعوب فاقدة الذاكرة عن تأمل ماضيها هي أقل الشعوب في فهم الحاضر، وهي أعجز الشعوب عن بناء المستقبل.

فالمعروف أن السلطان جلال الدين الخوارزمي الذي كانت دولته آنذاك أقوى دول المشرق الإسلامي. قد استنفد كامل قواه في صراع مرير مع جيرانه من القوى الإسلامية وغيرها ولم يحاول التضامن معهم لدرء الخطر المغولي عن دولته خاصة ودول الإسلام عامة الأمر الذي سهل على المغول اكتساح بلدان المشرق الإسلامي الواحدة تلو الأخرى.[١]

وعلى الرغم من مقتل السلطان جلال الدين الخوارزمي بعد أن اجتاحت الجيوش المغولية بلاده فإن القوات الخوارزمية التي لجأت إلى آسيا الصغرى وبلاد الجزيرة كانت تفتقر فقط إلى من يعيد إليها تنظيمها ويوجهها الوجهة الصحيحة لحمل راية الجهاد ضد أعداء المسلمين آنذاك من المغول والصليبيين. إلا أن حكام آسيا الصغرى وبعض ملوك بني أيوب في الجزيرة والشام لم يحسنوا استخدام تلك الجموع من الجيوش الخوارزمية المدربة على مختلف فنون القتال، وإنما استخدموها في صراعاتهم مع بعضهم البعض.

وعندما فطن الملك الصالح أيوب لهذه الحقيقة وتناسى السلوك غير المحمود الذي سلكه الخوارزميون في الجزيرة والشام. بادر إلى استدعائهم لمساعدته ضد من تحالف مع الصليبيين من خصومه الأيوبيين. وبالفعل فإنه على الرغم من تحول الموقف لصالح الصليبيين في بلاد الشام منذ حملة الإمبراطور فردريك الثاني

---

(١) علي عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٤٣٧-٤٧٤.

٦٢٦هـ / ١٢٢٩م فقد أدى تحالف الخوارزميون مع الصالح أيوب إلى تعديل ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في الشام إذ تمكنت جموع الخوارزمية حين قدموا إلى بلاد الشام سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م استجابة لدعوة الصالح أيوب من استرداد بيت المقدس من الصليبيين، ومن ثم انتصر على أعدائه الصليبيين ومن حالفهم من ملوك الشام وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة في غزة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤هـ ترتب عليها مسير القوات المصرية إلى دمشق وانتزاعها بمساعدة الخوارزمية من الصالح إسماعيل وإعادة الوحدة من جديد بين مصر والشام. وكان لذلك أبعد الأثر في تحطيم قوة الصليبيين وتمهيد السبيل للمماليك بعد ذلك لاقتلاع الوجود الصليبي في بلاد الشام من جذروه[١]. وقبل ذلك تطهير بلاد الشام من الوجود المغولي. أما بالنسبة للصعوبات التي واجهتني في إعداد البحث فهي أنني لم أكن أتصور حجم المعاناة التي تواجه الباحث في مثل هذا الموضوع، حيث اقتضى الأمر أن أقوم – أولاً – بقراءة المادة المتناثرة في بطون المصادر والمراجع وهي كثيرة متنوعة ومن ثم استخراج الموضوعات ذات العلاقة بالدولة الخوارزمية وغيرها من القوى في بلاد الشام والجزيرة. على أن مكمن الصعوبة تمثل عن البحث في المخطوطات والمصادر الفارسية المترجمة، ولقد عثرت أثناء الدراسة على بعض المصادر باللغة الفارسية وكنت أتمنى أن أترجمها فهي أصيلة في فترة الدراسة ولكن حالت ظروف خاصة عن ترجمتها وضم معلوماتها القيمة إلى هذه الرسالة، أما المخطوطات فقد تمثلت صعوبة قراءتها لعدة أسباب منها عدم وضوح الخط وسقوط بعض الجمل من المخطوط كما أن القراءة من خلال جهاز العرض يمثل هو الآخر صعوبة إضافية.

ومن هذا المنطلق كان للبحث أهداف لعل من أهمها : –

١– الإستفادة من الحوادث التاريخية الإسلامية في الوقت الحاضر كما بينت سابقاً.

---

(١) علي عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٤٧٥.

٢–إلقاء الضوء على جانب من جوانب الصراع بين الدويلات الإسلامية في تلك الفترة.

٣–أن الضربات القوية التي وجهت إلى الأمة الإسلامية إنما وجهت إليها من داخلها.

٤– أنه بقدر ما تبتعد الأمة عن المنهج الرباني يصيبها الضعف والخور والتفكك والانقسام لأن الأمة تناست الوحدة الإسلامية.

ولقد كانت الخطة التي سرت عليها في إبراز هذه الأهداف هي أنني لم آخذ بكل ما قاله المؤرخون كقضايا مسلمة مع احترام آراء السابقين والمحدثين وتقديرها ولكن قمت بمحاولة تحليل الحدث ومناقشته واستقراء المادة التاريخية والتوصل إلى كثير من النتائج التي أرجو أن أكون قد وفقت في إبرازها.

وقد احتوت الرسالة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وبعض الملاحق واقتصرت المقدمة على ذكر سبب اختيار الموضوع ودراسة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في البحث.

وناقش التمهيد أحوال كل من الدولة الخوارزمية والأيوبية قبيل موضوع الدراسة، فأعطى صورة موجزة عن الأدوار التي مرت بها كلتا الدولتين ومن ثم الأسباب التي هيئت لقيام علاقات بينها فيما بعد.

أما الفصل الأول وعنوانه " العلاقات بين السلطان جلال الدين الخوارزمي والأيوبيين في الشام والجزيرة " ( ٦٢٤هـ – ٦٢٨هـ ) فهو يحتوى على أربعة مباحث، تناول المبحث الأول تحالف المعظم عيسى ملك دمشق مع جلال الدين الخوارزمي، وبين الأسباب التي دفعت المعظم عيسى إلى ذلك، كما أن جلال الدين الخوارزمي كان هو الآخر حريصاً على إجراء مثل هذا التحالف للهجوم على الخلافة العباسية التي كان يعتقد أنها السبب في هلاك أبيه ودخول المغول إلى بلادهم، وأشار المبحث كذلك إلى ما قام به الملك الكامل صاحب مصر من الاستنجاد بالإمبراطور فردريك الثاني ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م للوقوف في وجه أخيه المعظم عيسى وحليفه

جلال الدين، وتطرق المبحث إلى الخطة التي أعدها المعظم عيسى للسيطرة على بلاد الشام، وختم هذا المبحث بوفاة المعظم عيسى الحليف الأول للخوارزميين في هذه المنطقة.

أما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد أشار إلى استيلاء جلال الدين على خلاط وما صاحب ذلك من تدخل الخلافة العباسية للتوسط في رفع الحصار عنها، في الوقت الذي كان الأشرف موسى والكامل محمد يتآمران على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، وتطرق المبحث كذلك إلى وصول الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني وتسلمه لبيت المقدس من قبل الملك الكامل صاحب مصر، وناقش المبحث كذلك بعض الآراء التي بررت لجلال الدين ما أحدثه هو وجيشه في خلاط من قتل ونهب وتدمير وسلب وغيرها.

وألقى المبحث الثالث الضوء على التحالف السلجوقي الأيوبي ضد جلال الدين وما ترتب على ذلك من أضعاف لقوته. فقد خاف كل من السلاجقة وملوك بني أيوب من زحف جلال الدين على بلادهم خاصة بعد ما بلغهم عن الهجوم المدمر على مدينة خلاط الأيوبية، فبادروا بإعداد العدة وتجهيز الجيوش لإيقافه عند حده، وفعلاً دارت بين الطرفين معركة كبيرة انتهت بهزيمة جلال الدين وتفرق جيشه.

وعالج المبحث الرابع والأخير تجدد الخطر المغولي على الدولة الخوارزمية، ومحاولات جلال الدين المستميتة لإقناع حكام المسلمين بخطورة المغول وحثهم على توحيد الصف الإسلامي للتصدي لهذا الخطر، إلا أن محاولاته باءت بالفشل نتيجة لسياسة العداء التي اتبعها مع حكام المسلمين، وأشار المبحث كذلك إلى مطاردة المغول لجلال الدين وتفرق أتباعه ونهايته.

وتناول الفصل الثاني " علاقات الخوارزميين بالقوى الإسلامية ببلاد الجزيرة والشام بعد مقتل جلال الدين " (٦٢٨-٦٣٨هـ) وهو ينقسم بدوره إلى أربعة مباحث. تتبع المبحث الأول تفرق الخوارزميين بعد مقتل زعيمهم جلال الدين في بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى والعراق، وظلوا في هذه البلاد كجنود مرتزقة يعرضون

خدماتهم على من يمدهم بالمال والمتاع، وشرح المبحث كذلك الصراع المتجدد بين ملوك بني أيوب الأمر الذي هيأ الفرصة لتدخل الخوارزمية بينهم.

وعالج المبحث الثاني بداية علاقة الصالح أيوب بالخوارزميين واستخدامهم في الجيش إلا أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا عليه بعد وفاة أبيه الكامل وطمعوا فيه، وكاد الصالح أيوب يقع فريسة لهم ولغيرهم، ولكنه استطاع أن يستميلهم إليه مرة أخرى، فرجع إلى مكانته السابقة وانطلق بهم ودخل دمشق سنة ٦٣٦هـ، وأشار المبحث كذلك إلى ما قام به المظفر صاحب حماه من تحريض الخوارزمية للهجوم على حمص إلا أن صاحبها تمكن من استمالتهم بمال كثير فصرفهم عن مدينته.

أما المبحث الثالث فقد أعطى صورة مفصلة عن احتدام الصراع بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل. فقد تمكن الصالح إسماعيل من التحايل على ابن أخيه الصالح أيوب حتى استولى على دمشق، الأمر الذي أدى إلى تفرق أتباع الصالح أيوب وبقائه في قلة من أصحابه معرضاً للوقوع في قبضة كل من أخيه العادل صاحب مصر وعمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق. ثم دخل في جوار الناصر داود الذي استنجد به لمساندته.

وبين المبحث الرابع انشغال ملوك المسلمين بالصراع فيما بينهم وترك بيت المقدس في يد الصليبيين منذ الحملة الصليبية السادسة، إلا أن الله سبحانه وتعالى سخر الناصر داود لتطهير هذا البلد المقدس من يد الصليبيين، وأشار المبحث إلى الطريقة التي تم بها هذا الفتح المبارك.

أما الفصل الثالث وعنوانه " موقف الخوارزميين من الخلافات المتجددة بين ملوك بني أيوب " ( ٦٣٨-٦٤١هـ) فهو الآخر يتكون من أربعة مباحث، كشف المبحث الأول خطورة الوجود الخوارزمي في بلاد الشام فقد قاموا بشن غارات مدمرة على البلدان الإسلامية، إلا أن اتحاد مملكة حلب مع مملكة حمص أتاح لهما فرصة هزيمة الخوارزميين عند الرها سنة ٦٣٨هـ.

وبين لنا المبحث الثاني خطورة الأطماع الشخصية فبدلاً من أن يتحد ملـوك بنى أيوب في وجه الصليبيين المجاورين لهم، وبدلاً من أن يرفعوا راية الإسـلام والجهـاد لإنقاذ بلاد المسلمين من التحدي الصليبي المتربص بهم بدلاً من هـذا نجـد الصـالح إسماعيل يسعى إلى التحالف مع الصليبيين ضد ابن أخيه الصالح أيوب.

وعالج المبحث الثالث تجدد الخطر الخوارزمي على بلاد الشام واثر ذلـك على زيادة تمزق الصف الإسلامي فقد وضح هذا المبحث حقيقة الأطماع الخوارزمية إذ لم يرضوا بما عرضه عليهم سلطان الروم من اقطاعـات فـي بـلاده مقـابل الكـف عـن أعمالهم العدوانية – نتيجة لإختـلا سياسـة كيخسـرو الثاني عـن سياسـة أبيـه– ، بـل واصلوا أعمال السلب والنهب بالتعاون مع كل من صـاحبي ميافـارقين وآمـد، إلا أن المنصور صاحب حمص تمكن من إنزال الهزيمة بالخوارزميين ومن معهم، كمـا بيـن المبحث سبب الوساطة التي عرضها صاحب الروم على الأطراف المتصارعة.

وشرح المبحث الرابع والأخير من هذا الفصل حقيقة التحالف بين الصالح أيـوب والخوارزميين، فقد تناسى الصالح أيوب الأعمال السـابقة للخوارزميـة وأرسـل إليهـم يطلب منهم مساعدته ضد خصومة في بلاد الشام وأغراهم ومناهم بالعطايا.

وأوضح الفصل الرابع وعنوانه " الخوارزميون واسترداد بيت المقدس " (٦٤١- ٦٤٢هـ) موقف المسلمين من هذه البقعة المقدسة وهو ينقسم إلى ثلاثة مباحث، بين المبحث الأول تلاعـب ملـوك بنى أيـوب بمقدسـات المسلمين حيـث قـام الصـالح إسـماعيل وبعـض حكـام بنى أيـوب بتسـليم بيـت المقـدس للصليبييـن مقـابل أن يساعدوهم في قتال الصـالح أيـوب، فـأوقفوا بذلـك حركـة المقاومة والجهـاد ضـد الصليبيين ومكنوا لهم في بلاد المسلمين الأمر الذي كان له اكبر الأثر في تأخر جلاء الصليبيين عن البلاد الإسلامية.

وابرز المبحث الثاني الجوانب الإيجابية للخوارزمية فقد قاموا بعمل جليـل تمثـل في استعادتهم لبيت المقدس وتطهيره من دنس الصليبيين سـنة ٦٤٢هـ، وبقـى بيـت المقدس بعد ذلك بأيدي المسلمين حتى العصر الحديث.

وعزز المبحث الثالث بعض الجوانب الإيجابية للخوارزمية في تاريخهم فقد قاموا بإنزال هزيمة ساحقة بالصليبيين وحلفائهم من المسلمين، حيث أُسر في هذه المعركة ثمانمائة أسير من الصليبيين وقتل منهم ما يقرب من ثلاثين ألفا، فكانت بذلك أعظم كارثة تحل بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ، حتى أن سبط ابن الجوزى[١] ذكر أنه لم يجر مثلها لا في زمان نور الدين ولا صلاح الدين، وأطلق البعض الآخر على هذه الموقعة اسم حطين الثانية، وعلى الرغم مما في هذا القول من المبالغة إلا أنه يشير إلى عظمة النصر وقوته.

أما الفصل الخامس والأخير وعنوانه " العلاقات بين الصالح أيوب والخوارزمية (٦٤٣هـ -٦٤٥هـ) فقد ناقش تطور العلاقة بينهم وهو ينقسم أيضاً إلى أربعة مباحث صور لنا المبحث الأول استمرار العلاقة بين الصالح أيوب والخوارزمية حيث قاموا بمساندته في حصار دمشق وانتزاعها من عمه الصالح إسماعيل وصور لنا المبحث أيضاً ما لقيه أهل دمشق من الضيق والشدة بسبب الحصار المضروب حولهم.

وكشف لنا المبحث الثاني النقاب عن أطماع الخوارزمية، فقد ظنوا أنهم قد استحقوا بخدماتهم تلك أن يقاسمهم الصالح أيوب البلاد ويمكنهم من الاستيلاء على أكثرها بالإضافة إلى منحهم بعض الإقطاعات بالديار المصرية، وبما أنه لم يتحقق لهم شئ من ذلك، فقد قاموا بالخروج على الصالح أيوب، وهجموا على إحدى القرى ونهبوها، ثم بدءوا يكونون حلفاً ضد الصالح أيوب، وفعلاً نجحوا في استقطاب كل من الناصر داود والصالح إسماعيل، وتوجهوا إلى دمشق وفرضوا عليها حصاراً شديداً، حرم المدينة من جميع الإمدادات، وقاسى السكان من ذلك ولقوا من العنت والضيق والغلاء والجوع والوباء مالا يوصف.

واستعرض المبحث الثالث موقف الصالح أيوب من حلفائه الخوارزميين الذين انقلبوا عليه ومن انضم إليه من ملوك بني أيوب، فقد عمد الصالح أيوب إلى

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٦.

استقطاب المنصور إبراهيم صاحب حمص والحلبيين وجعلهم في صفه، وكون بذلك حلفاً جديداً تمكن بواسطته من الانتصار على الخوارزمية ومن انضم إليهم سنة ٦٤٤هـ، وكانت قاصمة الظهر بالنسبة لهم حيث تبدد شملهم وتفرقوا في إنحاء الشام والجزيرة وألقى المبحث الرابع والأخير الضوء على طبيعة الدور الخوارزمي في بلاد الجزيرة والشام واثر ذلك على قيام الحملة الصليبية السابعة.

وأخيراً تضمنت الرسالة خاتمة تبين أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، ومجموعة من الملاحق تشتمل على بعض النصوص والخرائط والوثائق الهامة المتعلقة بموضوع البحث.

## - عرض لأهم مصادر البحث : -

ولقد اعتمدت في بحثي هذا على كثير في المصادر والمراجع وكان من يمن الطالع أن جزءاً كبيراً منها كان معاصراً لأحداث تلك الفترة فأمد البحث بمادة علمية جيدة عنها، وبعضها كان قريب العهد منها فكان شارحاً ومكملاً لبعض جوانب النقص في المصادر السابقة وأتاح له عدم المعاصرة حرية النقد لبعض جوانبها، كما اعتمدت على عدد لا بأس به من المراجع العربية الحديثة التي ألقت الضوء على بعض الجوانب الهامة واستفدت من آراء كتابها في كثير منها كما قمت بمناقشة بعضها والرد عليها، وسأقتصر في هذا العرض على دراسة وبحث أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها.

فمن المصادر الأصيلة التي اعتمد عليها البحث كتاب **الكامل في التاريخ** لمؤلفه عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبدالكريم لشيباني الجزرى المشهور بابن الأثير (٥٥٥-٦٣٠هـ) وهو أوسط ثلاثة أخوه يحملون هذا اللقب وعرفوا جميعاً بالعلم والفضل فقد نبغوا في ميادين الدراسات العربية والإسلامية. وقد كان ابن الأثير صاحب الكامل وهو أوسطهم حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم ولذا كان أكثر ما اشتهر به دراسة التاريخ. ويعتبر

كتابه الكامل أهم مؤلفاته في هذا المجال إذ تناول فيه دراسة التاريخ العام للعالم الإسلامي ابتداء من بدء الخليقة وانتهاء بحوادث سنة ٦٢٨هـ. ويعتبر كتابه من أهم مؤلفات التاريخ الإسلامي والتزم المؤلف في منهجه التوازن بين أقاليم العالم الإسلامي ومقارنة ما يقع من الأحداث في كل منها عام بعد عام، واعتمد على المتخصصين في تاريخ كل إقليم. ولكتاب ابن الأثير ابتداء من الجزء التاسع أهمية خاصة للبحث نظراً لأنه يؤرخ لأحداث قريبة العهد من زمنه سمع بها وشارك فيها[(١)].

ويعتبر الجزء التاسع من كتاب الكامل العمود الفقري للفصل الأول من البحث، فلقد وردت فيه معلومات غزيرة ومفصلة عن بداية ظهور المغول وبداية العلاقات بين جلال الدين الخوارزمي والملك المعظم عيسى، وتتميز روايات ابن الأثير بالتفاصيل الدقيقة التي تصور كل جوانب الحدث التاريخي.

كما أفاد البحث في توضيح العلاقات بين أبناء السلطان العادل وما ترتب على ذلك من استعانة المعظم عيسى بجلال الدين الخوارزمي، كما تطرق إلى محاولة جلال الدين لتهديد الخلافة العباسية، وأمدنا بمعلومات قيمة عن حصار جلال الدين لخلاط وسقوطها بيده وما أحدثه هو وجيشه فيها من القتل والنهب والتخريب وما ترتب على ذلك من إحداث الرعب في قلوب بعض الممالك المجاورة له وبالأخص الأيوبيين والسلاجقة الأمر الذي دعاهم إلى توحيد صفوفهم والتصدي لجلال الدين وهزيمته هزيمة منكرة سنة ٦٢٧هـ وألقى الضوء كذلك على المحاولات المستميتة لجلال الدين الخوارزمي في توحيد صفوف المسلمين ومجابهة الخطر المغولي القادم من الشرق وهيهات له أن يفلح في ذلك وكانت نهايته سنة ٦٢٨هـ.

أما المصدر الثاني الذي اعتمدت عليه اعتماداً كبيراً في الفصل الأول فهو كتاب " **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي**" وهو مؤلف في جزء واحد لمؤلفه محمد بن على النسوى المتوفى سنة ٦٤٧هـ ولد ونشأ بقلعة " خرندز" وهي قلعة من

---

(١) يسرى عبدالغنى عبدالله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثانى عشر الهجرى،ص ٣٦.

قلاع خراسان، التحق بخدمة جلال الدين بعد أن عاد إلى بلاده من منفاه في بلاد الهند، فعهد إليه بوظيفة كاتب الإنشاء ثم ولاه منصب الوزارة في مدينة نسا، ومع ذلك ظل ملازماً لجلال الدين في جميع سفراته وغزواته حتى آخر أيامه.

ويعد كتاب النسوى " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى " ذا أهمية بالغة كمصدر لمؤلف معاصر عاش في كنف من أرخ لهم، ومما يجعلنا نطمئن إلى كتاباته أنه ألفه بعد وفاة سيده جلال الدين بعشر سنين، ونقل ذلك من مذكرات خاصة به إلا أنه لم يتبع الطريقة التي سلكها ابن الأثير وغيره من المؤرخين من حيث سرد الحوادث التاريخية وتدوينها حسب ترتيبها الزمني بل نجده يعمد إلى معالجة الموضوعات التي أهتم بالكتابة عنها دون أن يتقيد بترتيبها ترتيباً زمنياً [١].

وقد أفاد البحث من كتاب النسوى في كل ما يتعلق بجلال الدين منكبرتى فهو يعد سجلاً ثميناً للمعارك التي خاضها ضد المغول، وخاصة معركة اصفهان، ثم حروبه المتواصلة وغزواته داخل الأراضي الكرجية حيث وفق في حروبه معهم الأمر الذي أكسبه سمعة طيبة ثم بين بالتفصيل الحروب التي خاضها جلال الدين الخوارزمي مع الحكام المسلمين والخليفة العباسى في بغداد وبنى أيوب في الشام والجزيرة والسلاجقة في آسيا الصغرى الأمر الذي أدى إلى مصرعه في نهاية الأمر بعد مطاردة المغول له وما ترتب على ذلك من تغيير لميزان القوى في المنطقة.

ومن مصادر البحث القيمة كتاب " **التاريخ المنصورى** " لمؤلفه (أبو الفضائل محمد بن على بن نظيف الحموي المتوفى بعد سنة ٦٣١هـ). وهو من طبقة الكتاب الكبار كان كاتباً للملك الحافظ الأيوبي صاحب قلعة جعبر، ويبدو أن ابن نظيف عمل في وضع تاريخ عام كبير سماه " الكشف والبيان في حوادث الزمان" لم يكتب له الانتشار لأنه في عداد المخطوطات المفقودة، والذي يعرف من كتبه التاريخية كتابه المختصر الذي سماه كما سبق ذكره " التاريخ المنصورى". الذي يكشف عن

---

(١) انظر النسوى، مقدمة المحقق، ص ٢٤-٢٦.

حوادث عصره كشاهد عيان أتيح له أن يشارك في بعض تلك الحوادث ويتضح منهجه في ذكره لكثير من الأحداث التي أهملها المؤرخون وسكتوا عنها تماماً أو اكتفوا بالإشارة إليها دون الوقوف عندها طويلاً فأورد تفاصيل قيمة عن حوادث القرنين السادس والسابع الهجريين يتعذر على الباحث أن يعثر على نظيرها في المؤلفات التاريخية الأخرى.[١]

وقد استفاد البحث من كتاب التاريخ المنصورى باعتباره من المصادر المهمة في تاريخ الدولة الأيوبية. إذ عرض فيه وصفاً واضحاً لما كان لها من العلاقات المختلفة مع البلدان المجاورة لها. وتحدث عن الصراع الذي نشب بين ملوك هذه الدولة وكاد أن يقضى عليها. كما انفرد ابن نظيف بمعلومات جيدة عن غارات المغول الأولى على بلاد الجزيرة.

ومن أهم المصادر لموضوع البحث كتاب " **زبدة الحلب من تاريخ حلب** " لمؤلفه ( أبوالقاسم كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله، من بنى جراده العقيلي والمعروف بابن العديم ولد سنة ٥٨٨هـ وتوفى سنة ٦٦٠هـ وهو ينتسب إلى أسرة عريقة في حلب اشتغلت بالعلم والفقه والقضاء والأدب والشعر على مدى قرنين من الزمان، وقد نشأ ابن العديم في مدينة حلب وتعلم فيها على يد مجموعة كبيرة من العلماء، ورافق أبيه في بعض رحلاته إلى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز وجالس العلماء وأخذ منهم.[٢]

وتعد كتابات ابن العديم ثروة تاريخية هامة خاصة فيما يتعلق ببلدة حلب فهو مؤرخ إقليمي، وأشهر مؤلفاته في ذلك كتاب " بغية الطلب في تاريخ حلب " وكتاب " زبدة الحلب من تاريخ حلب ". ويشتمل كتاب بغية الطلب على تراجم لاعيان

---

(١) انظر ابن نظيف الحموى، مقدمة المحقق ص ٥-٦.

(٢) شاكر مصطفى، التاريخ العربى والمؤرخون، ج٢، ص ٢٦٣، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٧.

حلب ولكل من دخلها واتصل بها من الاعيان والساسة والقادة والعلماء والفقهاء والقضاة وغيرهم. ويقع هذا الكتاب في نحو أربعين مجلداً ضاع معظمها ولم يبق منها سوى عشر مجلدات ولم يفد البحث من هذا الكتاب كثيراً. على أن الفائدة الحقيقية لهذا البحث كان من كتاب " زبدة الحلب من تاريخ حلب" وهو الذي انتزعه ابن العديم من كتابه الكبير البغية ولكن اختلف منهجه فأرخ فيها لأحداث مدينته ويتبع السنين فيه أحياناً وقد نشر هذا الكتاب في ثلاث مجلدات.[١]

ولقد أفاد البحث من كتاب زبدة الحلب الجزء الثالث الشيء الكثير إذ كان مؤلفه من المعاصرين لتلك الفترة حيث ألقى الضوء على علاقات الأيوبيين والخوارزميين في الفترة ما بين سنة ٦٢٨هـ إلى سنة ٦٤١هـ، كما قدم تفاصيل دقيقة عن الحروب الجانبية بين الحلبيين والصليبيين من ناحية والخوارزميين من ناحية أخرى، قلما توجد في المصادر الأخرى. وقد انفرد ابن العديم بروايات جديدة عن خطر الخوارزميين ودخولهم لأول مرة إلى بلاد الشام واثر ذلك على زيادة تفتيت طاقات الأمة الإسلامية وقدراتها العسكرية والاقتصادية. والتزم ابن العديم الإنصاف في كل ما أورده من حقائق عن المسلمين بفضائلهم وعيوبهم وعن الصليبيين في كل ما قاموا به من أعمال.[٢]

ومن المصادر المعاصرة لموضوع البحث والذي لا يقل أهمية عن كتاب زبدة الحلب لأبن العديم، ما كتبه المؤرخ أبوالمظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلى البغدادي سبط الحافظ ابن الجوزى، ولد ببغداد سنة ٥٨٢هـ وقام جده على تربيته وتعليمه، ثم رحل في طلب العلم حتى استقر به المقام في دمشق فصار يمارس مهنة التدريس والخطابة حتى توفي بها سنة ٦٥٤هـ. وقد حظي بمنزلة عالية عند ملوك بنى أيوب.

---

(١) يسرى عبدالغنى عبدالله، معجم المؤرخين المسلمين، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٨.

ومن أهم مؤلفاته في التاريخ " **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**" وهو تاريخ عام وقد نظم على أساس حولي ولكن ذكرت فيه التراجم والوفيات في أعقاب الحوادث سنة بعد سنة وتتفاوت قيمته العلمية تبعاً لتباين موضوعاته وموارده فيها. إلا أن أهميته العلمية تبرز بشكل واضح في أخبار النصف الأول من القرن السابع الهجري وهي الفترة التي عاصرها كشاهد عيان.[(١)]

وقد أمدنا الجزء الثامن من كتاب " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " بمعلومات في غاية الأهمية عن حملة الإمبراطور فردريك الثاني ودخوله إلى بيت المقدس وموقفه من المسلمين كما كان له دور في إبراز العلاقة بين أبناء السلطان العادل والحرب الأهلية التي نشبت بينهم، وأعطى صورة مفصلة عن موقعه غزة سنة ٦٤٢هـ حيث ذكر أنه شاهد بنفسه كثرة القتلى فقال " ولقد أصبحت ثاني يوم الكسرة إلى غزة فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب فقالوا هم زيادة على ثلاثين ألفا"[(٢)] ومن المصادر المعاصرة لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ الكبير ابن واصل الحموي وهو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصرالله ابن واصل المازنى التميمى الحموي الشافعي، يعد من كبار مؤرخي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. ولد بحماه السورية سنة ٦٠٤هـ وتلقى بها علومه الأولى ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب وبيت المقدس والكرك والقاهرة وبغداد ومكة والمدينة، ونبغ وصنف في علوم كثير مثل المنطق والهندسة وأصول الدين والفقه الإسلامي وعلم الهيئة والتاريخ، وأقام بمصر مدة طويلة وعاصرا الحملات الصليبية المتأخرة وسقوط الدولة الأيوبية والخوارزمية وقيام دولة المماليك وغزوات المغول وسقوط الخلافة العباسية.[(٣)]

---

(١) شاكر مضطفى، التاريخ العربي و المؤرخون، ج٢، ص ٢٦١.

(٢) ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٦.

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ج١، مقدمة المحقق، ص ٤.

وعلى الرغم من اعتماد ابن واصل على روايات المؤرخين السابقين وانتهاج طريقهم في التأليف والتاريخ بالتزام نظام الحوليات، فإن ما يورده من رسائل ووثائق ووصف لما كانت عليه أحوال الصليبيين وأحوال العالم الإسلامي في عصره يعطي صورة واضحة لدارس التاريخ في هذه الفترة، يضاف إلى ذلك أن بعض ما أشار إليه من تقسيم دولة صلاح الدين وما تعرضت له وحدة العالم الإسلامي من التفكك، وما كان للصليبيين من أغراض تجارية، كل ذلك يجعل لكتاب ابن واصل أهمية بالغة في دراسة العلاقات بين الشرق والغرب، والإحاطة بما يجرى من أحداث في البلاد المجاورة.

ولقد أفاد البحث من مؤلفات ابن واصل ومنها كتاب " **التاريخ الصالحي** " وهو تاريخ عام على طريقة الحوليات كتبه المؤلف في مجلد واحد يشمل على ٢٤١ ورقة وأهداه للسلطان الصالح أيوب بعد أن أسماه باسمه[١] والكتاب لا يزال مخطوطاً إلى الآن وأفاد البحث بمعلومات قيمة عن الصراع الذي نشب بين ملوك بني أيوب. عن علاقة الصالح أيوب بالخوارزمية وغيرهم من ملوك بني أيوب، كما ألقى أضواء جديدة على الحالة التي وصلت إليها الدولة الأيوبية في تلك الفترة.

أما كتابة الآخر " **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب** " وهو يقع في خمسة أجزاء فيعد أهم مصادر البحث لأنه غطى معظم الفترة التي تناولتها الدراسة، وقد أفاد البحث منه كثيراً في معظم فصوله خاصة بالجزأين الرابع والخامس نظراً للمعلومات القيمة التي أوردها بالإضافة إلى كونه معاصراً للأحداث التي كتب عنها، إذ هيأت له صلاته بالصالح أيوب وملوك حماه، وصداقته للناصر داود ابن المعظم وبعض رجال الدولة الأيوبية، أن يطلع على الكثير من أسرار السياسة وأسباب الصراع الذي مزق وحدة الدولة الأيوبية.

---

(١) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٩.

وكان لكتب التراجم أهمية خاصة أفاد البحث منها كثيراً ومن ضمنها كتاب " **تراجم رجال القرنيين السادس والسابع** " ومؤلفه المؤرخ شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، (٥٩٩هـ - ٦٦٥هـ) ويعتبر من كبار الفقهاء والمحدثين في عصره إذ كان متفوقاً في علوم النحو والعربية إضافة إلى مؤلفاته التاريخية القيمة.[١]

وجاءت أهمية كتاب أبي شامة السابق والمعروف أيضاً ب" **ذيل الروضتين** " كونه معاصراً للحوادث التي كتب عنها وخاصة ما يتعلق بالفصول الأخيرة من هذه الرسالة وقد أفاد البحث منه كثيراً فيما يتعلق بأحوال بلاد الشام والصراع الدائر بين ملوك المسلمين.

وهناك مصنفات قيمة في تراجم الرجال اعتمدت عليها ولضيق المقام ذكرت كتاب أبى شامة كنموذج لها وفي الحاشية غناء عن ذكرها مفصلة واستفاد البحث كثيراً من كتاب " **معجم البلدان** " لمؤلفه ياقوت بن عبدالله الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ، إذ كان المصدر الأساس للتعريف بالبلدان والقلاع والقرى والحصون التي تناولها البحث.

كما أفاد البحث من مصادر أخرى قيمه مخطوطة ومطبوعة لا تقل أهمية أحياناً عما سبق ذكره إلا أن المجال لا يتسع إلى بسطها في هذا المقام ونكتفي بتسجيلها في هامش الرسالة ولا ننسى في نهاية هذه الدراسة الفائدة الكبيرة التي قدمتها بعض المراجع الحديثة للبحث وعلى رأسها كتاب جميعاً كتاب " بلاد الشام قبيل الغزو المغولي " لمؤلفه على عودة الغامدى، حيث أفدت من هذا الكتاب في معظم الفصول المتصلة بعلاقات الخوارزميين بالقوى في بلاد الشام، وكتاب " تاريخ الدولة الخوارزمية " لنافع العبود وكتاب التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية " لعفاف صبرة "وكتاب " الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي" لفايد حماد محمد عاشور ، وكتب أخرى مثبتة

---

(١) الذهبي، العبر، ج٣، ص ٣١٣، شاكر مصطفى، التاريخ العربى والمؤرخون، ج٢،٢٦٦.

في قائمة المراجع. ولقد استفدت من هذه المراجع فائدة كثيرة فهي دراسات قيمة ينبغي أن لا نغفل جهود مؤلفيها فلقد عبروا دروب البحث ومهدوها لنا بآرائهم السديدة وتوجيهاتهم النيرة.

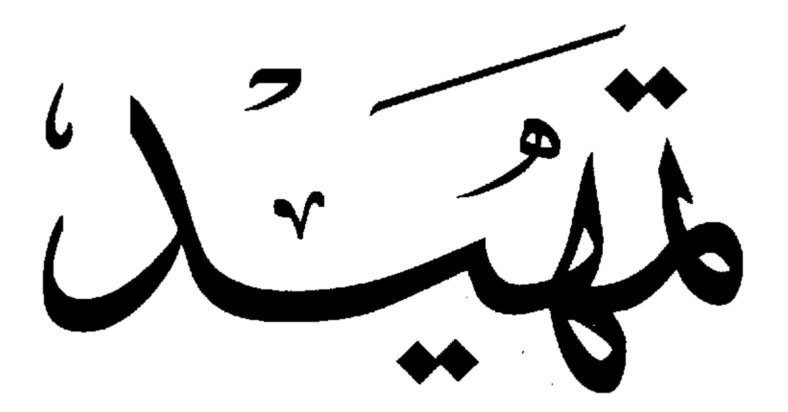
كما لايفوتنى أن أتقدم بخالص شكري إلى كلية الشريعة ممثلة في عميدها الدكتور محمد بن صامل السلمي وشكري للأساتذة الكرام على طول مراحل الدراسة.

وإذا كان الفضل ينسب لأهله فلن أنسى في هذا المقام أستاذي الفاضلين الدكتور عبدالله الغامدى الذي كان بمثابة الأخ حيث فتح لي قلبه ومكتبه والدكتور مسفر الغامدى وأشكر الأستاذ الكبير المشرف على البحث الدكتور محمد المنسي الذي تحمل مسئولية هذا العمل العلمي، وبذل كل ما في وسعه لإخراجه بالصورة العلمية المناسبة فله منى جزيل الشكر وخالص الامتنان، وأسأل الله أن يثيبه على ما بذل من جهد ونصيحة وتوجيه، واتقدم بالشكر كذلك إلى لجنة المناقشة التي تكرمت بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة فجزاهم الله عنى خير الجزاء، وستكون ملاحظاتهما وتوجيهاتهما نبراساً يضاف إلى الجهود التي تثرى هذه الرسالة. واشكر أيضاً الأخوة الزملاء على ما بذلوه من نصح وتشجيع وإعارة لبعض المصادر والمراجع.

والله أسأل أن أكون بهذا البحث قد وفقت في إبراز الهدف الذي قصدته من الاستفادة من أحداث التاريخ وأخذ العظة منها وأن يثيبني على ما قدمت وبذلت من جهد في إخراجه وظني أنى حققت الغاية، وإن كانت الأخرى فحسبي أن قد بذلت الجهد، ولقد علمنا رسولنا الكريم ﷺ أن من أجتهد فأصاب فله أجران ومن أجتهد فأخطأ فله أجر. وحسبي أن الكمال لله وحده والنقص من لوازم البشر. والحمد لله أولاً وآخراً.

الطالب

عابد بن عبدالرزاق بن عبدالله الغريبي


تمهيد

# موجز عن أوضاع الدولة الخوارزمية والممالك الأيوبية قبيل موضوع الدراسة

تعرض المشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، لخطر الحملات الصليبية، التي خرجت من الغرب الأوربي على شكل جموع كثيفة تحمل على أكتافها شعار الصليب، واستطاعت أن تقيم لها ثلاث إمارات ومملكة صليبية في قلب العالم الإسلامي، ومن هذا الموقع الهام، اخذ الصليبيون يعملون على مد نفوذهم وسيطرتهم تارة على أطراف العراق، وطوراً إلى الأرض المصرية والسواحل الغربية من الجزيرة العربية بهدف تهديد الأماكن المقدسة في الحجاز، مستغلين ما حل بالمسلمين من ضعف وتفكك وانقسام جراء صراعات سياسية ومذهبية مقيتة، أدت إلى ابتعادهم عن أداء واجب الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام. على أن الموقف لم يلبث أن تبدل عندما ظهر على مسرح الحوادث زعماء أفذاذ كان على رأسهم عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود[١] وصلاح الدين[٢]، عملوا على تجديد الدعوة إلى أحياء حركة الجهاد في النفوس ومن ثم تكوين جبهة إسلامية متحدة مكنت المسلمين من التصدي لأعدائهم الذين تربصوا بهم الدوائر من كل مكان.

فها هو صلاح الدين الأيوبي يواصل السياسة الرشيدة لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين في رفع راية الجهاد، فقد " كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهما إلا

---

(١) لمعرفة جهاد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين في هذا المجال، انظر محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، مسفر الغامدى، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، حسن حبش، نور الدين محمود والصليبيون، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٢٣-٢٤، سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٣٥٥.

(٢) لمعرفة جهود صلاح الدين في هذا المجال انظر، سعيد عاشور، الناصر صلاح الدين، عبدالله الغامدى، صلاح الدين والصليبيون.

في الجهاد أو في الارفاد لصدق وبر بيمينه".[١]

ولقد أدرك صلاح الدين الأيوبي – استكمالاً لجهود عماد الدين ونور الدين محمود– أنه لايمكن القضاء على الوجود الصليبي في بلاد الشام إلا بتكوين جبهة إسلامية موحدة وهو ماتحقق بالفعل على يده فأصبح يحكم دولة موحدة امتدت من الفرات شرقاً إلى برقة غرباً ومن جبال طوروس شمالاً إلى خليج عدن جنوباً.[٢]

وما إن وصلت الأنباء إلى صلاح الدين باغارة ارناط صاحب حصن الكرك[٣] على سواحل الحجاز وقطعة طريق الحجاج، حتى سارع صلاح الدين بالهجوم على الإمارات الصليبية، وهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة في موقعة حطين الشهيرة سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م[٤] ثم اخذ يلاحق الصليبيين من مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى عسقلان[٥] فرغب في أن يتوج هذه الانتصارات باسترداد بيت المقدس من براثن الصليبيين وفعلاً تحرك صلاح الدين صوب بيت المقدس، وشدد الحصار على المدينة، حتى طلب الصليبيون الصلح منه بعد أن اشرفوا على الهلاك، وتعهدوا بأن يسلموا بيت المقدس إلى صلاح على أن يخرجوا منها بأموالهم وأولادهم مقابل فدية

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢١.

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٥١، عبدالله الغامدى، صلاح الدين والصليبيون، ص١٥٧، السيد الباز العرينى، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص ٥٩-٧١.

(٣) الكرك: حصن على مرتفع تحيط به أودية إلا من جهة الربض وقد حصنه فولك (Falk) صاحب بيت المقدس حوالى سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م شرق البحر الميت ليكون قوة لبيت المقدس، انظر ياقوت، معجم البلدان، ابوشامة كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص ٥٢٦.

(٤) المقدسى، الروضتين في اخبار الدولتين، ج٢، ص ٨٠-٨١، العماد الاصفهانى، سنا البرق الشامى، ص ٣٠٩-٣١٢، عبدالله الغامدى، المرجع السابق، ص ١٥٥-١٩٧، عبدالله ناصح علوان، صلاح الدين بطل حطين ومحرر بيت المقدس.

(٥) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

**يدفعونها، ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧رجب سنة ٥٨٣هـ ١٢ أكتوبر ١١٨٧م وطهره من دنس الصليبيين.[١]**

**وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١١٩٣م، لم يستطع أبناؤه وإخوته أن يملؤا الفراغ الذي ترتب على رحيله، بل دب النزاع ونشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي. وهكذا ترك صلاح الدين، خلفه دولة عظيمة مترامية الأطراف، وفراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه أو إخوته أن يملأه.[٢]**

**ومن هنا بدأ كيان الوحدة يتصدع، بعد أن بذل صلاح الدين ومن معه من المسلمين الغالي والنفيس في سبيل إعادة هذه الوحدة، والتصدي للخطر القادم من قبل الصليبيين، يقول ابن كثير " ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف في جميع الممالك".[٣]**

**وعلى أية حال فقد تقاسم أبناؤه وأخوته هذه المملكة الشاسعة، فقد استقر بدمشق وبلادها المنسوبة إليها، ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين على بعهد من أبيه، في حين احتفظ ولده الملك العزيز عثمان بمصر، وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها، وكان بحماه محمد بن تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب، وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه، وكان العادل أخو صلاح الدين بديار بكر والشوبك والبلاد الشرقية[٤]، هذا بالإضافة إلى اقطاعات**

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٨١-٨٢، العماد الاصفهاني، سنا البرق الشامي، ص ٣٠٩-٣١٢، أبوشامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص ٩٤-٩٦، بسام العسلي، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ص ١٢٦-١٣٢، عبدالله الغامدي، صلاح الدين والصليبيون، ص ١٩٩-٢٢٥.

(٢) سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ٦٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٧.

(٤) ديار بكر: هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط إلى معد بن عدنان وحدها ماغرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، انظر ياقوت، معجم البلدان، والشوبك: قلعة حصينة في اطراف بلاد الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك.

أخرى شغلها بقية أفراد البيت الأيوبي[١] ومن هذا التقسيم يتضح لنا مدى التفكك الذي أصاب الأمة الإسلامية، فإذا أضفنا إلى هذا طمع أبناء الأسر القديمة الحاكمة في الجزيرة، مثل البيت الزنكي ممثلاً في عز الدين مسعود والبيت الارتقى، وصاحب خرتبرت[٢]، أدركنا حقيقة الموقف في المشرق الإسلامي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي[٣] ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل بدأ الصراع بين أبناء البيت الأيوبي يطفو على السطح، فقد طمع العزيز عثمان صاحب مصر في الاستيلاء على دمشق، وعندما بدأ حصارها في جمادى الأولى سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٤م استنجد الأفضل بعمه الملك العادل وبقية أمراء بنى أيوب في بلاد الشام، كصاحب حلب أخو الملك الظاهر، وصاحب حماه ناصر الدين بن تقي الدين وصاحب حمص أسد الدين شيركوه، وعسكر الموصل وغيرهم، حيث وصل الجميع إلى دمشق نصرة للملك الأفضل وخوفاً من سيطرة العزيز على بلاد الشام " علماً منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم".[٤] ورغم هذا فإن الملك العادل بصفته كبير البيت الأيوبي سعى للصلح بين أبناء أخيه، وإصلاح ذات البين، واستقر الأمر على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز، وتبقى دمشق وطبرية[٥] وأعمالها للأفضل، وأن يعطى الأفضل لأخيه الملك الظاهر جبله[٦] واللاذقية، وأن يكون لعمهم الملك

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٣-٤، اسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ص ٥٨.

(٢) خرتبرت: هو حصن معروف بحصن زياد الذي يجيء في أخبار بني حمدان في اقصى ديار بكر من بلاد الروم، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٢٢٧-٢٢٨، ابن واصل، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦-١٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٧٦، ٨٧٧.

(٤) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٣١، ابن واصل، المصدر السابق، ج٣، ص٢٩-٣٠.

(٥) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهى في طرف جبل وجبل الطور مطل عليها وهي من أعمال الاردن في طرف الغور، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٦) جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

العادل اقطاعة الأول ببلاد مصر، مضافاً إلى ما بيده من الشام والجزيرة، وعاد العزيز إلى مصر وكل واحد من ملوك بنى أيوب إلى بلده[١]

وفي أوائل سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م تجددت أطماع الملك العزيز في السيطرة على دمشق "فخرج من مصر قاصداً دمشق ليأخذها من يد أخيه الأفضل " فبادر الأفضل بطلب النجدة من عمه العادل، وأخيه الظاهر، وما إن سمع العزيز باجتماعهم حتى كر راجعاً إلى مصر، فلحق به الأفضل وعمه الملك العادل حتى دخلوا بلبيس[٢]، فتخوف العادل من الأفضل خشية أن يسيطر الأخير على مصر ولا يسلمه دمشق " فأرسل للعزيز يثبته وأقبل على الأفضل يثبطه"، فوقع الصلح بينهم على أن يرجع القدس وأعمالها للأفضل، ويستقر العادل في اقطاعه القديم. وكان هذا الصلح كما يقول ابن كثير " هي هدنة على قذا وصلح على دخن"[٣]

إذ لم يلبث أن اتفق العادل مع العزيز على انتزاع دمشق من الملك الأفضل، وتسليمها للملك العادل، على أن تكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه، وفعلاً تم لهما ما أرادا من دخول دمشق قهراً، وأخرجا منها الأفضل،

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٢١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٠،٣١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠، خاشع المعاضيدى، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ١٩٨، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٤٤-٤٥، سيد على الحريرى، الحروب الصليبية، ص ٢١٥.

(٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٣٤-٢٣٥، ابن واصل، المصدر السابق، ص ٤٦-٥٢، ابن كثير، المصدر السابق، ج٩،ص ١٢، على عوده، المرجع السابق، ص ٤٦-٤٨، وبلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣)ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣، ص١٣، وانظر ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٣٥، أبوالفداء، المختصر، ج٢، ص٩١.

وأعطى الأفضل صرخد.[١]

على أنه لم يلبث أن توفى الملك العزيز سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م، وكان ابنه المنصور في العاشرة من عمره، فانتهز الأفضل الفرصة وقدم مصر وتولى الوصاية على ابن أخيه المنصور، واخذ يستعد هو وأخوه الملك الظاهر لانتزاع دمشق من عمهم الملك العادل، فحاصرا دمشق فترة يسيرة، ثم تفرقوا بعدها، فلحق العادل بالأفضل وهزمه في بلبيس وانتزع منه مصر سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م، وأعطاه اقطاعه القديم المتمثل في حاني وجبل جور وميافارقين وسميساط بمنطقة الجزيرة[٢]، وهكذا تم توحيد الجبهة الاسلامية مرة اخرى على يد الملك العادل الأيوبي، الذي استعان لتنظيم أمور دولته بأبنائه، حيث أناب ابنه الكامل محمد في حكم مصر، والمعظم عيسى في دمشق، وأعطى الأشرف موسى حران، والأوحد ميافارقين، وكان العادل بمثابة المشرف العام على جميع تلك الممالك " وصار ينتقل في ممالك أولاده والعمد في كل الممالك عليه".[٣]

على أنه ما إن استتبت الأمور للملك العادل حتى أخذ العدوان الصليبي يزداد حدة ضد المسلمين في بلاد الشام ومصر، عقب وصول الحملة الصليبية الخامسة، إلى الشرق الإسلامي. فقد "قدم جمع عظيم من الفرنج إلى عكا " فخرج الملك

---

(١) ابوالفدا، المختصر، ج٢، ص ٩٢، مجير الدين الحنبلسي، الانس الجليل، ج١، ص ٣٩٨،الذهبي، دول الاسلام، ج٢، ص ١٠٣، حامد زيني غانم، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية، ص ١٠٤.

وصرخد: بلد ملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٨٢، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص ٣٩٢، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١١.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١،ق١، ص ١٦٨-١٦٩، سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين، ص ٧٥.

العادل بعساكره إلى نابلس، ولم يستطع مجابهتهم لكثرتهم فارتحل أمامهم، ثم إن الفرنج أغاروا على بلاد السواد وقتلوا ونهبوا وغنموا وسبوا وعادوا إلى عكا[١].
على أن جميع القوات الصليبية التي وصلت إلى بلاد الشام ارتحلت إلى مصر في الوقت الذي استعدت فيه القوات الرئيسية للحملة للإستيلاء على مدينة دمياط[٢] تمهيداً للسيطرة على مصر، والتي كانت تمد عساكر الإسلام في بلاد الشام بما يحتاجونه من رجال وعتاد.

وفعلاً تحركت جموع الصليبيين في البحر، وأرسوا على بر جيزة دمياط[٣]، وكان النيل بمثابة الحاجز بينهم وبين دمياط، وكان على نهر النيل برج عظيم يسمى برج السلسلة يمنع السفن من العبور إلى أرض مصر، وعندما علم الكامل بوصول الفرنج خرج بعساكره، ونزل بناحية العادلية[٤] قريباً من دمياط وضيق الفرنج الحصار على أهل البرج فلم يتمكنوا من الظفر بهم، وكان الملك العادل بمرج الصفر، يرسل العساكر من الشام لمساندة الكامل في مواجهة الفرنج، حتى ورد الخبر باستيلاء

---

(١) الخطيب العمري، الدر المكنون في المأثر الماضية من القرون، ورقة ٢٢٧، مخطوط برقم ١٠٤٥، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ١٨٦-١٨٧، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٣٤٤، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ١٩٣، محمد العروسى المطوى، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص ١٠٥-١٠٦، جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص ٤٦.

(٢) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٠٨-١٠٩، المقريزى، الخطط، ج٣، ص ٨٩،ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ١٩٥، الذهبى، العبر، ج٣، ص ١٦٤.

(٤) العادلية: هي من القرى القديمة أسسها الملك العادل ابوبكر بن أيوب سنة ٦١٤هـ عندما تتابع ورود امداد غزاه الفرنج إلى الشرق في زمن الحروب الصليبية وتهديدهم مدينة دمياط، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٦٠، حاشية (٢).

الفرنج على برج السلسلة بدمياط"[1] فتأوه تأوها شديداً ودق بيده على صدره أسفا وحزناً ومرض من ساعته ". فمات الملك العادل سنة ٦١٥هـ، وكان لموته اثر كبير في أضعاف نفوس الناس " لأنه السلطان حقيقة وأولاده وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بحكمه والأمر إليه وهو ملكهم البلاد".[2]

ومما زاد الأمر سوءاً أن أميراً من أمراء مصر يدعى ابن المشطوب أحدث فتنة عظيمة، حيث أراد عزل الملك الكامل، وتوليه أخيه الملك الفائز، فخشي الملك الكامل على نفسه، وانسحب من المنزلة ليلاً إلى قرية اشمون طناح[3] "وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم " فتفرقوا في البلاد أيدي سبأ، فعبر الفرنج إلى دمياط ولم يصدهم عن البلد صاد، وغنموا جميع ما في عسكر المسلمين.[4]

وفي هذه اللحظة الحرجة وصل المعظم إلى أخيه الكامل بمصر فثبته على أمره، واستدرج ابن المشطوب ونفاه إلى الشام سنة ٦١٥هـ، ثم عمد الكامل إلى إخراج أخيه الفائز من مصر إلى الشام بحجة طلب النجدات من هناك لمؤازرته في جهاده ضد الفرنج وكانت الإمدادات تتواصل إلى الصليبيين باستمرار فزاد القلق وعظم

---

(١) برج السلسلة: برج عال بنى في وسط النيل وفي ناحيته سلسلتين تمتد احداهما على النيل إلى دمياط وتمتد الاخرى على النيل إلى الجيزة يمنعان من عبور المراكب إلى بحر النيل المالح(انظرابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٥، حاشية ٤.

(٢) أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٠٩، وانظر ابوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١١٨، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ١٩٦ الذهبي، العبر، ج٣، ص ١٦٤، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٢٠ ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص ٢٥٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ٦٥.

(٣) أشمون أو أشموم طناح من أقدم المدن المصرية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣١٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٣٠-٢٣١، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج١، ص ٢٤٧-٢٤٨.

الكرب عند المسلمين[١]، وخشي الملك الكامل والملك المعظم من سيطرة الصليبيين على بيت المقدس فأرسلا إلى أخيهما العزيز بتخريب أسوار بيت المقدس. وفعلاً شرع في خراب سور بيت المقدس في أول المحرم سنة ٦١٦هـ /١٢١٩م. ويصف المؤرخ سبط ابن الجوزى الضجة التي سادت البلاد في ذلك الوقت بأنه كيوم القيامة، لشدة ما أصاب المسلمين من الهلع والحزن.[٢]

وشدد الصليبيون الحصار حول مدينة دمياط وعجز أهل المدينة عن المقاومة، فسقطت دمياط في أيدي الصليبيين سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م.[٣] فعاد الملك المعظم إلى بلاد الشام على وجه السرعة بهدف حشد العساكر الإسلامية وإرسالها إلى مصر من جهة والضغط على الإمارات الصليبية في بلاد الشام لتخفيف الضغط على مصر من جهة أخرى.[٤] على أن الملك الكامل ما فتر يراسل ملوك الإسلام في طلب المعونة ويحذرهم من مغبة استيلاء الصليبيين على مصر" فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدهما "[٥]. وبالفعل وصلت الإمدادات إلى المنصوره يتقدمها الملك الاشرف وفي مؤخرتها الملك المعظم عيسى وبينهما بقية ملوك بنى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٧-١٨، ابوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب، محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص ٣١١، على عودة، بلاد الشام قبل الغزو المغولي، ص ١١٥.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٠١ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣،ص٩٣٤، اليافعى، مرآة الجنان وعبره اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان، ج٤، ص ٣١. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٢٤٤-٢٤٥، محمود عمران، المرجع السابق، ص ٢٨٣-٢٨٧.

(٣) أبوشامة، تراجم رجال القرنيين، ص ١١٥-١١٧، الذهبى، العبر، ج٣، ص ١٦٨، مجير الدين الحنبلى، الانس الجليل، ج١، ص ٤٠٢، العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ٦٦، سيد على الحريرى، الاخبار السنية في الحروب الصليبية، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) محمود عمران، الحمله الصليبيه الخامسه، ص ٣٤٧.

(٥) المقريزى، السلوك، ج١، ص ١٩٥، سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٨٦.

أيوب، فسر الملك الكامل سروراً عظيماً بذلك وقويت نفوس المسلمين بمقدم هذه الجموع التي جاءت لصد العدوان الصليبي على مصر.[(١)]

ومما تجدر الإشارة إليه أن الملك الكامل كان طيلة هذه الفترة يراسل الفرنج ويعرض عليهم الصلح، حيث عرض عليهم جميع ما فتحه صلاح الدين عدا الكرك والشوبك، ولكن الفرنج لم يرضوا بذلك، فكانت نهايتهم مؤلمة حيث كسر عليهم المسلمون ماء النيل في منطقة مثلثة أحاطت بجيوش الفرنج من كل جانب، هنا اضطر الفرنج إلى طلب الصلح والجلاء عن مصر بدون مقابل سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وكان ذلك نصراً عظيماً للإسلام والمسلمين.[(٢)]

وفي خضم هذه الحوادث التي مرت بالمسلمين في بلاد الشام ومصر، كان هناك خطر آخر أشد هولاً هو خطر المغول الذي أطل برأسه من ناحية الشرق " وأشرف الإسلام على خطة خسف أقبلت التتار من المشرق والفرنج من المغرب".[(٣)]

ومن شدة هول هذه المصيبة الكبرى والحادثة العظمى نجد أحد مؤرخي المسلمين وهو ابن الأثير يعرض في البداية عن كتابه هذه الحادثة ثم يعبر عنها بحس مرهف حيث يقول " لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارها لذكرها فأنا اقدم رجلاً وأوخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا".[(٤)]

---

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٩٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٩٣٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٩٤، ابوالفداء، المختصر ، ج٣، ص ١٢٩، محمود عمران، المرجع السابق، ص ٣٧٦.

(٢) السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٣-٢٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٣٣، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٨٨، محمود عمران، المرجع السابق، ص ٣٨٧، ٣٨٩.

(٣) الذهبى، العبر، ج٣، ص ١٦٨.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٢٩.

أما الدولة الإسلامية الكبرى التي كانت في المشرق الإسلامي عند ظهور التتار فهي الدولة الخوارزمية، وسنعرض في هذه الصفحات موجزاً لهذه الدولة وموقفها من الخطر المغولي الذي بات يهدد العالم الإسلامي.

يرتبط قيام الدولة الخوارزمية بدولة السلاجقة الحاكمة في تلك الحقبة التاريخية، حيث كان مؤسس هذه الدولة انو شتكين عبداً لأحد أمراء السلاجقة(١)، وتطور به الحال إلى أن قام السلطان السلجوقي بركياروق (٤٨٧-٤٩٨هـ)بتنصيبه حاكماً على إقليم خوارزم(٢)، مكافأة له على ما قدمه من خدمات للبيت السلجوقي، ولقب انوشتكين بلقب خوارزم شاه سنة ٤٩٠هـ، على أن فترة انوشتكين في حكم هذا الإقليم لم تطل، حيث توفى في نفس العام.٤٩٠هـ. ولم تخرج السلطة في هذا الإقليم عن هذه الأسرة، إذ لم يلبث أن أذن السلطان السلجوقي، لقطب الدين محمد ابن انوشتكين، بأن يحكم خوارزم، واستمر يحكم هذا الإقليم ثلاثين عاماً لم يفكر خلالها في الخروج عن طاعة الدولة السلجوقية، وكان ذا خلق حسن عادلاً محباً للعلم والعلماء(٣) إلى أن توفى سنة ٥٢١هـ، فحل محله ابنه اتسز سنة ٥٢٢هـ بموافقة السلطان سنجر السلجوقي. وكان اتسز أول سلاطين هذه الأسرة الذين فكروا في الاستقلال، عن سلطة الدولة السلجوقية، فثار سنة ٥٣٠هـ ضد السلطان

---

(١) المصدر السابق،ج٩،ص١٨٤، ابوالفدا، المختصر،ج٣،ص٢٠٩. ويبدوا أن ذلك كان من أسباب سقوط الدولة الخوارزميه.

(٢) اتفق الجغرافيون المسلمون في تحديدهم لاقليم خوارزم فذكروا أن حدوده من الغرب من بلاد الترك الغزية، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الشمال بلاد الترك أيضاً، ولمزيد من التفصيل في تحديد هذا الأقليم، انظر نافع العبود، تاريخ الدولة الخوارزمية، ص ١٧.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ١٨٤، الذهبي، دول الاسلام، ج٢، ص ١٨، عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٣٦.

السلجوقى سنجر[١]، الذي لم يتوان في قمع أطماع اتسز التوسعية فاعد جيشاً وسار إليه سنة ٥٣٣ هـ، وانتصر عليه انتصار مؤزراً. وبعد هذا النصر، أقطع السلطان السلجوقى سنجر إقليم خوارزم لابن أخيه غياث الدين سليمان السلجوقى، وعاد إلى عاصمته مرو.[٢]

على أن اتسز لم يلبث أن استرد هذا الإقليم، ثم عمد إلى مصالحة السلطان السلجوقى، ليعيد النظر في ترتيب قواته، وما إن تم له ذلك حتى شرع بمهاجمة ممتلكات السلاجقة مرة أخرى، فهاجم بخارى سنة ٥٣٤هـ واستولى عليها[٣]، ولكنه كان يدرك قوة السلطان السلجوقى فاتجه إلى التحالف مع دولة الخطا،[٤] التي بدأت تشن غاراتها على البلاد الإسلامية المجاور لها، الأمر الذي دعى السلطان سنجر السلجوقى إلى محاربتها، ولكنه خسر هذه المعركة سنة ٥٣٦هـ.[٥]

وهذه المعركة هي معركة قطوان التي كان لنتائجها أبعد الأثر وكانت بقيادة كورخان الملك البوذي.

استغل اتسز هذه الفرصة، وبدأ يوسع مملكته فأغار على خراسان، ودخل عاصمة السلاجقة مرو، الأمر الذي دعى السلطان السلجوقى سنجر إلى الانتقام من اتسز،

---

(١) ابوالفدا، المختصر، ج٣، ص٢٠٩، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج٤، ص٩٥، عفاف صبرة، المرجع السابق، ص٣٨.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص٣٦٤.

(٣) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٨، ص ٣٦٤، ابوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص ١٤، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٢٣.

(٤) الخطا أو الخاطئيون: هم جماعات لاحصر لها من البدو يعيشون في الصحارى يعبدون الهواء وطعامهم اللحم النيء، ولايأكلون الخبز ولايعرفون الخمر. وهم إذا اكلوا لحما لايفرقون بين الطاهر وغير الطاهر، انظر، نافع العبود الدولة الخوارزمية، ص ٢٤، حاشية ٢٧.

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٤، ابوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٥-١٦، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٦-٢٧.

فجمع جيوشه وقصد خوارزم سنة ٥٣٨هـ وشدد الحصار حول المدينة، التي تحصن بها اتسز، والذي اضطر في النهاية إلى طلب الصلح من السلطان السلجوقي[١]، ورغبة من اتسز في تحقيق الاستقلال الكامل عن الدولة السلجوقية، أخذ يثير ضدها الاضطرابات والمشاكل. وفي نهاية المطاف، اضطر السلطان السلجوقي إلى الاعتراف باستقلال دولة خوارزم شاه. وقد أدى ضعف الدولة السلجوقية إلى ازدياد نفوذ الدولة الخوارزمية وترسيخ أقدامها في منطقة خوارزم فنجد خلفاء اتسز الذي توفي سنة ٥٥١هـ يواصلون سياستهم التوسعية، على حساب دولة السلاجقة المنهارة[٢]، ومما يدل على ذلك ما قام به خليفة اتسز ( إيل ارسلان) من الاستيلاء على بعض مناطق خراسان، وأقيمت له الخطبة في جرجان ودهستان.[٣] وفي الجانب المقابل نرى خوارزم شاه إيل ارسلان يحاول صد عدوان الخطا الوثنيين الذين اعتدوا على ديار المسلمين. وبعد عودته من قتال الخطا أصابه مرض ثم وافته المنية سنة ٥٦٨هـ وعقب وفاته حدثت فتنة عظيمة بين أبنائه، إذ تولى زمام الأمور بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود، ولكن أخاه الأكبر علاء الدين لم يرض بذلك، فعمد إلى إخراج أخيه من خوارزم واستمرت الحرب بينهما سجالاً حتى وفاة سلطان شاه سنة ٥٨٩هـ، واستتب الأمر لعلاء الدين تكش، الذي بدأ يواصل سياسة أسلافه التوسعية، على حساب دولة السلاجقة المنهارة، فاستولى على الرى سنة ٥٨٨هـ وفي نهاية الأمر عمد إلى إسقاط الدولة السلجوقية، بقتل آخر سلاطينها طغرل بك بن ارسلان السلجوقى سنة ٥٩٠هـ. ولم يتوقف به الآمر عند هذا الحد بل وصل إلى همذان،

---

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٤، ٧، ابوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥-١٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٢٣٤.

(٢) عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٤٦، نافع العبود، المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩، حافظ حمدى، الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى، ص ٦٤.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٩١. وجرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخرسان. ودهستان: بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

وأرسل إلى الخليفة العباسى " يطلب السلطنة وأن يصلح دار السلطنة لينزلها ويحكم" ولم يرض الخليفة الناصر بذلك.[(١)]

وفي سنة ٥٩٤هـ تمكن من انتزاع بخارى من الخطا بعد حروب طويلة، وبذلك استطاع علاء الدين تكش أن يُكَوِّنَ دولة كبيرة مترامية الأطراف، تولى زمامها بعد وفاته سنة ٥٩٦هـ ابنه علاء الدين محمد الذي بدأ يواجه أخطاراً خارجية تهدد هذا الكيان الكبير، الذي أسسه والده علاء الدين تكش. تمثلت هذه الأخطار في كل من دولة الغوريين، ودولة الخطا، ودولة المغول.[(٢)]

سار غياث الدين ملك الغور بجيشه بعد أن استدعى أخاه شهاب الدين إلى خراسان واستولى على ما كان لخوارزم شاه بها سنة ٥٩٧هـ، على أن خوارزم شاه لم يلبث أن استعاد البلاد التي سيطر عليها الغور من خراسان ثم نشب الصراع مرة أخرى بين شهاب الدين ملك الغور وعلاء الدين الخوارزمي انتصر فيه شهاب الدين الآمر الذي دعى خوارزم شاه إلى الاستنجاد بالخطا سنة ٦٠٠هـ، فقدموا واقتتلوا مع شهاب الدين الغورى، وأحلوا به الهزيمة.[(٣)]

وبذلك يكون علاء الدين محمد قد اضعف قوة إحدى الأخطار التي واجهته منذ توليه زمام السلطنة، وخلال عملية المقاومة التي يقوم بها السلطان الخوارزمى ضد خصومه، فإنه لم يغفل سياسة التوسع والتي كانت على حساب دولة الغوريين المنهارة.[(٤)]

---

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ١١٤-١١٨، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٩٨، السيد الباز العرينى، المغول، ص ٨٣، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٣٣.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٤٧٠-٤٧٢.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٢٥٠، ٢٥٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ١٦٨، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ٣٥.

(٤) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٧٧، ص ٢٧٩، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٣٤.

وفي سنة ٦٠٤هـ واجه علاء الدين الخطر الثاني المتمثل في دولة الخطا، حيث طلب صاحب سمرقند النجدة من علاء الدين، ضد الخطا الذين كانوا يغيرون على بلاد المسلمين، فاستجاب خوارزم شاه لذلك، وسار لقتال الخطا، ولكنه منى بهزيمة شنيعة وقع على إثرها في الآسر.(١)

وبعد أن تخلص من الآسر، قاد عدة حملات ضد دولة الخطا، إلى أن تمكن من إزالتها ويرى بعض المؤرخين، أن علاء الدين محمد قد ارتكب خطأ كبيراً بالقضاء على دولة الخطا، لأنها كانت بمثابة السد بين المسلمين وغيرهم من أمم الكفر كالمغول.(٢)

وكانت الخلافة العباسية تخشى من سيطرة الدولة الخوارزمية على ممتلكاتها، وظهر ذلك عندما حاول كل من علاء الدين تكش، وابنه علاء الدين محمد من بسط نفوذهم وهيمنتهم على دولة الخلافة عقب زوال الدولة السلجوقية. ولم يكن خلفاء بنى العباس يرضون بذلك بعد أن تنفسوا الصعداء بزوال دولة السلاجقة. فلا يريدون أن يخضعوا أنفسهم مرة أخرى لقوة جديدة تسيطر عليهم وتسير أمورهم. ولقد حدثت عدة محاولات من قبل الخوارزمية لإخضاع دولة الخلافة.واحلال أنفسهم محل دولة السلاجقة ولكنهم فشلوا في تحقيق أهدافهم.(٣)

وهكذا أصبحت الدولة الخوارزمية أقوى دول المشرق بلا منازع، إذ امتدت حدود هذه الدولة، من العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً، ومن بحر آرال وقزوين شمالاً حتى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً.(٤)

---

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٢٩١-٢٩٢، الذهبى، العبر، ج٣، ص ١٣٩.

(٢) الذهبي، دول الاسلام، ج٢، ص ١١١، نافع العبود، المرجع السابق، ص ٣٨.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٤٩-٥٢، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٥٨٢-٥٨٣، القلقشندى، مآثر الاناقة، ج٢، ص ٦٠.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٧١-٧٢، حافظ حمدى، الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى، ص ١١٣، السيد الباز العرينى، المغول، ص ١١٠.

ونظراً لاتساع هذه الدولة لم يكن من السهل السيطرة عليها، فلجأ علاء الدين خوارزم شاه إلى تقسيم دولته إلى أربعة أقسام، جعل على كل قسم من هذه الأقسام أحد أبنائه الأربعة، بحيث يكون كل واحد منهم مسئولاً أمامه مسئولية مباشرة عن إقليمه. وفي خضم الأحداث التي مرت بالدولة الخوارزمية، حتى استطاعت أن تكون دولة كبيرة مترامية الأطراف، لم يلبث أن بدأ يلوح في الأفق خطر عظيم ينذر بزوال هذه الدولة آلا وهو خطر المغول. وليس المقام يسمح لنا بذكر الأسباب التي أدت إلى الاجتياح المغولي للدولة الخوارزمية إذ لم تلبث أن انطلقت جحافل المغول من بلادهم صوب ممتلكات الدولة الخوارزمية سنة ٦١٧هـ، ودخلت إقليم خوارزم وفر أمامهم علاء الدين محمد الذي لم يستطع الصمود أمامهم " فقد كان يبحث عن منفذ في الأرض أو سبب إلى السماء لينجو من الجيش الذي لا يعد ولا يحصى، واتجه إلى إحدى جزر بحرقزوين حيث مات هناك سنة ٦١٧هـ.[(١)]

على أن علاء الدين محمد قبل وفاته، عمد إلى خلع ابنه الصغير قطب الدين ازلاغ شاه عن ولاية العهد، وتقليدها لابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي حيث قال "أن عرى السلطنة قد انفصمت والدولة قد وهنت قواعدها وتهدمت وهذا العدو وقد تأكدت أسبابه وتشبثت بالملك أظفاره وتعلقت أنيابه وليس يأخذ ثأري منه إلا ولدى منكبرتي".[(٢)]

وما إن توفى علاء الدين محمد حتى بدأ جلال الدين يستعد لمجابهة هذا الخطر الداهم الذي يقول فيه ابن واصل " مذ بعث الله تعالى محمداً ﷺ وأظهر به الدين الحنيف ونصره الله على أهل الشرك لم يفجع المسلمون فجيعة أعظم من هذه

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٧٢،١٠٤ -١٠٨، ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٢٩،-٣٣٠، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٠٩-٦١٠، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٣٥، سعد حذيفة، اوضاع الدول الاسلامية في المشرق الاسلامى، ص ٢٦٤.

(٢) النسوى،المصدر السابق، ص ١٢٠.

الفجيعة "[١]

إلا أن الخلاف لم يلبث أن نشب بين جلال الدين واخوته، الأمر الذي اضطر جلال الدين أن يرحل إلى مدينة نسا[٢] بإقليم خراسان. على أن القوات المغولية التي كانت تطارد أبناء علاء الدين خوارزم شاه، استطاعت في إحدى هجماتها القوية، أن تقضي على اخوة جلال الدين.[٣] وبذلك تكون الساحة قد خلت من منافس قوى لجلال الدين في تلك الفترة، إذ بدأ جلال الدين يعد قواته، وينظم صفوفه لمجابهة الطوفان التترى، الذي بات يهدد كيان البلدان الإسلامية فاعد جيشاً قوامه ستين الف مقاتل.

وفي هذه الفترة سير جنكيزخان جيشاً إلى غزنه.[٤] يقدر بحوالي اثنى عشر ألفاً للقضاء على جلال الدين الخوارزمى، وعندما وصلت هذه القوات إلى مشارف غزنه، خرج إليهم جلال الدين بقواته، ودارت رحى المعركة بمكان يعرف ببلق " واقتتل الفريقان قتالاً شديداً فنصر الله تعالى المسلمين وانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ".[٥] ولما علم جنكيزخان بماحدث لقواته على يد جلال الدين منكبرتى، اعد حملة عسكرية أقوى من الأولى بقيادة أحد أبنائه، ولكن هذه الحملة منيت هي الأخرى بهزيمة ساحقة على أيدي المسلمين بقيادة جلال الدين منكبرتي. لكن بوادر النصر التي تحققت سرعان ما بدأت تنطفئ، على أثر الخلافات التي نشبت بين قادة جلال الدين حول توزيع الغنائم في الوقت الذي بدأ جنكيزخان يعد نفسه لملاقاة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٣٤.

(٢) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) الجويني، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٩-٤٠، ابن ايبك، كنزر الدرر ، ج٧، ص ٢٥٧.

(٤) غزنة: مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خرسان وهى الحد بين خرسان والهند، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٦١-٦٢، السبكى، طبقات الشافعية، ج١، ص ٣٣٩.

الخوارزميين، وعندما سمع جلال الدين بذلك سار إلى بلاد الهند، ولكن قوات جنكيزخان التي كانت تطارده تمكنت من اللحاق به قبل عبوره نهر السند ثم التقيا صبيحة يوم الأربعاء سنة ٦١٨هـ، ثم حمل جلال الدين " بنفسه على قلب جنكيزخان فمزقه بدداً وجعله طرائق قدداً". و" كادت الدائرة تدور على الكفار والهزيمة تستمر بأهل النار". إلا أنه سرعان ما تراجع جلال الدين، وعبر النهر وتوجه إلى الهند[١]، وفي بلاد الهند جرت لجلال الدين مع ملوك الهند حروب وخطوب، الأمر الذي دعى ملوك الهند إلى عقد صلح مع جلال الدين منكبرتى " غير أن الخوارزميين لم يستطيعوا الإقامة هناك فقد دب بينهم المرض وبلغهم أن التتر تركوا خوارزم ".[٢] فخرج جلال الدين من الهند برجاله ووصل إلى بلاد المشرق ومن هنا تبدأ علاقته مع القوى السياسية في الشام والجزيرة والتي سيكون عليها مدار بحثنا إن شاء الله تعالى.

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ١٥٤-١٥٨، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٤١١،السبكى، المصدر السابق، ج١، ص ٣٤٠.

(٢) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٦٦-٢٦٧، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص -١١٢، ابن ايبك، كنز الدرر ، ج٧، ص ٦٢٠.

# الفصل الأول

(٤٣)

# العلاقات بين السلطان جلال الدين الخوارزمي والأيوبيين في الشام والجزيرة سنة ٦٢٤-٦٢٨هـ.

- تحالف المعظم عيسى ملك دمشق مع جلال الدين الخوارزمي.
- استيلاء جلال الدين على خلاط ٦٢٧هـ.
- تحالف سلاجقة الروم مع الأيوبيين ضد جلال الدين ونتائجه.
- تجدد الخطر المغولي على الدولة الخوارزمية ونهاية جلال الدين.

(٤٤)

# تحالف المعظم عيسى مع جلال الدين الخوارزمي

تقوم العلاقات بين الدول على المصالح المشتركة فإذا انتفت هذه المصالح أصبحت العلاقات بينهم متذبذبة وقابلة للانقطاع ويمثل ذلك ماسنتطرق إليه من العلاقة بين الدولة الخوارزمية والأيوبية.

فلعل أول إشارة إلى العلاقة بين الدولتين ترجع إلى عهد الملك العادل الأيوبى الذى كان معاصراً للسلطان الخوارزمى علاء الدين محمد خوارزم شاه سلطان الدولة الخوارزمية.(١)

ففى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م وصل رسول علاء الدين خوارزم شاه إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر(٢) ولم تشر المصادر التاريخية إلى هدف هذه الزيارة التى قام بها مبعوث علاء الدين خوارزم شاه إلى الملك العادل(٣)، ولعل الهدف يرجع إلى رغبة خوارزم شاه في إقامة علاقة طيبة مع بنى أيوب تمهيداً للتحالف معهم ضد خصومه خاصة بعد فشل السلطان علاء الدين الخوارزمي فى غزو بغداد سنة

---

(١) محمد بن تكش السلطان الكبير علاء الدين. كان ملكاً جليلاً أصيلاً واسع الممالك كثير الحروب ذا جبروت وغور ودهاء، تسلطن بعد والده علاء الدين تكش لم يقهر إلا من التتار، مات سنة ٦١٧هـ – انظر الذهبي، العبر، ج٣، ص ١٧٥.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٥٩٣، أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٠٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص٨٨. مرج الصفر: مكان خارج دمشق. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية،ص ١٤٩–١٥٠، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٥١-١٥٢.

٦١٤هـ / ١١١٧م، وقد قابل العادل ذلك برغبة صادقة حيث رد على رسالة خوارزم شاه برسالة حملها الخطيب الدولعى[١] والنجم خليل قاضى العسكر فوصلا إلى همذان[٢] ولم يلتقيا مع خوارزم شاه حيث اندفع بين يدى الخطا والتتار، فاجتمعا بولده جلال الدين الذى أخبرهما بوصول أخبار عن وفاة الملك العادل فرجعا إلى دمشق دون تحقيق الهدف المنشود من هذه السفارة[٣].

ثم ساد الجمود العلاقة بين الطرفين عقب وفاة العادل[٤] ولعل ذلك يرجع إلى إنشغال كلتا الدولتين بالأخطار الخارجية التى المت بالمشرف الاسلامى فى تلك الفترة فقد انشغلت الدولة الخوارزمية بصد الهجوم الذى اكتسح اقاليمها الشرقية فى حين انشغلت الدولة الأيوبية بعد وفاة العادل سنة٦١٥هـ[٥] فى بداية الأمر بصد العدوان الصليبى عن مصر وماتلى ذلك من قيام الصراع والنزاع بين ملوك بنى أيوب. والذى كان فيما بعد سبباً فى إعادة العلاقات بين الدولة الخوارزمية والملك المعظم عيسى الأيوبى صاحب دمشق. ولايخفى علينا أنه بعد وفاة الملك العادل الأيوبى واحتفاظ كل ملك من ملوك بنى أيوب بمملكته أنه جرى بينهم من التضامن

---

(١) الخطيب الدولعي: هو جمال الدين خطيب جامع دمشق، وهو منسوب إلى الدولعية قرية على باب الموصل في طريق الذاهب إلى الموصل من جهة نصيبين، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٤٥.

(٢) همذان : مدينة حسنة مقدارها فرسخ فى مثله محدثة اسلامية.انظر ابن حوقل، صورة الارض.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان،ج٨، ص ٥٩٣، أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٠٩-١١٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٦٨.

(٤) السلطان العادل: محمد بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادى، ولد ببعلبك ونشأ في خدمة نور الدين، وكان اخوه صلاح الدين يستشيره ويعتمد عليه وكان ملكاً جليلاً سعيداً توفي في سابع جماد الاخرة سنة ٦١٥هـ، انظر الذهبي، العبر، ج٣،ص ١٦٧.

(٥) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، ص ٤٣.

والاتفاق ما كان له أكبر الأثر فى صد الحملة الصليبية الخامسة، ويشير ابن الاثير إلى ذلك بقوله: "واتفقوا اتفاقاً حسناً لم يجر بينهم من الاختلاف ماجرت العادة ان يجرى بين الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الوأحدة كل منهم يثق إلى الاخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولايخافه"[١]. إلا أن هذا الاتفاق والتضامن لم يكتب له أن يستمر بين ملوك (بنى أيوب فقد بدأت الشكوك والاطماع تساور هؤلاء الملوك تجاه بعضهم البعض)ويتضح لنا ذلك من خلال الزيارة التى قام بها الأشرف موسى خدمة لأخيه السلطان الكامل "فأقام عنده بالديار المصرية متنزهاً"[٢] فقد كان الغموض يكتنف هذه الزيارة التى قام بها الأشرف إلى أخيه الملك الكامل، هذا بالإضافة إلى أن الكامل والذىكانت تقلقه شخصية المعظم حرص على إستقطاب أخيه الملك الأشرف إلى صفه[٣].

وفى الجانب المقابل بدأت أطماع المعظم عيسى صاحب دمشق تزداد فى السيطرة على بلاد الشام ففى شهر ذي الحجة سنة٦١٩هـ/١٢٢٢م سار الملك المعظم عيسى على رأس قواته قاصداً حماة[٤]، وكان الملك المعظم يبرر خروجه ذلك بأمرين أولهما أن الملك الناصر صاحب حماة تنكر له فغاظ ذلك الملك المعظم حيث كان سبباً فى تملكه المدينة عقب وفاة الملك المنصور صاحب حماة الذى أوصى بملك حماة من بعده لولده الأكبر الملك المظفر والذى كان فى نجدة

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٢٧،٣٧١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١١٦، وانظر ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٩٤، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان ج٨، ص ٦٢١-٦٢٢.

(٣) ابن الاثير: المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧١، أبوالبركات الحنبلى،شفاء القلوب،ص٣١٠.

(٤) حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات. انظر ياقوت، معجم البلدان، ابن الشحنة، الدرر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب،ص٢٦٨.

خاله الملك الكامل ضد الفرنج في موقعة دمياط سنة ٦١٨هـ[١].

وثانيهما أن الملك الكامل كتب إليه يطلب منه القبض على الأمير مجاهد الدين اقبال الذي خرج عن طاعته وفر هارباً إلى أحد أمرائه الذين خرجوا من مصر "فاتخذ ذلك الملك المعظم حجة وذريعة لقصد حماة".[٢] حيث اتجه بعساكره صوبها مظهراً أن هدفه القبض على الأمير الهارب. وكان صاحب حماة في تلك الفترة خارج مدينته فاسرع الملك المعظم حتى يسبق الملك الناصر إليها فلما علم الملك الناصر بذلك عاد مسرعاً بذلك إلى مدينته وتحصن بقلعتها قبل وصول المعظم الذى تأخر في الوصول إليها فنزل بقرية نقرين[٣] واستعد الملك الناصر للحصار، وهنا بدأت المناورات من جانب الملك المعظم الذى أرسل إلى صاحب حماة يبرر سيره إليه بقوله "انني لم اقصدك وإنما أتيت لطلب مجاهد الدين فحيث سلكت طريق المحاربة والقتال فنحن نسلكه ايضاً معك"[٤] ثم تقدم عسكر المعظم إلى أسوار المدينة وضيق عليها الحصار ولشدة تحصينها رحل الملك المعظم عنها بعساكره متجهاً إلى سلمية[٥] فنزلها واستولى على مابها من المحاصيل وعين فيها والياً من قبله ولم يمكث بها إلا يسيراً رحل على اثرها بعسكره إلى معرة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٨٦،١١٧، الخطيب العمري، الدرر المكنون فى المآثر الماضية من القرون، ورقة ٢٥٣أ.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ١١٧-١١٨، أحمد غسان سبانو، مملكة حماة الأيوبية، ص٧٣-٧٤.

(٣) نقرين اسم قرية تقع الآن فى ضواحى مدينة حماة. انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ١١٨،حاشية(٢).

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٩٣٨، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٢٧ب.

(٥) سلمية: بلدة من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين على الأقدام. انظر ياقوت، معجم البلدان.

النعمان[١] فخرج ابن واصل[٢] قاضى المعرة ومعه اعيانها للقائة فأقبل عليهم الملك المعظم وأكرمهم واستولى بذلك على المعرة وعين عليها والياً من قبله ثم كر راجعاً إلى سلمية حيث أقام بها حتى أواخر سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢ م ومنها أخذ يستعد لانتزاع حماة من الملك الناصر[٣] ولما وصلت هذه الأخبار إلى الملك الأشرف وكان مقيماً بمصر ادرك خطورة موقفه فى بلاد الشام إذا لم يتدارك الأمر واجتمع بأخيه الكامل وقال له: " إن تركنا الملك المعظم يحاصر حماة ويأخذها تعدى ذلك إلى غيرها واطمعته نفسه في الاستيلاء على البلاد كلها والمصلحة الانكار عليه وتهديده وتخويفه من مغبة فعله والتقدم إليه بالرجوع إلى بلاده وأن يسلم بلاد صاحب حماه إليه"[٤] فاتفق الاخوان على ذلك وأرسل كل وأحد منهما رسولاً من قبله بهذا المعنى إلى أخيهما المعظم، فأوفد الأشرف نائبه على الموصل الحاجب حسام الدين إلى الملك المعظم يخبره أن هذا الامر لايرضى السلطانين الملك الكامل والملك الأشرف وأنهما لايوافقانه على ذلك[٥] وأرسل الكامل الأمير ناصح الدين أباالمعالى الفارسى[٦] فاجتمعا معاً بالملك المعظم وقال له ناصح الدين الفارسى "مولانا السلطان الملك الكامل يأمر المولى بالرحيل وترك

---

(١) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن واصل، هو والد المؤرخ المعاصر لتلك الفترة جمال الدين بن سالم بن واصل. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١١٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص١١٨-١٢٠، الخطيب العمري، الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون، ورقة ٢٣٥أ، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٠٧.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص١٢٧، أبوالفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص١٣٢.

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٧١، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص٩٤-٩٥.

(٦) ناصح الدين أبوالمعالى الفارسى: هو أحد أمراء حلب. انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص١٩٣.

الخلاف" فأجاب بالسمع والطاعة[١] وترددت الرسل بين الملك المعظم والملك الناصر صاحب حماة على يد عفيف الدين عبدالله السلماني بن مراحل، وكان صاحب منزلة عظيمة عند ملوك بني أيوب فوقع الصلح بينهما على دخن. ثم ترك الملك المعظم حماة وعاد إلى دمشق وهو حنق على أخويه لأن "أطماعه قد تعلقت بالاستيلاء على حماة وبلادها وإضافتها إلى ممالكه"[٢].

ويبدو أن موافقة المعظم كانت بهدف كسب الوقت للبحث على حليف قوى ضد أخويه ورغب في الاستناد إلى أكبر قوة اسلامية في المشرق فلجأ إلى مراسلة جلال الدين منكبرتي ليقف معه في وجه أخويه الكامل صاحب مصر والأشرف صاحب خلاط الذين اتفقا عليه، وقد ظهر في بلاد الشام في تلك الفترة جراد عظيم أكل الزرع والشجر والثمر. ولكي لايثير الملك المعظم شكوك اخويه ضده أظهر أن هناك نوعا من الطير يقال له السمرمر يأكل الجراد فأرسل الصدر البكرى[٣] محتسب دمشق ومعه جماعة من الصوفية إلى بلاد العجم وأخبرهم أن هناك عين يجتمع فيها السمرمر يذهبون إليها ويأخذون من مائها في قوارير ويعلقونه على رؤوس الرماح حتى يتبعهم السمرمر وماكان غرضه من ذلك إلا الاتفاق مع جلال

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٨٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤،ص١٢٧، ابوالفداء، المختصر، ج٣، ص١٣٢.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص٩٤٠، وانظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٤،ص ١٢٧، محمد سليم الجندى، تاريخ معرة النعمان، ص١٧٨-١٧٩.

(٣) الصدر البكرى: أبوعلى الحسن محمد بن محمد بن عمرو بن محمد التميمى النيسابوري ثم الدمشقى الصوفى الحافظ. ولد سنة أربع وسبعين وخمس مئة جمع وصنف وولى مشيخة الشيوخ وحسبة دمشق ابتلى بالفالج قبل موته باعوام ثم تحول إلى مصر وتوفى بها سنة ٦٥٦هـ، انظر الذهبي، العبر، ج٣،ص٢٧٩.

الدين ضد اخويه فاجتمع البكرى بالخوارزمى وقرر الأمور معه وجعله سنداً له ومن العجب أن الجراد كان قد قل ببلاد الشام فلما عاد البكرى كثر الجراد وافتضح أمر الملك المعظم وقال الناس فى ذلك اشعاراً وعلم الكامل والأشرف بذلك التحالف وشاع بين الناس، عند ذلك قيل للمعظم "لوكنت أرسلت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى" وكافأ المعظم الصدر البكرى على عمله ذلك بان ولاه مشيخة الشيوخ إضافة إلى الحسبة[١].

وأرى أن في حكاية السمرمر مبالغة تاريخية لأن الملك المعظم عيسى ليس بحاجة إلى اختلاق واظهار مثل هذه الحكاية في أمر يتم عادة في نطاق من السرية التامة، ولو فرضنا جدلاً أن الملك المعظم حاول أن يوهم أخويه والناس بهذة الرواية فربما لجأ إلى ذلك عندما انكشف خبر السفارة التى أرسلها إلى جلال الدين الخوارزمى فاراد أن يبعد الشكوك عن مقصده حتى يتحقق.

وإذا كان من الطبيعى أن تتأخر مساندة السلطان جلال الدين الخوارزمى للملك المعظم لبعد المسافة بينهما فلا غرابة أن يلجأ الملك المعظم عيسى إلى مناورة جديدة تقضى باشغال أخيه الملك الأشرف عن مساندة الملك الكامل وابنه الملك (اقسيس ) الذي قدم من اليمن طامعاً في أخذ دمشق والشام فعمد إلى إثارة أخيه المظفر غازى ضد الأشرف موسى وحسن له الخروج عليه حيث كان قد جعله نائباً عنه بخلاط واعمالها وميافارقين[٢] وغيرها وكذلك جعله ولى عهده عندما

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٢٣، أبوشامة، الذيل على الروضتين، ص١٣١-١٣٢، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٢٥، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص٣١٠، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) خلاط: هى قصبة ارمنية الوسطى. ميافارقين: اشهر مدينة بديار بكر. انظر ياقوت، معجم البلدان.

غادر بلاده متوجهاً إلى مصر[١].

وأرسل فى نفس الوقت إلى صاحب إربل[٢] مظفر الدين كوكبورى[٣] يدعوه إلى مناصرته والاتفاق معه[٤] واغراه بمهاجمة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والذى كان يميل إلى الملك الأشرف. فسر مظفر الدين بهذا العرض، لبغضه الشديد لبدر الدين لؤلؤ والذى كان سبباً فى الاجهاز على البيت الاتابكى في الموصل واحتجازه لولدى الملك القاهر آخر ملوك الاتابكة فسارع كوكبورى فى تجهيز قواته لقصد الموصل وحصارها. إذ لم يكن يمنعه فى السابق من مهاجمة الموصل سوى خوفه من الأشرف الذى كان سنداً لبدر الدين لؤلؤ.[٥]

وهكذا استطاع المعظم أن يكون حلفاً ثلاثياً قوياً ضد أخويه وكانت الخطة المرسومة تقضى بأن يهاجم الملك المعظم البلاد الشرقية فى حين يخرج الملك المظفر غازى على أخيه الأشرف أما مظفر الدين فيكون وجهته بلاد الموصل وعلى أثر ذلك سار الملك المعظم عيسى فى عساكره من دمشق لتحقيق مايصبوا إليه من

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٥٣-٣٥٤، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٩٤١، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ص ٢٦٦، ابن تغري بردى.النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٥٥، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١١٩.

(٢) إربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة، تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) هو أبوسعيد كوكبورى ابن الامير زين الدين على بن كوجك التركمانى ولى مملكة إربل سنة ٥٦٣هـ، كان من أدين الملوك وأجودهم، توفى في رمضان سنة ٦٣٠هـ انظر الذهبي، العبر ج٣، ص ٢٠٨.

(٤) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٢٧، مفرج الكروب، ج٤، ص١٣٧، الكامل، ج٩، ص ٣٥٤.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٣٧،أبوالفداء، المختصر، ج٣، ص١٣٤، على عودة، المرجع السابق، ص١١٩.

قصد البلاد الشرقية[١] سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م. واغار على بلاد حمص وبارين ووصل إلى بحيرة قدس.[٢]

حينئذ أدرك الأشرف وكان عائداً من مصر خطورة الموقف فأرسل إلى أخيه الكامل يطلب منه النجدة فجهز الملك الكامل العساكر وأرسل إلى المعظم يقول له: "إن تحركت من بلدك سرت وأخذته منك".[٣] فخاف الملك المعظم من هذا التهديد لأن غالبية ممالك الشام كانت تؤيد الكامل فرجع المعظم إلى دمشق.[٤]

وسار صاحب إربل مظفر الدين بن زين الدين كوكبورى إلى الموصل وضيق الخناق عليها وكان ذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ٦٢١هـ، ١٢٢٤م " ظناً منه أن الملك الأشرف إذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط ويخرج المظفر غازى فى طلبه فتتخبط أحواله وتتوق نفس صاحب دمشق على المجىء إليهم"[٥].

ومما قوى من عزيمة مظفر الدين على حصار الموصل قلة عساكرها حيث

---

(١) البلاد الشرقية: هى البلاد التى كانت تحت حكم الملك الأشرف مثل خلاط وميافارقين وغيرها. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٣٨.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٩٤١، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤ ص١٣٨-١٣٩، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٥١، حامد زيان غانم، الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية، ص ١٠٨. وبارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، وبحيرة قدس: بين حمص وجبل لبنان يخرج منها نهر العاص (ياقوت، معجم البلدان).

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٤.

(٤) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٢٠.

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج٩ ص ٣٥٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص١٣٩، أبوالفداء، المختصر، ج٣، ص١٣٤، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٢٠٩.

ذهب كثير منهم لنجدة الملك الأشرف فى حصار خلاط. ولم يقف صاحب الموصل مكتوف اليدين أمام اطماع صاحب إربل بل سعى إلى تحصين مدينته وتزويدها بالعتاد والمؤن اللازمة الأمر الذى أجبر مظفر الدين كوكبورى على ترك حصار الموصل خاصة بعد مابلغه سقوط خلاط فى يد الملك الأشرف، فرحل عائداً إلى بلده.[١]

أما عن موقف الأشرف من أخيه شهاب الدين غازى عندما بلغه خروجه عليه فقد كتب إليه يلاطفه ويحذره من مغبة فعله هذا وطلب حضوره عنده فامتنع عن المجيء فكتب إليه يقول"يا أخى لاتفعل أنت ولى عهدى والبلاد والخزائن بحكمك لاتخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الاعداء فوالله ماينفعونك"[٢].ولكن شهاب الدين تمادى فى عصيانه على أخيه – لذلك قام الملك الأشرف بتجهيز العساكر لمحاربة شهاب الدين غازى الذي خرج عن طاعته وفى نفس الوقت وصلت إليه عساكر حلب وعساكر الجزيرة وعساكر الموصل فتقدم الأشرف بهذه الجموع صوب خلاط ولما قاربها فاته المظفر وأدرك عدم جدوى مقاومته فعمد إلى تفريق عساكره فى البلاد لتحصينها على أمل أن تثمر جهود صاحب الموصل والملك المعظم عيسى فى إشغال الملك الأشرف عن خلاط فلم تتحقق له هذه الآمال. إذ أحكم الملك الأشرف حصار خلاط "وكان أهل البلد يحبونه لعدله وحسن سيرته وفرط كرمه وسوء سيرة الملك المظفر شهاب الدين"[٣] ولهذا بادر أهلها بتسليم البلد

---

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص ١٠٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤ ص ١٣٩–١٤٠.

(٢) الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢١هـ، ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص١٠٤، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٢، ص٦٠، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص٢٦٦.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٤، ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص١٠٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص١٩٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ١٤٠، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٢٠.

إليه يوم الأثنين ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٦٢١هـ / يونية ١٢٢٢م واعتصم المظفر شهاب الدين حتى الليل ثم نزل بعدها إلى أخيه الأشرف معتذراً عما بدر منه فقبل الملك الأشرف عذره وعاتبه ولم يعاقبه على مابدر منه واعطاه بعد أن حلف له ميافارقين[١] وحاني وجبل جور وذى القرنين وقلب السناسة[٢].

وفي رأيي أن ماقام به الملك الأشرف تجاه أخيه ينم عن علو الخلق وكرم النفس. وهذه صفة غالبة في البيت الأيوبى حيث يقول ابن واصل معلقاً على ذلك: "وهذه مكرمة للبيت الأيوبى لم يكن مثلها لأحد من الملوك قبلهم فإن من كان قبلهم وخصوصاً آل سلجوق كان إذا ظفر أحد منهم بأخيه أو ابن عمه الخارج عليه لايبقيه أصلاً بل إما أن يوسطه بالسيف أو يخنقه بوتر القوس أو أحسن أحواله أن يعتقله ويضيق عليه إلى أن يموت كمداً"[٣] وأقام الأشرف بخلاط ثلاثة أيام عاد بعدها إلى رأس العين[٤] بعد أن جعل عليها أحد مماليكه ويدعى أيبك والحاجب علي[٥].

لم يقف الملك المعظم مكتوف اليدين تجاه هذه التهديدات بل نجده يعاود

---

(١) الاصفهاني، البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان، حوادث سنة ٦٢١هـ، ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٥٤، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٣٧ب.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص١٠٦، وحاني، وجبل جور، وذى القرنين، وقلب السناسة كلها بالجزيرة بديار بكر. انظر ياقوت، معجم البلدان، وابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ١٠٦، حاشية(٦).

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٤٠.

(٤) راس العين: هى مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٤٢، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٦٦.

الاتصال بصاحب إربل مظفر الدين كوكبورى لتجديد التحالف بينهما. ولتأكيد ذلك نجده يرسل ابنه الملك الناصر دواد إليه ليكون رهينة عنده[١].

وفي هذه الاثناء ظهر على مسرح الحوادث في المشرق الاسلامى أمور لاتقل سوءاً عنها فى بلاد الشام عقب الإجتياح المغولى لاملاك الدولة الخوارزمية وتدميرهم الشامل للمدن الاسلامية نتج عن ذلك تفرق أبناء علاء الدين الخوارزمى فهرب جلال الدين إلى الهند بينما استطاع أخوه الاخر غياث الدين السيطرة على كرمان والرى واصفهان وهمذان وغيرها من بلاد العجم[٢]، ولم تستقر الأمور لغياث الدين إذ لم يلبث أن خرج عليه خاله إيغان طايس الذى كان الساعد الأيمن لغياث الدين وانضم إليه جمع كثير من المفسدين الثائرين وساروا جميعاً لقتال غياث الدين وإخراجه من بلاده، وعندما سمع غياث الدين بذلك حشد عساكره وتقابل الطرفان واقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم فيه إيغان طايس ومن معه واسر وقتل كثير من عسكره[٣] وبعد هذه الانتصارات التى تحققت لغياث الدين تطلع إلى السيطرة على مملكة فارس[٤] فسار على رأس قواته إلى أن وصل إلى أطراف هذه

---

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص ١١٠، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٣٣، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١١٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٢١.

(٢) المختصر، ج٣، ص ١٣٢-١٣٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٠٨-٢٠٩، الخطيب العمري، الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون، ورقة ٢٣٦ب. وكرمان ولاية مشـــهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخرسان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب،ج٤، ص١٣٢-١٣٣، الخطيب العمري، المصدر السابق،ورقة ٢٣٦.

(٤) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح أول حدودها من جهة العراق أرجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيران ومن جهة السند مكران.انظر ياقوت، معجم البلدان.

المملكة فلما سمع به صاحبها اتابك (سعد بن دكلا)[١] هرب منه إلى مدينة إصطخر[٢] واعتصم بها فدخل غياث الدين هذه المملكة واستولى على عاصمتها شيراز[٣] دون أي مقاومة تذكر واستولى كذلك على أكثر بلاد فارس ولم يبق بيد صاحبها سوى الحصون المنيعة الأمر الذى دعى صاحبها إلى طلب الصلح مع غياث الدين على أن يكون له قسم من البلاد ولغياث الدين الباقي واتفقوا على ذلك[٤].

ولم يكن غياث الدين بالرجل الذى يستطيع أن يعيد للدولة الخوارزمية مكانتها ومجدها إذا كان منهمكاً فى لذاته وشهواته وعاش السكان فى ظل دولته في حالة رعب وهلع شديد لإضطراب الأمور ولاختلال الأمن نتيجة عدم مقدرته على السيطرة على رجاله العسكريين الذين كثرت غاراتهم ضد السكان الأمنين فى تلك البلاد[٥]. وعندما سمع جلال الدين بأحوال أخيه غياث الدين تطلع إلى العودة إلى ربوع بلاده خاصة بعدما علم بعودة المغول إلى منغوليا وتكالب ملوك الهند ضده، وفعلاً سار جلال الدين منكبرتى من الهند حتى وصل كرمان[٦]. ولما وصل جلال

---

(١) هو الاتابك سعد بن دكلا صاحب فارس ( ١١٩٥-١٢٢٦) الذى ينتمى إلى اسرة السلغوريين فى فارس. انظر الباز العريني، المغول، ص ١٦٦، حاشية ١.

(٢) اصطخر: بلدة بفارس في الاقليم الثالث، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) شيراز: هي قصبة بلاد فارس، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٣٦، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١١٧-١١٨.

(٥) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٦٨١، سعد حذيفة، اوضاع الدولة الاسلامية فى المشرق الاسلامى، ص٣٣٠.

(٦) ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ص ٢٦٠، سعد حذيفة، المرجع السابق، ص ٣٣٠، عصام عبد الرؤوف الفقى، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ص ١٩٨.

الدين إلى كرمان رحب به حاكمها براق الحاجب[١] وعرض على السلطان ابنته لتكون زوجة له وقدم له فروض الطاعة والولاء إلا أنه سرعان ماتغيرت نية براق الحاجب تجاه جلال الدين[٢] حيث استغل فرصة خروج السلطان للصيد والاستجمام فعمد إلى إغلاق أبواب المدينة بعدما طرد البقية الباقية من اتباع جلال الدين وكتب إلىجلال الدين يقول بأن هذه المدينة لاتصلح أن تكون مقر سرير العرش ولاتلائم مقام حشمه واتباعه ولم يشأ جلال الدين أن يخوض فى صراع معه لكى لاتنفر منه القلوب لذلك اضطر جلال الدين منكبرتى إلى مغادرة كرمان والذهاب إلى اقليم فارس وعندما قرب السلطان من أطراف مدينة شيراز بادر صاحبها الاتابك سعد بإكرام جلال الدين منكبرتى رغبة منه فى الإنتقام من غياث الدين أخو جلال الدين منكبرتى الذي اقتطع أجزاء كبيرة من مملكته[٣]، ولتوثيق مراسيم الاتفاق الذى حصل بين الطرفين تم زواج السلطان جلال الدين منكبرتى من ابنه الاتابك سعد ابن دكلا، ثم توجه جلال الدين منكبرتى من شيراز إلى اصفهان[٤] وعندما سمع به أخوه غياث الدين وكان بالرى أصابه الذعر والخوف فبدأ يعد العدة

---

(١) براق الحاجب: هو مؤسس أسرة كتلغ خان فى كرمان، وكان أصلاً فى خدمة الخطا، ثم خدم خوارزم شاة، ولم يلبث أن استقر فى كرمان إلى أن قدم المغول من أوكيتاى فأظهر من الولاء والاخلاص ماجعلهم يقرونه فى أمارته ويمنحونه لقب تلغ خان. انظر الباز العرينى، المغول، ص ١٦٦، حاشية ١.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ١٧٤، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣،ص ٢٨-٢٩، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٦٠.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ١٧٥-١٧٦، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ص ٥٣. العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢١هـ.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ١٧٦، الذهبى، تاريخ الاسلام،طبقة٦٣، ص ٥٩، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ٢٦١.

ويجمع العساكر للقاء أخيه جلال الدين الدين منكبرتي وطرده من مملكته، ثم سار على رأس قواته التي قدرت بنحو ثلاثين الف فارس وعندما سمع جلال الدين منكبرتي بذلك أدرك عجزه من مقاومة غياث الدين عسكرياً فلجأ إلى استعطاف أخيه برسالة عاطفية أرسلها مع أحد خواصه ولقد تأثر غياث الدين بهذه الرسالة ورق لحال أخيه وعاد إلى الرى وتفرقت عساكره في البلدان[١] إلا أنه لم تنته مهمة رسول جلال الدين عند هذا الحد بل قام بالإتصال بجماعة من الأمراء السلطانية وأعطاهم خواتم مرسلة لهم من جلال الدين علامات منه يعدهم ويمنيهم الدرجات العلى ليستميلهم إليه وانقسم هؤلاء الأمراء إلى فريقين، منهم من أخذ الخاتم وسكت رغبة منه في مناصرة جلال الدين منكبرتي، منهم من سارع إلى غياث الدين وناوله الخاتم، فادرك غياث الدين مكر أخيه به فأمر بالقبض على الرسول[٢] وما إن سمع جلال الدين بذلك حتى سار مسرعاً في ثلاثة الآف فارس ليقبض على أخيه ويحول بينه وبين تجميع عساكره المتفرقة في البلدان ففوجيء غياث الدين بذلك فركب فرسه وهرب إلى قلعة سلوقان[٣]، ونزل جلال الدين إلى خيمته وبها الاميرة بكلواى والدة غياث الدين فعاملها معاملة حسنة وأنكر انزعاج أخيه وقال: " لم يتول من بنى أبى سواه، وأنا له فيما يميل إليه ويهواه، وإنه اليوم عندى بمنزلة العين الناظرة أو أعز" فأرسلت إليه والدته تبين له موقف أخيه منه فعاد غياث الدين إلى خدمة جلال الدين منكبرتي.[٤]

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص١٧٦-١٧٧، الذهبى، تاريخ الإسلام، الطبقة ٦٣، ص٥٩، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧،ص٢٦١، العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢١هـ.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ١٧٧، الذهبى، المصدر السابق، طبقة ٦٢، ص٥٩، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ٢٦٢، العينى، المصدر السابق، حوادث سنة٦٢١هـ.

(٣) سلوقان: قلعة حصينة في الرى. انظر النسوى، سيرة جلال الدين، ص ١٧٨.

(٤) النسوى، المصدر السابق،ص١٧٧-١٧٨، الذهبى،تاريخ الإسلام، الطبقة٦٢،ص٥٩، ابن

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

ونستبعد صحة هذه الرواية فوالدة غياث الدين يهمها سيطرة ابنها على البلاد التي استقر فيها فكيف تحاول إقناع ابنها بالتخلي عن سلطانه والدخول في طاعة أخيه جلال الدين ولعلها لجأت إلى ذلك تحت الضغط والتهديد من قبل جلال الدين.

ولما استقرت الأمور لجلال الدين منكبرتي بدأ يتجهز للقضاء على الخلافة العباسية والتي كان يظن أنها السبب في زوال ملك أبيه على يد التتار، وفعلاً سار بقواته صوب خورستان[١] الواقعة ضمن ممتلكات الخليفة العباسي الناصر لدين الله[٢] (٥٧٥هـ -٦٢٢هـ) وحاصر مدينة تستر[٣] في المحرم سنة ٦٢٢هـ وكان بها مملوك الخليفة مظفر الدين المعروف بوجه السبع، الذي تمكن من الصمود إزاء الحصار الشديد الذي فرضه جلال الدين حول هذه المدينة، وعندما اخفقت هذه القوات من السيطرة عليها أخذت تهاجم وتنهب الأراضي والأرياف المجاورة لها مثل بادرايا وباكسايا[٤] ووصلت غاراتهم إلى حدود البصرة، ولم يستطع عسكر الخليفة الذي كان يقوده الأمير جمال الدين قشتمر أن يضع حداً لانتهاكات عسكر

---

ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص٢٦٢.

(١) خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز الواقعة بين فارس والبصرة ووسط جبل اللور المجاورة لاصفهان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) هو العباس أحمد بن الحسن المستضيء بن المستنجد يوسف الملقب بالناصر لدين الله بويع بالخلافة سنة ٥٧٥هـ وتوفى سنة ٦٢٢هـ وكان فاضلاً عالماً أديباً حسن الرأى والتدبير حسن السياسة. انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص١٧١.

(٣) تستر، أعظم مدينة بخوزستان. انظر ياقوت، معجم البلدان

(٤) بادريا: بليدة قرب باكسايا بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي في أقصى النهروان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

الخوارزمى لاراضى الخلافة العباسية، ثم سار جلال الدين إلى يعقوبا ودقوقا[(١)] وقتل ونهب وسبى " وفعل اشنع من فعل التتر" وعزم على مهاجمة بغداد فخاف الخليفة من ذلك وأخذ يفرق المال والسلاح على العساكر، وحصن الأسوار ونصب عليها المجانيق[(٢)] واراد جلال الدين أن يستميل الملك المعظم عيسى ويكون معه حلفاً ضد الخليفة الناصر لدين الله فكتب إليه كما يقول أبوالمظفر: " وحكى لى المعظم قال كتب لى يقول أنت تحضر ومن عاهدنى واتفق معى حتى نقصد الخليفة فإنه السبب في هلاك أبى ومجيء الكفار إلى البلاد ووجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخيل والخلع " ولم يستجب المعظم لطلب جلال الدين في حرب الخليفة وكتب إليه يقول " أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه أمام المسلمين"[(٣)] ويتضح لنا من خلال موقف الملك المعظم مدى المكانة المعنوية التى يحتلها الخليفة لدى كثير من حكام المسلمين وعامتهم، فعلى الرغم من ضعف الخلافة العباسية وانفصال كثير من الحكام عنها إلا أنها لازالت تمثل رمزاً شرعياً لديهم بغض النظر عن مدى أهلية خلفائها للخلافة.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أهل البوازيج[(٤)] وهي لبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل خافوا من جلال الدين وأرسلوا إليه في طلب الامان بعد أن بذلوا له مالاً

---

(١) يعقوبا: قرية كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان. ودقوقا، مدينة بين إربل وبغداد. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٥، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٣٤، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٥٧-٥٨، القلشندى، مآثر الانافة، ج٢، ص٦١، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص٤٩، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص٩٦-٩٧.

(٣) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص٦٣٤، وانظر أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص١٤٢، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ٩، نافع العبود، الدولة الخورزمية ص ١٥٤.

(٤) البوازيج : بلدة قرب تكريت تعد من أعمال الموصل، انظر ياقوت، معجم البلدان.

مقابل أن يكف عنهم، واستجاب لهم جلال الدين وأرسل إليهم من يحميهم،ثم دخل صاحب إربل في طاعتة على أثر مراسلات جرت بين الطرفين.[١]

وفي الحقيقة أن هذه الأعمال التى قام بها جلال الدين منكبرتى ضد الخليفة العباسى لم تكن تخدم وحدة الصف الاسلامى بقدر ماتزيد من تمزق كيان الامة الاسلامية وتجعله فريسة سهلة لإعدائها المتربصين بها من كل جانب.

اتجه جلال الدين منكبرتى بعد ذلك إلى أذربيجان حيث بلغه تهديد ايغان طايسى خال غياث الدين لممتلكاته بعد أن أطمعه الخليفة الناصر لدين الله في ذلك وتمكن جلال الدين منكبرتى من مباغتة ايغان طايسى الذي اضطر إلى طلب الامان من جلال الدين فأمنه وعفى عنه وأقام جلال الدين في مراغه[٢] حيث أعجبه المقام بها، ولما سمع به صاحب أذربيجان وأران [٣] مظفر الدين اوزبك بن البهلوان[٤] سار من توريز عاصمة أذربيجان واتجه إلى كنجة[٥] خوفاً من جلال الدين وبقيت زوجته وهى ابنت السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلجوقى مقيمة بتوريز، ثم سارع جلال الدين منكبرتى بالذهاب إلى توريز واحكم حصارها وقاتل أهلها قتالاً شديداً[٦] إلى أن طلبوا الأمان منه وأذعنوا له بالطاعة

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٦، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٠٩-١١٠، العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٢هـ.

(٢) مراغة: بلدة مشهورة عظيمة أعظم واشهر بلاد أذربيجان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) أران: ولاية واسعة وبلاد كثيرة من اصقاع أرمينية. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) هو مظفر الدين اوزبك بن محمد بهلوان جهان بن ايلدكز أحد اتابكة أذربيجان (٦٠٧-٦٢٢هـ) وهو آخر حكام اسرة ايلدكز. انظر ستانلى لين بول، الدول الاسلامية، ص٣٦٦.

(٥) كنجة: مدينة عظيمة هى قصبة بلاد أران، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٦) النسوى، سيرة جلال الدين، ص١٩٥-١٩٦، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص٥٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٤٨-١٥١الخطيب العمري، الدرر المكنون في المآثر

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

لخوفهم الشديد منه لأن جلال الدين كان يذمهم ويقول "قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤسهم إلى التتر الكفار"[١]، فعفى عنهم جلال الدين وامنهم وآمن كذلك بنت السلطان طغرل زوجة أزبك وأقرها على مدينة خوى[٢] ودخل جلال الدين إلى توريز وملكها سابع عشر رجب سنة ٦٢٢هـ[٣]، وبذلك اصبح جلال الدين يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية، وسر المعظم لذلك سروراً عظيماً وسارع إلى الإتصال بجلال الدين لتوثيق العلاقة معه فأرسل باطناً رجلاً صوفياً من خانقاه السمياطي يقال له الملق يبين له اتفاقه مع مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل ضد الملك الأشرف ويدعوه إلى موافقتهم على ذلك وأرسل له ظاهراً مملوكه المعروف بالركين، فوافقه جلال الدين على طلبه لأنه وجد في ذلك فرصة لتوسيع نفوذه على حساب ماجاوره من البلاد ثم بادر الملك المعظم عيسى بتزويج ابنته المعروفة بدار مرشد من جلال الدين منكبرتي حتى يضمن تحالفه معه[٤]، ولم يلجأ الملك المعظم إلى ذلك إلا معاندة لأخيه الكامل ولأخيه الأشرف صاحب البلاد الشرقية.[٥]

---

الماضية من القرون، ورقة ٢٣٨.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ١٤٩-١٥٠.

(٢) خوى: بلد مشهورة من أعمال أذربيجان حصن كثير الخير والفواكه، انظر ياقوت، معجم البلدان، كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص١٤٩-١٥٠، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٥٨-٦١، الديار بكري، تاريخ الخميس، ج٢، ص٣٩٦.

(٤) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٣٢،٦٦٩، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٥٤، حامد زيان غانم، الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية، ص١٠٩.

(٥) ابن واصل، المصدر السابق، ج٤،ص١٤٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢١٦.

على أن جلال الدين منكبرتي كان يرغب في إقامة علاقة حسنة مع ملـوك بنـي أيوب، فأرسل مـن جانبـه فـي سـنة ٦٢٢هـ -١٢٢٥م رسـوله مجـد الديـن قـاضي الممالك الحنفى إلى ملوك بنى أيوب الثلاثـة " الأشـرف والمعظـم والكـامل" وعنـد وصوله إلـى الملـك الأشـرف والملـك المعظـم " احسـنا فـي عطائـه وحرمتـه غايـة الإحسـان". [١]

ولعل هذا العمل الذي أقدم عليه جلال الدين منكبرتي يعكس رغبته في إحلال التفاهم والوئام مع ملوك بنى أيوب، ومع ذلك فإن علاقة جلال الديـن إزدادت قـوة ومتانة مع الملك المعظم عيسى دون غيره من ملوك الشام والجزيرة[٢] ولـم تقتصـر علاقة جلال الدين هنا بالممالك الإسلامية بل نجده يأخذ على عاتقـه مهمـة الدفـا ع عن اراضى المسلمين ضــد إعتـداءات الكـرج[٣](أو الجرجـانيون) المسـتمرة علـى الأراضي الإسلامية المجاورة مما أكسبه سمعة طيبة من وجهة النظر الإسلامية، فقبل مجيء جلال الدين كانت غاراتهم المدمرة تثير الرعب والهلـع للسـكان المسـلمين في خلاط وأذربيجان وأران وأرزن الروم وعاشوا تحت الذل والخزى، ولـم يتحـرك صاحب أذربيجان ازبك بن البهلوان لنصرة المسلمين إذا كان منغمساً فـي شـهواته وملذاته فنظر الله إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمـة فرحمهـم ويسـر لهـم جـلال الديـن الـذي اسـتطاع أن يفتـك بـالكرج وينتقـم للاسـلام والمسـلمين سـنة

---

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١١٥، المقريزى، السلوك،ج١، ق١، ص ٢١٦.

(٢) محمود ياسين أحمد التكريتى، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص٢٨٩.

(٣) الكرج : جماعة من المسيحين كانوا يسكنون في جبال القبـق ( القوقـاز) وقويـت شـوكتهم حتىملكوا تفليس من المسلمين سنة ٥١٥هـ ولم يزالوا متملكين لهـا إلـى أن أغـار عليهـم جـلال الدين خوارزم شاة سنة ٦٢١هـ واسترد تفليـس منهـم. انظر يـاقوت، معجـم البلـدان، وانظـر بـن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٩٢،حاشية١.

٦٢٢هـ[١] ولم يتوقف جلال الدين عند هذا الحد بل نجده يعاود الكرة مرة اخرى ويغزوا الكرج في عقر دارهم، حيث انطلق بجيوشه إلى اراضيهم في شهر ربيع الأول عام٦٢٣هـ/ مارس ١٢٦٦م وفتك بعساكرهم ودخل عاصمتهم مدينة "تفليس"[٢] ومع ذلك لم تكن الخلافة العباسية لترضى عن هذه الأعمال التى قام بها جلال الدين منكبرتى لخوفها الشديد من تهديدات جديدة لأراضيها يقوم بها هذا الأمير الخوارزمى فقررت إفساد العلاقة بينه وبين الملك المعظم عيسى فعندما توفى الخليفة الناصر لدين الله في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وخلفه ابنه الظاهر لأمر الله[٣] (٦٢٢هـ -٦٢٣هـ). عمل هذا الخليفة على اثناء الملك المعظم عيسى عن مولاة جلال الدين منكبرتى ومصالحة أخويه الكامل محمد والأشرف موسى ولهذا الأمر بعث الخليفة الظاهر رسوله محى الدين بن الجوزى إلى دمشق حاملاً الخلع إلى الملك المعظم وإخوته، ورسالة إلى المعظم جاء فيها " المصلحة رجوعك عن هذا الخارجى ( يعنى جلال الدين) وترجع إلى اخوتك ونصلح بينكم".[٤]

وفي تصورى أن الملك المعظم لم يذعن لذلك لمعرفته المسبقة بتخاذل الخلافة عن نصرتهم في المواطن الحرجة ضد اعداء الأسلام من الصليبيين، فخشى إن تراجع عن جلال الدين أن يتمكن إخوته منه وحينئذ لاينجده الخليفة، وقد عبر المعظم عن عدم إرتياحه لذلك برده على رسول الخليفه" مالكم عادة تنجدون أحد،

(١) النسوى سيرة جلال الدين، ص١٩٧-٢٠٠، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٩.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص٢١١-٢١٢، أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص١٤٢، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٢٧١-٢٧٨.

(٣) هو أبونصر محمد بن الأمام الناصر أحمد تولى الخلافة بعد وفاة والده وتلقب بالظاهر وكانت خلافته تسعة شهور وأربعة عشر يوماً وكان حسن السيرة حسن الاعتقاد عادلاً كريماً كثير الخير والصدقة كارهاً للظلم وأهله. انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص١٧٣-١٧٤.

(٤) أبوشامة، المصدر السابق، ص ١٤٧.

هذه كتب الخليفة الناصر لدين الله عندما كنا على دمياط نكتب ونستصرخ به فيجيء الجواب بأنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا"[(١)] ، وأجاب المعظم رسول الخليفة بقوله " مثلي معكم كمثل رجل كان يخرج إلى الصلاة وبيده عكاز خوفاً من الكلاب فقال له بعض اصدقائه: انت شيخ كبير وهذا العكاز يثقلك وأنا ادلك على شيء يغنيك عن حمله قال: وما هو؟ قال: تقرأ سورة يس عند خروجك من الدار ومايقربك كلب. واقام مدة فرأى الشيخ حامل العكاز فقال له: اما قد علمتك مايغنيك عن حمله ؟ فقال: هذا العكاز لكلب لايعرف القرآن.

وقد اتفق اخوتي علي وقد أنزلت ابن الخوارزمي على خلاط إن قصدني أخي الأشرف منعه وإن قصدني أخي الكامل فأنا له "[(٢)] وسارع المعظم إلى تشكيل حلف دفاعي ضد الملك الأشرف واتباعه وتألف الحلف من جلال الدين منكبرتي ومظفر الدين صاحب إربل وصاحب آمد، وناصر الدين صاحب ماردين[(٣)] ، وتم توزيع المهمام بين اعضاء الحلف بحيث يقوم الملك المعظم عيسى بمهاجمة حمص وحماة في حين يتجه مظفر الدين إلى الموصل للسيطرة عليها ويقوم جلال الدين بمهاجمة مدينة خلاط قاصداً من ذلك تشتيت جهود عساكر الحلف المقابل والذي ضم الأشرف وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصاحب حمص وحماة اضافة إلى مساندة الكامل صاحب مصر لاعضاء هذا الحلف[(٤)] واستطاع المعظم

---

(١) أبوشامة، تراجم رجال رجال القرنين، ص ١٤٧-١٤٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٦٣-٢٦٤.

(٢) ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧،ص ٢٨١، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص١٤.

(٣) ماردين: قلعة مشهورة علىقمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ونصيبين. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٦-١٧٧، محمود ياسين أحمد التكريتي الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة والشام، ص٢٨٩، عماد الدين خليل، الامارات الأرتقية في الجزيرة والشام، ص ١٧٨.

عيسى بحنكته أن يمنع الملك الكامل من الخروج من مصر لمساندة الأشرف وحلفائه، إذ أوهمه أن معظم امراء عسكر مصر يميلون إليه وحذره أنه إذا خرج من مصر أخذه بعسكره فلم يجسر على الحركة" [١]، وهنا خاف الملك الكامل من امرائه ولم يستطع الخروج من مصر خاصة بعد وصول ابن أخيه الجواد يونس بن مودود بن العادل إلى المعظم بدمشق فاراً من مصر " فتخيل من بعض عسكره فما امكنه الخروج عنها". [٢]

وهذا الأمر يدل على ذكاء المعظم عيسى فقد عمد إلى زعزعة ثقة أخيه الملك الكامل بإمرائه عندما أوهمه في تلك المراسلات بأنهم يعملون على الإطاحة به والتحالف ضدة.

وحينئذ قرر المعظم قصد حمص وحماه ورأى أن يبدأ بحمص أولاً فأرسل جماعة من عرب دمشق اغاروا على قرى حمص والحقوا بها اضراراً بالغة، في حين أرسل الأشرف من جهته الأمير مانع بن حديثه أمير آل فضل في جموع كثيرة من العرب نجدة لصاحب حمص ونهبوا اثناء سيرهم قرى المعرة وحماة، ثم خرج المعظم عيسى في عساكره من دمشق متجهاً صوب حمص، وعندما قاربها وتقهقر عرب حلب والجزيرة إلى قنسرين [٣] ثم نزلوا قرى حصار [٤] وتركوا أضغانهم بمرج

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٧، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٢٠.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١١٣، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٣٦، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ص٢١٥، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب،ص ٣٣٠، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٢٢.

(٣) قنسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) قراحصار ( الحصن الاسود) اسم يطلق على أماكن كثيرة مختلفة بآسيا الصغرى مثل قرى حصار صاحب وقرى حصار شرقي وقرى حصار بهرامشاه... وكل هذه الاماكن واقعة على مرتفعات حصينة من الصعب الوصول إليها أحياناً، ويحتمل أن تكون قد شيدت كمأوى لبعض

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

دابق وانطلقوا صوب حمص لنجدة أهلها ودارت بين عرب مانع وعرب دمشق معارك عدة في الوقت الذي أرسل فيه الاتابك شهاب الدين الخادم[١] عسكراً من حلب نجدة لصاحب حمص، فدخلوها قبل منازلة الملك المعظم لها بعد أن جرت بين الطرفين مناوشات قرب مدينة حمص. وعندما ادرك المعظم صعوبة اقتحام حمص أرسل إلى صاحبها وعرض عليه التحالف معه ضد الملك الأشرف فما أطاعه صاحب حمص وهنا غضب المعظم وشن غارات متكررة على قرى حمص وضواحيها وكبدها خسائر فادحة إلا أنه لم يستطع دخول المدينة لحصانتها، واضطر الأخوان في النهاية إلى عقد هدنة بينهما بعد أن انتشرت الامراض في معسكر المعظم ونقصت المؤن داخل حمص والتقى الأخوان المعظم عيسى والأشرف موسى قرب حمص ودخلا دمشق ثاني عشر رمضان سنة ٦٢٣هـ / سبتمبر ١٢٢٦م ولعل مما اجبر الملك الأشرف على طلب الصلح من أخيه الملك المعظم عيسى هو قطع مادة الشر بينهما[٢] إضافة إلى بروز خطر جديد هدد نفوذ الأشرف في منطقة الجزيرة، تمثل في حركة سلطان الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقي الذي اتفق في بداية الأمر مع الملك الأشرف ضد جلال الدين الخوارزمي فاوعز إليه الملك الأشرف بمهاجمة صاحب آمد

---

جماعات السكان وقت الحروب في آسيا الصغرى، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ١٧٧، حاشية ٦.

(١) شهاب الدين طغرل الخادم كان مسئولاً عن قلعة حلب بوصية من الملك الظاهر غازى، وظل يلي أمور المملكة حتى بلغ العزيز بن الظاهر سن الرشدسنة ٦٢٨هـ. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص ٢٣٨.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص١٢٥-١٢٧، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٩٤٣-٩٤٤، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٣هـ، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٤٠، العينى، عقد الجمان، حوادث، سنة٦٢٣هـ، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٢٢-١٢٣.

المسعود الأرتقى الذي انضم إلى حلف الملك المعظم، فسار علاء الدين إلى ملطية[١] وأرسل العساكر إلى بلاد آمد فتمكنوا من فتح حصن منصور[٢] وغيره. ولما أحس صاحب آمد بالخطر بادر إلى الإتصال بالملك الأشرف معلناً دخوله في طاعته، عندئذ أرسل الأشرف إلى علاء الدين كيقباذ يطلب أن يعيد إلى صاحب آمد ما أخذه منه فامتنع كيقباذ عن ذلك قائلاً " ماكنت نائباً للاشرف يأمرني مرة وينهاني أخرى"[٣] فسير الأشرف عساكره لمساندة صاحب آمد وجمع صاحب آمد عساكره وساروا لملاقاة عساكر الروم وتقابل الطرفان ومنيت عساكر الأشرف وصاحب آمد بهزيمة شنيعة[٤]

وكان الأجدر بالملك الأشرف أن يقدر لعلاء الدين موقفه كحاكم دولة نداً له فلايخاطبه بما يسيء إليه وإنما يحاول أن يعزز العلاقة الحسنة فيما بينهما لتحقيق مصالحهما المشتركة في الوقت الذي تقدم فيه صاحب إربل مظفر الدين لحصار صاحب الموصل ونزل الزاب[٥] فاستنجد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأشرف، وعندما علم مظفر الدين صاحب إربل بالاتفاق الذي حصل بين المعظم والأشرف ادرك عجزه عن قتال أهل الموصل فعاد إلى إربل بعد أن دمر وخرب بعض قرى الموصل.[٦]

---

(١) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة، مذكورة تتاخم الشام وهى للمسلمين. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) حصن منصور: من أعمال ديار مضر لكنه غربى الفرات قرب سمسياط. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٦٩، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٢٥.

(٤) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٦٩، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٩٤٤، عماد الدين خليل، الامارات الارتقية في الجزيرة والشام، ص ١٧٩.

(٥) الزاب: تقع بين الموصل وإربل. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص٣٦٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٨٨-١٨٩.

وعلى اية حال فإن الملك المعظم اظهر السرور والإبتهاج بمقدم الملك الأشرف وأمر بتزيين البلد فرحاً بهذا الحدث العظيم " وحاله في الباطن بخلاف ما أظهر والرسل مع ذلك تتردد بين الملك المعظم وبين السلطان جلال الدين ابن خوارزم شاه"[١] ويبدو أن المعظم حرص على استمرار علاقته بجلال الدين الخوارزمى ليقف معه في وجه اى تحالف يهدد ملكه في دمشق، كما أن جلال الدين الخوارزمى كان راغباً هو الاخر في إدامة هذه العلاقة، فأرسل رسولاً كبيراً من قبله إلى المعظم خلع عليه واعطاه سنجقاً[٢] وحربتين وسيفاً، فأظهر المعظم هذا الأمر وأصبح يلبس خلعة جلال الدين منكبرتى وفرسه في حضرة رسل الخليفة وإذا خاطب الأشرف حلف برأس جلال الدين منكبرتى.[٣]

وهكذا استطاع المعظم أن يفرض نفسه على أخيه الأشرف ليلزمه بموافقته في السيطرة على بلاد الشام وضم حمص وحماة إلى مملكته. وندم الأشرف على مقدمه على أخيه المعظم حيث شعر بسيطرة المعظم عليه، وبدأ الأشرف يخطط للخلاص من هذه السيطرة، كل ذلك يحدث وهما في الظاهر متوادان ومتصافيان

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٩٤٤-٩٤٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٩، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢١٢، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٢٤.

(٢) السنجق: جمع سناجق وهو لفظ تركى كان يطلق أصلاً على الرمح ثم أطلق على الراية التى تربط به وكانت السناجق تحمل بين يد السلطان في مواكبه. انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥، حاشية ١.

(٣) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٢٠-١٢١، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٢٨١، على عودة، المرجع السابق، ص١٢٤. *والحلف لايجوز إلا بالله، وهذه الصيغة من الصيغ المحرمة شرعاً.*

على كل شيء[١]، وفي تلك الفترة وردت الأخبار إلى دمشق بعزم جلال الدين على قصد خلاط وانتزاعها من الأشرف حسب الاتفاق السابق الذي تم بين جلال الدين والمعظم عيسى وغيرهما، ولكن بلغ جلال الدين في هذه الفترة من جمادى الاخرة سنة ٦٢٣هـ عصيان نائبه بكرمان عليه وخروجه عن طاعته مما أجبر جلال الدين على العودة إلى كرمان للقضاء على هذا النائب وإخماد ثورته ولكنه عجز عن ذلك لمناعة الحصون التي يتحصن بها وهذا الأمر يتطلب فترة زمنية طويلة لحصارها فلجأ جلال الدين إلى مداراته وأرسل إليه الخلع وأقره على ولايته، وفي تلك الاثناء وصل إليه رسول من وزيره شرف الملك "يعرفه أن عسكر الملك الأشرف الذين بخلاط قد هزموا بعض عسكره وأوقعوا بهم " وكان يحثه على الإسراع لإنقاذ الموقف ويحذره من التوانى.[٢] وسار جلال الدين من كرمان إلى تفليس وضيق الخناق على الكرج ثم انطلق إلى بلاد ابخاز[٣] يتتبع الكرج فانتصر عليهم وقتل وسبى ثم عاد إلى تفليس ولم يكن رجوعه إليها إلا حيلة لنائب الأشرف على خلاط حسام الدين على الذي حصن خلاط وزودها بما تحتاجه لخشيته من جلال الدين، وعندما تأكد جلال الدين من ذلك سار مجداً لقصد خلاط، ولحسن الحظ كان هناك من يراسل نواب الأشرف بالأخبار فوصل إليهم الخبر قبل وصول جلال الدين بيومين، الذى حاصر ملاذكرد[٤]، يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة ثم رحل عنها

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٩٤٥-٩٤٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٨٠-١٨١، ٢٠٤-٢٠٥، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص٣١٠.

(٢) ابن الاثير،الكامل، ج٩، ص٣٦٧-٣٦٨، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص١٨٧، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص٢٧٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٢٨.

(٣) ابخاز: اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب وهي جبال صعبة المسالك وعرة تجاور بلاد اللان يسكنها أمة من النصارى ويقال لهم الكرج. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ملاذكرد: أو منازجرد بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم في أرمينية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

ونازل مدينة خلاط يوم الأثنين خامس عشر ذي القعدة سنة ٦٢٣هـ[١] ولقد أردك بعض أهل الرأي والمشورة عواقب حصار جلال الدين لخلاط خشية اطماعه التوسعية في الممتلكات الأيوبية مستقبلاً ومما يدل على ذلك ماورد في أحدى رسائل ضياء الدين بن الأثير والتي وجهها إلى الملك الأشرف تحذره من مغبة السكوت عن ذلك إذ جاء فيها: " ومما ينبغي أن يظن بهذا العدو أنه نازل خلاط وحدها، وواقف عندها، وإنما هو سيل إن لم يكف وإلا جاشت بالشام غواربه وفاضت على جوانب مصر جوانبه".[٢]

وعلى أية حال فقد هاجم جلال الدين خلاط ووصل عسكره إلى سور البلد " وقاتل أهل البلد قتالاً عظيماً فعظمت نكاية العسكر في أهل خلاط ثم تقدم جلال الدين بجيشه إلى الربض[٣] ودمروا ونهبوا وسبوا الحريم الأمر الذي آثار نخوة أهل خلاط فحرض بعضهم بعضاً على القتال فخرجوا إلى عسكر جلال الدين وقاتلوهم واستطاعوا إخراجهم من البلد بعد أن قتل خلق كثير من الطرفين، واسر عسكر جلال الدين جماعة من امراء خلاط، واستراح جلال الدين عدة أيام ثم عاود الهجوم على خلاط واقتتل مع أهل البلد الذين كانوا مجدين في القتال للدفاع عن انفسهم حتى لايقعوا فريسة العسكر الخوارزمي فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله ولم يستطع جلال الدين دخول مدينة خلاط لاستماته أهلها في الدفاع عنها ولإشتداد البرد ونزول الثلج عليها وخروج التركمان الايوانية عليه

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٦٩-٣٧٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص١٨٩-١٩٠، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٢٨.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٣٠، الذهبي، المصدر السابق، ص١٢٨، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص١٤،١٥.

(٣) الربض: يقصد ربض بعلبك والربض هو ماحول المدينة من الخارج وقلما تخلو مدينة من ربض، انظر ياقوت، معجم البلدان.

إضافة إلى إذعان جلال الدين لطلب المعظم بالرحيل عن خلاط وذلك نزولاً عند رغبة الأشرف فرحل عنها يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٦٢٣هـ / ديسمبر ١٢٢٦م.[١]

وأرى أن شدة جلال الدين وجيشه في محاولة الاستيلاء على خلاط لاتبرر ما رافق ذلك الهجوم من تدمير وإفساد لأن ذلك انتهاك لحرمات المسلمين واعراضهم التى حرمها الله إلا بالحق.

أقام الأشرف عند أخيه بدمشق مدة عشرة أشهر تحت الاقامة الجبرية كل ذلك والمعظم عيسى يحاول الضغط على الأشرف موسى لتحقيق اطماعه في تملك بلاد الشام، فادرك الأشرف أنه لامناص من سيطرة أخيه إلا بمساعدته على كل مايريد فحلف له مكرهاً على مناصرته ضد السلطان الكامل والملك المجاهد صاحب حمص والملك الناصر صاحب حماة فاطمأن المعظم إلى ذلك وسمح للأشرف بالرجوع إلى بلاده في جمادى الاخر سنة٦٢٤هـ / مايو ١٢٢٧م وعندما عاد الأشرف إلى بلاده نقض جميع ماتقرر بينه وبين أخيه وتأول في ايمانه بأنه مجبر عليها فندم المعظم على تمكينه من الخروج عليه وأرسل الاعراب للاغارة على حمص وحماة فعاثوا فيها.[٢]

وازدادت بذلك شقة الخلاف بين ملوك الاسلام في تلك الفترة واصبحت المصالح الشخصية فوق كل الاعتبارات على الرغم من أن الموقف يتطلب وحدة الصف مصداقاً لقوله تعالى﴿ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٧٠-٣٧١، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٣هـ، الذهبى، العبر، ج٣، ص١٨٩، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص٥٤.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٩٤٥-٩٤٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٠٤-٢٠٥، أبوالفداء، المختصر، ج٣، ص١٣٧، الخطيب العمري، الدرر المكنون في المآثر الماضية من القرون، ورقة ٢٤٠.

مرصوص﴾[١] لمجابهة الأخطار التى باتت تهدد كيان الامة الاسلامية.

ومما زاد الأمر سوءاً هو استنجاد السلطان الكامل بالامبراطور فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة إذا أنه أحس بخطورة موقفه تجاه أخويه المعظم والأشرف حيث تيقن انهما اتفقا عليه[٢]، فضلاً عن استمرار علاقة المعظم بجلال الدين منكبرتى الذى آثر المحافظة على استمرار هذه العلاقة فأرسل إلى جلال الدين رسولاً هو النجم خليل الحموى قاضى العسكر ومملوكه المعروف بالركين فبقيا عنده تسعة شهور ثم عادا إلى المعظم سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م.[٣]

ونتيجة لذلك أرسل الملك الكامل رسولاً هو شيخ الشيوخ فخر الدين يوسف ابن صدر الدين[٤] إلى الامبراطور فرديك الثاني يطلب منه القدوم إلى الشام لمساندته ضد أخيه المعظم وحلفائه، وتعهد له مقابل ذلك أن " يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل".[٥]

ويبدوا أن الملك الكامل قد جانب الصواب في تقدير الموقف عندما استنجد

---

(١) سورة الصف، آية رقم (٤).

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٧١، العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ، خاشع المعاضيدى، تاريخ الوطن العربى والغزو الصليبيى، ص٢٠٧-٢٠٨، عبدالقادر أحمد اليوسف، علاقات الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر، ص١٧٧.

(٣) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص١٣٢.

(٤) ينتمى اولاد الشيخ ( بنو حموية) إلى أسرة فارسية متصوفة وكانوا فقهاء شافعية هاجر فرع من هذه الأسرة إلى الشام وتمتعوا بنفوذ كبير زمن بنى أيوب الآواخر خاصة السلطان الكامل وأولاده، انظر ابن واصل مفرج الكروب، ج٤، ص٩١، حاشية (٣).

(٥) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٤، وانظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٦-٢٠٧، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ح٢، ص٢١٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج١، ص٤٠٥، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص٣١٠-٣١١.

بالأمبراطور فردريك ووعده إياه بتسليمه بيت المقدس، وكان بالامكان أن يبذل الملك الكامل جهده في حل الخلاف بينه وبين اخوته بالطرق السلمية بدلاً من الاستعانة بالعدو التقليدى لهم جميعاً. وما إن سمع المعظم بذلك حتى سارع إلى مكاتبة جلال الدين منكبرتى يطلب منه إرسال نجدة إليه ووعدة في المقابل أن يخطب له على المنابر ويضرب السكة باسمه فرد عليه جلال الدين باهدائه خلعة لبسها وشق بها دمشق.[(١)]

فلما بلغ الكامل ذلك خرج من القاهرة ونزل بلبيس في رمضان سنة ٦٢٤هـ / اغسطس ١٢٢٧م. عندئذ لجأ المعظم إلى تخويف وتهديد أخيه الكامل فبعث إليه رسالتين أحدهما سرية جاء فيها " إنى نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدى اتصدق بالف دينار، فإن جميع عسكرك معى وكتبهم عندى وأنا أخذك بعسكرك"[(٢)] والاخرى في علانية ورد فيها " بأنى مملوكك وماخرجت عن محبتك وطاعتك وحاشاك أن تخرج وتقابلنى وأنا أول من انجدك وحضر إلى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق" فأوجس الكامل خيفة من ذلك واظهر أمام الامراء ماورد في الرسالة الثانية حتى يثبط عزيمة من يفكر في مساعدة الملك المعظم حتى تتاح له الفرصة المناسبة للقبض عليهم، ورجع من العباسة إلى قلعة الجبل[(٣)]، ثم القى القبض على مجموعة من الأمراء من مماليك والده لأنه كان يشك بأنهم كاتبوا أخاه المعظم عيسى واعتقلهم وأخذ اموالهم وجميع

---

(١) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٤.

(٢) ابن العميد، المصدر السابق، ص١٤، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٢٠-٢٢١، العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ.

(٣) ابن العميد، المصدر السابق، ص١٤-١٥، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق١، ص٢٢٢. العباسة هي بليدة أول مايلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية. انظر ياقوت، معجم البلدان، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٢٧.

ممتلكاتهم[١]، وفي تلك الفترة وصلت سفارة من الامبراطور فردريك الثاني إلى السلطان الكامل رداً على سفارته تحمل معها الهدايا والتحف السنية فأحسن الكامل استقبالهم وبالغ في إكرامهم وحملهم حربة قيمة إلى الامبراطور.[٢] ثم انطلقت هذه السفارة إلى دمشق وطلبت من المعظم بيت المقدس وجميع مافتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين من بلاد السواحل فغضب المعظم وأعاد الرسول قائلاً له " قل لصاحبك ماعندى إلا السيف "[٣] واهتبل الامبراطور الفرصة وبدأ بتجهيز قواته إستعداداً للمسير إلى بلاد الشام، فبلغ ذلك المعظم الذى كان يدرك خطورة مجيء حملة صليبية جديدة إلى بلاد الشام فراسل أخاه الأشرف موسى ولاطفه وطلب منه مساعدته في التصدى لهذه الحملة ولكن الأشرف لم ينس معاملة أخيه المعظم له بدمشق وتحريض جلال الدين منكبرتى لمهاجمة خلاط " فعنفه على افعاله التى عامله بها وقرعه على ما اعتمده في حقه وحق أهله".[٤]

وحرصاً من المعظم عيسى على بيت المقدس سار من دمشق إلى القدس عندما سمع بمسير الصليبيين إليها وقام بتخريب ملامحها وعدة صهاريج بها[٥] إلا أن الاجل لم يمهل المعظم حتى يشاهد مافعله اخوه الكامل من تسليم بيت المقدس

---

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١١٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٥، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٢٢-٢٢٣.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق١، ص ٢٢٣، عادل عبدالحافظ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامى، ص٢٤٩.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٤٣، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣،ص٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٢٦.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٧، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص٣١١، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٤٠.

(٥) المقريزى،المصدر السابق، ج١، ق١، ص٢٢٣.

للفرنج فتوفى في ذى القعدة سنة ٦٢٤هـ/ نوفمبر سنة ١٢٢٧م.[١]

وفي تقديرى أنه بموت المعظم عيسى فقدت القوة التى كان بالامكان أن تحول بين الكامل وبين تنفيذ وعده بتسليم بيت المقدس للصليبيين. وتملك البلاد من بعده ابنه الناصر صلاح الدين داود وكان صغيراً، وقام بتدبير شؤن دولته عز الدين ايبك المعظمى[٢] صاحب صرخد.[٣]

وسر الملك الكامل بذلك لخوفه الشديد منه على الرغم من أن الكامل وغيره من ملوك بنى أيوب كانوا يعترفون له بالفضل في حفظ البلاد، فقد كان يقول: " من حفظ على البلاد واحيانى بعد الموت غيره" وكان يقول من أنبت الشعر على رؤوسنا إلا هو " وكان الأشرف يقول " الله بينى وبين الساعة التى ولد فيها" يقصد بذلك مولده قبل المعظم بقليل فكان يحترمه لذلك، وكان الظاهر صاحب حلب يقول " هو عين البلاد وواسطة العقد ولولاه لما قر لى بحلب قرار".[٤] وعلى اية حال فقد فشل ملوك بنى أيوب في نبذ الشقاق والنزاع فيما بينهم، الامر الذي دعاهم إلى استمرار الاستعانة بقوى خارجية تمثلت في قوة الخوارزمية وقوة الامبراطور الالمانى فردريك الثانى.

---

(١) الملك المعظم عيسى بن أبى بكر بن أيوب ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين وخمسمائة وبرع في الفقة والادب وشرح الجامع الكبير وصنف في العروض. ملك دمشق ثمان سنين وأشهر مات في ذى القعدة سنة اربع وعشرين وستمائة، انظر ترجمته في السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ص٤٦٥، محى الدين الحنفى (الجواهر المضيئة، ج٢، ص ٦٨٢- ٦٨٣، الحلبى، جهينة الأخبار، ورقة ٣٨، ابوالعدل، تاج التراجم، ص ٤٩، ابن طولون، تاريخ الصالحية، ق١، ص٢١٩.

(٢) عز الدين ايبك المعظمى هو استاذ دار الملك المعظم عيسى، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٢٤.

(٣) مفرج الكروب، ج٤، ص٢٢٤ ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص ٣٤٥٣، أبوالفداء، التبر السبوك في تواريخ اكابر الملوك، ورقة رقم ٨، ابن ابى‌الدم، التاريخ المظفرى، ق٥٤٩.

(٤) أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٢٨١.

# استيلاء جلال الدين على خلاط ٦٢٧هـ

فبعد وفاة الملك المعظم عيسى تآمر كل من الملك الكامل والملك الأشرف على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الملك الناصر داود فاضطر الاخير أمام اطماع عميه إلى الاستنجاد بحليف والده السابق جلال الدين منكبرتى إذ سير إليه رسولاً يخبره " بأن أعمامه إنما قصدوه لإنتمائه هو وأبيه إليه" وطلب منه إشغال عمه الأشرف بسرعة النزول على خلاط ومضايقتها.(١)

وفي هذا الوقت وصلت إلى بلاد الشام الحملة الصليبية السادسة بقيادة الأمبراطور الالمانى فردريك الثانى بناء على طلب الملك الكامل الذي أحس بالحرج بسرعة قدومها وأن وصول الامبراطور في هذا الوقت لن يفيده في شيء لوفاة أخيه المعظم عيسى حليف جلال الدين منكبرتى واضطر في نهاية المطاف بعد مفاوضات جرت بين الطرفين إلى عقد صلح يافا في ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م تقرر فيه: -

١-أن يسلم بيت المقدس للفرنج على شرط أن يبقى خراباً لايجدد سوره.

٢-أن تكون جميع قراه للمسلمين وعلى المسلمين وال منهم يكون مقره بالبيرة.(٢)

٣- أن يكون الحرم الشريف بما حواه من الصخرة والمسجد الاقصى بايدى المسلمين وشعارهم فيه ظاهر.

٤ -أن لايدخل الفرنج الحرم الشريف إلا للزيارة فقط.

٥ -أن تكون بعض القراى من عكا إلى القدس بايدى الفرنج خوفاً من

---

(١) مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٤٠.

(٢) البيرة هى قلعة بين بيت المقدس ونابلس، انظر ياقوت، معجم البلدان.

اعتداءات المسلمين عليها.[١]

وحلف كل من السلطانين الكامل محمد والامبراطور فردريك على هذا الاتفاق وعقد الهدنة لمدة معلومة.

ولقد أدى هذا الاجراء الشنيع الذى أقدم عليه الملك الكامل إلى اثارة سخط المسلمين عامة "وكأن القيامة قد قامت في جميع بلاد الاسلام واشتدت العظائم بحيث اقيمت المآتم"[٢] وتذمر المؤرخون من ذلك فقال اليافعى "أعوذ بالله من سخط الله ومن انتهاك شعائر الله وموالاة أعداء الله فكم بين من طهره من نجاسات الشرك وبين من ساق إليه نجاسات الشرك. ومن أعز دين الله ونصره وبين من اذله وخذله"[٣] كما عبر الذهبى عن إستيائه من ذلك بقوله "وكانت هذه من الوصمات التى دخلت على المسلمين وتوغرت القلوب على الكامل فإنا لله وإنا إليه راجعون".[٤]

وفي الوقت الذى كانت فيه الصراعات مستمرة بين ابناء البيت الأيوبى وكان جلال الدين منكبرتى مشغولاً بدفع التتار عن بلاد الاسلام، انتهز الحاجب على حسام الدين نائب الأشرف على خلاط هذه الفرصة واتجه بقواته صوب أذربيجان في شعبان ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م، وكان الدافع الحقيقى من وراء عملية الحاجب هى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٣-٢٣٤-٢٤١، ص ٢١٣،٢٣٣، ابن أبي الدم، التاريخ المظفرى، ورقة ٥٥٠، القلقشندى، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ج٢، ص ٧٩، عادل عبدالحافظ العلاقات السياسية، ص ٢٩١-٢٩٥، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٦٧.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٥٤، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة٦٢٦هـ، ابن ايبك الدوادر، كنز الدرر، ج٧،ص٢٩٣، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٧٢.

(٣) اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ٥٩، وانظر الذهبى، العبر، ص ١٩٧.

(٤) الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص٢٨، دول الاسلام، ج٢، ص١٣٢، وانظر أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص١٥٤.

كسر شوكة جلال الدين إذ أن " سيرة جلال الدين كانت جائرة وعساكرة طامعة في الرعايا"[١] ، إضافة إلى أن زوجة السلطان جلال الدين بنت السلطان طغرل السلجوقى أهملها زوجها ولم يلتفت إليها مع أنها كانت مع زوجها السابق أوزبك ابن البلهوان هى التى تدير شؤن البلاد وصاحبة الكلمة الأولى، فلما حصل لها من جلال الدين ذلك خافت منه فاستنجدت هى وأهل خوى بحسام الدين الحاجب " لتنفس من خناقها ويساعدها على استطلاقها على أن تسلم إليه ماتملكه من القلاع والبقاع".[٢]

كل هذه الأمور مجتمعة دعت الحاجب إلى المسير إلى أذربيجان فسار إليها على رأس قواته سنة ٦٢٤هـ /١٢٢٧م واتجه إلى خوى، وعندما علم شحنتها[٣] بقربة من خوى اخلوها وفتحت ابواب هذه المدينة للحاجب فدخلها وقام اصحابه بنهب هذه المدينة نهباً شنيعاً على غرار ماقام به جلال الدين عندما حاصر خلاط في المرة السابقة، واستمر اصحاب الحاجب في النهب حتى نودى بالكف عن ذلك، وما أن سمع به أهل نقجوان[٤] حتى سارعوا بمكاتبته فذهب إليهم وسلموا إليه المدينة. ثم مضى إلى مرند[٥] وكان سورها ضعيفاً فدخلها الحاجب، ورتب بها

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٧٤، وانظر العينى، عقد الجمان، حوادث، سنة ٦٢٤هـ.

(٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص٢٧٤، وانظر النسوي، سيرة جلال الدين، ص٢٥٩، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٧، الذهبى، دول الاسلام، ج٢،ص١٣٠-١٣١، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص٢٠، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٥٢.

(٣) صاحب الشحنة: هو متولي رئاسة الشرطة، ويقال للوظيفة الشحنة أو الشحنكية، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج١، ص٧، حاشية (٥).

(٤) نقجوان: بلد من نواحى أران، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) مرند، من مشاهير مدن أذربيجان بينها وبين تبريز يومان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

يزكه[1] جهة تبريز، فقويت بذلك شوكة المسلمين في تلك الديار ولو استمر بها لملكوها جميعها ولكنهم عادوا إلى خلاط وكان في صحبتهم زوجة جلال الدين منكبرتى ابنة السلطان طغرل[2]

بلغ السلطان جلال الدين منكبرتى الاعتداء الذى قام به الحاجب حسام الدين على ممتلكاته وقبضه على زوجته وأخذها معه إلى خلاط فأثاره هذا العمل وسار بقواته إلى خلاط ولم يكتف بذلك بل تعدى خلاط إلى صحراء موش وجبل جور[3] "ونهب الجميع وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وضرب القرى".[4]

ووصلت هذا الأخبار إلى البلاد الجزرية حران والرها وسروج وغيرها أنه قد تجاوز خلاط إلى جور وأنه على مقربة منهم فأصابهم الذعر والهلع، فخافوا أن يقصدهم جلال الدين لأن الشتاء قد حل وبلادهم ليس بها برد شديد، فعزموا على الإنتقال إلى بلاد الشام، وسار بعض أهل سروج إلى منبج[5] من أرض الشام ولكن

---

(١) اليزك: لفظ فارسى معناه الطلائع أو الكشافة. انظر عبدالرحمن زكى، السلاح في الاسلام، ص ٦١.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٧٤، النسوى، سيرة جلال الدين، ٢٧١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢،ص٢١٣، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص٢٠، دول الاسلام، ج٢، ص ١٣١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢٦، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٤٠.

(٣) موش: بلدة من ناحية خلاط بأرمينية، وجبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى ارمينية، كان اهلها نصارى أرمن وفيها قلاع وقرى. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٥، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٤١، العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٥هـ، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص٢٩٤، الخطيب العمري، المصدر السابق، ورقة ٢٤١.

(٥) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر، منبج: بلد قديم أول من بناها كسرى لما غلب على الشام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

سرعان ما أتاهم الخبر بعودة جلال الدين عن تلك الديار فأقاموا في ديارهم.[(١)]
وهكذا فشل جلال الدين منكبرتي في الإستيلاء على خلاط سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م ولعل ذلك يرجع إلى تساقط الثلوج بكثرة في تلك السنة فرجع إلى بلاده خائباً.[(٢)]

لم تكن هذه الحادثة لتمر بسلام على الملك الأشرف خاصة بعد أن سيطر على دمشق إذ اعتقد أن سبب معاودة السلطان جلال الدين منكبرتى الهجوم على خلاط هو ما أقدم عليه الحاجب حسام الدين على بتعدية على ممتلكات الخوارزميين في أذربيجان سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧، وخشى الأشرف من عودة جلال الدين منكبرتى إلى محاصرة خلاط، فأرسل مملوكه عز الدين ايبك إلى مدينة خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين فقبض عليه وأعتقله و قد تسرع الأشرف في قراره السابق إذ أن الحاجب حسام الدين كانت له اليد البيضاء في الحفاظ على بلاده وصد الخوارزميين عنها وتعقبهم في بلادهم.[(٣)]

وعلى اية حال فان الأشرف قام بهذا العمل لكى يكسب ود جلال الدين ويطيب خاطره عله يتوقف عن مهاجمة ممتلكاته مرة أخرى، وقد تجسد ذلك بوضوح فيما أقدم عليه عز الدين ايبك نائب الأشرف على خلاط حينما أرسل رسوله إلى جلال الدين منكبرتى يبذل له الخضوع والطاعة، وأن الملك الأشرف ما أمره بالقبض على الحاجب إلا لإساءته الأدب مع السلطان والتخطى إلى بلاده من غير أمر صدر إليه وبالغ عز الدين ايبك في ملاطفة السلطان واستعطافه وبين له أن

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب،ج٤،ص٢٣٥، المقريزى، السلوك،ج١،ق،ص ٢٢٨.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٧٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٤٠، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص٢٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٠.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٩، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٦، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٨٠-١٨١، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١١٩، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٦٢-١٦٣.

الأشرف ولاه خلاط "مأموراً بطاعة السلطان واتباع مراده معدوداً في جملة أعوانه وأنجاده أسوة بسائر اجناده بعامة بلاده".[(١)]

إلا أن هذه الاجراءات لم تجد نفعاً في اثناء جلال الدين عن تحقيق اهدافه فوجه قواته واثقاله جهة خلاط وكان قد تفرغ من كسر شوكة الكرج وتفريق جموعهم، وتوجه جلال الدين إلى نخجوان[(٢)] وتزوج بإبنة صاحبها، ثم نظر السلطان جلال الدين في أحوال أهل خرسان والعراق ومازندران[(٣)] وقضى مطالبهم لأنه كان يعلم أنه إذا حاصر خلاط سوف تنقطع الطرق وتضطرب أحوال تلك الديار[(٤)]، واصل جلال الدين مسيره صوب خلاط ولما دنا منها أرسل رسله إلى أهلها يخبرهم بقدومه ويطلب من الزعماء أن يحضروا بين يديه فلما بلغهم الخبر خافوا من سوء العاقبة ومن تنكيل جلال الدين بهم ودخوله خلاط واستحواذه عليها وسفك الدماء وسبى النساء. خصوصاً عندما بلغهم سوء سيرته في القرى والبلاد القريبة لذلك رفضوا الاستجابة لطلب جلال الدين منكبرتى، ولما يئس السلطان من مناصحتهم أمر باحاطة المدينة، ونصب عليها اثنى عشر منجنيقاً[(٥)] وألات الحرب الاخرى كراشقات النبال والنفاطات، واستعد أهل خلاط للدفاع والاستماتة عن مدينتهم وباشرت مجانيق الطرفين بالقذف وشرعوا بتراشق النبال المضروبة من الاقواس أو الدواليب وكأنها حبات البرد وحمى الوطيس فبرز المتبارزون ليلاً

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٢٩٩، وانظر العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٢٤هـ.

(٢) نخجوان: بلد بأقصى أذربيجان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) مازندران: اسم لولاية طبرستان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص٢٩٧.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٨٠ النسوى، المصدر السابق، ص ٢٩٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٩٤، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٧٧، رشيد الدين فضل الله الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٤٣.

ونهاراً يحملون على البوابات لعلهم يستطيعون فتحها غير أن أهل المدينة تمكنوا من ردهم بأنواع من التحايل وكال أهل خلاط السباب لجلال الدين من على أسوار المدينة، فغضب جلال الدين واحتد في قتالهم رغم حلول فصل الشتاء إلا أنه لشدة البرد وتساقط الثلج في خلاط لجأ جلال الدين إلى تفريق عساكره في القرى والبلاد القريبة من خلاط.[١]

ولما بلغ صاحب أرزن الروم عزم جلال الدين الاستيلاء على خلاط خاف من بطش جلال الدين به خاصة بعد دخوله في طاعة الملك الأشرف، وموافقته للحاجب علي في عداوته للدولة الخوارزمية، فأسرع بالقدوم على جلال الدين وبذل له فروض الطاعة والولاء وطلب منه الامان، فعفى عنه السلطان وأمنه وأحسن استقباله، وأقام في خدمة جلال الدين عدة أيام ثم أذن له بعدها في العودة إلى بلاده وطلب منه أن يسير إلي خلاط مايقدر عليه من الآت الحصار، ولكي يكسب صاحب ارزن الروم ود جلال الدين ويضمن عدم غدره به ومساعدته على ابن عمه صاحب الروم علاء الدين كيقباذ، سير إليه " منجنيقاً كبيراً سموه " قرابغرا[٢] وسير تروساً[٣] وجنويات[٤] ونشابات كثيرة".[٥]

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٨٠، الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص٧٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٩٤.

(٢) قرابغرا: يبدو أن هذه الكلمة لفظ تركي ربما قصد به النوع التركي من المحنبقات. انظر عبدالله الغامدي، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص ٣١٨، حاشية (٢).

(٣) تروساً: جمع ترس وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل في اليد يتلقى بها ضربة السيف ونحوه. انظر عبدالرحمن زكي، السلاح في الاسلام، ص ١٦.

(٤) جنويات: جمع جنوية وتطلق على نوع من الحسك وهو عبارة عن قطعة من الحديد ذات شعب تطرح حول المعسكرات أو أمام الخيل لعرقلتها. انظر عبدالرحمن زكي، السلاح في الاسلام، ص ٢١، ٢٢.

(٥) سيرة جلال الدين، ص٣٠١-٣٠٣، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص ١١٥،

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

ومهما يكن من أمر فقد استمر جلال الدين في تضيق الخناق حول المدينة "فعم القحط وغلت الاسعار" وكانت آثار ذلك ترى من وراء الأسوار، وبلغت القلوب الحناجر وأخذوا يرسلون رسلهم خفية إلى بغداد وبلاد الروم والشام علهم يشفعون لهم عند جلال الدين[١]، كما أرسلوا إلى الملك الكامل صاحب مصر يطلبون منه النجدة، إلا أنه لم يقدم لهم أى معونة تذكر لخشيته من كسر شوكته أمام جلال الدين، خاصة بعد أن وطد اقدامه في بلاد الشام والجزيرة.[٢]

وصبر أهل خلاط وصابروا في مقاومة هذا الحصار الشديد وبلغت بهم الحاجة عندما قلت الاقوات إلى أكل الكلاب والسنانير بل أنهم كانوا يصطادون الفئران ويأكلونها[٣] ويصور لنا النسوى الحالة التى وصلت باهل خلاط فيذكر أنه" خرج منهم في يوم وأحد قرابة عشرين الف انسان وقد تغيرت صورهم بالجوع حتى أن الأخ كان لايعرف أخاه ولا الوالد ولده فكان شرف الملك يطعمهم فيذبح كل يوم عدة ابقار لهم فما سرت النفوس الناحفة ولا الارماق التالفة ومات أكثرهم وتفرق الباقون ايدى سبأ ".[٤]

واشفق الخليفة العباسي المستنصر بالله[٥] على أهل خلاط فأرسل رسله إلى

---

والنشاب: هو النبل وهو سهم مصنوع من اثقاب. انظر عبدالله الغامدى، جهاد المماليك، ص٣٢٠، حاشية (١).

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٧٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ج١، ق١، ص١٦٣، ٢٣٦.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٨٠، النسوى،سيرة جلال الدين، ص٣١٠-٣١١، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٨٤، السبكى، طبقات الشافعية، ج١٠، ص٣٤١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٩٥، التاريخ الصالحى، ص ٢٣٢، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٧٥.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١١.

(٥) هو أبو جعفر عبدالله بن الظاهر محمد بن الناصر بويع بالخلافة سنة ٦٢٣هـ وعمره يومئذ

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

جلال الدين منكبرتى يلتمس منه عدة أمور منها: إعادة الدعاء للخليفة على المنابر في مملكة جلال الدين بعد أن أسقطها والده عـلاء الدين محمد عندما عجز عن دخول بغداد، فاصدر السلطان جلال الدين أوامره إلى عامة مملكته بالدعاء للأمام أبى جعفر المستنصر بالله ومنها الشفاعة في أهل خلاط.[1]

وعندما وصل رسولا الخلافة بالخلع لجلال الدين منكبرتى. ضربت له خيمة بجوار الخزانة ونقلت إليها الخلع فدخل السلطان جلال الدين إلى الخيمة مرتين ولبس الخلعتين في يوم وأحد وتحسنت بذلك علاقة جلال الدين بالخلافة العباسية ووجد رسولا الخليفة أن في ذلك فرصة لطلب الشفاعة في أهل خلاط ورفع الحصار عنهم وتقليص الخناق عنهم، فتوقف جلال الدين عندما طلب منه ذلك ولم يرد عليهما جواباً فرجع رسولا الخليفة إلى مقر إقامتهما وسير إليهما النسوى فيما بعد معاتباً لهما على طلبهما حيث قال " قد ذكرتما فيما بلغنى عن أمير المؤمنين أنا نريد إعلاء امرك وإجلال قدرك وتعظيم شأنك وتحكميك على ملوك زمانك ثم تشيران على بإزالة الحصار عن خلاط بعد أن الفتح قد ورد بشيره والنجح قد اسفر تباشيره وهذا مما ينافى ماذكرتما من عنايات أمير المؤمنين"[2] فلم يكن في وسع رسولا الخلافة إلا أن يقرا ويصدقا ماذكره السلطان، وحاولا أن يجدا لهما مخرجاً من ذلك فذكرا للسطان أنه ربما تعذر فتحها واستمر صمودها في وجه السلطان فيضطر إلى الرحيل دون تحقيق مايصبوا إليه فيكون ذلك مدعاة إلى التنقص من قدر السلطان، اما إذا رحل عنها بشفاعة من الخليفة فإن ذلك يكون " اسلم من مطاعن

---

عشرون سنة ولقب بالمستنصر بالله ومات سنة ٦٣٩هـ وقيل سنة ٦٣٨هـ كان ملكاً حازماً جيداً للسياسة كثير العدل والاحسان. انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ١٧٤.

(١) النسوى،سيرة جلال الدين، ص٣١٠، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١٨٤، السبكى، طبقات الشافعية، ج١، ص ٣٤١، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٣٠٤-٣٠٥.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١٠.

المستعجزين واشبه بحال الفائزين".[١]

فقبل جلال الدين عذرهما واستمر في مواصلة الحصار. وكان سكان خلاط قد توقفوا عن سب السلطان وشتمه عندما حضر رسل الخليفة علهم يفلحون في اقناع جلال الدين برفع الحصار عنهم، ولكنهم عندما تحققوا أن شفاعتهم لم تقبل وحان وقت رحيلهم " استأنفوا فيها بكل معنى غريب اللفظ عجيب".[٢]

وسارع كل من صاحب آمد الملك المسعود وصاحب ماردين الملك المنصور بإرسال رسلهم إلى جلال الدين يعرضان الخدمة على السلطان وبذل الطاعة وماذلك إلا لخوفهم من أن تدور الدائرة عليهم فيقعوا فريسة لجلال الدين وجنده وحينئذ لاتنفع شفاعة الشافعين، وليتحقق جلال الدين من صدقهما أرسل معهما رسولاً يأمرهما باقامة الخطبة له في بلادهما.[٣]

واصل جلال الدين تضيق الخناق على خلاط وأبان عن عزم قوى تحار العقول منه حرصه على إسقاط خلاط في اسرع وقت ممكن.[٤]

وخرج مجير الدين يعقوب بن الملك العادل من خلاط يلتمس الحضور بين يدى السطلان جلال الدين ليكلمه، فسمح له جلال الدين بالحضور إليه ظناً منه أنه ربما يكلمه فيما فيه مصلحة الطرفين، فلما حضر مجير الدين قال لجلال الدين: " إن البلاء قد نزح والضرر قد اتضح، الطائفتان قد هلكتا، فهل لك أن تبارزنى فيعود الأمر إلى فيصل، فقال له السلطان: ومتى يكون ذلك ؟ فقال المعياد بكره غداً " ولما حان الموعد خرج جلال الدين لمبارزة مجير الدين الذي جبن عن لقائه.[٥]

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٠.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٠.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٩٤.

(٥) النسوى، المصدر السابق، ص ٣١٣.

والواقع أن هذا التصرف كان ضرباً من الخيال إذ لايعقل إنهاء ازمة الحصار حول خلاط بهذه الطريقة التي اقدم عليها مجير الدين وهو يعلم من هو جلال الدين الذي كابد وناضل حتى استطاع ببسالته وشجاعته أن يعيد جزءاً كبيراً من اراضي الدولة الخوارزمية، بل أنه ادخل الرعب والخوف لدى كثير من حكام المسلمين المجاورين له حتى اضطر بعضهم إلى الدخول في طاعته.

وتتابعت رسل عز الدين ايبك تستصرخ بالملك الأشرف وتطلب منه الاستعجال في تخفيف وطأة الحصار عليهم، وفي أحدى المرات مسكت رسالة موجهة من عز الدين ايبك إلى الملك الأشرف واخرى من مجير الدين يعقوب إلى أخيه الأشرف موسى وتم عرض كلتا الرسالتين على النسوى الذي استطاع أن يفهم فحوى الرسالتين، والتي كان مضمونها عرض للصورة التي هم عليها من الضائقة والبلوى، بل بلغ بهم الخوف والذعر أنهم ظنوا أن عدم وقوع الثلج بكثرة في تلك السنة ٦٢٧/ ١٢٣٠م التي حاصر فيها جلال الدين خلاط أنه نوع من السحر[١] وهذه الرواية لاتمت بصلة إلى حقيقة مايعتقده المسلمون في اقدار الله عز وجل.

كما تم القبض على رسالة اخرى موجهة من الملك الأشرف إلى عز الدين ايبك رداً على رسالته السابقة حاول فيها أن يطمئن اهل خلاط ويسكن من روعهم جاء فيها " أن الذي ذكرتم من سحر العدو وإقشاع السماء دل على ماملككم من الرعب وإلا فمن المعلوم أن هذا الامر لايقدر عليه إلا الله. غير أن الشتوات تختلف فتارة يتأخر الثلج وتارة يتقدم". ثم وعدهم الأشرف بأنه سوف يعد العدة ويصل إليهم بعساكره في اقرب وقت يكشف البؤس ويزيل الضرر ولم يقتصر الأشرف على ذلك بل مناهم بطرد الخوارزمية إلى ماوراء جيحون.[٢]

واستمر الحصار على خلاط مايقرب من عشرة اشهر وأهلها في استماته

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٥.

شديدة للدفاع عنها رغم ماحل بهم من جوع وارتفاع في الاسعار، وبلغت القلوب الحناجر، واصبحت خلاط كلا لمن يأخذها ووبالاً، على من يملكها كل ذلك وهم مصرون على عدم تسليم خلاط لجلال الدين مهما بلغت بهم الاسباب وانقطعت عنهم الحيل وثبتوا ثباتاً لم يسمع بمثله لعلمهم بجور جلال الدين وإقدامه على سفك الدماء واسرفوا في شتمه من على الأسوار وسبه والوقيعة فيه مما اثار حنقه وغضبه فامر جيشه " بأن يحملوا على الشاتمين ويدخلوا بهم المدينة.[1]

وفي هذه اللحظات الحرجة لعبت الخيانة دوراً بارزاً في سقوط خلاط فقد ادلى إسماعيل الإيو انى أحد اصحابه من السور ليلاً ليذهب إلى جلال الدين يلتمس منه إقطاعاً بأذربيجان مقابل مساعدته في الدخول إلى خلاط[2] ولم ينظر الايوانى إلى ماسوف يحصل لأهل خلاط بعد تسليمها لجلال الدين، ولم يفكر في ذلك وإنما فكر في مصيره فقط كل ذلك مقابل منحة هذا الاقطاع.

سارع جلال الدين باستغلال هذه الفرصة فاقطع الايوانى سلماس[3] وعدة ضياع بأذربيجان متفرقة ولكي يطمئن جلال الدين رسول الايوانى حلف له على تقريرها بيده، ورجع الرسول إلى خلاط محققاً اطماع الايوانى، واستعدت قوات جلال الدين للهجوم وبدأ الايوانى في تنفيذ مااتفق عليه فأدلى الحبال من على أسوار خلاط ليلاً ليصعد إليها عسكر جلال الدين وفعلاً تسلقت مجموعة من عسكر

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٢٠، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٥٩-٦٦٠، ابن واصل مفرج الكروب، ج٤، ص٢٩٥، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص٧٨، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص٣٠.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص٣٢٠، ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٨٠، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص٢٩٥، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص٦٤.

(٣) سلماس: مدينة مشهورة بأذربيجان بينها وبين رومية يومان وبينها وبين خوى مرحلة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

الخوارزمية ومعهم الاعلام وصعدت إلى داخل الابراج، فلما اصبح الصباح زحفت القوات الخوارزمية على ثلمة في سور خلاط كان المنجنيق قد أحدثها. إلا أنهم لم يتمكنوا في البداية من الدخول عن طريقها لوجود بقايا الاجناد القيمرية[1] التى كانت تقف لهم بالمرصاد على الرغم من أنهم كانوا ينظرون إلى الابراج فيرون اكثرها مملوءة بالرجال والاعلام السلطانية واستبسل جنود القيمرية في قتال الخوارزمية إلا أن الذين كانوا في الابراج زحفوا من ورائهم فما كان منهم إلا أن ولوا منهزمين وسقطت خلاط بيد جلال الدين واسر مجموعة كبيرة من امراء القيمرية وغيرهم الذين صمدوا ولم يفارقوا مواقعهم وتحصن عز الدين ايبك ومجير الدين وتقى الدين ابناء الملك العادل الأيوبى في قلعة خلاط.[2]

وما إن سقطت هذه المدينة حتى فعل عسكر جلال الدين بأهل خلاط الافاعيل فقد عمدوا إلى تخريب خلاط واكثروا من سفك الدماء ولم ينج منهم إلا من هرب كما قاموا بنهب الاموال وسبى الحريم واسترقاق الاولاد وبيعهم " فكان قرحاً على قرح وملحاً فوق الجرح" بل بلغ بهم الامر أن استخرجوا دفائن أهل خلاط وخباياهم ومن يظفر منهم بأحد الخلاطية يعذبه أشد العذاب[3]

ونحن نتعجب من ذلك اشد العجب إذ كيف يفعل ذلك بالمسلمين وكيف تنتهك الحرمات وتستباح الاعراض والاموال من قبل دولة اسلامية لو كان هذا العمل الذي اقدم عليه الخوارزميين من قبل دولة كافرة لقبلناه كارهين ولكن" وما

---

(١) القيمرية: نسبة إلى قيمر وهى قلعة بين الموصل وخلاط، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٣٢٠-٣٢١، ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٨٠، ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج٥، ص ٣٢٣.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٢١، وانظر ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ١٨٦، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٩٥٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٤٣، السبكى، طبقات الشافعية، ج١، ص ٣٤١.

ربك بغافل عما يعمل الظالمون " وقد وصفهم ابن تغرى بردى بقوله: "وكانوا شراً من التتار لايعفون عن قتل ولاسبى ولافى قلوبهم رحمة ".[١]

بعد هذه الاعمال الوحشية الهمجية التى اقدم عليها عسكر جلال الدين يأتى من يبرر عمله ذلك بقوله: إن جلال الدين اراد أن يحمى خلاط مما حصل بها من النهب والقتل ولكن عسكره غلبوه على ذلك بعد أن حضر إليه الامراء وبينوا له حقيقة الامر فقالوا " إن تطاول مدة الحصار قد اضعف عسكرك وافنى خيلهم ودوابهم، فإن منعتهم النهب، قعد بهم الضعف عن لقاء عدو يتحرك ولعل الضعف يفضى بهم إلى تشتت الشمل وانتشار الحبل" فكان من عسكره ماكان[٢]، فهل هذا الامر مسوغ لأن يدع جيشه يفعل تلك الأعمال الهمجية، وهل بلغ به الأمر أن يغلبه عسكره على تنفيذ مايحلوا لهم كل هذه التساؤلات نوجهها لكل من يحاول أن يدافع عن جلال الدين إزاء تلك المأساة التى حصلت في خلاط.

وبالرغم من ذلك نجد أحد المؤرخين المعاصرين يواصل في دفاعه عن جلال الدين ويحمل غيره اللوم في تلك المصيبة من ذلك إلقاء المسئولية بدرجة كبيرة على الأمراء والحكام الأيوبيين بسبب تنافسهم وجشعهم في املاك بعضهم البعض[٣] ونحن لن نسقط المسئولية عنهم فهم يتحملون جزءاً كبيراً من ذلك ولكن هل هذا التنافس يبرر لجلال الدين تلك الأعمال ولماذا لم يقم جلال الدين بدوره في الإصلاح بين ملوك بنى أيوب أم أن له اطماعاً أخرى حرص على الاستفادة منها لتوسيع ممتلكاته ولتكوين حلف ضد الخلافة العباسية.[٤]

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢١.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٢١، سعد حذيفة، أوضاع الدول الاسلامية في المشرق الاسلامى، ص ٣٢٥.

(٣) سعد حذيفة، المرجع السابق، ص ٣٥٢.

(٤) المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ٢١٦، ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٣٤، حامد

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

وقد يقول قائل ايضاً أن جلال الدين لم يلجأ إلى ذلك إلا دفاعاً عن ممتلكاته التى انتهكت حرمتها من قبل نائب الأشرف على خلاط الحاجب حسام الدين على إذ كان هو أول من بدأ الحرب ضد مملكة جلال الدين فنهب ودمر واستباح الاراضى واختطف زوجة جلال الدين مما زاد في حنق جلال الدين وغيظه[١]. إن المتتبع للأحداث يرى حقيقة الأمر فجلال الدين منكبرتى هو أول من بدأ الحرب ضد ممتلكات الأشرف موسى فحاصر خلاط سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م أربعين يوماً مستغلاً تحريض المعظم عيسى له وفعل بها مافعل من القتل والسبى والنهب وعظمة نكايته بأهل خلاط.[٢] أما هجوم الحاجب على اراضى الدولة الخوارزمية فلم يكن إلا في السنة التى بعدها وكان ذلك بإستدعاء من زوجة جلال الدين منكبرتى التى أهملها زوجها ووعدته أن تعطيه من القلاع والبقاع كما أرسل إليه اهل أذربيجان أيضاً يستدعونه ليخلصهم من سيطرة الخوارزميين كل هذه الأمور مجتمعة إضافة إلى تهديدات جلال الدين السابقة لخلاط دفعت الحاجب أن ينطلق إلى تلك البلاد لتحقيق مقصوده منها.[٣]

على أننا لوسلمنا جدلاً بكل تلك المبررات فهل نسينا ما أحدثه جلال الدين في العراق عندما اغار على بعض بلدان الخلافة العباسية وأباح لجنوده نهبها وقتل أهلها ولم يسلم من أهلها إلا من هرب من دقوقاً وغيرها.[٤]

وكيفما كان الأمر فان جلال الدين استطاع أن يدخل خلاط في الثامن

---

زيان غانم، الصراع السياسى العسكرى بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية، ص١٠٩،

محمود ياسين احمد التكريتى، الأيوبيون في الشام والجزيرة، ص٢٩٠.

(١) سعد حذيفة، أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي ص ٣٥١.

(٢) انظر في المبحث الأول ص ٢٩ومابعدها.

(٣) انظر ماسبق ص ٣٨.

(٤) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٢.

والعشرين من شهر جمادى الأولى من سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٢م[١]، وبعد فترة وجيزة نزل إليه من القلعة مجير الدين وتقى الدين ابنا الملك العادل الأيوبى وأحسن استقبالهما ثم طلبا منه الأمان لعز الدين ايبك فأمنه، ونزل إلى جلال الدين فسارع إلى تقبيل يديه فلم يمكنه جلال الدين من ذلك استخفافاً به وحنقاً عليه ولم يمكنه كذلك من تقبيل رجله إلا بعد مراجعات طويلة. بل أنه عندما كان يحضر الجميع كل يوم لمجلس جلال الدين يجلس كلاً من تقى الدين ومجير الدين ويقف عز الدين.[٢]

والجدير بالذكر أن جلال الدين لما استولى على خلاط وجرى عليها من النهب ماسبق ذكره، شغف بعمارتها وحرص على ترميمها وإصلاح مافسده بها، وندم على مافعله جنده من النهب والتخريب " واين من الندامة نفوس مدروسة واجساد تحت اطباق الثرى مطموسة؟ " ولكى يتدارك جلال الدين ماقام به عسكره من التخريب والنهب والتدمير صرف من الخزانة مايقرب من أربعة الآف دينار ليتم تجديد أسوار المدينة التى خربتها المجانيق، فتمت بذلك عمارة الأسوار في وقت قصير، ولكى يضمن جلال الدين ولاء الأمراء والقواد له بادر باقطاعهم الكور من أعمال خلاط.[٣]

ثم ذاع صيت جلال الدين وعظمت شوكته بسبب هزيمته للكرج واستيلائه على خلاط، وبادرت الخلافة بإرسال رسلهم إلى بلاط جلال الدين مع التحف

---

(١) أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص١٥٩، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٢٩٩، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٣٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٣.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٣٢١-٣٢٢، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٨٦، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص٧٨، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، ص٤٣.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٢٥.

والهدايا واقتدى بها في ذلك ملوك مصر والشام وعلا بذلك شأنه مرة أخرى.[١]

وإذا كان علو منزلة قادة المسلمين في تلك الفترة تكون غالباً بقدر جهادهم في كبت اعداء الله إلا أننا لانستبعد في هذه الحادثة إلى جانب ذلك أن تكون ملاطفة الخليفة وملوك الاسلام لجلال الدين كانت بدافع الخوف منه بعد استيلائه على خلاط.

وكان من مهمة رسل الخلافة لجلال الدين الشفاعة في مجير الدين وتقى الدين ابنى الملك العادل أبوبكر بن أيوب، فلم ير جلال الدين ردهم في المطلوب كله، وسلم إليهم تقى الدين وحده وخرج في وداعهم.[٢]

وكان لذلك الإنتصار والشأن الذي بلغه جلال الدين أكبر الأثر في تخوف الأيوبين وسلطان سلاجقة الروم منه الأمر الذي دعاهم إلى تكوين حلف لصد اعتدائه على أملاكهم. خاصة وأنه قد دمر مدينة خلاط التى كانت تضاهي مصر في ثرواتها وغناها ومواردها.

---

(١) رشيد الدين فضل الله الهمذانى، جامع التواريخ، ص٤٣، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص٦٣.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٢٨.

# تحالف سلاجقة الروم مع الأيوبيين ضد جلال الدين ونتائجه

لقد بدأ هاجس الخوف والقلق يدب في نفوس حكام المسلمين المجاورين لجلال الدين منكبرتي[(١)] فبادر سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بإرسال رسله إلى جلال الدين منكبرتي اثناء حصاره لخلاط، وكان معهم هدايا والطاف يرتهن بها رضاه فانطلقوا حتى وصلوا إلى ارزنجان[(٢)] فمنعهم صاحب ارزن الروم[(٣)] من الوصول إلى جلال الدين وقد كان مجاهراً بعداوة جلال الدين وعداوة سلطان الروم وموالياً للملك الأشرف[(٤)]

فاقام الرسل بارزنجان حتى دخل صاحب ارزن الروم في طاعة جلال الدين[(٥)] عندها قدموا بما معهم من الهدايا إلى جلال الدين ولم يحسن اتباع جلال الدين استقبال رسل صاحب الروم لعدم رغبتهم في مصافاته ولإحتقارهم لما احضره أولئك الرسل من هدايا والطاف وأخذ الرسل في عرض طلباتهم على جلال

---

(١) الجويني، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٧٣.

(٢) ارزنجان، أحدى مدن أرمينة بين سيواس وارزن الروم وبينها وبين كل من المدينتين أربعون فرسخاً، وكان غالب أهلها من الأرمن وفيها مسلمون وتسمى أيضاً ارزنكان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ارزن الروم: مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة وكانت من اعمر نواحي أرمينة. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٧-٣١٨.

(٥) دخل في طاعة جلال الدين حتى يقطع الطريق على سلطان سلاجقة الروم وكان بينهما عدواة مستحكمة من الاتصال بجلال الدين والاتفاق معه على حساب مملكته الصغيرة.

الـــدين، ومـن ذلـك أنـــهم خـــطبوا ابنـة جـــــلال الـــدين لابـن صـــاحبهم تـأكيـداً للالفة وإزالــة الوحشـــة والفــرقــة فـلم يتـم لهـــم ذلـك ومنهـا أنهـم طلبوا من جلال الدين أن يأذن لهم في السيطرة على ارزن الروم وأن يسلم صاحبهـا إليهم لينتقموا منه، فغضب جـلال الديـن ورفـض إقـتراحهم وقـال " هـذا المذكـور المطلوب، وإن هتك معى ستر الادب ورفع حجاب الحشمة فقد دخل على دخـول العرب، وقبيح بمثلى إحقار حق مقدمه وتسليمه إلى من يعطش إلى دمه".[١]

ويصور لنا النسوى مدى الإهانة والإحتقار التـى لقيهـا رسـل سـلطان سـلاجقة الروم فيذكر أنه دخل على شرف الملك يوماً فوجد عنده رسل الـروم جلوسـاً وهـو يخاشنهم في الكلام ويقلل ممن هيبة صاحبهم فيقول " لو أذن لى السلطان لدخلـت بلادكم وحدى وفتحتها بجندى".[٢]

وعلـى أيـة حـال عـادت رسـل سـلطان الـروم دون تحقيـق الهـدف المنشـــود واخبروا صـاحبهم بما حصل لهم من التوبيـخ والتقريـع والتهديـد وعـدم الرغبـة فـي إحلال الود والتعاضد معه[٣] ويرى أحد المؤرخين المحدثين أن الهدف مـن إرسـال الرسل من قبل سلطان الروم هو محاولة إقامة تحالف بينه وبين جلال الدين منكبرتى لتوحيد القوى الاسلامية ضد القوات المغولية القادمة من الشرق.[٤]

والواقع أن هذا العمل الذي اقدم عليه الخوارزميـون كـان بمثابـة القشـة التـى قصمت ظهر البعير إذ أنه كان السبب الذي دفع صاحب الروم إلى تـأليب الحكـام المسلمين المجاورين ضد جلال الدين، الذين أفزعتهم الأعمال الهمجية التى أقـدم عليها أتباعه في كثير من البلدان التى دخلوها وكـان اخرهـا مـاحل بخـلاط وأهلهـا.

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣١٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٣) النسوى،المصدر السابق، ص ٣١٨-٣١٩.

(٤) حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢١٣.

إضافة إلى أن إنضام حاكم ارزن الروم إلى جلال الدين منكبرتى ومساعدته له في حصار خلاط قد اقلق ابن عمه علاء الدين، وكان بينهما عداوة مستحكمة فخشى من اتفاقهما عليه. لذلك بادر علاء الدين بتجميع القوى للوقوف في وجه التوسع الخوارزمى ورداً للأعتبار.(١)

كما أرسل سلطان الروم رسالة إلى جلال الدين منكبرتى تحمل في طياتها تهديده وتحذيره من مغبة أعماله حيث قال فيها عن قوة البيت الأيوبي مانصه:- "ولهم الأموال والبلاد والرجال والاولاد والقوة، وأنت فلا أموال ولارجال ولاقوة، وبلادك خربة ونحن نعرف حالك أكثر منك، ولاتظن أبي عدوهم، لا والله، بل صديقهم ونسيبهم بما بيننا من الأهلية والمصاهرة واختلاط الدم، ولعمى معز الدين منهم الاولاد، ولى منهم الاولاد ولاشك جرى بيننا قضية عاتبتهم عليها وعدنا إلى ماكنا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندى نصحك، فتصالحهم وتعتد بهم أصدقاء فكان الجواب أن قال لرسولى عد إلى صاحبك والجواب يصل مع قاصدى".(٢) وهو بذلك يريد أيضاً أن يبين لجلال الدين مدى الصلات القوية - بسبب المصاهرة - بينه وبين بني أيوب، وأن الخلاات بينهم لايمكن أن تؤدي إلى تخليهم عنه في ساعة الشدة.

لم تكن هذه الاعمال تجدى مع جلال الدين منكبرتى فسارع علاء الدين بمراسلة الملك الكامل وكان نازلاً بحران وطلب منه أن يبعث إليه بقوات الشام(٣) بقيادةالأشرف ولشدة خوف علاء الدين من جلال الدين تابع رسله إلى الملك الكامل فما كان من الكامل وهو يعلم مدى الخطر المحدق بهم إلا أن استدعى

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٨١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٨٩، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٥٣، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢١٤.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٩٧-١٩٨، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص٢٧٦.

(٣) المقصود بقوات الشام هنا الواقعة تحت سيطرت كل من الملك الكامل وأخيه الأشرف.

أخاه الأشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين متتابعة يحث الأشرف على المجيء للاجتماع إليه بل بلغ الأمر بعلاء الدين أنه أرسل في يوم وأحد خمسة رسل إلى الكامل والأشرف يحثهما على سرعة قدوم الأشرف إليه بقواته.(١)

وجد الأشرف الفرصة سانحة له للإنتقام من جلال الدين من جراء مافعله بمملكته في خلاط، وما فعله مع زوجته خاصة بعدما وصل إليه حسام الدين القيمرى زوج اخته هارباً من خلاط إلى الرقة، وأخبره عن ضعف جلال الدين وقلة من معه من العسكر وأن في استطاعتهم الانتصار عليه وكان الكامل قد عزم على العودة إلى الديار المصرية ولم يرغب في المشاركة في مقاتلة جلال الدين، فلم يعجب ذلك الأشرف وملوك الشام ولم يستطيعوا منعه من العودة إلى مصر. وعندما حضر القيمرى وبين للأشرف ضعف جلال الدين سيره إلى الكامل وهو في طريقه إلى دمشق ليخبره بذلك عله يرجع إليهم. فعرفه ثم عاد إليه.(٢)

ثم وصلت كتب عز الدين ايبك إلى الأشرف يخبره بما هم عليه من تشديد جلال الدين عليهم، وأنه عازم على خنقهم بعد هروب القيمرى لحنقه وأن الخوارزمى توجه من خلاط ونحن بصحبته إلى ملازجرد.(٣)

ازداد سلطان سلاجقة الروم في التلطف للأشرف وأرسل إليه رسولاً يحمل رسالة منه جاء فيها " مخدومى السلطان علاء الدين كقباذ يخدم المولى ويقول له محبتى ومودتى وصداقتى ماتغيرت بل زادت، وإنما لعن الله من كان السبب،

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨١، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٦٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٩٨.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص٢٠٠-٢٠١، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٨٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٣٦-١٣٧، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢٥٩.

(٣) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢٠٢.

ولايحسب المولى أننى ماذكرته في نجدة السلطان الكامل إلا لتأكيد مودة وغرض ابلغه. والآن فبلادى وأموالى بحكمك فتصل قولاً وأحداً بالعساكر إلى قرشهر[١] وتنجرد وحدك وتصل إلى عندى بقيسارية[٢] نتفرج ونحظى بخدمتك، ونصل أنا وأنت إلى العسكر بالعساكر، فوالله لاقنعت لك بخلاط، بل بجميع البلاد".[٣]. ثم أرسل صاحب الروم كتاب آخر إلى رسوله يقول له " لاتجيء بالأشرف إلا إلى سيواس[٤] حتى لايتعب ويبقى العسكر في قرشهر"وكان معه نسخة يمين من صاحب الروم إلى الأشرف،سر الأشرف بذلك وأراد هو الاخر التطلف لسلطان الروم فقال لرسول علاء الدين " ما أحلف بهذا اليمين بل أنا اصل بنفسي جريدة إلى خدمته".[٥]

كل هذه الأمور مجتمعة دفعت الأشرف إلى تجهيز العساكر والمسير بهم إلى علاء الدين وكان معه نحو خمسة الآف فارس. ورغم قلتهم إلا أن فيهم من الشجاعة والدراية بامور الحرب مايرهب الاعداء إضافة إلى مامعهم من السلاح الكثير والدواب الفارهة من العربيات وغيرها.[٦] كما قام الأشرف بمكاتبة حلب

---

(١) قرشهر: مدينة كبيرة ذات مباني جميلة على نحو ثمانين ميلاً غرب قيصرية. انظر كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية.

(٢) قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم وهي كرسي ملوك بنى سلجوق، ملوك الروم، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٤) سيواس: مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع في اسيا الصغرى. انظر كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية.

(٥) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٦) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٩٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٣٦.

وأهل الموصل والجزيرة يستنصرهم للوقوف في وجه الخوارزمي وقد أجابوه إلى ذلك لخوفهم من وصول جلال الدين إليهم.[(١)]

وعندما علم صاحب ارزن الروم بهذا الاتفاق ذهب إلى جلال الدين وكان نازلاً في منازجرد لترتيب عساكره، فاعلمه بما أقدم عليه صاحب الروم وملوك الشام حيث قال له " إن علاء الدين ملك الروم قد جدد الصلح مع ملوك حلب والشام، واتفقوا على مهاجمة السلطان وقاموا بحشد الجنود. وهم يهددونى دائماً قائلين لولم يكن السلطان قد وجد منك المدد بالعلف على باب خلاط لما استطاع التوقف هناك"[(٢)] وطلب من جلال الدين أن يباغتهم قبل أن يجتمعوا فيصعب على السلطان هزيمتهم، واستحسن جلال الدين رأيه واتفق معه على أن يرحل ركن الدين إلى ارزن الروم ليعد العدة ويجهز العسكر للقاء الحلف السلجوقى الأيوبى، ويرحل هو بعده بخمسة أيام في عساكره وحدد نقطة التقاء العسكرين في نواحى خرتبرت، وحتى يطمئن جلال الدين ركن الدين كتب له توقيعاً بناحيتى كنعين وخريشين من أعمال خرتبرت، فسر ركن الدين لذلك ورجع إلى أرزن الروم لتنفيذ ما اتفق عليه من قبل.[(٣)]

وفي شعبان من سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م وصل الأشرف إلى علاء الدين كيقباذ بسيواس وكان في صحبته أخويه شهاب الدين غازى والعزيز عثمان وكذلك الجواديونس وبقية الأمراء الكبار، فاستقبلهم علاء الدين كيقباذ وسربهم وتبعتهم

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٦٠، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٢٢، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٣٥٣، عماد الدين خليل، الامارات الارتقية في الجزيرة والشام، ص ١٨٨.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٢٩، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، ص ٤٣، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٨٤.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٢٩.

العساكر الشامية وعند وصولهم خرجوا إلى استقبالهم في الملوحة وحملوا إليهم الإقامات والتقادم والنفقة مالاً عظيماً.[(١)]

وبعد فترة وجيزة وصل الخبر بوصول صاحب حمص الملك المجاهد نجدة لهم ولكن سرعان ماوصل الخبر بعودته من حلب بسبب أمور جرت. وأناب عنه ابنه المنصور إبراهيم ولى عهده، فسار بعساكر حمص حتى وصل إلى مقر إجتماع القوات الأيوبية السلجوقية.[(٢)]

وأعلن السلطان جلال الدين منكبرتي النفير العام وأمر العسكر بالإجتماع إليه لتنفيذ مااتفق عليه سابقاً مع صاحب ارزن الروم، وسار بقواته إلى خرتبرت وأقام بها فترة ينتظر إكتمال العسكر. وسمعت القوات المتحالفة ضد جلال الدين بمسيره صوب أرزن الروم فملئت القلوب خوفاً من ذلك وكان من رحمة الله سبحانه وتعالى ولطفة أن مرض الخوارزمى مرضاً شديداً أقعده في الفراش فلم يستطع مواصلة المسير ويعلق ابن نظيف الحموى على ذلك فيقول " إنه لولا مرضه كان سبق إلى البلاد الرومية وحصل على غرضه منها".[(٣)]

وهذا الأمر لايخفى على كل متتبع لسيرة جلال الدين الذي كان يطوى المراحل الطوال في أقصر وقت ممكن. واستبطأ صاحب ارزن الروم قدوم جلال الدين فأرسل إليه الكتب الوأحد تلو الاخر يحثه على سرعة القدوم ويخبره بتحرك عسكر التحالف. كل ذلك وجلال الدين في شغل عن قراءتها لما الم به من مرض أعياه من الوقوف عليها وما أن خف عنه المرض حتى تجهز للمسير، وترك أحد قواده بعسكره وعسكر العراق على منازجرد، ولم يستلحق العساكر الأرمينية

---

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢٠٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٧، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٩٩، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ٣١.

(٢) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢٠٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٦.

الأذربيجانية والعراقية والمازندرانية إذ سبق وأن أذن لهم في العودة إلى أوطانهم. كل ذلك استخفافاً وعدم مبالاة بالقوات المقابلة، وسار يطوى المراحل طياً ليستدرك مافاته وجرد أمامه أحد قواده في نحو الفى فارس برسم اليزك للاستطلاع والاستكشاف.[١]

واستدعى صاحب الروم عسكره الموجود بارزنجان ولم يخبر الأشرف بذلك فتحركت العساكر من ارزنجان في اثنى عشر الف فارس نجدة له من شرق البلاد، ونزلوا في مرج ياسي جمن[٢] للراحة ووضعوا اسلحتهم واطلقوا خيولهم للمرعى ولم يعلموا بقرب القوات الخوارزمية منهم فباغتتهم وهم على حالهم ذلك فقتلت منهم مقتلة عظيمة واسرت فلم ينجو إلا جريح أو هارب توغل في الجبال. وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩. نما خبر هذه الهزيمة إلى القوات المتحالفة فشق ذلك عل الأشرف وقال " ليت كان المولى عرفنا بطلبهم كنالقيناهم".[٣]، وأما علاء الدين فلم يستطع أن يتمالك نفسه لما سمع بهذا الخبر المزعج وخارت قواه وفترت عزيمته عن لقاء عدوه حيث كان يفتخر أمام حلفائه بقواته القادمة من ارزنجان ويقول لهم " ليس هذا العسكر الذي ترونه من العساكر الذين اتكل عليهم في لقاء العدو دائماً رجالى وابطالى وعسكرى

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٣٠.

(٢) في الأصل ياصج من وياصجن اسم هذا المكان عند ابن الاثير ياسي جمن وهو من أعمال ارزنجان. انظر، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢٠٦، حاشية ٣.

(٣) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص٢٠٦، النسوى، المصدر السابق ص٣٣٠، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٢،الذهبى، تاريخ الاسلام،طبقة ٦٣، ص ٣٣، ذكر الجوينى في تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٨٤، أن عدد الذين تقابل معهم جلال الدين ستة الآف مقاتل وقتلهم جميعاً.

الذين عليهم اتكالى عسكر الشرق وأنهم واصلون".[١]

وقرر علاء الدين الانسحاب والعودة إلى بلاده والإقتصار على الدربندات[٢] التي وراءه، ولكن القوات المتحالفة لم تكن لترضى بذلك إذ كيف يتخلى عنهم في هذا الموقف الصعب أمام جيش متسلط لايبقى ولايذر وهم في أمس الحاجة إلى تكثيف سوادهم لتحقيق مرادهم، فذهبوا إليه وواسوه على ماحصل لقواته على يد جلال الدين ورفعوا من معنوياته ليثبت معهم في القتال، فقويت عزيمته بذلك وأصر على الإنتقام من القوات الخوارزمية.[٣]

ولم يكن الخوف والرعب الذي حصل لصاحب الروم من جراء مافعلته القوات الخوارزمية بعسكره مقتصراً عليه وحده بل إن الخوف دب إلى قلوب كثير من الناس، وتفرقت عساكر القوات المتحالفة لإعداد الترتيبات النهائية استعداداً لمواجهة القوات الخوارزمية القادمة لملاقاتهم.[٤]

ففي يوم الخميس من شهر رمضان المبارك سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م فوجئت القوات المتحالفة بوصول القوات الخوارزمية متتابعة، وكان قد بلغهم أنهم لن يصلوا إليهم إلا في يوم الجمعة، ومن حسن حظهم إن تلك القوات لم تكن تواصل المسير بل كانوا يقفون أثناء سيرهم حتى لاترهق قواتهم " ولو ساقوا على فورهم

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٣١.

(٢) الدربندات: جمع دربن وهى كلمة فارسية معناها في الأصل سنبلة من حديد يقفل بها باب الدكان ويقال لها دروند أيضاً وتستعمل هذه الكلمة كذلك بمعنى المضايق الطرقات، انظر النسوى،المصدر السابق، ص ٣٦، حاشية ٧.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣١، رشيد الدين فضل الله الهمذانى، جامع لتواريخ، ص٤٤.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣١، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص،٦٦٠ كنز الدرر، ج٧، ص ٣٠٠.

لاعضل الداء وعسر الثبات وعظم البلاء".[١]

عندئذ سارعت القوات المتحالفة بترتيب قواتها، فوضعت العساكر والحاشية في الأول ثم العرب ثم الحلبيين ثم شمس الدين صواب، ثم الملك الجواد ثم العزيز عثمان وشهاب الدين غازى، ثم تبعتهم اطلاب[٢] الروم وبقى كل من كيقباذ والأشرف في طلبه الخامس.[٣]

تمركزت قوات الحلفاء في أرض وعرة أعاقت حركتها، فبادروا بالإنتقال إلى أرض مستوية تمكنهم من التنقل بيسر وسهولة في ميدان القتال، وما أن تم لهم ذلك حتى طلعت عليهم طلائع جلال الدين فتقابلت مع العرب وجرى بينهم قتال شديد تمكن فيه العرب من إلحاق الهزيمة بهم في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م واسروا وقتلوا وغنموا اعداداً من خيولهم.[٤]

ويصور لنا الذهبي نقلا عن شاهد عيان لتلك المعركة مدى الضعف الذي كانت تعاني منه القوات الخوارزمية فيقول " وعرفنا قتالهم ونشابهم وضعف خيلهم وقلة فروسيتهم فتبدل خوفنا منهم بالطمع واحتقرناهم وتعجبنا كيف غلب هؤلاء امماً كثيرين".[٥]

ثم تشجعت القوات المتحالفة وساروا إلى عقبة مطلة على معسكر القوات الخوارزمية، وأعادوا ترتيب قواتهم بحيث اصبحت الميمنة والميسرة لصاحب

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٣٣١، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨،ص٦٦١.

(٢) اطلاب: جمع طلب وهو لفظ كردى معناه وحدة تتألف من قائد ( أمير ) له علم معقود وبوق مضروب يقود عدداً من الفرسان يتفاوت عددهم بين ٧٠-٢٠٠فارساً، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٧، حاشية ٦.

(٣) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٦٦١، ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٣٠٠.

(٤) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢٠٧، سبط ابن الجوزى، المصدر السابق،ج٨، ص ٦٦١.

(٥) الذهبى، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٣، ص ٣٣.

الروم وهو المسئول كذلك عن الدربندات أما القلب والاجنحة فكانت تحت إشراف الأشرف وكان من ضمن أجنحة صاحب الروم ابن صاحب خرتبرت، ومن ضمن أجنحة الأشرف الملك المنصور ابن الملك المجاهد صاحب حمص، وكانت عساكر الحلفاء من الكثرة بمكان حتى إن إبن نظيف الحموى ذكر أنه " كان مع الرومي من الخلائق ماطبق الأرض منها من التركمان والأرمن والفرنج والمسلمين وغيرهم من الشامين".(١)

فلما كان يوم الجمعة تجهز الخوارزمي ورتب عساكره استعداداً للقتال، واخفى مجموعة من اتباعه في الاودية كيداً منه، ثم أمر بمن بقى من عسكر ارزبخان وكانوا خمسمائة فضربت رقابهم فخاف الحلفاء من ذلك وكان بينهم وبين جلال الدين جبل عظيم وإلى جانبه واد عظيم، ولم يبق معهم زاد ولاماء ولاعلف لدوابهم، فقال الأشرف من شدة الخوف " لانحشر إلا تحت حوافر خيولنا أين المفر؟ ".(٢)

وتقدمت القوات الخوارزمية فقطعت الوادي ووقف جلال الدين على رأس الجبل، ولما رأى الأشرف قلة عساكر جلال الدين قويت نفسه وطمع فيهم فسار إليهم وملك عليهم أكثر منزلتهم، وعندما حل الليل تراجع الأشرف وعلاء الدين إلى معسكرهم ورتبوا اليزكية كما جرت عادتهم في أكثر حروبهم.(٣)

وفي هذا الوقت بدأ الخوف يدب إلى نفس سلطان الخوارزمية عندما " رأى قوة العسكر الذين مع الأشرف وتجملهم وفراهة دوابهم وحسن سلاحهم وقوتهم"

---

(١) التاريخ المنصورى،ص ٢٠٧-٢٠٨. والأرمن في قليقية خضعوا أسميا لكيقباذ وضربوا السكة باسمه وبذلك لزمهم تقديم الخدمة العسكرية كرمز للتبعية، أما البقية هم عبارة عن طوائ مرتزقة.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢٠٨، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٦١.

(٣) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢٠٨، سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٦٦١.

فبهت من ذلك وملىء منهم رعباً[١] ، وضعفت عزيمته وكاد يهرب لولا أن فر إليه جماعة من صفوف الحلفاء فشجعوه وقالوا له: "إن الرومى والأشرف قد خافاك وتأخرا عن التل" فقويت عزيمته للقائهم.[٢]

وفي الوقت ذاته فر من معسكر جلال الدين اثنان من أتباعه وانضما إلى الأشرف فرحب بهما رغبة منه في الحصول على أكبر قدر ممكن من الأخبار المتعلقة بالقوات الخوارزمية، فسألهما عن عدد قواتهم فقالا: هم ثلاثون الفاً وأخذ الأشرف يتنقل بين الصفوف يشجع الناس ويرفع من روحهم المعنوية ويحقر من شأن عدوهم ولما أصبح الصباح استعدت القوات المتحالفة لمنازلة جلال الدين في معركة فاصلة بين الطرفين[٣] إذ أنها سوف تحدد مصير كل منهما فالخاسر منهما لن تقوم له قائمة بعدها بسبب طبيعة العصر الملىء بالحوادث الجسام وهذا الأمر يدعونا إلى إلقاء اللوم على هؤلاء الزعماء حيث أن الخاسر في هذه المعركة سيكون على حساب القوات الإسلامية لصالح الأمم الكافرة كالتتار والصليبيين وغيرهم المتربصين بالمسلمين الدوائر إذ كان بإمكانهم تلافى هذا الصراع في هذا الوقت بالذات والعمل على توحيد الجبهة الإسلامية لطرد الصليبيين أولاً من بلاد الشام ثم الوقوف في وجه القوات التترية التى فعلت الافاعيل بالمسلمين ولازالت تواصل جهودها للسيطرة على كثير من البلدان الاسلامية وكذلك نلقى باللوم على الخلافة العباسية والقوى الاسلامية الأخرى التى لم تلعب دور الوسيط في إنهاء هذا الخلاف والإصلاح بين القوات الإسلامية مع أنها سوف تتضرر هى الأخرى من النتائج المترتبة على ذلك فيما بعد. قال تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٩٩، الاصفهانى، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، حوادث سنة ٦٢٧هـ.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص٢٠٨، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص٣٣.

(٣) الذهبى، المصدر السابق، طبقة٦٣، ص ٣٣.

فأصلحوا بينهما فإن بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾.[١]

ومهما يكن من أمر فإن الجيوش إصطفت للنزال في التاسع والعشرين من رمضان سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م واستدعى الأشرف الهاربين من جيش الخوارزمى وسألهما عن موضع جلال الدين منكبرتى فاخبراه" أنه على ذلك التل وشعره في كيس أطلس وعلى رأس كتفه برجم صغير مخيط بقبائه".[٢]

فوقع الجاليش[٣] وحملت ميمنة جلال الدين على ميسرة علاء الدين وسيطرت على التل الذي تمركزت عليه ميسرة علاء الدين ثم عادوا وحملوا على الخوارزمية، ثم رجع الخوارزميون مرة اخرى وكسروا ميسرة علاء الدين، فأردف الأشرف الميسرة بأخيه الحافظ واردف الرومى بصاحب خرتبرت وتمكنوا من زحزحة ميمنة جلال الدين عن التل وإنزالها في الوادى وتتابعت الحملات عليهم[٤]، ثم تقدم الأشرف إلى عسكر مصر وهم في الف وخمسمائة فارس وإلى عسكر حمص وحلب وحماة فانتقى منهم الف فارس، وأرسل بعض امراء العرب في الف فارس منهم فهجموا على التل المقيم عليه جلال الدين منكبرتى ففوجىء بهم[٥] وايقن بالهلاك فلاذ بالفرار[٦] ولما رأى جيشه فراره وكانوا قد اعيتهم

---

(١) سورة الحجرات، آية (٩).

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢٠٨، الذهبى، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٣، ص ٣٣-٣٤.

(٣) الجاليش: معناه في الأصل الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ثم اطلقت على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص ٤١، هامش ١.

(٤) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٣٣١، ابن نظيف الحموى، المصدر السابق،ص٢٠٩.

(٥) الذهبى، المصدر السابق، طبقة ٦٣، ص ٣٤.

(٦) يذكر الجوينى في تاريخ فاتح العالم، ج٢،ص ٨٤ أن سبب هزيمة جلال الدين تعود إلى ضعف صحته حيث لم يتمكن من التمسك بزمام جواده فانطلق الجواد يسرع على غير بصيرة

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

الحرب ووقعت بهم الواقعة انهزموا وراءه، وأما الذين حملوا على ميسرة الرومي احاطت بهم الجيوش فلم يفلت منهم أحد.[١]

ويذكر بعض المؤرخين أن سبب الهزيمة هو أن الله سبحانه وتعالى أرسل ضباباً عندما اصطفت الجيوش للقتال فاستحالت رؤية قوات العدو، بينما هجمت قوات الأيوبيين والروم على جند جلال الدين فلم يستطع الثبات في ميدان القتال فولوا منهزمين وفي ذلك عظة وعبرة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يمهل جلال الدين بل عاجله بالعقوبة الدنيوية نظير ما اقترفته قواته من قتل ونهب وتدمير في خلاط.[٢]

ولم يقتصر ذلك على جلال الدين وحدة بل شمل معظم قواته حيث أصابهم الخوف والذعر فلم يقدروا على الهرب ولم يهتدوا إلى ذلك سبيلاً ونزل أكثرهم عن خيولهم وتفرقوا في الجبال والشعاب والاودية والبيوت الخربة فوقعوا فريسة سهلة للفلاحين والغلمان وقتلهم أضعف الناس وتفرقوا لايلوون على شيء ووصلت مجموعة منهم إلى درابزون[٣] فنزلوا في وادى به شقيف فوقعوا فيه[٤] وما ذلك إلا

---

فقال خاصتة يجب أن ينال السلطان راحته فعادت الرايات لهذا السبب فلما رأت صفوف الميمنة والميسرة ذلك ظنوا ان السلطان انهزم فتراجعوا.

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٣١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٩٩، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٢٣.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٦١، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٠٠.

(٣) داربزون: مدينة على ساحل البحر الأسود. انظر ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص ٢١٠، هامش ٣.

لشدة ماملكهم من الخوف والذعر حتى قيل أنه وقع فيه مايقارب الفاً وخمسمائة وأبغال بأحمالها وجمال، وتهافت الناس عليهم ليأخذوا مامعهم فأخرجوا الجمال بأحمالها وكان بها الجواهر والكساوى والذهب والاطلس وغيره، وكان أغلبه خزانة لجلال الدين منكبرتي ولإصحابه واغتنى الناس من ذلك لدرجة أنهم تركوا كثيراً من العدد والالات والأقمشة في الطرقات.[١]

وتمكن جنود الحلفاء من أسر صاحب ارزن الروم بعد أن أحاطوا به وقيدوه وحملوه على بغل وجرعه الزمان مر كاسه ثم سارت جيوش الحلفاء حتى وصلت إلى ارزن الروم ونزلت عليها وحاصروها من كل مكان وشرعوا في قتالها وأظهر أهلها العصيان ورفضوا تسليم مدينتهم، وعندما أحسوا بخطورة الموقف سيروا إلى كل من الأشرف وعلاء الدين سراً، وقال لهم الأشرف " أنا أدخل في الكف عنكم ورفع الأذى من السلطان عنكم" ففتحوا لهم ابواب المدينة ودخلوها وأقام بها الأشرف وعلاء الدين " في أنس ووداع وتقرير ممالك".[٢]

أما جلال الدين منكبرتي فإنه لشدة هول الهزيمة التى حلت به فقد وصل إلى خرتبرت في يوم وليلة وهو في حالة يرثى لها وكان وزيره نازلاً على منازجرد

---

(٤) سيرة جلال الدين، ص٣٣١ ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص٢١٠، أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص١٥٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٧، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٢٩-٤٣٠، تاريخ الزمان، ص ٢٧٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٧٣، والشقيفة في اللغة "الارض بين جبلين صلبة يستنقع الماء فيها ". انظر أبو الحسين بن فارس ابن زكريا، " معجم مقاييس اللغة، ج٣، ص ١٧٢" وفي لسان العرب، ج٢، ص ٥٢،" الشقيفة الفرجة بين الجبلين".

(١) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٢) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص٢١٢، النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٢، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٧٦-٢٧٧، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٥٣.

محاصراً لها ومضيقاً الخناق عليها فأتى أهلها الفرج مــن حيـث لـم يحتسـبوا، إذ أن جلال الدين استدعى وزيره وسار معه بعسكره إلى خلاط، فلما وصلها أخذ منها مـا أمكنه حمله من الخزائن، وأحرق الباقي لقلة الظهر وضيق الوقت وأخذ معه الكرجية زوجة الأشرف وأخوته وسار مسرعاً إلى ارجيش[١] ثم انطلق منها إلى أذربيجان بعد أن ترك وزيره خلفه في سكماناباذ[٢] يحميه من أي قاصد يقصده وأقام هو بخوى[٣] على أن قوات الحلفاء لوسارت خلف جلال الدين بعد قدر اللـه لتمكنت من القبض عليه ولكنهم ظنوا أن انهزامه بتلك الصورة إنما هو خدعة منه يستدرجهم فيوقع بهم وبعد أن تيقنوا من كسرة الخوارزمى قرر الأشرف المسير إلى خلاط، وسير علاء الدين معه خمسة الآف فارس مـن عسكره واعطاه ذخيرة لإستخدامها أثناء مسيره إلى خلاط كما عرض عليه القلاع التى استولت عليها الكرج من خلاط فما أخذ منها الاقلعة وأحدة تسمى بقلعة أُلتى وكانت أجودها[٤] أنطلق الأشرف بقواته قاصداً خلاط، فوصل خرتبرت وأخبره أهلها بقدوم جلال الدين عليهم فى طريق عودته، ثم سار إلى ملازجردفاستقبله من كان بها من أهلها وعسكره، كما بعث إلى خلاط من نظم أمورها ورتب أحوالها وعين والياً عليها، وبعد ثلاثة أيام غادر الأشرف ملازجرد وسار إلى ارجيش فاستقبله من كان بها ووصل إليه فى

---

(١) أرجيش: أحدى مدن أرمينية الكبرى وهى بالقرب من خلاط. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) سكماناباذ: لم أقع لها على ترجمة في المراجع المتوفرة لدى.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٣٣، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص٤٣٠، رشيد الدين فضل الله الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٤٤، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٢٣.

(٤) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص٢١٢-٢١٣، النسوى، المصدر السابق، ص٣٣١، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٦١، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص٢٧٧، وأُلتى: قلعة بأرمينيه غرب كرس.انظر ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص٢٠٩، هامش ٥.

ارجيش صاحب الجزيرة الملك المعظم فأكرمه وأحسن استقباله.[١]

أما الأشرف فقد أقام فى أرجيش يترقب الموقف ويستطلع الأخبار ورتب اليزك لقرب وزير جلال الدين منكبرتى من بيكرى[٢] وهم الأشرف باللحاق بجلال الدين وتردد فى ذلك وأخذ يقدم رجلاً ويؤخر اخرى ثم استشار أحد القادة فى أمر جلال الدين[٣] فأشار عليه برأى رشيد يحقن الدماء ويحفظ الحرمات ويراعى حال المسلمين.

ولابد لنا من وقفة هنا حول هذا المبدأ العظيم من مبادىء الإسلام وهو مبدأ الشورى حيث قال تعالى: ﴿وشاورهم فى الأمر﴾[٤] وقال ﴿ وأمرهم شورى بينهم﴾[٥] كما أن الرسول ﷺ وهو الذى لاينطق عن الهوى كان يستشير أصحابه فى كثير من المواقف. والمتتبع لتاريخ هذه الفترة من التاريخ الإسلامى يلاحظ أن معظم الصرعات التى قامت بين الدول الإسلامية بعضها مع بعض أو مع اعدائها كان يفتقر إلى هذا المبدأ العظيم فكل حاكم ينفذ ماتمليه عليه رغباته وشهواته دون استشارة أحد فى ذلك فنتج عن ذلك تغلب الهوى على الصالح العام وأدى فساد الرأى إلى ضعف الأمة الاسلامية.

ولقد أحسن الأشرف فى استشارته لهذا القائد فقال له "كيف نعمل بجلال الدين" قال: "إذا أذن للملوك قال ماعنده" فاذن له فذهب واحضر أحد اسراه من الخوارزميين ومنحه الأمان على نفسه وقال له " تمضى إلى جلال الدين تعرفه

---

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص ٢١٣-٢١٤.

(٢) بيكرى: أو بركرى هى من أعمال خلاط. انظر الحموى، المصدر السابق، ص٢١٤ ، هامش ٣.

(٣) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص٢١٤، أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٥٩، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ٣٤.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

(٥) سورة الشورى، آية ٣٨.

إحساننا إلى من عندنا من الأسرى ومالكم من راتب ونفقة وحرمه ليفعل مع من لنا عنده كذلك" فسار إلى جلال الدين وبلغه المقولة فما كان من جلال الدين إلا أن طلب منه أن يرجع إلى الأشرف ويطلب منه رسولاً ليحادثه، فعاد الرسول ونقل للأشرف طلب جلال الدين فقال له الأشرف وكان يخشى من بطش جلال الدين برسله "ما عندنا مثلك وانت امينا ونسمع ما تقوله فعاد إلى جلال الدين وعرفه ماتم الاتفاق عليه[١]، فقال له: "تقول للأشرف يا خوند[٢] أنا ماأسأت أولاً، ولاشك أنى سيرت المجيد قاضى الممالك إليكم فى أحسن السفارة، وأفسد بيننا، ومع هذا فقد طلب المسالمة فما اجبتم إليها، ودخل الحاجب بلادى واخربها وأخذ حرمى، وفعل ماقد علمتموه، وطلب الصلح فما فعل، ثم ولى بعده أبيك طلب الصلح فما فعل وجرى ماجرى بقدر الله وقضائه وعندى الآن ملوك وعندكم مماليك، فان اخترتم الصلح باسم الله".[٣]

ويظهر أن جلال الدين حاول من خلال هذه الرسالة أن يبرر لنفسه ماأقدم عليه هو وقواته ويرجع ذلك إلى عدة أمور منها أن قاضى الممالك الذى كان قد سيره إلى ملوك بنى أيوب قد عمل على إفساد مابينهم ثم يذكر أنه طلب المسالمة فلم يجبه أحد إلى ذلك ومن خلال استعراضنا لتاريخ جلال الدين فى هذا الفصل لم نطلع على نص وأحد يفيد بأن جلال الدين قد طلب المسالمة مع ملوك بنى أيوب. وإنما هو يحاول أن يلتمس أعذاراً لنفسه على حروبه المتواصلة في الجزيرة.

ثم يذكر مافعله الحاجب ببلاده من خراب وتدمير وإعتداء على حرمه[٤]، ويختم رسالته بتهديد للأشرف يبين له أن فى قبضته ملوك من بنى أيوب أما الأشرف

---

(١) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) خوند: كلمة فارسية، تعنى السيد، انظر الحموى، المصدر السابق، ص ٢١٥، هامش ٣.

(٣) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص٢١٥، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص٤٣٠.

(٤) انظر المبحث السابق ص ٣٨.

فليس عنده سوى مماليك.[(١)]

لم تنطل هذه المبررات على الأشرف ولم يسكت للتهديد الذى بدر من جلال الدين فأرسل رسوله بجواب جاء فيه "أن تدخل على المولى السلطان وتقول: يا خوند أنت سلطان وابن سلطان ومأأردنا لك سوءاً وقد بلغت فيما فعلته في بلادنا من خراب ونهب وقتل. والذى كان قصد بلادك كما زعمت فقد قابلناه على فعله، وأنت فما أبقيت في سوء المعاملة وإراقتك الدماء؟ فبلادنا قد خربت فصلحنا على أي شيء يكون، فإن أردت ذلك فانزل عن هذه البلاد التى ماكانت لك ولا لإبيك، لنعمر نحن بالعامر الخراب، ونحن فما اشتهينا اذيتك، لأن خلفك اعداداً كثيرين، وأنت ابتر، فهذا موجب ابقائنا عليك رحمة، وأما قولك: عندك ملوك وعندنا مماليك، فالذى عندك مماليك ايضاً، واخى مجير الدين اقدر أنه مات، ولى عدة أخوة وأولادهم جماعة، واهلى ماينـاهض الفى فارس من بيتنا، ولى من يكلفنى ويخلفنى ويكفينى ماورائى وأنت فمالك أحد".[(٢)]

ويذكر النسوى أن الأشرف كان حريصاً على الصلح حقناً للدماء وحريصاً على قوة جلال الدين لتقف في وجه التتار فأرسل إلى وزيره شرف الملك[(٣)] وكان مقيماً بسكاناباذ قائلاً له بعد أن لاطفه "إن سلطانك سلطان الإسلام والمسلمين وسندهم، والحاجب دونهم ودون التتار وسدهم، وغير خاف علينا ماتم على حوزة الإسلام وبيضة الدين بموت والده، ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الإسلام، وضرره عائد على كافة الأنام، وأنت قد حلبت الدهر اشطره، وعرفت نفعه من ضرره، وذقت حلوه ومره، فهلا ترغبه في جمع الكلمة ماهو اهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً ؟ ولم

(١) ابن نظيف الحموى،التاريخ المنصورى، ص ٢١٥.

(٢) ابن نظيف الحموى، المصدر السابق، ص٢١٦، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص٢٢٧، مختصر الدول، ص ٤٣٠.

(٣) اسم هذا الوزير عند ابن نظيف الحموى خواجاجهان

لاتدعوة إلى الالفة التي هى أحمد في البدء والعقبى، وأقرب إلى مايقربه إلى الله زلفى ؟ وما أنا ضامن السلطان من جهة علاء الدين كيقباذ وأخى الكامل مايرضيه الإنجاد والاسعاد، وإصفاء النيات على حالتي القرب والبعاد، والقيام بما يزيل عارض الوحشة ويمحو سمة الفرقة".(١)

واستحسن جلال الدين هذه الرسالة، حيث حفظ له الأشرف مكانته، بعد أن هزم شر هزيمة على يد قوات الحلفاء، فمال إلى الصلح وترددت الرسل بينهم فى ذلك، وكان آخر رسول تمت على يديه مراسيم الصلح النهائية هو الشمس التكريتي الذى ذهب إلى تبريز واستحلف جلال الدين للأشرف بعدم الإعتداء على ممتلكاته فى خلاط ونواحيها(٢) واستثنى من ذلك سرمارى(٣) لأنها معدودة من أعمال أذربيجان فالح عليه التكريتي بالنزول عنها لأن صاحبه دخل فى طاعة الملك الأشرف فنزل فى نهاية الأمر عنه، ولكن جلال الدين توقف عن الحلف لعلاء الدين كيقباذ لمايحمله من غل عليه ولم يرجع التكريتى بل أقام عند جلال الدين عله يرجع عن ذلك، ومضى شهر وجلال الدين مصر على عدم اقرار الصلح مع الروم وكان يقول للرسول "قد حلفنا لكم بجميع مأأردتم، فخلوا السبيل بينى وبين صاحب الروم" فلم يقتنع الرسول بذلك بل حاول معه وراجعه فى ذلك عدة مرات فلم يحلف له، إلى أن وردت الأخبار بوصول التتار إلى العراق العجمي عندئذ اضطر إلى الحلف لصاحب الروم، والكف عن بلاده.(٤)

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٣٣٣-٣٣٤، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٦٦.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣٤، ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٢، الأصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٧هـ، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٢٩٥، نافع العبود، المرجع السابق، ص ١١٦-١١٧.

(٣) قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٣٤-٣٣٥.

ويتبين من تأخر وتسويف حلف جلال الدين لصاحب الروم مدى الدخن والغل في القلوب وان هذه المعاهدات والاتفاقات انما كانت هدنة مرحلية تمهيداً للاستعداد لمعارك جديدة وأنه اقسم مضطراً لما علم بهجوم التتار.

واخيراً كانت هذه المعركة بين الطرفين فرصة استثمرها جلال الدين ليحسن علاقته مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام والجزيرة لاسيما وان الخطر المغولى قادم من الشرق للقضاء الدولة الخوارزمية ومن ثم الهجوم على البلدان الإسلامية فيما وراءها.[١]

كما كان لهذه المعركة نتائج اخرى من أهمها: -

١- إضعاف قوة جلال الدين وتفرق أتباعه في البلدان وكسر شوكته على الرغم من أنه كان بمثابة السد الفاصل بين المسلمين والمغول.

٢ - فرح كثير من البلدان الإسلامية بكسر شوكه جلال الدين لأنه في نظرهم لايؤمن جانبه وخاصة أهل خلاط.

٣- تحريض الإسماعيلية للمغول على سرعة الاجهاز على جلال الدين وفتح الباب أمامهم مرة اخرى للقضاء على الدولة الخوارزمية منتهزين فرصة هزيمته وانكسار قواته.

وستتجلى هذه النتائج بوضوح في المبحث الرابع من هذا الفصل.

---

(١) محمود ياسين التكريتى، الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة، ص٢٩٤.

# تجدد الخطر المغولى على الدولة الخوارزمية ونهاية جلال الدين

ويحسن بنا قبل أن نوضح هذه النتائج أن نلقى الضوء على أحوال المغول بعد انتصارهم على جلال الدين في المرة الأولى. فقد عاد جنكيزخان إلى بلاده بعد أن تمكن من الإنتصار على جلال الدين منكبرتي وسيطر على أغلب اقاليم الدولة الخوارزمية إلا أنه لم يحتفظ بهذه الأقاليم لأن جيوشه الجرارة عندما قدمت إلى هذه الأقاليم أتت على الأخضر واليابس فلم تترك أى معنى للحياة بها، فقتلوا أهلها ونهبوا أموالها وسبوا حريمها ولم يبقوا على أحد بها بل أنهم عمدوا إلى إحراقها وخرابها وفعلوا بسوادها كذلك "فاصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس".[١]

ومن المسلم به أن هناك أموراً أخرى شغلت المغول عن الإلتفات إلى البلاد الإسلامية. من ذلك بروز أحداث جديدة أصبحت تهدد كيانهم فى بلادهم الأصلية.[٢]

ومن أجل ذلك نرى جنكيز خان مؤسس هذه الامبراطورية يبذل كل جهوده من أجل الحفاظ على هذا الصرح الذى شيده وحتى تتسنى له الفرصة من جديد لتوسيع مملكته على حساب البلدان الإسلامية المجاورة له، فكان أول ماقام به بعد رجوعه إلى بلاده هو القضاء على القبائل الثائرة عليه ثم سخر جهوده لإخضاع امبراطورية سونج فى النصف الجنوبى من بلاد الصين حتى لاتبقى شوكة فى ظهره

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٤٤.

(٢) حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢٢١.

تهدد كيان دولته فى أحرج الظروف، ولكنه توفى قبل أن يرى ثمرة إنتصار قواده هناك.[١]

ومما زاد فى تأخر الزحف المغولى على بلدان العالم الإسلامى فى هذه الفترة هو بقاء عرش المغول خالياً لمدة عامين بعد وفاة جنكيزخان[٢] سنة٦٢٤هـ/١٢٢٧م فاضطربت أحوال المغول لذلك وسارع الأمراء بالعودة إلى "قرا – قورم " منغولياً لأنهم "خشوا إذا ظل الحكم للأمراء فى ولاياتهم دون رجوع الخان الأعظم، أن تحدث فتنة أو يخرج على الدولة عدو لها"فاجتمع مجلس الشورى المغولى "قورتيلاى" وتشاوروا فيمن يخلف جنكيز خان ويتولى زمام هذه الامبراطورية، وكان من عادة المغول أن يقوم أصغر الأبناء مقام أبيه بعد وفاته إلا أن الأمراء خالفوا هذه القاعدة المعمول بها عندهم وقرروا تنصيب أكتاى على عرش هذه الأمبراطورية عملاً بوصية جنكيزخان وتردد أكتاى فى ذلك إلا أنه انصاع إلى ذلك فى نهاية المطاف.[٣]

ومما تجدر الإشارة إليه أن المغول رغم إنشغالهم بتعيين خان جديد لهم إلا أن إعتداءاتهم لم تنقطع عن أراضى الدولة الخوارزمية، فقد كانت جماعات مغولية غير منظمة تخرج فتغير على البلدان الإسلامية وتتوغل فيها بحروب أشبه بحروب

---

(١) حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٢١.

(٢) جنكيز خان طاغية التتار وسلطانهم الاعظم الذي خرب البلاد واباد الأمم وهو الذي جيش الجيوش وخرج بهم من بادية الصين. فدانت له المغول وعقدوا له عليهم وأطاعوه وإسمه قبل الملك تموجين، مات على الكفر وكان من دهاة العالم توفي في شهر رمضان سنة٦٢٤هـ، انظر الذهبى العبر، ج٣، ص ١٩٢.

(٣) رشيد الدين فضل الله الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٥-٦، حافظ حمدى، المرجع السابق، ص ٢٢١.

العصابات.[(١)]

ولابد لنا من وقفة هنا نبين من خلالها أحوال اقاليم خرسان وخوارزم وغزنه بعد الإجتياح المغولى لها وعودتهم إلى بلادهم، فقد ترك جلال الدين هذه الاقاليم فى أيدى المغتصبين لها من رجال الدولة الخوارزمية وصرف كل جهوده للسيطرة على الأقاليم الغربيه من الدولة الخوارزمية فى حياة أبيه.[(٢)]

لذلك لم تجد القوات المغولية صعوبة تذكر عندما كانت تقوم بشن غاراتها على تلك الاقاليم ففى سنة ٦٢١هـ /١٢٢٤م وصلت طائفة من التتر إلى الرى[(٣)] ووضعوا السيف فى أهلها بعد أن عمروها فقتلوا ونهبوا وأخربوا ثم ساروا إلى ساوة[(٤)] وقم[(٥)] وقاشان[(٦)] فملكوها وفعلوا بها مثل مافعلوا بالرى،وانطلقوا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون حتى وصلوا إلى همذان فلم تسلم منهم فقتلوا واسروا ونهبوا واخربوا البلد، وفر كثير من عسكر الخوارزمية إلى أذربيجان ليحتموا بها وما أن وصلوا إليها حتى كبسهم التتر ووضعوا فيهم السيف وفرت طائفة منهم إلى تبريز وكان صاحبها فى ذلك الوقت أزبك بن البهلوان فأرسل إليه

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٥٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٣١٥، عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص٢٥٩، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢٢٢.

(٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٥٣، ابن واصل،المصدر السابق، ج٤، ص ٣١٥، حافظ حمدى، المرجع السابق، ص٢٢٢.

(٣) الرى: مدينة مشهورة من أمهات البلاد واعلام المدن وهى قصبة بلاد الجبال. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ساوة: مدينة حسنة بين الرى وهمذان. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) قم: مدينة تذكر مع قاشان وهى مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها.انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٦) قاشان: مدينة قرب اصبهان تذكر مع قم. انظر ياقوت، معجم البلدان.

التتر يهددونه ويأمرونه بتسليم من فر إليه من عسكر الخوارزمية فما كان منـه إلا أن قبض على من وجد عنده من الخوارزمية فقتل بعضهـم وأسـر بعضهـم وسيرهم إلى التتر مخافـة أن يزول ملكه على أيديهم رغم أن عسكره كان أضعاف عسكر التتر.[١]

وعندما فرغ جلال الدين من كسرة الإسماعيلية نتيجة قتلهم أمير من أمرائه الكبار ورد إليه الخبر بمقدم طائفة من التتر عظيمة وأنهم قد وصلوا إلى دامغان بالقرب من الرى طمعاً فى الإستيلاء على ماتبقى من ممتلكات الخوارزميين واستغلال خيراتهم، فماكان منه إلا أن سار إليهم ليباغتهم فى دامغان والتقى الفريقان واشتدت الحرب بينهم وحمي الوطيس واستبسل الخوارزميين فى قتالهم فانهزم التتر من أرض المعركة سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م فأوسعوهم قتلاً وتتبعوا المنهزمين عدة أيام يقتلون وياسرون.[٢]

وفى العام التالى ورد الخبر بمقدم فرقة مغولية كبيرة صوب أراضى الدولة الخوارزمية وكان جلال الدين مقيماً بتبريز للإستجمام، فلما سمع بقربهم من أصبهان خاف على أولاده وحرمه فيها، فجمع قواته وسار مسرعاً إلى اصفهان لأن "التقاءهم بها أصوب، ومن الإحتياط والحزم أقرب، لمافيها من عدة وعديد، ورجال يمجون من بحار من حديد".[٣]

وصل جلال الدين إلى اصفهان، واعد فرقة استطلاعية تأتيه بأخبار التتر كان

---

(١) ابن الأثير،الكامل، ج٩، ص ٣٥٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١١٢، ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٤، الاصفهانى، البستان،الجامع لجميع، حوادث سنة٦٢٤هـ، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص ١٣٠، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ٢٠٠.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٢٣٢، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص٥٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص٣٧، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص١١٣.

قوامها أربعة الآف فارس، أرسلها إلى الرى ودامغان و كانت الأخبار تأتى من جهتهم يوماً بعد يوم تخبره بتقدم التتار صوب اصفهان، ثم رجعوا إلى جلال الدين منكبرتى وأخبروه بأحوال المغول، وعرفوه بما فىعسكر التتار من الفرسان الشجعان الذين كانواكما يذكر الدوادار جمرة التتار الوقادة وصاعقتهم المحرقة.[١]

تقدمت جموع التتار ونزلت بقرية السين شرقى اصفهان واستعدوا للقاء القوات الخوارزمية بقيادة جلال الدين منكبرتى، إلا أن جلال الدين لم يتحرك للقائهم لأن المنجمين قد أشاروا عليه بألايقاتلهم إلا بعد ثلاثة أيام، وصدق جلال الدين كلام المنجمين[٢] فلم يتوجه لمقابلة التتار إلا بعد إنقضاء المدة المحدودة وفى هذه اللحظات تجلت شجاعة جلال الدين فلم يكترث لمجيئهم أو على الأقل تظاهر بعدم الإكتراث لمجيئهم حتى لاتفتر قواته ويصيبهم الخور والخوف، ويظهر ذلك فيما أورده النسوى حيث قال "ومما يدل على قوة قلب السلطان فى الأمور القادمة، وقلة مبالاته بالخطوب الكالحة، ان جماعة الأمراء الخانات لماسمعوا يقرب العدو، انزعجوا لذلك، وقصدوا بابه، فجلسوا ساعة حتى أذن لهم بالدخول، فلما وقفوا بين يديه وهو واقف فى صحن الدار أخذ يتكلم زماناً فيما ليس يتعلق بالتتار استحقاراً بهم، وإظهاره للجماعة بأن الأمر ليس بأمر، وإن الحادث ليس بنكر، تسكيناً لقلوبهم الخافقة، وتقوية لنفوسهم الفارقة"[٣]، واستمر جلال الدين فى حديثه حتى تيقن من ثبات جنده واجلسهم فى نهاية المطاف وعرض عليهم أمر التتار وقال لهم "لقد داهمنا خطب جلل وبلاء عظيم، فإن داخلنا العجز، والجبن فلن يكون لنا وجود، فعلينا أن نقاوم ونصبر أولاً، فقد يمن الله علينا

---

(١) ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨٤.

(٢) وما أصاب الأمة اسلامية على أيدي التتار إنما كان بسبب الإنحراف العقدي الذي سرى فيها والمتمثل في التصوف والشركيات التى عمت في هذه الحقبة ضلا عن التنجيم.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٣،، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ١٨.

وعليكم بالبقاء أما إن كان الأمر غير ذلك فلن نحرم أنفسنا من درجة الشهادة وفضيلة السعادة، قال تعالى، ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[١] ووقف جميعهم مع السلطان قلباً ولساناً".[٢]

وكان جلال الدين يفتقر إلى الثقة فى أمرائه وقواده لذلك نجده يلجأ إلى استحلافهم على أن لايهربوا من ميدان القتال، وفى المقابل نجده يعزز ثقة أمرائه به فيحلف لهم تبرعاً منه من غير طلب منهم على أن يقاتل إلى النهاية، ثم بدأ جلال الدين يرتب أوضاعه ويستعرض القوات المشاركة معه فاستدعى قاضى اصفهان ورؤساءهم وأمرهم بإجراء استعراض عام لقوات اصفهان وتوزيع العدد عليهم، كل ذلك من أجل رفع الروح المعنوية عند بقية قواته إذا أن عساكر اصفهان فيهم من القوة والشجاعة والشدة وقوة البأس ماليس فى غيرهم.[٣]

ولما تأخر السلطان جلال الدين ثلاثة أيام عن الخروج ظنوا أن السلطان إمتلأ منهم رعباً وخوفاً، فأرسلوا مايقرب من الفى فارس إلى جبال اصفهان ليجمعوا لهم مايقوتهم خلال حربهم مع الخوارزمية، فلما بلغ جلال الدين خبرهم جرد إليهم ثلاثة الآف فارس، فانطلقوا إليهم وضيقوا عليهم الطرقات وتقابلوا معهم فانزلوا بهم هزيمة ساحقة وقتلوا منهم من قتلوا واسروا مايقرب من أربعمائة أسير مابين مأمور وأمير وأحضروهم إلى جلال الدين منكبرتى قتل بعضهم بيده وسير البقية الباقية إلى القاضى كي يقوم بقتلهم وسحبهم فى شوارع المدينة حتى تسقط هيبتهم من قلوب

---

(١) سورة الأنفال، آية ٤٥.

(٢) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ص ٧٠-٧١.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٢٣٣، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨٥، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٣٧، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٣، ص ١٨.

عامة الناس.[١]

ثم أمر جلال الدين بعد ذلك بالتعبئة العامة لقرب الموعد المحدد لقتال التتار وأخذ ينظم صفوف قواته حيث وزعها إلى ثلاث مجموعات الميسرة والميمنة والقلب، فوضع أخاه غياث الدين على ميسرة الجيش بينما وضع أحد قواده الشجعان على ميمنة الجيش وتولى هو قيادة القلب، فلما ظهرت جموع التتار وتراءى الجمعان خذله أخوه غياث الدين فانسحب بعساكره ومجموعة من عساكر جلال الدين مقدمهم جهان بهلوان ايلجي.[٢]

لقد كان هذا العمل الذى أقدم عليه غياث الدين بمثابة خرق لوحدة الصف الإسلامى الذى كان ينبغى أن يتم لدحر أي عدوان على بلدان العالم الإسلامى فالأمة الإسلامية فى تلك الفترة عامة والدولة الخوارزمية ممثلة في جلال الدين خاصة كانت فى أمس الحاجة إلى نبذ الخلافات والأطماع الشخصية وتحديد الخطر الحقيقى المحدق بالجميع ومن ثم تكثيف الجهود وتسخيرها ضد أعداء الأمة الإسلامية.

تقول الرويات التاريخية بان جلال الدين لم يلتفت إلى ماقام به أخوه غياث الدين من مفارقتة فى ساعة العسرة، بل إنشغل بأمر التتار الذين وقفوا أمامه فى اطلاب متفرقة ومترادفة، وكان عسكر جلال الدين أضعاف عسكر التتار لذلك أمر رجال اصفهان بالعودة إلى مدينتهم إعجاباً بكثرة قواته واستحقاراً لقوات التتار.[٣]

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٤، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨٥ الذهبى، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٣، ص ١٩، دول الإسلام، ج٢، ص١٣٠.

(٢) النسوى،المصدر السابق،ص٢٣٤، الجوينى، تاريخ فاتح العالم،ص٧١، اليافعى، مرآة الجنان،ج٤،ص٥٧، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى،ص١٣٨،الديار بكرى، تاريخ الخميس،ج٢،ص٣٧١.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٤-٢٣٥،الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص١٣٠، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج٢، ص ٣٧١.

تقدمت عساكر جلال الدين وتباعدت الميمنة عن الميسرة بحيث لم تعرف الوأحدة منها حال الاخرى " فالتقوا على حرب اشابت الذوائب وأنارت الكواكب" فحملت ميمنة السلطان على ميسرة التتار فانزلت بهم هزيمة ساحقة ولاذ بعضهم بالفرار فتبعوهم إلى تخوم قاشان ولم تكن ميسرة السلطان بأقل حظاً من اختها فقد فعلت وانزلت بأسها، بالقوم الظالمين[١]، ولم يزل السيف يعمل فيهم حتى المساء، وفرح السلطان جلال الدين بإنتصاره على التتار فماكان منه إلا أن، ترجل وسجد شكراً لله تعالى[٢]، ثم نزل على حافة جرف كان فى المعركة قاطع بينة وبين العدو، ولشدة الفرحة وحلاوة النصر لدى الخوارزمية أشاد به أحد امرائه وقال له "قد تمنينا دهراً أن نرزق مثل هذا اليوم الأبيض فى هؤلاء الملاعين، نذهب فيه غيظ قلوبنا، ونطفى، حر صدورنا فلما سمح الدهر بالمأمول وجاء الزمان باسعاف السول نجلى عطاش أمالنا عن الماء ويزاد عن مشربها العذب ببلابلها ظماء"[٣]، ولم يزل هذا الأمير يمنيه ويحفزه على اللحاق بفلول التتار للقضاء عليهم، فركب من ساعته يتبعهم وعبر النهر، وعندما شاهد التتار السواد الأعظم خرج جماعة من شجعانهم وكمنوا لهم خلف تل قريب منهم وكان ذلك غروب الشمس، ولما أقتربوا منهم خرجوا على السلطان يداً وأحدة، فحملوا على ميسرة السلطان وفتكوا بهم ولم يبق بها سوى ثلاثة اشخاص ثم حملوا على القلب فشتتوا شملهم واشتبك الفريقان بعضهم فى بعض، وثبت جلال الدين فى القلب مع أربعة عشر نفر من خواص مماليكه، ثم أحاطت به التتار من كل جانب وتحول النصر السابق إلى هزيمة نكراء، فلاذ بالفرار من بين الصفوف وتفرقت جيوشه فى البلدان

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٢٣٥-٢٣٦، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص٥٧، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص١١٣، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج٢، ص٣٧١.

(٢) ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٨٥.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٣٥-٢٣٦، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ٢٨٥.

فمنهم من ذهب إلى فارس ومنهم من وصل إلى كرمان ومنهم من قصد أذربيجان ومنهم من عجز عن المسير فدخل إلى اصفهان.[١]

أما ميمنة السلطان فقد عادت ظافرة منصورة تظن أن النصر قد تحقق للجميع فلما علمت بما حل ببقية الجيش أصابهم الخور والخوف فتفرقوا وساحوا فى البلدان، ولايفوتنا أن التتار أنفسهم رغم مافعلوه بعسكر جلال الدين إلا أنهم انهزموا كذلك فكانت هذه من الوقعات التى لم يسمع بمثلها لإنهزام الفريقين[٢]، واختلفت الروايات التاريخية فى تحديد تاريخ هذه الواقعة فنجد أن اليافعى ورشيد الدين يذكران أنها جرت فى عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م[٣]، بينما نجد النسوى يذكر أنها وقعت فى الثانى والعشرين من شهر رمضان عام ٦٢٥هـ،٢٥ أغسطس ١٢٢٨م.[٤]

أما جلال الدين فقد بلغت به الهزيمة إلى خوزستان، فنزل فى أحد الوديان هناك وتوافد عليه بعض فلول جيشه، ولم يعلم به أهل اصفهان وعامة جيشه، فقد زعم البعض أنه قتل وزعم البعض أنه اسر واضطربت الأمور عند بقية اتباعة، هل هو حى ينتظرون عودته أم غير ذلك فيجهزون أنفسهم لإختيار خليفة له يتولى زمام الأمور، وهنا بدأت الأطماع تظهر من قبل عامة أهل اصفهان حيث هموا بالإعتداء على عورات النساء الخوارزمية وأموالهن، لولا تدخل القاضى الذى طلب منهم عدم

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ١٣٨،ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨٥ الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ١٩، العبر، ج٣، ص١٩٢، دول الاسلام، ج٢، ص ١٣٠، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١١٣.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٣٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٣٩، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ٥٧، الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ٢٠.

(٣) اليافعى، المصدر السابق، ج٤،ص٥٧، الهمذانى، جامع التواريخ، ج١، ص ٣٩٦.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

التعجل فى ذلك حتى يتبين أمر السلطان.[١]

ولنا أن نتساءل لماذا هم أهل اصفهان بالاعتداء على عورات النساء الخوارزمية وأموالهم ؟ لعل قائل يقول بسبب معاملة جلال الدين لهم، فلو سلمنا جدلاً بهذه الاحتمالات أيحق لأهل اصفهان أن يفعلوا ذلك أم كان الاجدر بهم أن يتتبعوا فلول التتار ويقضوا على البقية الباقية منهم، لأن العدو مشترك وهو لن يميز بينهم عندما يعاود اعتداءاته على الأقاليم الإسلامية.

وكيفما كان الأمر فإن السلطان جلال الدين خرج إليهم بعد ثمانية أيام وصلى معهم صلاة العيد فاقبلت إليه جموع عساكره المتفرقة، وكافأ أمراء ميمنته بجزيل الرواتب والمراتب ولكى يثبت السلطان قوته أمام أعدائه سار بقواته ناحية الرى ليلقى الرعب فى قلوب التتار ويزيدهم نفوراً، كما جرد سراياه إلى أراضى خراسان لتتبع شتات المغول.[٢]

ولقد أورد ابن الأثير وابن واصل صورة أخرى لوقائع هذه المعركة تختلف إلى حد كبير عن الصورة السابقة فهم أولاً يذكران أن الحرب بين جلال الدين والتتر تعددت حتى اختلف الناس فى عددها، وكانت الحرب بينه وبينهم سجالاً مرة ينتصرون عليه ومرة ينتصر عليهم، وثانياً أن جلال الدين عندما تقابل مع التتر فى المعركة السابقة لم يقتتل معهم بل انه عندما انسحب اخوه غياث الدين مع مجموعة من عسكر جلال الدين، ظن التتر أنهم يريدون أن يأتوا من ورائهم فيقعوا فريسة بين عسكر الخوارزميين فانهزموا لهذا الظن. أما جلال الدين فإنه لما رأى مفارقة أخيه له مع مجموعة من الأمراء ورأى تراجع التتر ظن أن ذلك خدعة من قبلهم ليستدرجوه فيوقعوا به فولى منهزماً، وهذه من أغرب الوقائع إذ إنهزم

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٣٧، الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص٧١-٧٢، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٨٦.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٣٨.

الفريقان من غير أن يقتتلا.[١]

كما أن جلال الدين لم يجرؤ على دخول اصفهان خوفاً من حصار التتار له، فمضى إلى سميرم[٢] وتوقف التتر في الطريق إذ لم يروا أحداً يلحق بهم فعادوا إلى اصفهان وضربوا الحصار حولها، وظن أهلها أن جلال الدين قد قضى عليه، فبينما هم كذلك إذ ورد إليهم رسول جلال الدين يخبرهم بسلامته ويقول لهم: "لابد أن يجتمع لدى من تفرق من العساكر واقصدكم واتفق أنا وأنتم على إزعاج التتر وترحيلهم عنكم".[٣]

ولصعوبة موقفهم أرسلوا إليه على عجل يستدعونه إليهم ويعدونه النصرة والخروج إلى التتر لإنزال الهزيمة بهم، فسار إليهم واجتمع بأهل اصفهان ثم خرجوا جميعاً لملاقاة التتر وماهي إلا لحظات حتى انهزم التتر أقبح هزيمة، وسار جلال الدين خلفهم إلى الري يقتل ويأسر.[٤]

وعلى اية حال فإن هذه الحملات المغولية لم تكن منظمة ومعدة من قبل دولة المغول ومما يدل على ذلك أن جلال الدين عندما توقف في الري جاء إليه رسول الخان وهو ابن جنكيزخان يقول له "إن هؤلاء ليسوا من اصحابنا وإنما نحن

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٧٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٣٢.

(٢) سميرم: بلدة تقع في منتصف المسافة بين اصفهان وشيراز. انظر ياقوت، معجم البلدان، أبوالفدا، تقويم البلدان، ص ٤١١.

(٣) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٦، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص٢٣٢-٢٣٣، الذهبي، المختار من تاريخ الجزري، ص ١٤٢، الذهبي، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٣، ص ٢٤-٢٥.

(٤) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٦،، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٤١، الاصفهاني البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٥هـ.

ابعدناهم عنا"[١] كما أن هذه الجيوش رغم ماتحقق لها من إنتصارات فإنهم لم يفعلوا كما يقول الجوينى أكثر من الإقتراب من أبواب اصفهان ثم عادوا مسرعين إلى ديارهم فى ماوراء النهر بعد أن فقدوا معظم جيوشهم.[٢]

عاد جلال الدين بعد ذلك إلى بلاد أذربيجان وكان اخوه غياث الدين عندما فارقه اتجه إلى خوزستان طالباً الحماية من الخليفة العباسى المستنصر بالله فلم يمكنه النائب على خوزستان من الدخول خشية أن يكون ذلك مكيدة للإستيلاء على خورستان فردوه عن المدينة رداً جميلاً ولما بلغه عودة التتار وانتصار أخيه سارع بالذهاب إلى الإسماعيلية فى الموت وإستجار بزعيمهم علاء الدين.[٣]

سمع جلال الدين وهو في تبريز بنزول أخيه على الإسماعيلية فاعد العدة وسار بقواته إلى الموت عازماً على خراب بلادهم ونهبها إن لم يسلموا إليه أخاه وأرسل إلى زعيم الإسماعيلية فى طلب أخيه، فورد عليه الجواب بقولهم "ان اخاك قد قصدنا وهو سلطان وابن سلطان ولايجوز لنا أن نسلمه لكن نحن نتركه عندنا ولانمكنه أن يقصد شيئاً من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا ومتى كان منه ماتكره فى بلادك فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل ماتختار"[٤]

فلما سمع جوابهم أثر إجابتهم على طلبهم خاصة وأنه لايزال منهكاً بعد عودته

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٧٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٣،، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٢.

(٢) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٧٢.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٤٢-٢٤٣، ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٧٥-٣٧٦، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٤١، الذهبى، المختار من تاريخ الجزرى، ص ١٤٢-١٤٣.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٤٢-٢٤٣، ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص٣٧٥-٣٧٦، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص ١٦٢.

من قتال التتر واستحلف على الوفاء بعهدهم ثم كر راجعاً إلى بلاده[١]، وهكذا فقد لعب غياث الدين دوراً كبيراً في إضعاف قوة أخيه بتحالفه مع القوى المعادية له في ذلك الوقت، لمايحمله في قلبه من حقد وضغينة لأخيه الذى استحوذ على كل مابيده من ممتلكات.

حاولت طائفة الإسماعيلية أن تلعب دوراً خطيراً مع جلال الدين بتغيير أساليبها السابقة، فقد أرسل زعيمهم علاء الدين تسعة من الفدائية إلى جلال الدين مظهراً أنه يريد تقوية الصلات بين الطرفين، على أن يعدهم ويسيرهم إلى من شاء من إعدائه فيقتلونهم ولم يشأ السلطان أن يتسرع فى ذلك فاستشار فى ذلك وجوه أصحابه وذوي الرأى فأشار أكثرهم باستغلال هذه الفرصة للقضاء على أبرز خصومه فى تلك الفترة، إلا أن نائبه على العراق العجمي شرف الدين لم يستحسن ذلك، وبين لجلال الدين مراد زعيم الإسماعيلية من ذلك إنما هو الإطلاع على قوة السلطان وتحركاته واستعدادته ليطلع الاعداء على أخر أخبار السلطان فيعدو العدة من أجل القضاء عليه.[٢]

عندئذ تفطن جلال الدين لخبثهم، فأعاد الفدائية إلى زعيمهم وقال له "ليس يخفى عليك وعلى غيرك معاندنا ومعاهدنا، ومخالفنا، فإن شئت أن تفعل ذلك فافعل، ولاحاجة إلى التعيين، ونحن إن شاء الله مانحوجك إلى هذه الكلفة وإن فى الصوارم الماضية والقسائم الضاربة الغنية عن السكاكين والفدائية".[٣]

ولم يتوقف خطر الإسماعيلية عند هذا الحد، بل أنهم أصبحوا يتتبعون أخبار جلال الدين وتحركاته وقوته وضعفه حتى إذا سنحت لهم الفرصة فعلوا كل ما فى

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٢٤٣، ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٧٥-٣٧٦، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٤٣.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

وسعهم وإستطاعتهم من أجل القضاء عليه، وليس أدل على ذلك من أنه حينما هزم جلال الدين على يد قوات الحلفاء الأيوبيين والسلاجقة وغيرهم أرسل زعيم الإسماعيلية إلى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أنهم حثوهم على سرعة القدوم لإستغلال الفرصة السانحة عقب الضعف الذى حل بجلال الدين، إضافة إلى أنهم ضمنوا للتتر النصر على جلال الدين للوهن الذى صار إليه.(١)

على أن المغول لم يكونوا فى حاجة إلى تذكير من طائفة الإسماعيلية ولاغيرها بضرورة القضاء على جلال الدين فهم أولاً: شغلوا بأحداثهم الداخلية عقب وفاة جنكيز خان ولما استقرت الأمور وتم تنصيب خان جديد لهم كان لابد لهم من مواصلة سياستهم السابقة الرامية إلى توسيع امبراطوريتهم وسيطرتهم على أغلب ممالك الأرض، وثانياً ثبت بالدليل القاطع أن المغول رغم إنشغالهم بأحداثهم الداخلية إلا أنهم على علم بما صار إليه جلال الدين(٢)، وقد ذكر النسوى أن سلطانه خان أكبر بنات السطان محمد والتى تم أسرها على يد التتار اثناء زحفهم الأول على أملاك الدولة الخوارزمية وتم زواجها من ابن جنكيزخان، كانت تعرف أخاها بأحوال التتار وأخبارهم ومايستجد لهم.(٣)

ومن ذلك أنها سيرت إليه وهو محاصر لخلاط خاتم من خواتم والدهما فيه فص منقوش عليه اسم السلطان محمد علامة منها لجلال الدين، فعرف أخاها "أن الخاقان بلغه أخبار شوكتك وسكتك، وإتساع باعك وبسطه رباعك، فعزم على مصاهرتك والمهادنة معك على أن يشاطر الملك على نهر جيحون، فيكون لك

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٣١٥-٣١٦، البستان الجامع، حوادث سنة٦٢٨هـ، السبكى، طبقات الشافعية، ج١، ص٣٤١.

(٢) عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٦٢.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٠٠-٣٠١.

مادونه وله ماوراءه، فان كنت تجد مـن قوتـك مايقـاومهم فتنتقـم، وقـاتلهم فتظفـر، فشانك ومأردت، وإلا فاغتنم المسالمة حال رغبتهم فيها.[(١)]

لم يلتفت جلال الدين إلى ماجاء فـى الرسـالة وتشـاغل عنهـا بالإسـتيلاء علـى خلاط، ولم يعر الأمر أي اهتمام، فلم يـرد علـى رسـالتها تلـك، ولـم يبـد رغبـة فـى مصالحة المغول، وقد علق النسوى على ذلك بقول الشاعر: -

كتاركة بيضها بالعراء          وملبسه بيض اخرى جناحا.[(٢)]

وهذه الرواية - حتى وإن صحت وعلمت بها أخـت جـلال الديـن فـإن التتـار إنما كانوا يناورن جلال الدين بتلك المعـاهدة وكـان مقصدهـم الاساسـى اسـتمرار زحفهم والقضاء على الممالك في طريقهم وعلى اية حال فإن التتر بعد أن اسـتقرت لهم الأمور اعدوا العـدة لمواصلـة برنـامجهم التوسـعى، ففـى بدايـة عـام ٦٢٨هـ / ١٢٣١م خرجت جموع التتار وعبرت بـلاد مـاوراء النهـر قـاصدة ملاحقـة جـلال الدين والقضاء عليه، وكان قائد هذا الجيش من أمهر قواد المغول وهـو (جرمـاغون نويان) الذى قاد جيشاً يزيد تعداده عن ٥٠,٠٠٠جندى، بل زاد تعدادهم فيما بعد حتى وصل إلى مايقرب من مائة الف جندى.[(٣)]

سارت هذه القوات المغولية باتجاه إيـران، فاسـتولت فـى طريقهـا علـى الـرى وهمذان ومابينها من البلاد[(٤)]، وما أن سمع جلال الدين بذلك حتى سـارع بإرسـال فرقة استطلاعية بقيادة أحد قواده ليطلعه على أخبار المغول، فلما وصل إلى شـروان

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٣) الهمذانى، جامع التواريـخ،ص٤٤، الجوينـى، تـاريخ فـاتح العـالم،ج٢،ص٨٥-٨٦، الصيـاد، المغول فى التاريخ،ص١٧١.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٣، ابـن واصـل، مفـرج الكـروب، ج٤، ص ٣١٨، عفـاف صبرة، التاريخ السياسى، للدولة الخوارزمية، ص ٢٦٢.

صادفه يزكاً للتتار ولم يكن معه من اصحابه إلا أربعة عشر نفساً، فوقعوا لقمة سائغة للتتار، ولم ينج منهم غيره، وعند عودته أخبر جلال الدين بان المغول على مقربة منه وانهم مجدون السير للحاق به.[١]

لم يصدق جلال الدين هذا الخبر المزعج، إذا اعتقد أن التتار يشتون بالعراق ولن يتعدوا أذربيجان إلا فى فصل الربيع ففوجىء بذلك فى هذه الفترة الحرجة عقب هزيمته من قبل قوات الحلفاء الأيوبيين والسلاجقة وغيرهم وتشتت قواته فى البلدان، لذلك رحل من تبريز إلى موقان لتجميع عساكره المشتية بها.[٢]

وبلغ الخوف والهلع بجلال الدين مبلغه حتى صرفه عن النظر فى أمر حرمه وأعزته، فتركهم فى تبريز معتقداً أن يومه ذلك سوف يكون آخر عهده بأهله وأعزته، بل أنه كما يقول النسوى "كانت تنحدر الدموع من عينيه على خديه لما يتوهمه من زوال ملكه ويتوقعه من هلكه، ولمفارقة الأهل والأعزة على بأس من الاجتماع وتركه إياهم بالعراء معرضة للإعداء".[٣]

نزل جلال الدين وهو فى طريقة إلى موقان[٤] فى قرية أرمينان، حيث ورد عليه كتاب من والى قلعة بلك[٥]، يخبره بان التتار قد أقاموا بمرج زنجان وان عددهم لايتجاوز سبعمائة فارس، فسر جلال الدين بذلك وزال مابه من هم وخوف، إذ توقع

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٣٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص٣٥٠.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٥٠-٣٥١، انظر ابن الاثير،الكامل، ج٩، ص ٣٨٣، السبكى، طبقات الشافعية، ج١، ص ٣٤١.

(٤) موقان: ولاية بأذربيجان فيها قرى ومروج كثيرة. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) بلك: قلعة بالقرب من مدينتى خلخال وزنجان.انظر النسوى، المصدر السابق،ص٢٧٧،حاشية ٥.

أن هذه الطائفة من التتر سوف تملك زنجان[١] وتقيم بها ولن تطارده بهذه القلة من العدد.[٢]

واصل جلال الدين مسيره حتى بلغ موقان، فوجد عساكره متفرقة في الأطراف فبعث البلهوانية بعلامات تحث عساكره على الاستنفار والتجمع استعداداً لملاقات التتار، ثم اشتغل جلال الدين في هذه الفترة بالصيد ريثما تحضر إليه قواته، وكان إذ ذاك في قلة من العساكر إذ لم يكن معه سوى الف فارس من خواصه، وبينما هو كذلك باغته التتار بموقان، فلاذ بالفرار أمامهم وتوجه إلى نهر أرس في حركة تمويه على التتار بحيث يظنو أنه ذاهب إلى كنجه، ولكنه حول مساره إلى أذربيجان وأقام بماهان[٣] لقضاء فصل الشتاء بها.[٤]

ومن حسن حظ جلال الدين أن صاحب قلعة شاهق[٥] والذى كان مجاهراً له بالعصيان عليه، خدمه في هذه الفترة أحسن خدمة، فكان يخبره عن تحركات التتار ويبعث إليه بما يحتاجه من المأكولات وغيرها، فرضى عنه جلال الدين ورغب في مكافأته على ماقدم له من معروف.[٦]

وما إن إنقضى فصل الشتاء حتى علم بأن التتار قد كشفوا مكانه وانهم خرجوا من أوجان لقصده فأشار عليه صاحب قلعة شاهق بالتوجه إلى أران لحصانتها وكثرة العساكر الموجودة فيها، ويكون الطريق فيما بعد مفتوحاً أمامه للتوجه إلى بلاد

---

(١) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينهما.انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٥١.

(٣) ذكر ياقوت أن هناك مدينة بهذا الاسم فى أقليم كرمان. انظر معجم البلدان.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٥١،٣٥٦.

(٥) قلعة شاهق: تقع فى جزيرة وسط بحيرة أذربيجان. انظر النسوى، المصدر السابق، ص٢٦٤.

(٦) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٥٦.

الهند عند حصار التتار له.[(١)]

وقبل ذلك يجب أن نوضح سبب الضعف الذى لحق بجلال الدين فى هذه الفترة التى عاود المغول فيها غزو أراضى الدولة الخوارزمية فيعلل ابن الاثير ذلك بسوء سياسة جلال الدين التى سار عليها منذ عودته من بلاد الهند إذ بدلاً من أن يعمل على توحيد الصف الإسلامى واكتساب رضاء جيرانه ليقفوا معه فى وجه المغول وبدلاً من أن يعمل على كسب محبة رعيتة حتى يضمن ولاء الأهالى إذا ماظهر الخطر المغولى بدلاً من ذلك نرى سياسته تؤلب عليه جيرانه، إذ اعتدى على املاك الخليفة واملاك الأمراء المسلمين فى بلاد مابين النهرين فعادى الملك الأشرف وعادى علاء الدين صاحب بلاد الروم كما أنه غزا أذربيجان وجورجيا وهزم الكرج وناصب طائفة الإسماعيلية العداء، ولم يترك له أصحابا وأعوانا سوى المعظم عيسى الذى توفى سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م وصاحب إربل الذى لم يكن من القوة بمكان حتى يقف مع جلال الدين فى وجه المغول[(٢)]، وبما أن جلال الدين قد ظهر فى صورة الحاكم المستبد فى دولته، فإن هذه السياسة قد أدت إلى أن ينفر منه كبار رجال دولته من حوله، وعلى رأسهم وزيره المخلص شرف الملك الذى خرج عليه لأسباب منها:

١ - التبذير والإسراف الزائد فى أموال الدولة.[(٣)]

٢ -أنه ظهر من قلة عقل جلال الدين مالم يسمع بمثله، إذا كان له غلامُ يهواه واسمه قلج فمات ذلك الغلام فاظهر من الجزع والهلع مالم يسمع بمثله إلا لمجنون ليلى، وكان يأخذه معه اينما ذهب حتى أنه امتنع عن الأكل والشرب حزناً على ذلك الغلام، بل أنه كان يعاقب كل من يتفوه بوفاة الغلام فغاظ ذلك أمرائه

---

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٥٦-٣٥٧.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٣.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٥٧، ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٨٣.

وكبار رجال دولته ففارقوه من أجل ذلك.[١] وفي رأيي أن هذه الرواية التاريخية من وضع أعداء هذا القائد الذي أدمى قلوب الكثيرين فرجل كجلال الدين لايملك وقتا لمثل ذلك فلم يكن يوماً ينعم بفترة هدوء وراحة وإنما كان في معظم حياته شاك السلاح مدافعاً عن مملكته.

٣ – أنه ظن أن هذه الحملة التى قام بها التتر سوف تلاحق السلطان حتى تضطره إلى الذهاب إلى بلاد الهند فرأى مكاتبه الملوك وإصلاح حاله معهم على أن يملك آران وأذربيجان لنفسه.[٢]

٤ – أما السبب الحقيقي لضع جلال الدين هو أنه ينتمى في أصله إلى أحد مماليك السلاجقة. ولم يكن من أسرة السلاجقة.

وعندئذ حاول جلال الدين تجميع القوى الإسلامية الموجودة فى تلك الفترة لتقف معه صفاً وأحداً فى مواجهة الخطر الذى اصبح يهدد جميع الممالك الإسلامية، فأرسل رسله إلى كل من الخليفة وسلاطين الشام والروم يخبرهم بوصول المغول ويقول لهم "إن التتار كثرة هائلة وهم فى هذه الفترة أكثر من كل مرة، وجنود هذه النواحى مستوحشون منهم وإذا لم تمدونى بالعدد والعدة فإنى أنا الذى بمثابة السد لكم سوف أهزم ويخلوا مكانى من بينكم ولن تستطيعوا مقاومتهم، فليبادر كل منكم بامدادى بفوج من الجنود ومعهم علمهم، وذلك من أجل الدفاع عن نفسه وأولاده والمسلمين حتى إذا بلغهم نبأ اتفاقنا واتحادنا، ارتدعوا وانزجروا، وعندئذ تقوى عزائم جنودنا، أما إذا تهاونتم فى هذا الأمر فسترون بانفسكم ماتئول إليه الأمور".[٣]

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٣-٣٨٤،أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٤٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٣٨.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٥٧، الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٤٥.

(٣) الهمذانى، المصدر السابق، ص ٤٤، ابن العبرى، مختصر الدول، ص ٤٣٠-٤٣١.

لم تجد صيحات جلال الدين ولانداءته في جمع الكلمة وتوحيد الصف أمام العدو المتكررة ويعلق الجوينى على ذلك بقوله "هيهات هيهات لشجيرة الخلاف التى نبتت فى الصدر وسقيت من ماء القلوب أن تثمر غير الشوك وجراح الزمان، وهل ينجح الإعتذار والإستغفار بعد إثارة الثار وطعن الرجال وقتلهم".(١)

ونؤيد في هذا المقام ماذهب إليه الجوينى فجلال الدين لم يترك أحداً من ملوك الإسلام إلا وعاداه وعلى رأسهم الخليفة العباسي فهل يعقل بعدما أحدثه في بلادهم من القتل والنهب والتدمير أن يمدوا له يد العون ومن الذي يضمن لهم عدم عودته مرة أخرى إلى بلادهم بعدما يقدموا له يد المساعدة وينتصر على المغول.

ومما زاد الأمر سوءا أنه في ظل هذه الظروف الحرجة تخرج لنا بعض الحركات المناوئة للخوارزميين، ومن ذلك خروج أهل تبريز على شمس الدين الطغرائى الوالى الخوارزمى لسوء معاملته لهم "فهمت عامة تبريز بقتل من بها من اتباع الخوارزمية تقرباً إلى التتار، وتشفياً من الاحقاد والأوتار" وواطأهم على ذلك مجموعة من الوزراء إلا أن الطغرائى تمكن من إخماد ثورتهم، وحصن المدينة وزودها بمن يحفظها من حفظة الرجال.(٢)

وتبعهم فى ذلك أهل كنجة فقد اظهروا العصيان وقتلوا من وجدوه بها من الخوارزمية وحملوا روؤسهم إلى التتار، ولم يشأ جلال الدين أن يصطدم معهم لأن الوقت غير مناسب فسير إليهم مجموعة من رجاله وأمرهم أن يستميلوا أهل كنجة، وبينوا لهم خطورة الأمر لأن ذلك سيؤدى إلى وقوعهم فى قبضة التتار، إلا أنهم "كانت الموعظة إذا القيت عليهم جعلوا اصابعهم فى اذانهم، واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا".(٣)

---

(١) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٨٦.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٦٠، ٣٦٩.

لذلك توجه إليهم جلال الدين وأقام بالقرب من كنجة وترددت الرسل بين الطرفين وبذل لهم جلال الدين الأمان ووعدهم بالعفو والإحسان ولكنهم أصروا على غيهم وعنادهم، بل أنهم خرجوا إلى مقاتلة السلطان ورموا خيمته بعدة سهام، فما كان منه إلا أن حمل عليهم حملة واحدة ثم دخل المدينة وأمر باحضار كل من سعى فى إثارة الفتنة فقتلوا جميعاً.[١]

مكث جلال الدين بعد ذلك بكنجة سبعة عشر يوماً يفكر فى كيفية القضاء على جموع المغول فقرر أخيراً بعد نقاش طويل مع قواده ان يستنجد بالملك الأشرف موسى مع عدم رغبته في ذلك وإنما فعل ذلك موافقة لقواده، وتتابعت الرسل إلى الملك الأشرف تحثه على توحيد الصفوف للوقوف فى وجه الخطر الداهم إلا أن الأشرف تلكأ" وهيهات أن الضغينة إذا تمكنت من القلوب تلبث وربما تورث وإن المستعين على العدو بذى ثائرة كالمستجير من الرمضاء بالنار".[٢]

لم يرد الأشرف ان يقدم أى معونة لجلال الدين رغم ماوقع بينهم من صلح فيما سبق وحتى لايحرج أمام رسل جلال الدين توجه إلى مصر زاعماً أنه سيأتى بعساكره من مصر لنجدتهم وأخذ جلال الدين يتنقل بين المدن حتى وصلت إليه رسالة من أكبر رسله الموجهين إلى الملك الأشرف يؤكد له إنقطاع الأمل فى وصول نجدة من قبل الأشرف "وأنه لايرجع من مصر إلا بعد إنفصال أمر السلطان مع التتار على أحدى الحالين".[٣]

لم يهتم جلال الدين بنجدة الملك الأشرف فأرسل إلى الملك المظفر غازى ابن الملك العادل يطلب منه ومن صاحبى آمد وماردين النجدة، ووعده بأنه إذا

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧١، وانظر الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص٨٦.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧١.

انتصر على التتار فإنه سوف يملكه خلاط ومايرغب فيه من البلاد[١]، كما حاول جلال الدين ايضاً الاستنجاد بالخليفة العباسي إلا أنه لم يتمكن من ذلك[٢]، ومما يؤسف له أن جلال الدين سير في هذه الفترة مايقرب من ستة الآف فارس أغاروا على خرتبرت وارزبخان وملطية كل ذلك نكاية بعلاء الدين كيقباذ صاحب بلاد الروم مما أدى إلى تخوف مظفر الدين من أن يصيبه مثل ذلك، إضافة إلى أنه تحجج بحجج أخرى واهية منها أنه لايستطيع أن يتصرف بدون الرجوع إلى إخوته وأنه ليس له قدرة عسكرية تمكنه من تقديم يد العون والمساعدة للسلطان ثم بين للرسل بانه ليس له سلطة على صاحبي أمد وماردين وماعلى جلال الدين إلا أن يرسل إليهما ويختبرهما ليرى مدى صدقهما في انجاده على التتار.[٣]

سمع النسوى أثناء سفارته للملك المظفر بملاحقة التتار لجلال الدين للقضاء عليه فرغب في الإقامة عند المظفر بعد أن عرض عليه ذلك محبة في السلطان وحذر المظفر من عاقبة أمرهم نتيجة تخاذلهم وتقاعسهم عن مساعدة جلال الدين إذ أنهم سيصبحون على خطر عظيم من جانب التتار أو جلال الدين إذا تمكن من الإنتصار عليهم.[٤]

وعلى أية حال فإن التتار أخذوا يلاحقون جلال الدين من مكان إلى آخر إذ أن خروجهم هذه المرة يختلف عنه في المرات السابقة، فقد كانت خطتهم تهدف إلى القضاء على رأس الدولة الخوارزمية ومن ثم يتحقق لهم مايصبون إليه من إكتساح بلدان العالم الإسلامي.[٥]

---

(١) النسوي، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٢.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٣٢١، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٤٧.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٧٥.

(٥) حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٢٣-٢٢٤.

انتقل جلال الدين بقوته إلى جبل جور، ولما دخلها وصل إليه الخبر بملاحقة المغول له، وقد نصحه أمير من أمراء التتار، وكان قد تذمر منهم لذنب صدر منه بأن يترك طريقته السابقة فى الحروب لتفرق جنده وقلتهم، وأشار عليه بأن يكمن لهم حتى إذا وقفوا للراحة واشتغلوا بالأكل "يدير عليهم كاسات الحمام بأيدى الإنتقام"[١]. ويبدو أن جلال الدين لم يستمع لنصحه وكأنه قد فقد القدرة على التفكير ويسير مسرعاً إلى حتفه.

اتجه جلال الدين بعد ذلك إلى ديار بكر، فعاد جيش المغول بعد أن أعياه الطلب إلى قائدهم جور ماغون فعنفهم ولامهم على صنيعهم وقال لهم: "كيف تهملون خصماً يتوارى وقد بلغ به الضعف مبلغه ولاتلاحقونه؟". فما كان منه إلا أن سارع بإعداد قواته وجعل على رأسهم (نايماس) ومعه بعض فرسان التتار الشجعان وسيرهم على الفور لملاحقة جلال الدين والقضاء عليه[٢]، وعند رجوع التتار إلى قائدهم العام أعد جلال الدين يزكاً من أربعة الآف فارس بقيادة أحد أمرائه[٣]، ليطلعوه على أخبار التتار وتحركاتهم، سار هذا الامير فى اثر التتار يتتبع أخبارهم إلا أنه لم يواصل مهمته خوفاً من أن يقع فى أيدى التتار فرجع إلى جلال الدين، وأخبره كذباً بأن التتار قد رجعوا من حدود منازجرد.[٤]

صدق جلال الدين خبر هذا الأمير رغم أن النسوى تعجب من ذلك وأخبر

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٨٨، الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٤٥ سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٦٦،، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٣١.

(٣) اسم هذا الامير عند النسوى أوترخان واورخان أما الهمذانى فيسميه بوقاخان واورخان وهو من اقرباء جلال الدين يذكر عنه النسوى أنه غير مخلص فى خدمته لجلال الدين، النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٥، الهمذانى، المصدر السابق، ص ٤٦.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٥، الهمذاني، المصدر السابق، ص ٤٦.

السلطان بأن المغول ماخرجوا من ديارهم إلا رغبة فى القضاء على الدولة الخوارزمية ورد جلال الدين على تعجب النسوى بقوله: إن المغول "حين علموا بتوسطنا بلاد الشامية واعتقدوا اتفاقهم معنا وانضواءهم إلينا رجعوا".[(١)]

نزل جلال الدين فى بلدة حانى[(٢)] وجمع كبار رجال دولته، واستحضر النسوى وأمره بأن يخبرهم بموقف الحكام المسلمين، فبين لهم تقاعسهم وعدم رغبتهم فى مشاركة جلال الدين فى دفع التتار عن البلدان الإسلامية "وأنهم يضربون فى حديد بارد فما من منجد ولا مساعد".[(٣)]

عندئذ فكر جلال الدين وكبار رجال دولته بضرورة التوجة إلى اصفهان[(٤)] على أن يتركوا اثقالهم ونسائهم وأولادهم بديار بكر، لأن مدينة اصفهان مشهورة بتحصيناتها القوية وبفرسانها الشجعان ولفألها الحسن فى النصر على المغول كما حدث فى سنة٦٢٤هـ /١٢٢٧م عندما تمكنوا من طرد المغول وإلحاق الهزيمة بهم.[(٥)]

ولما هم جلال الدين بالرحيل، وصل إليه رسول صاحب آمد يعرض المساعدة العسكرية له ويقدم له فروض الطاعة، بشرط أن يتوجه جلال الدين بقواته صوب سلطنة بلاد الروم للإستيلاء على ممتلكات سلاجقة الروم، ويبين أنهم فى حالة ضعف وأن فى استطاعته أن يستحوذ على هذه المملكة بدون مشقة تذكر وأنه متى ماتم له ذلك فسوف يكون فى منعة وقوة بحيث تهابه التتار.[(٦)]

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٦.

(٢) حانى: اسم مدينة معروفة بديار بكر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٤) اصفهان: تقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من اقليم الجبال، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٦) النسوى، المصدر السابق، ص٣٧٧، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٣، ق ٢، ص ٤٦٠.

كان الدافع لهذا العمل الذى أقدم عليه صاحب آمد هو الحقد الذى يحمله على صاحب الروم الذى استولى على عدة قلاع كانت تابعة له[(١)]، وفى الحقيقة أن هذا العمل يعد من المضحكات المبكيات فكيف يقدم صاحب آمد على سحب جلال الدين من أجل خلافات مقيتة فى الوقت الذى كانت فيه جموع التتار تلاحق جلال الدين من مكان إلى مكان آخر للقضاء عليه ومن ثم السيطرة على بقية بلدان المسلمين، أما كان الأجدر به أن يعد قواته ويسير بها إلى جلال الدين أو يرسل بها أحد قواده للوقوف فى وجه الخطر المغولى، أو على الأقل إرسال الرسل إلى حكام المسلمين فى ذلك الوقت لتوضيح خطورة الأمر وحثهم على جمع الكلمة وإعداد الجيوش وتسييرها إلى جلال الدين ليتمكن من إيقاف همجية المغول فى العالم الإسلامى.

ومما زاد الأمر سوءاً هو أن جلال الدين الذى سارت جيوش المغول من بلادها من أجل تتبعة والقضاء عليه إستحسن عرض صاحب آمد وعدل عما قرره مع رجال دولته من المسير إلى أصفهان، فتوجه إلى آمد ونزل بجسر بقربها، ويعلق النسوى على عمل جلال الدين بقوله "مثله مثل الغريق يتعلق بما تصل إليه يده وقد قعر عن السباحة وكره"[(٢)].

وتختلف رواية ابن الاثير وابن واصل فى هذا الموقف عن رواية النسوى فيذكران أن جلال الدين لما رأى مافعله التتار ببلاد أذربيجان من قتل ونهب وتخريب وإبادة وأنهم عازمون على اللحاق به، خشى من سوء العاقبة لما رأه على نفسه وجيشه من الوهن والضعف، ففارق أذربيجان واتجه إلى خلاط ليحتمى بها من وحشية المغول، ولمعرفته بموقف أهل خلاط منه أرسل إلى النائب عن الملك الأشرف يقول له "ماجئنا للحرب ولا للأذى إنما خوف هذا العدو حملنا على قصد

---

(١) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٧.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٧،انظر ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق٢، ص٤٦٠.

بلادكم"[١] إلا أنه لم يرد أن يبقى فى خلاط حتى ينتهى أمر المغول وإنما كان عازماً على الذهاب إلى ديار بكر والجزيرة ثم الذهاب إلى الخليفة العباسى ليشرح له حقيقة الموقف فينصره على هؤلاء الغزاة، كذلك كان من مخططه الذهاب إلى ملوك الإسلام لطلب النصرة منهم وتحذيرهم من التقاعس فى ذلك لأن الدائرة سوف تدور عليهم إلا أنه لم يتمكن من تحقيق هدفه لأنه ما أن وصل إلى خلاط حتى علم بتعقب المغول له وأنهم مجدون فى طلبه، فتركها مباشرة واتجه صوب آمد التى كان يحكمها الملك المسعود بن الصالح محمود بن محمد الارتقى فنزل بالقرب منها.[٢]

وكيفما كان الأمر فإن جلال الدين توجه إلى آمد، وجعل له يزكاً فى عدة مواضع على الطريق إلى آمد حتى لايباغته العدو على حين غرة من أمره.[٣]

سبق وأن أشرنا إلى أن جلال الدين أرسل يزكاً بقيادة أحد أمرائه ليطلعه على أخبار التتار، فلما رجع هذا الأمير أخبر السلطان من غير تثبت برجوع التتار، وبدافع الفرح والاستبشار بهذا الخبر، إنشغل جلال الدين وكبار رجال دولته بل وغالب جنده بالأنس واللهو والطرب[٤]، بدل من أن ينشغلو على إفتراض صحة هذا الخبر بشكر الله وإعداد العدة لخروجهم مرة اخرى، ولكنهم وللأسف الشديد

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٣٢٠، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٨هـ.

(٢) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٨٤، الاصفهانى، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٢٨، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص٣٢١.

(٣) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٧، ابن الاثير، المصدر السابق، ح٩، ص ٣٨٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٢١.

(٤) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٨٨، الهمذانى،جامع التواريخ، ص ٤٦، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص ٤٣١.

"أبدوا إستعداداً لضرب الدف والوتر وليس للضرب فى الوغى" ويعلق الجوينى على هذا الأمر بوصفه لحالة جلال الدين فى السابق ومآل إليه أمره فى أخر حياته فيقول "هذا هو الملك الذى جعل الصهوة عرشه، والسرج فراشه، والدرع قميصه، هو الذى كان قائداً لأبكار المعارك والقتال فغدا بطل الأبكار ربات الحجال، وخالف ماعهد عنه فبدل الطرب بالحرب، والمدام بجراح الايام".[١]

وبينما هو غارق فى سكره ولهوه أتاه رجل تركمانى وأخبره عن وجود عسكر فى منزله الذى كان نازلاً فيه بالأمس يختلف زيهم عن زى عسكره، ولكنه لم يصدقه وقال "هذه حيلة ممن لايختار توسطنا هذه البلاد".[٢]

استمر جلال الدين على حاله حتى داهمته جيوش التتار من كل جانب وأحاطت به وبعسكره، فحمل أورخان على التتار المحيطين بخركات[٣] جلال الدين وازاحهم عن الحزكات فلما دخل على السلطان وجده نائماً غارقاً فى سكره، فصبوا فى وجه ماءا بارداً حتى عاد إليه صوابه، وشاهد ماكان يحذره، ولما أيقن بالهلاك أمر أورخان بان يسير بعسكره فى طريق أخر ليوهم التتار بأنه من ضمنهم، ولاذ هو بالفرار بمفرده، ولقد أخطأ جلال الدين فى ذلك التدبير لأن أورخان لما فارقه بجموع عسكره تمكن من الوصول إلى إربل ومعه أربعة الآف فارس، ثم سار إلى اصفهان وملكها فترة من الزمن إلى أن قصده التتار.[٤]

---

(١) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٨٩.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص٣٧٨، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٣، ق٢، ص٤٦١.

(٣) الخركاه: جمع خركاوات وهو لفظ فارسى يقال بأنه نوع من أنواع الخيام يتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة وتغطيها قطع من اللبد، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، حاشية ٢.

(٤) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٧٨-٣٧٩، الهمذانى، جامع التواريخ، ص٤٦، ابن شداد، المصدر السابق، ص ٤٦١.

أما رشيد الدين الهمذانى فيذكر أن جلال الدين بعد مباغتة التتار له ولى هارباً، بعد أن أمر أحد قواده وهو أورخان بأن لايحرك العلم من موضعه، وأن يقاوم بقدر الإمكان حتى يتقدم هو ويرحل، نفذ أورخان ماأمره به جلال الدين من مقاومة التتار، ولكنه لم يستطع أن يستمر فى المقاومة فلاذ هو الآخر بالفرار، فطارده المغول ظناً منهم أنه جلال الدين منكبرتى ولكنهم سرعان ماعرفوا الحقيقة، فعادوا وقتلوا كل من ظفروا به من عسكر الخوارزمين[(١)]، أما بقية العسكر ولو منهزمين فى البلدان وتفرقوا شذر مذر وتمزقوا كل ممزق.[(٢)]

ساق جلال الدين بعد ذلك إلى باشورة آمد، فاضطرب أهل آمد لهذا الحدث وظنوا أن جلال الدين سوف يغدر بهم، فمنعوه من دخول مدينتهم، ولما أيس من اقناعهم ليسمحوا له بالدخول، واصل سيره حتى وصل حدود جزيرة بها دربندات منيعة، فعجز ايضاً عن دخول تلك الجزيرة، فأشار عليه أورخان بأن يرجع مع الطريق الذى سلكه التتار لسلامته من القطاع[(٣)]، توجه جلال الدين بعد ذلك إلى ميافارقين، قاصداً المظفر شهاب الدين غازى ليحتمى بها ريثما يجتمع إليه جيشه، واسرع جلال الدين فى السير لشدة ماملكه من الرعب، حتى انقطع عنه من رافقه من اصحابه فوصل إلى ميافارقين وحيداً ليس معه أحد.[(٤)]

---

(١) الهمذانى، جامع التواريخ، ص ٤٦ ،انظر ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص٤٣١.

(٢) النسوى، سيرة جلال الدين، ص ٣٧٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٣٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٤٢، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٢٦.

(٣) النسوى، المصدر السابق، ص٣٧٩-٣٨٠، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٦٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٧، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٣، ق٢، ص٤٦٢.

(٤) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٦٦٦، ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٢٢، ابن شداد، المصدر السابق، ج٣، ق٢، ص ٤٦٢.

أقام جلال الدين بقرية من قرى ميافارقين "فنزل بيدرها "[١]، ففارقه أورخان في هذا الوقت الذى أرسل فيه المغول خمسة عشر فارساً من فرسانهم للحاق به، فلحق به إثنان منهما ولقيا مصرعهما على يد جلال الدين، أما بقية الفرسان فقد عجزوا عن اللحاق به فرجعوا من حيث أتوا.[٢]

ولقد اختلفت الروايات التاريخية فى حقيقة مقتل جلال الدين، فيقول بعضهم أنه عند فراره بمفرده نام ذات ليلة تحت شجرة فهجم عليه مجموعة من الأكراد شقوا بطنه طمعاً فيما معه من الملابس والاسلحة، وعند دخولهم إلى المدينة عرف بعض من فى المدينة ملابس السلطان واسلحته، فقبضوا على الأكراد وسلموهم إلى صاحب آمد الذى قام بقتلهم بعد أن عرف جرمهم، ثم نقلت جثة السلطان إلى آمد حيث دفن بها. ويقول البعض أن السلطان هو الذى اعطى الأكراد اسلحته وملابسه بإختياره وأخذ ملابسهم الخشنة فلبسها حتى لايعرفه أحد وصار يسير فى البلدان فى زى المتصوفة.[٣]

ويذكر ابن الاثير أنه بعد انهزامه لم يعرف أحد طريقه "ولم نتحقق لجلال الدين خبرا ولانعلم هل قتل أو اختفى لم يظهر نفسه خوفاً من التتار أو فارق البلاد إلى غيرها والله أعلم".[٤]

أما النسوى وهو من أشد الناس إلتصاقاً بجلال الدين فيذكر أنه بعد أن تمكن من قتل الفارسين "صعد الجبل وكان الاكراد يحفظون الطرق لسحت يجمعونه فأخذوه وسلبوه كعادتهم بسائر من ظفروا به، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سراً:

---

(١) البيدر: هو الموضع الذى تدرس فيه الغلال، انظر النسوى، سيرة جلال الدين،ص٣٨٠، حاشية ٢.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص٣٨٠-٣٨١، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٣، ق٢، ص٤٦٢.

(٣) الجوينى، تاريخ فاتح العالم، ج٢، ص ٩٢-٩٣، الهمذانى، جامع التواريخ، ص٤٦، ابن العبرى، مختصر تاريخ الدول، ص٤٣١-٤٣٢، تاريخ الزمان ص٢٧٧.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٦.

إننى أنا السلطان فلاتستعجل فى أمرى"، ووعده بمراتب عليا فى دولته فى حالة إيصاله إلى بلاده أو إحضاره عند الملك المظفر شهاب الدين فيعطيه مايتمناه من المال.[(١)]

عندئذ رغب كبير الكرد فى إيصاله إلى بلاده، فذهب به إلى عشيرته وادخله بيته عند امراته وخرج لإعداد خيل له. واثناء غيابه حضر رجل كردى وبيده حربة، فدخل البيت ورأى جلال الدين أمامه "فقال للمرأة: ماهذا الخوارزمى، وهل تقتلونه؟ فقالت: لاسبيل إلى ذلك وقد أمنه زوجى وعرف أنه السلطان" لم يصدق أنه هو السلطان وذكر أنه قد قتل له أخ بخلاط خير منه فضربه ضربة أغنت عن الثانية، وكان ذلك فى منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ /١٥أغسطس سنة١٢٣١م[(٢)]،ونختم حديثنا عن نهاية جلال الدين برواية ابن واصل التى يذكر فيها أن جلال الدين عندما وصل إلى قرية من قرى ميافارقين، أرسل بعض أهل القرية إلى الملك المظفر شهاب الدين يخبرونه بوصول جلال الدين إلى تلك القرية، "وكان بتلك القرية رجل كردى كان عسكر جلال الدين قتلوا اباه وأخاه، فوثب ذلك الكردى على جلال الدين وقتلة".[(٣)]

ولما بلغ خبره إلى الملك المظفر حزن لذلك وتألم له، وسير إلى تلك القرية مجموعة من الجند ليتحققوا من خبره، فاحضروا معهم سلاح جلال الدين وملابسه فعرفها بعض الخوارزميين الفارين من المغول، فثبت حينئذ مقتله، وكان

---

(١) سيرة جلال الدين، ص ٣٨١-٣٨٢، انظر ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٣،ق٢،ص٤٦٢، السبكى، طبقات الشافعية، ج١، ص ٣٤٢.

(٢) النسوى، المصدر السابق، ص ٣٨٥، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج٢، ص ٣٧١، الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٧٣.

(٣) مفرج الكروب، ج٤،ص٣٢٢، وانظر ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٣١.

الملك المظفر يؤثر أن يجتمع به ويكرمه ويتخذ بذلك عنده منزلة عظيمة.[١].

وعند إنقطاع خبر جلال الدين بقى الناس فى حيرة من أمرهم، فظن بعضهم أنه ذهب إلى الهند كما فعل أول أمره أو إلى بعض الجهات الحصينة، وبقى جماعة من العجم والخوارزمية بعد اختفائه مدة طويلة ينتظرون عودته "كما ينتظر الحاكمية الحاكم والأمامية محمد بن الحسن المنتظر، والكيسانية محمد ابن الحنيفة".[٢]

ويعلق الصياد على ذلك بأنه نسجت حول شخصية جلال الدين الخرافات والأساطير مثله فى ذلك مثل كل بطل قومى، تتعلق به الآمال فى ساعة العسرة،فلم يكن أحد يود أن يصدق أن مثل هذا البطل الشجاع الذى قضى جل حياته فى الكر والفر يموت هذه الميتة على يد جلف من أجلاف الأكراد.[٣]

وبذلك سقطت الدولة الخوارزمية وماذلك إلا بسبب أفعالهم الشنيعة ومعاملاتهم القاسية مع الشعوب وهمجيتهم اللامحدودة وإنغماسهم فى الشهوات والمحرمات[٤] فتحققت فيهم سنة من السنن الربانية التى لاتجامل ولاتحابى أحداً من الناس كائناً من كان قال تعالى ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[٥].وقال تعالى ﴿إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم﴾[٦]. وقال تعالى﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٦٩-٦٧٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٣٢٢، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٠٣.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٢٣.

(٣) الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٧٣.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٤، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٢٣.

(٥) سورة الإسراء، آية ١٦.

(٦) سورة الرعد، آية ١١.

وأهلها مصلحون﴾[١]

ومع ذلك فإن هذه الدولة كانت بمثابة الحاجز بين بلدان العالم الإسلامى وبين التتار[٢] الذين لم يسلم منهم أحد فى البلدان التى إجتازوها حتى أن جماعة دخلوا على الأشرف وهنأوه بمقتل جلال الدين فقال "تهنئونى به وتفرحون وسوف ترون مغبة ذلك والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام وماكان الخوارزمى إلا مثل السد الذى بيننا بين يأحوج ومأجوج"[٣]

ثم تفرق جيش جلال الدين في البلاد وبدأو يعرضون خدماتهم على من يبذل لهم الأموال وشاركوا في الصراع الدائر بين حكام المسلمين في بلاد الشام والجزيرة وسيتضح هذا الأمر في الفصل الثانى والفصول التالية.

---

(١) سورة هود، آية ١١٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٣٢٣، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج٢، ص ٣٧١، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٣١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية،ج١٣، ص١٤٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٧.

# الفصل الثاني

# علاقات الخوارزميين بالقوى الإسلامية ببلاد الجزيرة والشام

## بعد مقتل جلال الدين (٦٢٨-٦٣٨هـ)

# تفرق جيوش جلال الدين وتجدد الخلافات بين ملوك بني أيوب

تفرقت القوات الخوارزمية في البلدان بعد مقتل جلال الدين سنة٦٢٨هـ/١٢٣٠م ولم يكن في استطاعتهم العودة إلى مواطنهم بسبب سيطرة المغول عليها، فقصدت طائفة منهم حران[(١)] فأوقع بهم الأمير صواب مقدم الملك الكامل بحران وقصدت طائفة أخرى سنجار[(٢)] والموصل وميافارقين[(٣)] وغيرها من البلدان، وتخطفهم الملوك والرعية وطمع فيهم كل واحد حتى الفلاحون والأكراد وانتقم الله منهم على مافعلوه بالمسلمين في خلاط وغيرها.[(٤)]

وفي ظل هذه الظروف الحرجة التي مرت بالقوات الخوارزمية، أخذوا يعرضون خدماتهم على من يرغب من ملوك الإسلام لحمايتهم من تخطف الناس لهم وحصولهم على أكبر قدر من المال ليعيشوا به[(٥)]،وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن هذه القوات لم تكن تفكر في الإعداد لجهاد المغول واسترجاع ملكهم السابق بدليل اشتراكهم مع القوات المتصارعة من المسلمين في بلاد الشام

---

(١) حران: هي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها مسيرة يوم على طريق الموصل. انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبل عال. انظر ياقوت، معجم البلدان

(٣) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، ص ٤٦٣، الذهبي، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٣، ص ٣٦، اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص ٦٥، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر ، ج٧، ص ٣٠٣، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٢٦.

(٥) نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٩٦، عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٧١، عبدالرحمن الرافعي، مصر في العصور الوسطى، ص ٣٦٧.

والجزيرة، فلربما قاتلوا فئة معينة اليوم كانوا يناصرونها بالأمس، وقضوا بقية تاريخهم على هذا المنوال.

واتجهت طائفة منهم إلى خدمة السلطان علاء الدين كيقباذ الذى كان يرغب فى استمالتهم إليه واستخدامهم كجنود مرتزقة يساعدونه فى حروبه ضد أعدائه، وكان عددهم يقدر بحوالى إثنى عشر ألف فارس، على رأسهم بركة خان وكشلوخان وصاروخان وفرخان وبردىخان[١] واتجهت جماعة أخرى من الخوارزمية إلى الخليفة المستنصر بالله[٢]، فاستخدمهم فى الجيش وكان عددهم يقدر بنحو أربعة الآف مقاتل.[٣]

وفى هذا الوقت الذى كسر فيه السد بين المسلمين والمغول بمقتل جلال الدين وتفرق اتباعه فى البلدان أخذت الصراعات تزداد حدة بين ملوك المسلمين، ولم يفكروا فى ملء الفراغ الذي حدث بسبب مقتل جلال الدين وتشتت اتباعه، فعظم حينئذ شأن التتر وازداد خوف الناس منهم بأذربيجان وغيرها.[٤]

ويصور ابن الاثير[٥] حال ملوك الإسلام فى ذلك الوقت بقوله: "فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصراً من عنده فما نرى فى ملوك الإسلام من له رغبة فى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٣٤-١٣٥، أبوالفدا، المختصرج٣، ص ١٥٩، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص٢٧٨.

(٢) المستنصر بالله: أبوجعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ولد في صفر سنة٥٨٨هـ،وأمه جارية تركية بويع بعد موت أبيه فى رجب سنة ٦٢٣هـ، فنشر العدل فى الرعايا، وبذل الانصاف فى القضايا، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والربط والمدارس والمارستانات، وأقام منار الدين، وقمع المتمردة ونشر السنة وكف الفتن وقام بأمر الجهاد أحسن قيام وجمع الجيوش لنصرة الاسلام، وحفظ الثغور وفتح الحصون، انظر السيوطى، تاريخ الخلفاء،٣٦٨-٣٧١، وانظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ١٧٤.

(٣) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصوري، ص٢٦٠.

(٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٤.

(٥) المصدر السابق، ج٩، ص ٣٨٤.

الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم يقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو قال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾.[١]

ولكى نبين حقيقة هذا الأمر يجب أن نستعرض ماقام به المغول من مآسى فى بلاد المسلمين عقب سقوط الدولة الخوارزمية، حيث فتح الباب أمامهم على مصراعيه لتنفيذ مايحلوا لهم فى البلدان الإسلامية فقد قاموا بتقسيم قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية تمكن الجيش الأول من الإستيلاء على ديار بكر والجزيرة فدخلوا آمد وأرزن الروم وميافارقين واسعرد وطنزة ووادى القرشية وماردين ونصيبين وسنجار والخابور[٢] وقرية المؤنة قرب الموصل، واشتط جنود المغول فى القتل والنهب والسلب والابادة، حيث أؤثر عنهم أنهم قتلوا معظم سكان مدينة اسعرد ولم ينج منهم إلا من اختفى وقليل ماهم.[٣]

كل هذه الأعمال تجرى ولا أحد يجرؤ أن يقف فى طريقهم، واستولى الرعب والخوف على قلوب السكان إلى حد لايصدقه إنسان فقد أورد ابن الأثير مجموعة من القصص الدالة على ذلك لدرجة أن سامعها يكاد يكذب بها لولا أنها جاءت على لسان مؤرخ يعتبر ثقة فيما روى لنا حول هذه الأحداث حيث يقول: "ولقد

---

(١) سورة الأنفال، آية ٥.

(٢) اسعرد: يقال لها سعرت واسعرت وهى مدينة بالقرب من شط دجلة، انظر أبوالفدا، تقويم البلدان، وطنزة: بفتح أوله وسكون ثانيه وزاى بلفظ الطنز وهو السخرية بلد بجزيرة ابن عمر بدياربكر، ووادى القرشية: قرية فى جزيرة بان عمر من نواحى الجزيرة، ونصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، الخابور: مدينة لطيفة على شاطىء الفرات لها بساتين وحدائق، ومات بها مسلمة بن عبدالملك، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن الاثير،الكامل،ج٩، ص ٣٨٤-٣٨٥، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨،ص٦٦٦، ابن العميد، أخبار الايوبين ص ١٨، أبوالفدا، المختصر ج٣، ص ١١٧،ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٢٦، الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٧٩.

حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحد بعد واحد لايتجاسر أحد يمد يده إلى ذلك الفارس ولقد بلغنى أن إنسانا منهم أخذ رجلاً ولم يكن مع التترى مايقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولاتبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى وأحضر سيفاً فقتله به (وحكى ) لى رجل قال : كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلاً فى طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا، فشرع أصحابى يفعلون ماأمرهم به فقلت لهم: هذا واحد فلم لانقتله ونهرب؟! فقالوا: نخاف، فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا، فوالله ماجسر أحد أن يفعل ذلك فأخذت سكيناً وقتلته وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير [١]

ولعل سائلاً يسأل فيقول لوصدقنا بهذه الأخبار فما الذى جعل المسلمين يصلون إلى هذه الدررجة بحيث لايستطيع الواحد منهم أن يحمى نفسه فضلاً عن أهله وماله ووطنه نقول أن ذلك يرجع بدرجة كبيرة إلى الإنحراف العقدي وتفشى المعاصى والمنكرات فى المجتمعات الإسلامية وإنحرافهم عن المنهج الربانى فافترقت كلمتهم وتشتت قواهم ولم يعدوا القوة لعدو يتربص بهم عند الحدود الشرقية للعالم الاسلامي، فما حصل لهم إذاً إنما هو بما كسبت أيديهم قال تعالى:﴿ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون﴾.[٢]

أما الجيش الثانى فقد توجه إلى مدينة "بدليس"[٣] فلما سمع بهم أهلها تحصنوا بالقلعة والجبال، فقتلوا كل من صادفهم وأحرقوا المدينة، يقول أحد سكان

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٥.

(٢) سورة الروم، آية ٤١.

(٣) بدليس: بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط ذات بساتين كثيرة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

المدينة "لوكان عندنا خمسمائة فارس لـم يسـلم مـن التتر أحـد لأن الطريـق ضيقـة والقليل يقدر على منع الكثير"، ثم سار المغول إلى خـلاط واسـتولوا علـى كـل من باكـرى[١] وارجيش من أعمال خلاط وقتلوا كل من بها.[٢]

وسار الجيش الأخير إلى منطقة أذربيجان فما كان منهم بعد أن سـمعوا مافعلـه المغول بديار بكر والجزيرة وخلاط وغيرها من القتل والنهب والسلب والإبادة هذا بالإضافة إلى عدم وقوف أحد ملوك الإسلام فى وجههـم بـل كلهـم "ينجحـرون فـى الأثقاب" على حد تعبير ابن الاثير كل هذه الأمـور مجتمعـة دفعتهـم إلـى المسـارعة بتقديم فروض الطاعة للمغول، وقدموا إليهم من الهدايـا والتحـف والأمـوال الشـيء الكثير، وقبل المغول هذه الهدايا وفرضوا عليهم ضريبة كبيرة من المـال كـل سـنة، فسلمت أذربيجان من التدمير والتخريب الذي نال غيرها من البلاد الأخرى.[٣]

وعندما تمت السيطرة الكاملة على منطقة أذربيجان سارت طائفة منهم فى ذى الحجة سنة٦٢٨هـ / ١٢٣٠م إلى إربـل[٤] فقتلـوا كـل مـن مر علـى طريقهـم مـن التركمان والاكراد وغيرهم إلى أن دخلوا إلى إربل ففعلوا بها مالم يسمع بمثله من الأعمال الوحشية، فسارع صاحبها مظفر الدين لإعداد عساكره واستدعى عسـاكر الموصل لتناصره فى حماية البلد من التدمير، غير أن المغول رجعـوا إلـى اذربيجـان قبل إجتماع العساكر الإسلامية.[٥]

---

(١) باكرى: ويقال لها بـاركيرى أو بهركـرى وهـى مدينـة علـى الطريـق مـن ارجيـش إلـى خـوى فـى اذربيجان، انظر كى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٨.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص ٣٨٥، الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٨٠.

(٣) ابن الاثير، المصدر السابق،ج٩، ص ٣٨٦ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٣٢٨-٣٢٩.

(٤) إربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة فى فضاء من الارض واسـع بينهـا وبيـن بغـداد مسـيرة سـبعة أيـام للقوافل، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) ابن الاثير، المصدر السابق، ج٩، ص ٣٨٦.

كل هذه الأمور تحدث فى الوقت الذى كان فيه صاحب آمد أحد ملوك الإسلام مولع بالنساء بل بلغ به الأمر أن تعرض لنساء رعيته بما فيهم الأعيان والأكابر فلم يحتمل أهل تلك البلدة هذا الأمر فرفعت الشكاوى من قبلهم إلى السلطان الكامل، فعرض ذلك على أخيه الأشرف وكان نازلاً عنده بمصر فاتفقا على قصده وأخذ آمد منه[١]، والسبب الآخر الذى أدى بهما إلى الخروج إليه هو معاضدته لجلال الدين خوارزم شاه عليهما في أثناء الصراع بينهما.[٢]

سبق الأشرف أخاه الكامل إلى دمشق ليعد العساكر وليكون فى استقبال بقية ملوك بنى أيوب الذين سيخرجون معهم فى هذه المهمة، ومر السلطان الكامل أثناء مسيره إلى دمشق بالكرك والشوبك فاستقبله ابن أخيه الناصر داود بحفاوة بالغة وبالغ فى إكرامه، فعقد له الملك الكامل على ابنته عاشوراء خاتون.[٣]

ولم ينتظر صاحب حماة الملك المظفر تقى الدين عمه الملك الكامل حتى يقدم دمشق وينضم إليه بل سارع بالذهاب إليه فى اللجون لتلقيه ومعاضدته ثم توجه الملك الكامل إلى دمشق ومعه الناصر داود بعساكره حيث اجتمعت العساكر الأيوبية بها، ورحلوا عنها إلى الشرق بعساكر كما يقول ابن واصل: "يضيق بها الفضاء "[٤] ولم يتخلف أحد من ملوك بنى أيوب فى الخروج مع الملك الكامل.[٥]واتحاد بنى أيوب فى هذه الفترة كان يمثل شوكة فى نحر كل من يفكر فى الإعتداء على ممتلكات هذه الدولة. غير أنهم وللأسف الشديد لم يحاولوا بهذه

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٢-١٣، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٢٩هـ، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٠٨.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٣.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق ، ج٥، ص ١٣-١٤.

(٤) المصدر السابق، ج٥، ص ١٦.

(٥) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٦، الاصفهانى، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٣٠هـ.

القوة المجتمعة التصدى للقوات المغولية التى اكتسحت كثيراً من البلدان الإسلامية القريبة منهم، والتى كانت تترقب الوقت المناسب للقضاء عليهم، فضلاً عن طرد الصليبيين المقيمين فى بلاد الشام.

وعلى أية حال فإن هذه القوات سارت حتى قطعت الفرات واتجهت نحو آمد، فلما وصل إليها الملك الكامل ضيق عليها الحصار ونصب عليها المجانيق، ورغم حصانة المدينة ومنعة أسوارها إلا أن صاحبها سارع بتسليم البلد للسلطان الكامل لتخلى الرعية عنه وذلك لسوء سيرته معهم، فأحسن الكامل إستقباله ووعده بإعطائه إقطاعا بمصر.(١)

وبعد فتح آمد سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٣م جعل الملك الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب نائباً عنه فى البلاد الشرقية وعهد إلى الأمير شمس الدين صواب العادلى مهمه تدبير شؤن البلاد مع ابنه الصالح أيوب، لثقته به حتى أصبح الملك الصالح معه مجرد صورة فى حكم البلاد.(٢)

ومن استقرائنا للحوداث التاريخية نرى أن اعتراف ملوك بنى أيوب بسلطة الكامل وخضوعهم لنفوذه، لم يستمر طويلاً بسبب اطماع الكامل فى بسط سيطرته المباشرة على بلاد الشام، ويظهر هذا الأمر واضحاً جليا فى حملتهم المشتركة على بلاد الروم، فقد حاول الأيوبيون التحالف مع علاء الدين كيقباذ لصد الخطر المغولى الذى بات يهددهم فى كل لحظة، إلا أن علاء الدين كيقباذ فاجئهم

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٧-١٨، الذهبى، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٣، ص ٣٨-٣٩، دول الإسلام، ج٣، ص ١٠٢ ،ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٣٤-١٣٥، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ص ٢٣٣ ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٢٧، القلقشندى، مآثر الانافة فى معالم الخلافة، ج٢، ص ٧٩.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٤-٣٥، ابن ايبك كنز الدرر، ج٧، ص٣٠٨-٣٠٩، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص١٠٢، العبر، ج٢، ص٥٠٥، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج٢،ص٣٧١.

بمحاولة الاستيلاء على خلاط.[١]

ونتيجة لذلك خرج الملك الكامل بقواته من مصر ليلة السبت خامس شعبان سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م بعد أن استناب ابنه العادل فى مصر لصد علاء الدين كيقباذ وقواته الخوارزمية من الإستيلاء على خلاط وبدأ فى تأليب ملوك بنى أيوب ضد كيقباذ.[٢]

وصل السلطان الكامل إلى دمشق وكان المؤرخ ابن واصل شاهد عيان لهذا الحدث العظيم الذى اجتمع فيه جمع غفير من ملوك بنى أيوب حتى قيل أنه كان فى معسكر السلطان الكامل ستة عشر دهليزاً[٣] لستة عشر ملكاً لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام، ثم وصل قاصداً بلاد الروم فنزل شمالى سلمية، ثم رحل منها ونزل بمنبج وهى تابعة لصاحب حلب الملك العزيز الذى بادر بإرسال عسكر حلب نجدة للملك الكامل.[٤]

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ٢٤٧، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢١٦، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٠٦، عفاف صبره، التاريخ السياسى للدول الخوارزمية، ص ٢٧١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٣٩، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٦٧.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٦، المقريزى، المصدر السابق، ج١،ق١، ص ٢٤٧، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٤، عفاف صبرة، المرجع السابق، ص ٢٧٢.

ويذكر ابن العميد أن سبب خروج الملك الكامل إلى بلاد الروم يرجع إلى تحريض الأشرف لاخيه الكامل على الإستيلاء على بلاد الروم واطمعه فيها بعد أن اطلعه على أحوالها وعسكرها عندما انضم إلى علاء الدين فى قتال جلال الدين منكبرتى، أخبار الأيوبيين، ص ١٩.

(٣) دهليز: الدهليز هنا الخيمة التى ترافق السلطان فى الحرب وتختلف عن غيرها من الخيم والدهليز الكبيرة التى تقام للسلاطين فى الصيد النزهة بكونها خيمة قائمة بذاتها ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتى تقام لتجهيز حاجات السلطان فى أيام السلم. انظر المقريزى، المصدر السابق، ج١ ،ق١ ،ص٢٤٨ ،حاشية ١.

(٤) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق ١، ص ٢٤٨-٢٤٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٧٤- ٧٥، ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٦-٢١٨، الذهبى، المختار من تاريخ ابن =

وعندما أيقن السلطان علاء الدين كيقباذ عزم السلطان الكامل على قصده أرسل إلى صاحب حلب يقول له: " أنا راض بأن تمده بالأجناد والرجال على أن لاتنزل إليه ابداً" فلم يخرج إلى الكامل ورضى كل من السلطانين بفعله، وربما كان قصد صاحب الروم من وراء ذلك هو إيجاد الفتنة بين ملوك بنى أيوب.(١)

اعجب الملك الكامل بكثرة العساكر الموجودة فى خدمته، ولم يشك فى القضاء على كيقباذ والسيطرة على مملكة السلاجقة(٢)، غير أنه لم يفطن إلى أن الكثرة ليست هى السبب الوحيد فى النصر.

أمر الكامل قواته بالمسير إلى بلاد الروم فاتجهت إلى الدربند، وكان السلطان علاء الدين لما بلغه قدوم القوات الأيوبية إلى بلاده أخذ فى حفظ المداخل إلى بلده بالرجال والعتاد، وكانت تلك المداخل صعبة وضيقة جداً يصعب على العساكر الدخول منها، فنزل الملك الكامل على النهر الازرق(٣)، ولم يستطع الدخول إلى بلد الروم عن طريق الدربند لأن عساكر الروم كانوا قد بنوا على فم الدرربند سوراً، استطاعوا بواسطته أن يمنعوا عساكر الملك الكامل من الصعود إليهم.(٤)

وفى هذه اللحظة بدأت تتغير الموازين لصالح سلطان الروم علاء الدين كيقباذ

---

= الجزرى، ص ١٤٨، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣١٤، ويذكر ابن العميد أن عدد الملوك الذين شاركوا فى هذه الحملة كانوا ثلاثة عشر ملكاً، المصدر السابق، ص١٩.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢١٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٧٤-٧٦.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ٢٤٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٩٠.

(٣) النهر الازرق: أحد نهيرات الفرات الأعلى ويجرى بين بهسنا وحصن منصور. انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٧، حاشية ٢.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٧، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق١، ص٢٤٩، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٧٧، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ج٢، ص ١٤٨، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٤.

إذ قلت الأقوات جداً فى معسكر الملك الكامل، إضافة إلى حدوث انقسام خطير، ألا وهو تخاذل مجموعة من ملوك بنى أيوب عن نصرة الملك الكامل، وذلك نظراً لما بلغهم عنه من طمعه فى بلاد الشام فجاء الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص إلى الملك الأشرف وأجتمع به وقال: "إعلم أن السلطان الكامل متى أخذ مملكة الروم أخذ جميع ممالكنا التى بأيدينا فى الشام لقرب بلاده وعوضنا من بلاد الروم" فأوجس فى نفسه خيفة موسى، واستدعى ابن عمه وأقاربه واطلعهم على ماعزم عليه الملك الكامل تجاههم.[(١)]

وعندئذ تغيرت نيات بنى أيوب واتفقوا على ابطال مخطط الكامل، بل إنهم أرسلوا فى سبيل ذلك إلى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ يعدونه " بالميل معه وخذلان الكامل " ، فوقعت مجموعة من هذه الكتب فى يد الملك الكامل[(٢)]، فلما علم بخذلان ملوك بنى أيوب له وقلة الأقوات وغلاء الاسعار وحصانة الدربند قرر الرحيل إلى السويداء[(٣)] من بلد آمد، وقبل وصوله إليها أمر بهدم حصن منصور فهدموه، كما وصل إليه صاحب خرتبرت معلناً الدخول فى طاعته ووعده بتسهيل مهمته فى الدخول إلى بلاد الروم عن طريق خرتبرت.[(٤)]

---

(١) المقريزى،السلوك، ج١، ق١، ص ٢٤٨-٢٤٩. ويذكر المقريزى أن الملك الكامل صرح بذلك الأمر لأحد خواصه فقال:"إن صار لنا ملك الروم فإنا نعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم بدل مابأيديهم ونجعل الشام والشرق مضافاً إلى ملك مصر". انظر كذلك ابن العميد، أخبار الأيوبين، ص١٩، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان،ص٦٩٩، الذهبي،المختار من تاريخ ابن الجزري، ج٢،ص١٤٨- ١٤٩.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق١، ص ٢٤٨-٢٤٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص ١٩.

(٣) السويداء: بلد مشهور ببلاد مضر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٧٨-٧٩، التاريخ الصالحى ورقة٢٣٣، ابن العميد، المصدر السابق، ص١٩، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ج٣ ص ١٤٩، الذهبى، العبر، ج٢، ص٢٠٩، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢١٨، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ٧٣.

قطع الملك الكامل الفرات ونزل بالسويداء، عازماً على دخول الروم عن طريق خرتبرت فأرسل الملك المظفر وهو الوحيد الذى كان من ملوك بنى أيوب ملازماً للملك الكامل لأنه استرد له حماة، على رأس جيش قوامه الفين وخمسمائة فارس إلى خرتبرت وبعث معه الأمير شمس الدين صواب العادلي، فتوجهوا إلى أرقين[١] ثم رحلوا إلى البهرمان[٢] ثم إلى البحيرة الصغيرة واستقر بهم المقام فى خرتبرت.[٣]

ولما سمع بهم صاحب الروم السلطان علاء الدين أعد جيشاً قوامه اثنى عشر ألف فارس وسيره لملاقاة قوات الكامل المقيمة بخرتبرت، وتقابل الطرفان فى معركة قوية استمرت من أول النهار إلى أخره انتهت بإنتصار قوات علاء الدين فتراجع عسكر الكامل بقيادة الملك المظفر ودخل قلعة خرتبرت مع صاحبها ومعها شمس الدين صواب العادلي، أما باقى العسكر الكاملى فقد نزل فى ربض خرتبرت فداهمتهم قوات علاء الدين فى الربض وأسروا من كان فيه من عسكر الكامل[٤]

ولم يكتف علاء الدين بذلك بل سار بقواته وأحاط بقلعة خرتبرت ونصب عليها تسعة عشر منجنيقاً، وضيقوا الحصار عليها حتى قلت الأقوات ونقص الماء ودام الحصار عليها أربعة عشر يوماً، ونتيجة لإحكام الحصار حول القلعة وما ألم بمن بها من الضائقة سارعوا بطلب الأمان من علاء الدين كيقباذ وتسليم القلعة إليه، فأمنهم علاء الدين ودخل معهم فى الأمان صاحب خرتبرت وكان ذلك فى ذى القعدة

---

(١) أرقين: بلد بالروم غزاه سيف الدولة بن حمدان، وذكره أبوفراس فى شعره، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) البهرمان: لم أجد لها تعريفا فيما بين يدي من كتب.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٧١-٧٩، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٤-٣١٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢١٨.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٧٩، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص٣١٥، ابن واصل، التاريخ الصالحى / ورقة ٢٣٣-٢٣٤، ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص٢١٨، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزري، ج٢، ص١٤٩، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص٧٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٩.

سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م.[١]

وهكذا فشلت حملة الملك الكامل فى السيطرة على بلاد الروم وذلك يرجع إلى سوء نيته التى أدت إلى تخلى ملوك بنى أيوب عنه بعد أن كان طامعا في الإستيلاء على بلاد الروم[٢] ، وكان أول من أظهر له الكامل حنقه من ملوك بنى أيوب هو ابن أخيه الناصر داود، حيث كان يظن بعد أن عقد له على ابنته عاشوراء أنه لن يتخلى عنه مهما كانت الاوضاع، إلا أنه انضم إلى ملوك بنى أيوب ضد عمه الكامل إضافة إلى أشياء باطنة على حد رواية بعض المؤرخين أوغرت صدر الكامل عليه فأجبره على طلاق ابنته التى لم تكن قد زفت إليه بعد سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م.[٣]

وفى بداية عام ٦٣٢هـ/١٢٣٤م رجع الملك الكامل إلى مصر كما رجع كل ملك من ملوك بنى أيوب إلى بلده[٤] بما فيهم الملك الناصر داود صاحب الكرك الذى كان خائفاً من عمه الملك الكامل وخشى أن تمتد يده إلى الكرك فينتزعها منه لذلك قرر العزم على قصد الخليفة العباسى المستنصر بالله ليشفع له عند عمه الكامل، وبعد إلحاح شديد من قبل الناصر قبل الخليفة التوسط له عند عمه فبعث معه رسولاً إلى السلطان الكامل "يشفع له فى إخلاص نيته له وإبقاء بلاده عليه"، وعندما وصلا إلى الملك الكامل قبل شفعة الخليفة فيه وأقبل عليه أقبالاً كثيراً.[٥]

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٨٠-٨١، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٥، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣١، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢١٨.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٨٢، ٨٧، ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٢٠، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٥٦، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣١٣.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٨٢-٨٣، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ٣١٣.

(٤) أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٦، ابن ايبك الدوادار،المصدر السابق ج٧،ص٣١٣ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٩.

(٥) المقريزى، السلوك،ج١،ق١،ص٢٥١، أبوالفدا، المصدر السابق،ج٣،ص١٥٧-١٥٨، القلقشندى، مآثر الانافة فى معالم الخلافة،ج٢،ص٧٩، ناجى معروف،تاريخ علماء المستنصرية،ج٢،ص ٤٢٩.

وحاول سلطان سلاجقة الروم علاء الدين أن يستغل فشل الكامل فى مهمته وتفرق بنى أيوب عنه فخرج بقواته إلى الشرق رداً للإعتبار، فهاجم مدينة الرها وشدد الحصار حولها ونصب عليها مجموعة من المجانيق[١] حتى يحكم السيطرة عليها ولم تمض فترة حتى وقعت المدينة فى يد علاء الدين كيقباذ، الذى تطلع إلى بسط نفوذه على أكبر قدر من المدن التابعة لبنى أيوب وخاصة الملك الكامل، فلم تتوقف اطماعه عند حد السيطرة على الرها فواصل سيرة إلى حران ومعه من انضم إليه من الخوارزمية وتمكن من إحكام السيطرة عليها، وتوج انتصاراته تلك بإستيلائه على خلاط وإنتزاعها من يدى الملك الأشرف، ثم عين نوابه على تلك المناطق وكر راجعاً إلى بلاده لدخول فصل الشتاء.[٢]

استاء الملك الكامل من أفعال علاء الدين كيقباذ، فخرج من مصر سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م لإعادة ما أخذه من البلدان ورغم النفور والوحشة التى حصلت بين الكامل وملوك الشام فى الحملة السابقة إلا أنهم رافقوه فى حملته الجديدة ضد

---

(١) المنجنيقات: أعظم آلات الحصار فى العصور الوسطى وقد وصف القلقشندى المنجيق بأنه " آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل، وزنه خفيف تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع اسافله إلى أعلى أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه. انظر صبح الاعشى ج٤، ص ١٤٤، وهى أنواع مختلفة وذات تراكيب متباينة، فمنها العربى والفارسى والافرنجى، وتستخدم المنجنيقات لرمى السهام إلى مسافات بعيدة ولرمى الحصون بالحجارة الضخمة كما تستخدم لقذف قدور النفط والكرات المشتعلة وغير ذلك. انظر عبدالله الغامدى، مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص ٥٨، حاشية رقم ١. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٨٣، حاشية رقم ١.

(٢) ابن واصل مفرج الكروب، ج٥، ص ٩٨-٩٩، ١٠٩، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٤، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٢هـ، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٣٥، ابن نظيف الحموى،التاريخ المنصوري، ص ٢٥٥، الذهبى، تاريخ الإسلام، طبقة ٦٣، ص٤٠ ، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٢٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص١٩.

كيقباذ ولم يظهروا امتعاضهم منه ، وقد سارت هذه القوات بقيادة الملك الكامل من دمشق وسار معه كل من الملك الأشرف صاحب دمشق والملك المجاهد صاحب حمص وهما من أبرز ملوك الشام الذين كان يحرص الكامل على استقطابهم إليه، هذا بالإضافة إلى مسير الملك المظفر صاحب حماة معهم، وقطعوا نهر الفرات ووصلوا إلى مدينة الرها التى عجزت عن المقاومة فسلمت إلى الكامل الذى أمر بهدم قلعتها، ثم زحفوا نحو حران وتغلبوا على نواب علاء الدين وقبضوا عليهم وسيرهم الملك الكامل اسارى سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٦م إلى مصر.(١)

ثم نزل عسكر الكامل على دنيسر(٢) فدمرها واستباح الأموال والنساء لشدة حنق الكامل على علاء الدين ولكن هل يبرر له ذلك هتك الاعراض والإستيلاء على الأموال، ولم يمهل الله الكامل على صنيعه ذلك فقد ورد كتاب بدر الدين لؤلؤ إلى الأشرف يخبره بقطع التتر دجله فى مائة طلب كل طلب خمسمائة فارس ونزلوا على سنجار فتصدى لهم معين الدين بن كمال الدين بن مهاجر فقتلوه، فأحس الكامل بالخطر فعاد مسرعاً مع أخيه الأشرف،وقطعا الفرات إلى دمشق.(٣)

عاد التتر بعد أن وصلوا إلى سنجار وكانت أعمالهم تلك بمثابة إستكشاف لقوات المسلمين وفى كل مرة يخربون وينهبون ويدمرون ولا أحد يجرؤ على التصدى لهم وفى الجانب الآخر نجد ملوك المسلمين يفتك بعضهم ببعض إذا ماسنحت لهم الفرصة المناسبة، فعند عودة الكامل إلى دمشق عادت عساكر الروم

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٠٩-١١٠، التاريخ الصالحى، ورقة٢٣٤، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٥١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٩٣، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة٦٣٢هـ، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ١٩.

(٢) دنيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ولها اسم اخر يقال لها توج حصار، انظر ياقوت، معجم البلدان، وانظر كى‌لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٢٦.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٩٥، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق١، ص ٢٥١، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٥٤.

ومعهم الخوارزمية وانضم إليهم صاحب ماردين، فنزلوا نصيبين فأحرقوها وفعلوا بها اشنع مما فعله الكامل بدنيسر ثم توجهوا إلى آمد وضيقوا عليها الخناق حتى سقطت فى أيديهم.[١]

إن المتتبع لهذه الأحداث يتألم أشد الالم من تمزق وحدة المسلمين وتفرقهم فما إن اتحد ملوك بنى أيوب حتى ظُن أن ذلك سيكون سبباً فى رأب الصدع ولم الشمل إلا أن هذا الوفاق المؤقت لم يكتب له الدوام فسرعان مابدأت الأطماع الشخصية والأحقاد العائلية تظهر لتبدأ مرحلة جديدة من التنافس والنزاع تستنفذ قواهم وتمتص حماسهم أمام أعدائهم من المغول والفرنج.

وقد ذكر ابن واصل أسباباً كثيرة لتدهور العلاقات بين الأشرف وأخيه الملك الكامل، حيث صدرت من الكامل أفعال كثيرة استاء منها الأشرف، منها أنه أخذ منه بلاده الشرقية حين أعطاه مدينة دمشق بعد انتزاعها من الناصر داود كما أنه استأثر ببعض المناطق الهامة التابعة لدمشق، وعندما استولى علاء الدين سلطان الروم على خلاط لم يساعده الكامل فى استرجاعها فاقتصر الملك الأشرف على دمشق وكان الكامل فى كل مرة يذهب فيها إلى الشرق يقيم بدمشق مما يكلف الأشرف أمولاً طائلة فى ضيافته هو وأصحابه، وحين استولى الكامل على آمد وهى مملكة واسعة ولها بلاد كثيرة، والأشرف فى صحبته لم يعطه شيئاً منها بل استأثر بذلك كله، هذا بالإضافة إلى ماسبق وأن أشرنا إليه من عزم الكامل على انتزاع الشام من ملوك بنى أيوب "وتعويضهم مايملكه من بلاد الروم فما كان من الأشرف إلا أن قوى عزمه على منابذته والممالاة عليه"[٢]

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٦٩٥-٦٩٦، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٥٠، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٨٢، المقريزي السلوك، ج١، ق١، ص٢٥٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٧٨-٢٩١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٢١-١٢٣، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٢٦،

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

ولعل من أبرز الأسباب التى أثرت على نفسية الأشرف عدم إجابة مطالبه من قبل أخيه الكامل فأحس بنوع من الهيمنة عليه من قبله وظهر ذلك جلياً عندما أرسل إليه بعد أن استخدم الخوارزمية وقويت شوكته يطلب منه الرقة لتكون علفاً لدوابه فرفض الكامل هذا الطلب قائلاً " أما يكفيه أن معه دمشق مملكة بنى أميه؟" ولم يتسرع الأشرف فى مقاطعة أخيه بل أرسل إليه مرة أخرى يشرح له حقيقة الوضع وأن دمشق لاتكفيه لسد حاجاته، فما كان من الكامل إلا أن اغلظ له الجواب، وقال:"أيش يعمل بالملك ؟ يكفيه عشرته للمغانى وتعلمه لصناعتهم " فلما بلغ هذا القول الأشرف حنق عليه وقال: " والله لأعرفنه قدره".[1]

كل هذه الأمور مجتمعة جعلت الأشرف يكون له حلفاً قوياً من ملوك بنى أيوب فى الشام وكان على رأس المؤيدين له على هذه الفكرة هو المجاهد صاحب حمص الذى أحس بخطورة موقفهم أمام ازدياد نفوذ الملك الكامل فى البلاد[2] ، فبادروا بضم مملكة حلب إلى تحالفهم الجديد، خاصة أن الكامل قد أغضب ضيفة خاتون ابنه الملك العادل بالتدخل فى شؤن مملكة حلب حيث أشار عليهم بتعيين الصالح بن الظاهر قائداً على عسكر حلب بعد وفاة الملك العزيز وقيام ابنه الصغير الناصر بن يوسف مقامه فى الملك، فساءت بذلك العلاقة بين الحلبيين والسلطان الكامل نتيجة لذلك لم تتردد ضيفة خاتون فى الإستجابة لرسالة الملك الأشرف والتى عرض فيها رغبته بتوحيد الكلمة ضد الملك الكامل ومنعه من القدوم إلى

---

أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٠. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٤٠-١٤١.

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٩٩-٧٠٠، ابن ايبك، كنز الدرر ، ج٧، ص ٣١٧-٣١٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٥٦، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٦، الذهبى ، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ٤٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٩٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٢١-١٢٣، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ٣١٨، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣١٦، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٤هـ , ابن العميد، أخبار الأيوبيين ص٢٠. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٤١.

الشام وأن يقتصر على الديار المصرية.[١]

ولما فرغ الأشرف من ضم مملكة حلب إلى تحالفهم الجديد اتجه نظره إلى مملكة حماة والتى كان يحكمها المظفر الذى عرف بميله الشديد لخاله الملك الكامل لأنه هو الذى استرد له حماة من أخيه الناصر وزوجه بابنته وسمح له بإنتزاع بعرين[٢] من أخيه لذلك حرص الأشرف على ضمه إلى قوى التحالف حتى تسد جميع الأبواب في وجه الكامل فلا يفكر فى الخروج من مصر فاستماله الأشرف إلى جانبه، بل بلغ به الأمر أنه أرسل إليه يتهدده إن لم ينضم إلى قوى التحالف، وتوسط المجاهد صاحب حمص بينهما فى ذلك، فما كان من المظفر إلا أن استجاب لرغباتهم خوفاً على بلاده، ولكنه ظل فى الباطن موالياً للكامل، والزمه المجاهد أن يذهب إلى الأشرف في دمشق فيحلف له على اتفاقه معهم فسار إلى دمشق وحلف للأشرف مكرهاً ثم عاد إلى مملكته .[٣]

ولتوسيع دائرة الحلف ضد السلطان الكامل بادروا بإرسال وفد إلى سلطان سلاجقة الروم كيقباذ يناشدونه مساعدتهم ضد الكامل، ولعل هذا الأمر يدل على بعد نظر ملوك الشام مخافة أن يقعوا بين فكى أسد، لاسيما أن سلطان سلاجقة الروم تكررت منه الإعتداءات على أملاك بنى أيوب فى الجزيرة، فغادر هذا الوفد بلاد الشام متجهاً إلى مملكة السلاجقة غير أنهم لم يتمكنوا من مقابلة السلطان

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٢١-١٢٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ص٢٢٥-٢٢٧، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٥٩، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٥٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٤٢.

(٢) بعرين: يذكر ياقوت أنها بليدة بين حمص والساحل، هكذا تتلفظ بها العامة، ويرى أن ذلك خطأ والصواب هو بارين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٢٣-١٢٤، أبوالفدا، المصدر السابق،ج٣، ص ١٥٩، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٦. على عوده، المرجع السابق، ص١٤٢.

كيقباذ إذ توفى قبل وصول الوفد إليه سنة٦٣٤هـ /١٢٣٦م[١] وخلفه فى الحكم ابنه غياث الدين كيخسرو الثاني الذى أحسن استقبالهم واستجاب لطلبهم وحلف على تقديم المساعدة لهم.[٢]

ولم يكتف الأشرف بما حققه من تأليب ملوك الشام وسلطان السلاجقة ضد أخيه الكامل بل سعى حثيثاً لضم ابن أخيه الناصر داود إلى تحالفهم الجديد لإدراكه أهمية موقع إمارته التى تتمتع بموقع هام فهى تمثل حلقة وصل بين طرفى النزاع فى الشام ومصر بالإضافة إلى إمكانية إستخدامها لمراقبة التحركات العسكرية، فضلاً عما تتمتع به الكرك من تحصينات قوية يصعب على قاصدها الاستيلاء عليها بسهولة.[٣]

وبذلك أصبح الناصر داود موضع اهتمام كل من عميه الكامل والأشرف، لأن إمارته إصبحت تمثل مركز التوازن القوى بين مصر والشام واصبحت الكرك مركز نشاط واسع تتردد الرسل على الناصر داود من عميه الكامل والأشرف ، فعرض عليه نتيجة لذلك عروض مغريه فالأشرف وعده أنه متى انضم إلى صفوف الحلف الجديد فإنه سوف يقوم بتعيينه ولى عهده ويزوجه ابنته الوحيده[٤]

---

(١) علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن سلجوق. كان ملكاً جليلاً شهماً وافر العقل متسع الممالك. تزوج بابنة الملك العادل وامتدت أيامه. توفى في سابع شوال. وكان فيه عدل وخير في الجملة، انظر الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٢٠.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب،ج٥، ص ١٢٤، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢٢٧، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٤هـ، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٥٤، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٥، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٥٩، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص٣١٦. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٤٢-١٤٣.

(٣) يوسف غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٤١، على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٢٥، ١٤٦، أبوالفدا، المصدر السابق ، ج٣، ص ١٥٩، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣١٦،يوسف غوانمه، المرجع السابق، ص٢٤١.

أما الكامل فقد كان عرضه يتضمن رسالة جاء بها القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى[(١)] سنة٦٣٤هـ/١٢٣٦م يحذره من الإغترار بقول الأشرف ويذكره بغدره السابق له حيث قال له: " أنت تعلم غدر الملك الأشرف، وأنه لمامات أبوك الملك المعظم التجأت إليه وأعرضت عن جانبى، فأدى ذلك إلى أن غدر بك، ومالأ عليك، وأخذ دمشق منك ولو كنت التجأت إلى لم يذهب منك من ملك أبيك شيء، والآن فقد بلغنى أنه وعدك أنه يجعلك ولى عهده فى دمشق، وأنت تعلم وعد وفائه، وأنا التزم لك إن وافقتنى أن اخرج معك بعساكرى وانتزع دمشق منه واسلمها إليك ناجزا، وترجع إليك مملكة والدك كلها".[(٢)]

وأمام هذه العروض تحير الناصر داود فى أمره فلجأ إلى أمه يطلبها المشورة فأشارت عليه بأن ينضم إلى عمه الكامل حتى لايغدر به الأشرف مرة أخرى، فاقتنع برأيها وصمم على الإنضام إلى عمه الكامل ليستعيد له ملك أبيه الذى فقده بسبب أطماع عمه الأشرف.[(٣)]

رحل الناصر داود مع رسول الكامل إلى مصر فى ذى الحجة سنة٦٣٤هـ/١٢٣٧م، وارسل القاضى الأشرف إلى الملك الكامل يخبره بقدوم الناصر داود عليه، فسر بذلك وأمر بإقامة الإحتفالات وترتيب الإقامات الكثيرة وتزيين القاهرة ثم خرج إلى استقباله واحتفل به احتفالاً بالغاً وبالغ فى اكرامه مما أدهش الناصر

---

(١) هو القاضى الأشرف بهاء الدين أبوالعباس أحمد بن القاضى الفاضل، وكان القاضى الأشرف كوالده كبير المنزلة عند الملوك، ولد سنة ٥٧٣هـ بالقاهرة ومات سنة ٦٤٣هـ، انظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، ترجمة القاضى الفاضل عبدالرحيم البيساني.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٢٥-١٢٦، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٦.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٢٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ٢٥٤-٢٥٥، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣١٦.

داود فانخدع بالمظاهر.وأنزله بدار الوزارة وخلع عليه خلع السلطنة وأركبه بالسناجق[١] السلطانية، وأمر الأمراء بأن يحملوا الغاشية [٢] بين يديه، فكان أول من حملها الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن الملك الكامل، ثم حملها ابن عمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن الملك العادل، ثم حملها الأمراء حسب مراتبهم، واحد بعد الآخر إلى أن صعدوا بها القلعة ولم يكتف الكامل بذلك بل جدد له العقد على ابنته عاشوراء خاتون[٣]

اعجب الناصر داود بهذا الاستقبال والحفاوة التى وجدها عند عمه وتمثل فى الرسالة: بيت من شعر أبى الطيب المتنبى وهو :

سيعلم قوم خالفونى وشرقوا وغربت أنى قد أصبت وخابوا.

وهذا يدل على أن هناك من عارضه من حاشيته واتباعه ومنهم مملوك والده عز الدين ايبك صاحب صرخد الذى انضم إلى تحالف الشام[٤]

والحقيقة أن الناصر داود أخطأ بالإنضام إلى الملك الكامل لعدة أمور منها: أن

---

(١) السناجق: جمع سنجق وهو لفظ تركى كان يطلق على الرمح ثم اطلق على الراية التى تربط به وكانت السناجق تحمل فى مواكب السلطان، انظر القلقشندى، صبح الاعشى، ج٥، ص ٤٥٦.

(٢) الغاشية: هى السرج أو الغطاء المزركش الذى يوضع على ظهر الفرس فوق البردعة، وكان أمراء الاتابكة ثم سلاطين الأيوبيين والمماليك بعدهم يخرجون فى المواكب وبين أيديهم الغاشية، وقد وصفها (القلقشندى: صبح الاعشى، ج٤، ص٧) بانها سرج اديم مخروزة بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحمل بين يدى السلطان عند الركوب فى المواكب، كالميادين والاعياد ونحوها يحملها أحد الركاب دراية رافعاً لها على يديه.. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥، حاشية ٢.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٢٦-١٢٨، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٥٩، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٦، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣١٧، الخطيب العمري، الدرر المكنون،حوادث سنة ٦٣٤هـ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٠-٢١، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٣٦.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٢٧، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق ص ٣١٦-٣١٧.

الكامل هو أول من حاول الاستيلاء على دمشق عند خروجه من مصر ولما علم بإنضام الأشرف إلى الناصر داود إستماله وأطمعه في ملك دمشق، كما أن الأشرف لم يكن له من الولد سوى بنت واحدة، فلو أطاع عمه الأشرف لكانت دمشق قاب قوسين من الناصر داود لعدم وجود منافس قوى يستأثر بها عند وفاة الأشرف[١] ولكن الناصر داود لم يوفق فى ذلك ويعزو أبوالفدا سبب ذلك " لسوء حظه "[٢] إلا أنه لايمكن التسليم بذلك لأن اختياره كان بمحض إرادته وكانت الأمور مكشوفة أمامه[٣]

ويعود ذلك كله إلى طبيعة نشأة الناصر داود الذى لم يشركه والده فى أمور السياسة بل كان جل اهتمامه منصباً على تعلم العلم، فافتقد بذلك الحنكة السياسية والرؤية الصحيحة لطبيعة تكوين الدولة الأيوبية [٤]، فانطلت عليه أساليب الخداع من قبل عمه الكامل ويعبر ابن دقماق عن ذلك بقوله " وكل ذلك من الكامل خداع ومكر وحيلة عملها على إستمالته".[٥]

وكان من الطبيعى أن ينزعج الأشرف ويتأثر من تصرف الناصر داود فأراد أن ينتقم منه على تصرفه هذا فأرسل عسكره إلى نابلس[٦] الخاضعة لحكم الناصر داود واستولى عليها وأخذ كل ما يخص الناصر داود فى هذه المدينة [٧] ، ثم أرسل

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٤٦-١٤٧، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٤٣.

(٢) أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٥٩.

(٣) على عوده، المرجع السابق، ص١٤٤.

(٤) على عوده، المرجع السابق، ص١٤٤.

(٥) يوسف غوانمه، امارة الكرك، ص ٢٤٣، نقلا عن ابن دقماق، نزهة الانام، حوادث سنة ٦٣٤هـ، مخطوط.

(٦) نابلس: مدينة كنعانية من أقدم مدن العالم ومماقاله محمد بن حوقل فى رحلته، والمتوفى سنة ٣٦٧هـ :" ليس بفلسطين بلده فيها ماء جار سواها وباقي ذلك شرب أهله من المطر وزرعهم عليه وبها البئر التى حفرها يعقوب" انظر محمد محمد شراب، معجم بلدان فلسطين،ص ٦٩٧.

(٧) المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ٢٥٤-٢٥٥.

الأشرف ومن تبعه من الملوك رسالة إلى السلطان الكامل تتضمن تحذيره وتخويفه من الخروج إليهم مرة أخرى وبينوا له إتفاق كلمتهم على ذلك[١] وطلبوا منه أن يحلف لهم على ذلك، فلما بلغته رسالتهم قال لهم: " أنتم قد اتفقتم فما تطلبون من يميني؟ احلفوا لى أنتم ايضاً أن لاتقصدوا بلادى، ولاتتعرضوا لشيء ممافى يدى، وأنا أوافقكم على ماتطلبون ".[٢] ويبدوا أن الكامل من خلال رده على هذه الرسالة خشى من اعتداء الملوك على مايملكه فى بلاد الجزيرة، فأراد أن تحفظ له أملاكه فى مقابل أن يحلف لهم على عدم الخروج اليهم مرة أخرى.[٣]

وقيل أن الكامل لمابلغه الرسول بالرسالة السابقة بكى وضحك، فأما بكاؤه فكان نتيجة اختلاف ملوك الإسلام، وأما ضحكه فلأن جميع الملوك فى تلك الفترة كبار فى السن مابقى لهم فسحه فى الأجل يحتملون القيل والقال وكتب ضمن رسالته إليهم:

تجمعتم من كل ارب ووجهة　　　على واحد لازلتم قرن واحد

ثم لم تلبث أن تطورت الأمور بسرعة، فمرض الأشرف ولحقه ذرب فكان لايجلس فى بطنه طعام ولما اشتد به المرض عهد بولاية العهد من بعده لأخيه الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل صاحب بصرى، واستحلف له المجاهد صاحب حمص وعز الدين ايبك صاحب صرخد، وتوفى الأشرف[٤] فى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٢٧، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٧، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٢٨، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٤هـ، ابن واصل، التاريخ الصالحى،ورقة٢٣٤-٢٣٥، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٥٢.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٢٧.

(٣) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٤٥.

(٤) الملك الاشرف موسى بن الملك العادل أبوبكر الأيوبى ولد سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م كان ملكاً حازماً عادلاً حكيماً كريماً محباً للخير ناشراً للعلم والفضل بتقريب ذويه له وبإنشاء الدور والمؤسسات لهم، انظر شرف خان البدليس، شرفنامه، ص ٧٢.

المحرم سنة ٦٣٥هـ/ سبتمبر ١٢٣٧م وعمره ستون سنة ودفن بدمشق.[١]

ولقد إستراح الكامل بوفاة الأشرف لأنه كان بمثابة عقبة في طريقة نحو تحقيق اطماعه إذ لم يكن يجرؤ على مواجهته في مكان مكشوف فقد كان الأشرف محظوظاً في ميادين القتال فلم يؤثر عنه أنه هزم في أى معركة من المعارك التى شارك فيها بنفسه طيلة حياته وكان جواداً مفرطاً في الكرم إضافة إلى حسن أخلاقه مع أصحابه وغيرهم[٢]، وكان أخوه الكامل يدرك هذه الحقائق فحينما بلغه نبأ وفاته قال:" والله لولم يمت لراحت البلاد منا، فقيل له : لك من باب الموصل إلى اليمن، فايش تلتفت إليه، فقال: اسكتوا كان كريماً والكرم مامعه حديث".[٣] ويبدو أن الكامل كان يقصد بكرمه القدرة على اصطناع الرجال بالمال فلقد كانت العطايا والهبات وسيلة بين الراعى والرعية آنذاك تؤلف قلوب الرجال وتشترى الأعوان والأنصار.

وفى الوقت الذى كان فيه الخلاف على أشده بين ملوك الإسلام كان أعداؤهم من المغول والصليبيين يغيرون على البلدان الإسلامية ويفعلون بها الأفاعيل ومن ذلك نزول المغول على إربل سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م وحصارهم الشديد لها فقد نصبوا عليها المجانيق وهدموا جزءا من سور المدينة ودخلوها عنوة فتحصن أهل

---

(١) أبو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٧، ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ١٨٠٨، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٣٧،١٤٧، وبصرى: من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران، وصرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٤٥.

(٣) ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣١٨، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧١١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٢١، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٧٥. على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٥-١٤٦.

المدينة ومعظم العسكر بالقلعة، وقتلوا كل من ظفروا به[(١)] ، فخاف خليفة بغداد من أن تمتد هذه الغارة عليهم فأوكل إلى نائب الوزارة مهمة الدفاع عن المدينة، الذى أحضر بدوره المدرسين والفقهاء واستفتاهم إذا اتفق الجهاد والحج أيهما أولى؟ فأفتوا بأن الجهاد أولى فأبطل الحج فى هذه السنة ونصبت المجانيق على سور بغداد وأصلح الخندق حولها، واشتد حصار المغول لقلعة إربل حتى نقص الماء عندهم فمات منهم الوف كثيرة بالعطش ولم يستطيعوا أن يدفنوهم بالقلعة لضيق المكان فعمدوا إلى إحراقهم بالنار وعاث المغول فى البلد فأسروا وقتلوا ونهبوا وسبوا ولمابلغهم وصول عسكر بغداد رجعوا إلى بلادهم فى ذى الحجة سنة ٦٣٤هـ / اغسطس ١٢٣٧م.[(٢)]

كما أن الخصم الثانى للأمة الإسلامية وهم الصليبيون لم يكونوا أقل خطورة من المغول بل أن عداءهم للإسلام والمسلمين أشد من عداوة المغول فهى عداوة نابعة من عقيدتهم الباطلة قال تعالى:﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾[(٣)] ، فتشاغل ملوك الإسلام فى هذه الفترة بالعداء والبغضاء فيما بينهم وشن الحملات ضد بعضهم البعض مما جعل بعض فلول الصليبيين فى بلاد الشام تتحرك لتغير على بعض المناطق الإسلامية ومن ذلك ماقامت به الداوية[(٤)] التى تحتل

---

(١) ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٥٤، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٦٩٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٩٦، أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ص ١٦٥، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤،ص ٨٥، الديار بكرى، تاريخ الخميس، ج٢، ص ٣٧١.

(٢) ابن الفوطى، المصدر السابق، ص ٥٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٥٦،الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٢.

(٣) سورة البقرة، آية ١٢٠.

(٤) الداوية: هى طائفة فرسان الهيكل، وتختلف عن الاستبارية فى كونها نشأت أصلاً على أساس حربى سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، واتخذت هذه المنظمة العسكرية من ساحة المسجد الاقصى مقراً لها، وتعهد اتباعها بحماية الطريق بين يافا وبين المقدس، ثم أسهم فرسان الداوية فى جميع الأعمال العدائية التى قام بها الصليبيون فى بلاد

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

بغراس من الهجوم على العمق بعد وفاة الملك العزيز صـاحب حلب سـنة ٦٣٤هـ وأخذوا معهم أغناماً ومواشي كثيرة للتركمان ولغيرهم.(١)

لم تسكت مملكة حلب على ماقام به الداوية فى العمق فأعدوا العدة وسيروا لهم عسكر حلب وجعلوا قيادته بيد الملك المعظم فخـر الديـن تورنشاه بـن صـلاح الديـن، فسار هذا الجيش حتى نازل بغراس وضرب الحصار حوله وتم ضـرب سـوره بـالمنجنيق واشتد الكرب على الداوية بعد أن نفدت ذخـائرهم وأشـرف الحصـن أن يقـع فـى ايدى الحلبيين لولا تدخل الابرنس صاحب انطاكية الذي شفع فيهم فرأى قائد العسكر الحلبى المصلحة فى إجابته إلى ذلك وتم عقد الهدنة مع الداوية على بغراس ورحلوا عنه بعـد أن أوشك على السقوط فى أيديهم.(٢)

لم تستمر هذه الهدنة فترة طويلة نظراً لمـا عـرف بـه الصليبيـون مـن غـدر وخيانـة ونقض للعهود والمواثيق، فعندما سار العسكر الحلبى عن بغراس ونزلـوا بالقـــرب مـن دربســـاك(٣) ، جمعت الداوية قواتها وطلبوا النجدة من صاحب جبيل(٤) وغـيره مـن الفرنج وســاروا من ناحية حجر شـغلان(٥) إلى دربسـاك ليباغتوا أهلـه ويـنزلوا بهـم بأسـهم الشـديد، وكشـفت تحركـاتهم لأهـل الدربسـاك فاسـتعدوا للدفـاع عـن أنفسـهم

---

الشام واصبحت الداوية تابعة للبابوية مباشرة شأنها فى ذلك شأن الاسبتارية وشكلت مع الاسبتارية أقوى دعامتين للوجود الصليبي فى بلاد الشام، انظر على عوده، بلاد الشام، قبيل الغزو المغولى،ص٢١٧،حاشية ٣.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٣٢، ابن العديم، زبدة الحلـب، ج٣، ص ٢٣٠، وبغـراس: مدينة فى لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب فى البلاد المطلة على نواحى طرسوس، والعمق: كورة بنواحى حلب بالشام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن واصل، المصدر السـابق، ج٥، ص ١٣٢، ابـن العديـم، المصـدر السـابق، ج٣، ص ٢٣٠-٢٣١، أبوالفـدا، المختصـر، ج٣، ص ١٥٩، ابـن الـوردى تـاريخ ابـن الـوردى، ج٢، ص ٢٣٦-٢٣٧، الخطيـب العمري، الدرر المكنون، حوادث سنة ٦٣٤هـ.على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٧٣

(٣) دربساك: من أعمال حلب وهى قلعة مرتفعة لها بساتين وشرقها مروج واسعة، انظر أبوالفدا، تقويم البلدان.

(٤) جبيل: بلد مشهور فى شرقى بيروت على ثمانية فرسخ منها، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) حجر شغلان: حصن فى جبل اللكام قرب أنطاكية وهو للداوية من الفرنج، انظر ياقوت، معجم البلدان.

ووصل إليهم الفرنج فقاتلوهم قتالاَشديداً وحموا الربض منهم. وصل خبر هذه الغارة العسكر الحلبى النازل بالقرب منهم، فساروا لنجدة اخوانهم المسلمين، وعند وصولهم وجدوا الفرنج قد تعبوا وكلت خيلهم فأوقعوا بهم وأنزلوا بهم شر هزيمة حيث قتل منهم خلق كثير، وأسروا جماعة كبيرة من فرسانهم وجنودهم ولم ينج منهم إلا القليل " وكان هذا الفتح من الفتوح الجليلة المشهورة".[١]

لقد كان هذا العمل الذى قامت به مملكة حلب عملاً مشرفاً يبين للفرنج أن الأمة الإسلامية مهما حدث لها فانها لن تموت ولن تتخلى عن الدفاع عن أراضيها ومقدساتها ونصرة المسلمين هذا العمل كان من قبل مملكة واحدة من الممالك الإسلامية الموجودة فى تلك الفترة، فكيف لو اجتمعت هذه الممالك تحت قيادة واحدة وهدف واحد ورأى واحد هل يمكن أن يكون للصليبيين وجود فى بلاد الشام؟ وهل يمكن للمغول الذين عاثوا فى بلاد المسلمين الفساد أن يجرؤ على الغارة على البلدان الإسلامية ؟.

للأسف الشديد فإن هذا الأمر لم يكن يطرأ على بال أحد من الملوك إلا فى سبيل توسيع مملكته على حساب الممالك الأخرى واتخاذ كافة الاستعدادات العسكرية من أجل ذلك، ولعل ذلك يتضح فيما حصل من حوادث بعد وفاة الأشرف فقد كانت وفاته إيذاناً بفتح مرحلة أخرى من تاريخ بنى أيوب أشد قلقاً واضطراباً من المرحلة السابقة وهى مايسميها بعض المؤرخين بمرحلة الحرب الأهلية التى استنزفت كثير من طاقات الأمة وقدراتها المادية والبشرية وفتحت المجال أمام القوى المعادية للإستفادة من هذا الصراع.[٢]

وعلى اية حال فبعد وفاة الأشرف سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م استولى أخوه الصالح

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٣٢-١٣٣، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٣١، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٥٩، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٣٧، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٤هـ، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢) على عوده، المرجع السابق، ص ١٤٧.

عماد الدين إسماعيل على دمشق وبعلبك وجميع الأعمال التابعة لدمشق، كما أرسل ابنه نور الدين محمود إلى الشرق ليتسلم من نواب الأشرف، سنجار ونصيبين والخابور ولخوفه الشديد من أخيه الكامل أرسل إلى ملوك الشام يطلب منهم تجديد الحلف السابق الذى قرره الملك الأشرف، فأجابه المجاهد صاحب حمص والحلبيون وامتنع المظفر صاحب حماة وأبدى ميله إلى خاله الملك الكامل[١] ، وحاول المظفر أن يجد له مبرراً لعمله ذلك فأرسل إلى المجاهد صاحب حمص يقول:" أنى لاأجيب إلا بشرط أن تعطينى سلمية وقلعة شميمش"[٢] وهو يعلم أنه لن يتخلى عنها، ثم أرسل إلى خاله السلطان الكامل يعلمه بانتمائه إليه وأنه لم يلجأ إلى موافقة ملوك الشام إلا خوفاً منهم على مملكته، وقبل الكامل عذره ووعده أن يأخذ له سلمية وقلعتها من صاحب حمص وحلف له على ذلك.

حاول الحلبيون أن يتداركو الأمر فأرسلوا وفداً بزعامة المؤرخ كمال الدين بن العديم إلى حمص وحماة للتوفيق بين المجاهد والمظفر واقناع المظفر بعدم الخروج على حلفهم السابق ولكن المظفر اشتط فى مطالبه وفشلت جهود الحلبيين فى ذلك.[٣]

تواترت الأخبار بخروج السلطان الكامل من مصر إلى الشام فأخذ الملك الصالح إسماعيل فى تهيئة اسباب الحصار فحصن المدينة وزودها بما تحتاج إليه من السلاح والرجال ووزع الأبراج على الأمراء وخرج من عنده المجاهد صاحب حمص عائداً إلى بلده بعد أن تعهد بإرسال الأموال والعساكر إلى دمشق، كما خرج عز الدين ايبك المعظمى إلى صرخد لتدبير شؤن بلدته ثم يعود لمساندة دمشق، ولم يكتف الصالح إسماعيل بذلك بل أرسل رسولاً إلى غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم يطلب منه

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٤٧-١٤٨، ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ١٨٠٨-١٨٠٩، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ٢٥٦، ابو البركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٧.

(٢) قلعة شميمش: هى أحدى بلاد كورة حمص، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٨٢، حاشية ٧.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق،ج٥، ص١٤٧-١٤٨،على عوده،بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٤٨.

مساعدته ضد أخيه الكامل[١] خرج الملك الكامل من مصر ثالث عشر صفر سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م بعد أن استناب ولده العادل بمصر واصطحب معه الناصر داود "وهو لايشك أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان تقرر بينهما" وقبل أن يصلا إلى دمشق كاتب الناصر داود نائب الأشرف بقلعة عجلون على أن يسلمه القلعة مقابل مال يدفعه إليه، فوافق على ذلك وتسلمها نواب الناصر داود، ولم ينكر الملك الكامل على الناصر داود هذا التصرف مخافة أن ينشق عنه وينضم لجماعة الصالح إسماعيل فيصعب عليه بعد ذلك السيطرة على دمشق ومن ثم الهيمنة على بلاد الشام.[٢]

وما إن علم الصالح إسماعيل بنزول أخيه الملك الكامل في غزة[٣] حتى جد في تحصين البلد وقطع الجسور وعمل الستائر وأمر بأن لايبقى أحد من العسكر خارج دمشق كما أصدر أوامره بأخذ دور كل من عرف بميله إلى الكامل وأن لايبقى أحد بالعقيبة ومقر حجاج[٤] وتهددهم بالنهب إن لم ينصاعوا لأوامره فتأذى الناس من ذلك، وأمر باقامة السدود وحفر الخنادق لتكون حائلاً دون تقدم قوات الكامل إلى البلد ثم فرق السلاح ورتب العساكر والأمراء على الأسوار وقبيل وصول القوات المصرية إلى دمشق وصلت إليها نجدة حمص وحلب بقيادة ناصح الدين الفارسي كما وصل إليها عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد الذى لم يستطع الوصول إلى المدينة إلا بشق

---

(١) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٥-٢٣٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ١٤٨.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٥١، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٥٦، أبوالفدا، المختصر ، ج٣، ص ١٦٠، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٧، على عوده، المرجع السابق، ص١٤٨-١٤٩.

(٣) غزة: مدينة فى أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهى من نواحى فلسطين غربى عسقلان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) العقبة، أو العقيبة: من أحياء دمشق المعروفة اليوم. انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص١٥٠، حاشية ١. وقصر حجاج: أيضا من أحياء دمشق الواقعة خارج الأسوار. انظر ياقوت، معجم البلدان.

الأنفس نظراً لشدة الزحام في المدينة.[١]

سار السلطان الكامل ومعه ابن أخيه الناصر داود من غزة إلى دمشق في ٢٠ ربيع الاول سنة ٦٣٥هـ /ديسمبر ١٢٣٧م وضربا الحصار حول دمشق، وعمل الكامل له يزكاً عند مسجد القدم، وكان الصالح إسماعيل حريصاً على أن لايستفيد جيش الكامل من الأحياء الخارجة عن دمشق فعمد إلى إحراق الخانات والطواحين ونهب الدور وأخربها فتضجر الناس من ذلك وأيقنوا بالهلاك فلاذوا بالدخول إلى دمشق التى اكتظت بهم فاثر ذلك على تنقلات العسكر داخل المدينة.[٢]

كان عسكر دمشق يخرجون إلى العسكر المصرى ويقاتلونهم في حرب أشبه بحرب العصابات فكان أول خروجهم إلى ميدان الحصن حيث تقابلوا مع عسكر الكامل ولم يسفر ذلك عن انتصار أحد منهم فرجع عسكر دمشق إلى داخل المدينة، وأرسل الصالح إسماعيل إلى المجاهد يطلب منه القدوم لمساندته ضد الكامل فاعتذر المجاهد عن ذلك لأنه كان يخشى على بلاده من صاحب حماة الذى يترقب الفرصة المناسبة للإنتقام منه ومع ذلك سير إليه نجدة تقدر بحوالى مائتى رجل، تمكن عسكر الكامل من القبض على مايقرب من خمسين رجلاً من افرادها وأمر الكامل بشنقهم في البساتين نكاية بصاحب حمص،ووصل بعض افراد هذه النجدة إلى دمشق وهم في غاية التعب.[٣]

واستمر القتال بين الطرفين خارج دمشق وكل منهم يسعى إلى خراب الدور والخانات والجواسق[٤] والقنى وقطع الاشجار " وصار كل من له غرض مع أحد

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٣٦، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٨.

(٢) ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٦، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص٢٥٧.

(٣) ابن واصل، التاريخ الصالحي، ورقة ٢٣٦، الأصفهانى، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٣٥هـ، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٤) الجواسق: جمع جوسق وهو لفظ فارسى معناه القصر، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٤، ص ٩٤، حاشية ٢.

وهو غائب خرج إلى داره فأخربها وربما أحرقها " وبعد أيام ضرب البوق فخرج عسكر دمشق إلى قصر حجاج حيث التقوا مع عسكر الكامل فكان النصر للدمشقين وأسروا خمسة عشر فارساً وعادوا بهم إلى دمشق. واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين فانزعج الناصر داود من ذلك وأراد أن تسقط المدينة في أسرع وقت حتى يعود إليه ملك أبيه فزحف في جمادى الأولى سنة٦٣٥هـ/١٢٣٨م من العقبة إلى باب الفراديس كما زحف ركن الدين الهيجارى من جهة باب توما ووصلا إلى قرب الباب حيث كانت سهامهم تصل إلى داخل المدينة واشتد القتال وكادت تسقط دمشق في يد الناصر داود إلا أن عمه الكامل عندما شعر بذلك أرسل إليه أن يكف عن القتال حتى لاتقع في يده فيكون بذلك صاحب حق فيها ومن هنا تظهر سوء نية الملك الكامل تجاه ابن أخيه الناصر داود.[١]

وفي صباح اليوم التالي لمحاولة الناصر داود خرج الصالح إسماعيل " بالحجارين والزراقين والخراشفة [٢] فحرقوا ونهبوا وخربوا ودمروا العقيبة وقصر الحجاج والشاغور[٣] وباب توما وباب السلامة" فذعر سكان دمشق وازداد خوفهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وارتفعت الأسعار فاصبح الانسان يشترى غرارة القمح بخمسة عشر درهماً ويطحنها بثلاثين درهماً وخاف الصالح إسماعيل نتيجة لذلك أن يتعاون الأهالي مع السلطان الكامل فتسقط المدينة عنوة في يده، لذلك أرسل إلى أخيه الكامل يقول له " متى فتحتها عنوة وقهراً رميت النار في أربع جوانبها فأحرقتها جميعاً

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٥١، الاصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن واصل، التاريخ الصالحي، ورقة ٢٣٦، أبوالبركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣١٨،الذهبي، المختار من تاريخ بن الجزرى، ص١٦٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٥٠.

(٢) الزراقين: جمع زراق وهو رامي النفط من الزراقة، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ٥، ص ٢١، حاشية ١٠.

(٣) الشاغور: محلة بباب الصغير ظاهر مدينة دمشق، انظر الذهبي ، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٨، حاشية ١٥.

ولالى ولالك " وكان الكامل يدرك حقيقة هذا التهديد من أخيه الصالح إسماعيل فقبل الجميع وساطة رسول الخليفة في الصلح[١] بينهما على أن يعطى الصالح إسماعيل بعلبك واعمالها إضافة إلى مابيده من بصرى واعمالها، وتسلم الكامل دمشق في جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ /٢٦يناير ١٢٣٨م.[٢]

وبعد أن استقر الكامل بقلعة دمشق أخذ الناصر داود ينتظر الوقت الذى يسلم إليه عمه الكامل مدينة دمشق إلا أن عمه الكامل أخذ يماطل ويسوف فى ذلك ولما احرج امام ابن أخيه أراد أن يبعده ولولفترة مؤقتة عن دمشق حتى يتفرغ للسيطرة على بلاد الشام ووجد الفرصة مواتية عندما جاء رسول الخليفة يطلب من الكامل تجهيز العساكر إليه ليتمكنوا من صد المغول عن بغداد، فبادر باعداد قوة تقدر بحوالى عشرة الآف مقاتل جعل قيادتها للناصر داود إلا أن هذه الحملة لم يقدر لها أن تسير بسبب وفاة الملك الكامل بعد شهرين من دخوله دمشق فى يوم الاربعاء ٢١رجب سنة٦٣٥هـ/١٠مارس ١٢٣٨م.[٣] ومن ثم تغيرت موازين الأحداث بعد وفاته فقد إزدادت أطماع بعض ملوك بنى أيوب في السيطرة على دمشق وأمن البعض الاخر على بلاده واستغل الخوارزميون الفرصة للحصول على أكبر قدر من المكاسب المادية.

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧١٧، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٢٥، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٧، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥، الذهبى،المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٨-١٦٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٥٠.

(٢) الاصفهانى، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن واصل، المصدر السابق، ورقة ٢٣٧، المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ٢٥٧، ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ١٨٠٩، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٠، ابن واصل مفرج الكروب، ج٥، ص ١٥٢، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٨، على عوده، المرجع السابق، ص١٥٠.

(٣) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق١، ص ٢٥٧-٢٥٨، ابن العميد، أخبار الأيوبيين،ص ٢١، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ٣٢٦-٣٢٧، يوسف حسن غوانمه، امارة الكرك، ص ٢٤٦-٢٤٧، على عوده، المرجع السابق، ص٣١٣.

# هجوم الخوارزميين على مملكة حمص

# (٦٣٦هـ-١٢٣٩م)

سبق أن اشرنا إلى مسير الكامل إلى الشرق لفتح آمد، وأنه اصطحب معه فى حملته هذه ولده الصالح أيوب ليكون نائبه هناك وولى عهده فيها ولم يكن عمله ذلك إلا مجرد صورة فقد كان الحاكم الفعلى من قبل الكامل على بلاده فى الشرق هو شمس الدين صواب العادلى، ولم يكن الصالح أيوب يتصرف فى شيء من الأمور إلا بعد الرجوع إليه ولم تطل فترة حكمه حيث توفى سنة ٦٣٤هـ، فعهد الكامل بادارة الحكم فى البلاد الشرقية إلى ابنه الصالح وسلم إليه حصن كيفا، فاصبح الصالح يحكم آمد وبلادها وحران والرقة والرها وسروج ورأس عين ومايتبعها من البلاد.[١]

حينئذ أراد الصالح أيوب أن يقوى عسكره ليحمى بلاده من أي طارق يطرقها، ووجد الفرصة مواتية له عند خروج الخوارزمية من اسيا الصغرى[٢] فبعد وفاة السلطان كيقباذ سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م تولى الحكم بعده ابنه غياث الدين كيخسرو الثاني الذى خشي من تمرد الخوارزمية عليه فبادر بالقبض على قائدهم بركة خان، ولما بلغهم هذا الخبر خرجوا مسرعين من بلاد الروم وكانوا اثناء خروجهم يعيشون فى الارض الفساد فينهبون ويسبون ويقتلون فى كل بلد يد خلونه حتى وصلوا إلى ملطية[٣] ثم عبروا الفرات، ولما وصلوا إلى حدود حصن زياد قابلهم عسكر تلك الأطراف وانكسروا أمامهم بعد أن قتل صاحب حصن زياد[٤] ، ولم يكتفوا بذلك بل أغاروا على

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٣٣-١٣٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٠.

(٢) ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٨٣.

(٣) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهى للمسلمين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) حصن زياد: بأرض ارمينية ويعرف بخرتبرت وهو بين آمد وملطيه، انظر ياقوت، معجم البلدان.

سميساط[١] ثم ذهبوا إلى سويرك حيث استقر بهم المقام هناك، واتخذوا منها قاعدة للاغارة على الضواحى القريبة منهم.[٢]

فأرسل إليهم الصالح أيوب يستميلهم اليه، وكتب إلى والده الملك الكامل يستأذنه فى استخدامهم فى جيشه، فأذن له فى ضمهم إلى جيشه، واستجاب له الخوارزمية وأعطاهم مجموعة من الإقطاعات فى الجزيرة حتى يضمن ولاءهم له، وتقوى الصالح أيوب بانضمامهم إليه ولحق بهم بعد فترة وجيزة زعيمهم بركة خان الذى تمكن من التخلص من غياث الدين كيخسرو الثاني.[٣]

ومن تلك اللحظة تبدأ مرحلة جديدة للخوارزميين بالمشاركة فى الصراع الدائر في بلاد الشام بين ملوك بنى أيوب إذا كان لهم دور كبير فى تغيير موازين القوى وكانوا على استعداد للانضمام إلى أي قوى تمنحهم أكبر قدر من المال والإقطاعات الجزيلة فلم تكن لهم اهداف سامية يسعون إلى تحقيقها، وإنما كان جل اهتمامهم السعى من أجل الحصول على مايعيشون به، وهذا الأمر لايتنافى مع ماقاموا به من دور فعال فى استرداد بيت المقدس سنة٦٤٢هـ/١٢٤٤م وهزيمة الصليبيين والتى سيأتى الحديث عنها فيما بعد.

ومن الواضح أن وفاة الأشرف كانت إيذاناً بفتح مرحلة اخرى من تاريخ بنى أيوب أشد قلقاً واضطراباً من المرحلة السابقة وهى مايصح لنا أن نطلق عليها فترة

---

(١) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات فى طرف بلاد الروم على غربى الفرات، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١، ق١، ص ٢٥٥، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٨٣، مختصر الدول، ص ٤٣٧-٤٣٨، ويذكر ابن العبرى أن الملك الناصر صاحب حلب خاف من الخوارزمية على بلاده فبادر باقطاعهم مابين النهرين الرها وحران وذكر انهم كفوا عن الفساد والغارات.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٣٥، أبوالفدا، المختصر،ج٣، ص١٥٣، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢٣٢، الخطيب العمري، الدر المكنون،ق٢٥١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٩٧-٢٩٨، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٧، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٥٥، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٣٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص١٥٦.

الحروب الأهلية التى استنزفت كثيرا من طاقات الأمة وقدراتها المادية والبشرية وبذلك فتحت الفرصة أمام الخوازرمين للمشاركة فى هذه الحروب لتحقيق مصالحهم الشخصية.(١)

وكان أول عمل شارك فيه الخوارزمية والصالح أيوب فى هذه الفترة هو المسير معه إلى سنجار حيث أمره والده وكان محاصراً لدمشق بالتوجة إليها وضمها إلى مملكته، فسار الصالح أيوب بقواته الخوارزمية إلى سنجار فحاصرها وضيق الخناق عليها حتى اضطر ابن عمه المنصور بن الصالح إسماعيل إلا أن يسلمها بالاحسان، فتسلمها الصالح مع مايتبعها من البلاد.(٢)

كانت حمص من ممالك الشام التى كان الكامل يسعى للسيطرة عليها بعد دمشق إذ أن صاحبها المجاهد كان من أبرز الداعين إلى التصدى لاطماع الكامل التوسعية فى بلاد الشام.

لذلك سير اثناء حصاره لدمشق توقيعاً إلى المظفر صاحب حماه بسلمية، فسار إليها المظفر وتسلمها، كما أرسل فى نفس الوقت إلى ابنه الصالح أيوب بأن يتوجه من سنجار إلى حمص، فسار الصالح أيوب بقواته من الخوارزمية إلى الرحبة(٣) وهى للمجاهد فحاصرها وضيق الخناق عليها وبعد سقوط دمشق أمر السلطان الكامل قواته بالتوجه إلى حمص وبعث فى نفس الوقت إلى المظفر صاحب حماة يأمره بالتوجه إلى حمص، فسار بقواته ونزل فى الرستين(٤) "واسقط أثناء ذلك فى يد المجاهد وخاف من الملك الكامل، وبعث يتضرع إلى الملك

---

(١) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٤٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٥٣، عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٧٣.

(٣) الرحبة: قرية من قرى دمشق، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) الرستين: بليدة قديمة فى نصف الطريق بين حماة وحمص، انظر ياقوت، معجم البلدان.

ويخضع له، فلم يلتفت إليه وأصر على قصده".[١]

أيقن صاحب حمص بالهلاك وكان يتوقع وصول قوات الكامل إليه فى كل لحظة وبينما هو فى كربه وخوفه جاءه اليسر بعد العسر إذ وصل إليه الخبر بوفاة الكامل[٢] فطار فرحاً وسروراً بهذا الخبر وأنه لن يجد بعد ذلك صعوبة فى المحافظة على مملكته، ومن شدة فرحه قال لأولاده : " شدوا لى على خيل الكرة لأنزل إلى الميدان والعب بالصوالجة" فاستغرب بنوه من فعله إذ لم يطلعهم على الخبر فقالو له: " فى مثل هذا الوقت الصعب تفعل هذا" فرفع صوته وقال" مات الكامل".[٣]

ومن الممالك الأخرى التى كانت على خوف شديد من الكامل بعد سيطرته على دمشق مملكة حلب فقد كانت نجدة حلب موجودة داخل دمشق للدفاع عنها مع الصالح إسماعيل إلا أن الكامل لم يتعرض لهم فرجعوا سالمين إلى حلب ومع ذلك لم تطمئن الصاحبة جدة الملك الناصر لذلك فقامت بإتخاذ الإجراءات اللازمة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٧٨،١٥٢-١٥٣، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٧، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣١٨، ابوالفدا، المختصر ، ج٣، ص ١٦٠-١٦١، الاصفهانى، البستان لجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ .

(٢) الملك الكامل ابن العادل ملكاً مهاباً حازماً شجاعاً أديباً محباً للعلم والعلماء ويحضر مجلسة الفقهاء كل ليلة ويتحدث معهم ويشاركهم فى فنونهم، وكان كثير السياسة حسن التدبير غير أنه كان يحب جمع المال ويجتهد فى تحصيله وكان يحضر أرباب لدواوين أمامه ويحاسبهم بنفسه، انظر ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٣٨، عبدالباسط الملطى، نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين، ص٥٨.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق،ج٥،ص١٧٦، الخطيب العمري، الدر المكنون،ص٢٥٢، أبو الفداء، المصدر السابق، ج٣،ص١٦١-١٦٢، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢،ص٢٣٨، أبو البركات الحنبلي، المصدر السابق،ص٣١٩.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٨٠، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٣٥.

للحفاظ على هذه المملكة من ذلك أنها احضرت أمراء حلب وعلى رأسهم المعظم تورانشاه بن صلاح الدين وكذلك القواد والرؤساء واستحلفتهم بأن لايخرجوا على الملك الناصر وينضموا للكامل وأن يشاركوا فى الدفاع عن حلب ضد عسكر الكامل.[(١)]

ثم استعدت للحصار المرتقب فحشدت حلب بالذخائر والعتاد والاقوات وكل مستلزمات الحصار ولم تكتف بذلك بل سعت إلى الإستعانة بجماعة من الخوازمية الفارين من بلاد الروم كما استخدم قنغر التركمانى ومن فر من عسكر الملك الكامل.، وأرسلت إلى غياث الدين كيخسروا الثاني تطلب منه النجدة فارسل إليها مجموعة من أجود عساكره ولحرص غياث الدين على مملكة حلب أرسل إلى الملك الكامل يحذره من قصد حلب[(٢)]، وسرعان ماتغيرت الأمور فى كل من حمص وحلب عندما سمعوا بوفاة الملك الكامل وبدأو يستعدون للانتقام من صاحب حماه الذى كان مقيماً بالرستين ينتظر وصول خاله الكامل ليحاصر معه حمص، فأرسل المجاهد عسكره فأخذوها وطردوا عسكر المظفر منها ثم قطع القناة التى يصل الماء منها إلى حماة فخربت كثير من بساتينها ولم يكتف بذلك بل عزم على قطع نهر العاصى عن حماة حتى تخرب بساتينها فيسهل عليه بعد ذلك أخذها، فسد النهر وانقطع الماء عن حماه لمدة يومين مما اثر على الحياة داخل المدينة، إلا أن الماء عاد إليها بعد أن انهدم السد الذى اقامه المجاهد ولما فشلت خطته تلك أخذ يغير على مملكة حماه ويدمر وينهب ويفسد فى ضواحيها.[(٣)]

---

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٨٠-١٨١، ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٥-٢٣٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٦.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق،ج٥،ص١٧٦-١٧٨، التاريخ الصالحى، ورقة٢٣٩، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ،الخطيب العمري، الدر المكنون ،ورقة٢٥٢، أبوالفدا، المختصر،ج٣،١٦٢، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى،ج٢،ص٢٣٨، المقريزى، المصدر السابق،ص١،ق٢،ص٢٩٦.

أما أهل حلب فلم يقفوا مكتوفي الايدى تجاه ماقام بـه المظفر من الانضمام إلى الكامل ضد ممالك الشام بما فيها حلب فأمرت الصاحبة ضيفة خاتون عسكر حلب بالهجوم على مملكة حماه، ورأت أن تكون البداية بالاستيلاء على المعرة[١] وضواحيها ثم التوجه إلى حماه، خرجت العساكر الحلبية بقيادة المعظم فخر الدين توران شاه بن صلاح الدين من حلب ونزلوا المعرة واستولوا عليها ثم حاصروا قلعتها التى بناها المظفر، ولما أدرك صاحب حماه خطورة الموقف أرسل رسولاً إلى خالته ضيفة خاتون يستعطفها إلا أنه لم يؤذن له بمقابلتها فرجع إلى حماه، ونصب الحلبيون المنجنيق على قلعة المعرة وواصلوا قذفها بالحجارة حتى استسلمت سنة٦٣٥هـ /١٢٣٨م.[٢]

ثم سارت القوات الحلبية إلى حماه وضربوا الحصار حولها ونهبوا قراها ومزارعها واستمر الحصار إلى آخر السنة فتضجر الناس من طول الحصار إلا أن الصاحبة أوعزت إليهم بعدم تضييق الخناق على حماه ونهتهم عن استخدام المنجنيق فى الحصار فلم يكن قصدها الإستيلاء عليها وإزالة ملك ابن أختها وإنما كان هدفها معاقبته على معاضدته للكامل وتحذيره من التعرض للمعرة مرة أخرى.[٣]

ولما تحقق للصاحبة مأأرادته أمرت جيش حلب بالانسحاب من حماه فعاد الجيش إلى حلب سنة ٦٣٦هـ /١٢٣٨م وخرجت بذلك المعرة وسلمية لحساب

---

(١) المعرة: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٣٦-٢٣٧، ابن واصل، مفرج الكروب،ج٥، ص ١٨١-١٨٢، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ص ٢٣٩، الاصفهانى، البستان لجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، أبوالفدا، المختصر، ج٣،١٦٢، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٤٠٩-٤١٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٥٥.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٨، ٢٤٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٨٢،١٩١، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ١٣٩، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٩٦، على عوده، المرجع السابق، ص١٥٥-١٥٦.

كل من حلب وحمص ولم يبق بيد المظفر خارج حماه سوى بعرين وكانت بها قلعة حصينة فخشي المظفر أن تقع في يد اعدائه فتكون شوكة في نحره فأمر بهدمها.[(١)]

أما دمشق فقد اضطربت الأمور فيها بعد موت الكامل فكل أمير من بنى أيوب كان يطمع فى أن ينصب حاكماً عليها بما فيهم الناصر داود الذى أحس بقرب الفرج فاجتمع كبار القواد فى المعسكر المصرى لتقرير مصير دمشق، وأول ماقاموا به فى هذا الأجتماع هو تحليف العساكر المصرية والشامية للعادل ابن الملك الكامل فحلفوا جميعهم يوم الخميس ٢٠رجب سنة٦٣٥هـ /١٢٣٨م ولم يتفقوا فى اجتماعهم هذا على من يتولى دمشق نيابة عن العادل[(٢)]، فخرج أحد الامراء إلى الناصر داود وكان مقيماً بدار أسامة فقال له " اخرج المال وفرقه فى مماليك ابيك والعوام معك وتملك البلد ويبقوا فى القلعة محصورين " فلم يفعل الناصر داود شيئاً من ذلك لأنه كان يظن أن الأمور تجرى لصالحه وأنه لايوجد له اي منافس على دمشق كما أن الأمراء على علم بوعد الملك الكامل له بتملك دمشق[(٣)]، فاجتمع، الأمراء مرة أخرى بقلعة دمشق وتشاوروا فيمن ينوب عن العادل فى حكم دمشق فوقع اختيارهم على الجواد لأنهم كانوا يخشون إن حكم الناصر داود دمشق أن يستبد بالأمر كما أن عماد الدين بن شيخ الشيوخ كان يكره الناصر داود لأنه كان يخطئه ويستجهله فى مجلس الكامل، فكان له دور كبير فى تنحية الناصر داود

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٩٨، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٦٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٧٥.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٠٧، المقريزى،المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٦١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٣، الخطيب العمري، الدر المكنون، ص ٢٥٢، عبدالملك العصامى، سمط النجوم العوالى، ج٢، ص١٤.

(٣) سبط ابن الجوزى،المصدر السابق، ج٨، ص ٧٠٧، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان، ج١،ص ١٣٩، الذهبى،المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٣-٣٠٤.

عن حكم دمشق.[(١)]

وبعد إختيار الجواد نائباً عن العادل بدمشق أجمع الأمراء على ضرورة اخراج الناصر داود من دمشق فذهب إليه أحد الأمراء وقال له " وايش قعودك في بلد القوم قم قم " فخرج الناصر داود من داره إلى قصره بالقابون[(٢)] ومر بجوار القلعة فما شك أحد من الناس في حكم الناصر داود للمدينة وعندما تجاوز القلعة ووصل إلى باب الفرج صاحت العامة واعلنوا رفضهم لخروجه وكانوا مائلين إليه ويحبونه ونادوا باسمه ملكاً عليهم إلا أن أحد القادة جاء بعسكره وفرق الناس وضربهم بالدبابيس[(٣)] وخرج الناصر داود خائفاً يترقب القبض عليه فسار إلى القابون وأقام بها عدة أيام ثم مضى إلى عجلون بعد أن عزم أمراء دمشق القبض عليه وتحصن بها.[(٤)]

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٠٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٧٢، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٣٨، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج١،ص١٣٩،الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزري، ص ١٦٩، دول الاسلام، ج٢، ص ١٠٦، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص٢٨٠-٢٨١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٤.

(٢) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل وأحد فى طريق القاصد إلى العراق وسط البساتين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) الدبابيس: مفردها دبوس عبارة عن آلة من حديد في طرفها كتلة صغيرة يحملها الفرسان في السروج تحت أرجلهم لإستخدامها في تهشيم الخوذ المعدنية. انظر عبدالله الغامدي، مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين،ص٦٠، حاشية٦.

(٤) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٠٧-٧٠٨، اليونينى، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٩، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٢٨، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٠٤، الذهبى ،المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٦٩-١٧٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٠، النعيمى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨١. على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٥٢.

ولقد فوت الناصر داود الفرصة عليه مرة أخرى فلو أنه انفق الأموال على الأمراء والقواد والاعيان لتمكن من السيطرة على دمشق بسهولة ويسر إلا أنه وكما سبق أن أشرنا لايمتلك الحنكة السياسية المطلوبة فى مثل هذه المواقف وعلى العكس من ذلك نجد الجواد يقوم بفتح خزائن الكامل وينفق الأموال على كبار القادة والأمراء فقد قيل أنه " فرق ستة الآف دينار وخلع خمسة الآف خلعه وابطل المكوس والخمور ونفى الخواطى " فثبت بذلك حكمه لمدينة دمشق، وأعلن أنه نائباً عن ابن عمه العادل فانسحبت عساكر الكامل عائدة إلى مصر، وبقى فى دمشق بعض العسكر بقيادة عماد الدين بن شيخ الشيوخ لحماية دمشق من الناصر داود والممالك الأشرفيه الذين كانوا يعدون شوكة قوية بقيادة الأمير عز الدين ايبك الأسمر الأشرفى[1]

خرج الناصر داود بقواته إلى فلسطين للقيام بعمل عسكرى يتمكن فيه من توسيع حدود مملكته ومن ثم التوجه إلى دمشق للسيطرة عليها، فاستولى على غزة والساحل الذى كان بيد الملك الكامل وجند أعداداً كبيرة من المرتزقة وأقام بغزة يترقب تطور الأحداث فى المنطقة [2] فلما سمع بعزم الجواد على الاستبداد بملك دمشق أرسل إلى ابن عمه العادل يطلب منه أن يعطيه دمشق ليكون نائباً عنه بها،

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨،ص٧٠٧-٧٠٨، ابن واصل مفرج الكروب،ج٥،ص١٧٣-١٧٥، المقريزي، السلوك،ج١،ق٢،ص٢٧٣، ابن كثير البداية والنهاية،ج١٣،ص١٦١، الذهبي المختار من تاريخ ابن الجزري،ص١٧٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص١٧٥،١٩٢، سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٨، ص٧٠٧-٧٠٨، الأصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٠٥، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١،ص١٤٠.

فلم يستجب العادل فأرسل إليه مرة أخرى يقول له " إن اباك السلطان الملك الكامل التزم لى أنه يعيد مملكة والدى، وأنا قد وليت على البلاد الساحلية لأنها من جملتها، فتساعدنى على تسليم دمشق وباقى البلاد، وأكون من قبلك وفى طاعتك كما كنت مع ابيك، واستمرت المراسلات بينهما فى هذا المعنى ولم يتحقق طلب الناصر داود.[١]

وما إن سمع الجواد باستيلاء الناصر داود على غزة والساحل حتى بادر بتجهيز العساكر للقضاء عليه قبل أن يتسع ملكه ويبقى حكمه لدمشق مهدداً بالخطر، فخرج بمن بقى من عساكر مصر بقيادة عماد الدين بن شيخ الشيوخ وعساكر دمشق والمماليك الأشرفية واتجه نحو فلسطين لملاقاة الناصر داود وقال للأشرفية " كاتبوه وطمعوه " ليستدرجه فكاتبوه فانخدع بهذه الحيلة المدبرة من قبل الجواد فسار من غزة إلى نابلس فى سبعمائة فارس بامتعته وخزائنه وأمواله وجميع مدخراته وكانت تحمل على سبعمائة جمل وترك معظم عساكره خلفه ليلحقوا به فيما بعد، واقام له دهليزاً على صبصطية [٢] والجواد على حسبين[٣] ثم تقابل الطرفان فى معركة من جانب واحد انتصر فيها الجواد على الناصر داود فى مكان يسمى بظهر حمار[٤] بين نابلس وجنين، وتمكن الناصر داود من الفرار من أرض المعركة ووقعت أمواله وخزائنه غنيمة سائغة للجواد وعسكره وكانت هذه الواقعة بالنسبة للناصر داود مثل القشة التى قصمت ظهر البعير، فقد أدت إلى فقره حيث فقد جميع مايملكه من مال ومتاع وبالتالى سيتخلى عنه

---

(١) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٧٥، التاريخ الصالحى،ورقة ٢٣٩، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٢٦٩.

(٢) صبصطية: يقال لها سبطية بلدة من نواحى فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان بها قبر زكريا ويحيى عليهما السلام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) حسبين: لم اقع لها على ترجمة في المعاجم المتوفرة.

(٤) ظهر حمار: قرية بين نابلس وبيسان بها قبر بنيامين أخى يوسف الصديق، انظر ياقوت، معجم البلدان.

كل من استخدم من العساكر.[١]

لم يقف الخوارزمية من هذه الحوادث التي جرت بين ملوك بنى أيوب بعد وفاة الكامل موقف المتفرج بل حاولوا أن يستثمروها لتحقيق مصالحهم الشخصية، فخرجوا عن طاعة الصالح أيوب وطمعوا فيه وهموا بالقبض عليه، فسارع بالإعتصام بسنجار تاركاً خلفه أمواله واشغاله فوقعت بايدى الخوارزمية وتحكموا فى البلاد الجزرية[٢] ، وأدى ذلك إلى طمع غياث الدين كيخسرو الثاني فى أملاك الصالح أيوب وقسم مملكته على الملوك فأعطى صاحب حلب الناصر صلاح الدين الرها وسروج واعطى المنصور ناصر الدين الأرتقى صاحب ماردين سنجار ونصيبين واعطى المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص عانة[٣] وبعض بلاد الخابور أما هو فقد عزم أن يكون من نصيبه أمد وسميساط.[٤]

ولما سمع صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ بما يجرى حوله طمع فى مملكة الصالح أيوب فسار بعساكره إلى سنجار فى ذى القعدة سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب، ج٥،ص١٩٢-١٩٣، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج٨،ص٧٠٨؛ الأصفهاني، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن العميد، أخبار الأيوبيين،ص٢٣، ابن كثير البداية والنهاية، ج١٣،ص١٦١، اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج١،ص١٤٠، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦،ص٣٠٥.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٧٨-١٧٩؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤١-٢٤٢، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٦٩-٢٧٠، اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص ٨٦-٨٧؛ الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص ١٠٥، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٧.

(٣) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد فى أعمال الجزيرة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٨٥-١٨٦، المقريزى،المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٦٩-٢٧٠.

وشدد الحصار عليها وكان يزعم أنه سوف يأخذه فى قفص من حديد إلى بغداد لظلمه وتكبره وتجبره على الناس، وعندما اوشكت أن تسقط سنجار فى يد بدر الدين لؤلؤ، أرسل الصالح أيوب قاضى سنجار بدر الدين يوسف بن الحسن الزرزارى إلى الخوارزمية بعد أن حلق لحيتة ودلاه من السور، فسار القاضى خفية إلى أن وصل إلى الخوارزمية واجتمع بهم وطلب منهم نصرة الصالح أيوب مقابل أعطيات وأموال كثيرة يتعهد بانفاذها إليهم[١] وكانوا قد اتفقوا من قبل مع صاحب ماردين على دخول مملكة الصالح أيوب واستولوا على بعض القرى ووصلت غاراتهم إلى حران[٢] ولعله يتضح لنا من خلال ماتقدم ذكره أن الخوارزمية لم يكونوا يعرفون الإخلاص فى الطاعة والولاء وإنما كان إخلاصهم وولاهم لمن يدفع أكثر[٣].وهذا الأمر ليس غريباً منهم فلقد صاروا بعد تفرقهم في بلاد الجزيرة وآسيا الصغرى مجرد حفنة من الجنود المرتزقة.

خاف المغيث فتح الدين عمر بن الصالح أيوب من سيطرة الخوارزمية على حران فهرب منها متخفياً إلا أنهم تبعوه وكادوا يقبضون عليه فنجا منهم مع شرذمة قليلة من اتباعه، وسار إلى منبج فاستجار بعمة أبيه الصاحبة ضيفة خاتون جدة الناصر صاحب حلب فلم تجره وردته رداً جميلاً وقالت لرسوله " نخاف أن

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٧١، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٣١، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ٨٧، الأصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، أبوالفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص ١٦٢.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٧١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٨٧، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٢.

(٣) على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٣٣٨.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٢، ابن واصل، مفرج الكروب،ج٥، ص ١٨٧-١٨٨، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٧١.

يطلبك منا غياث الدين سلطان الروم ولايمكننا منعك منه".[(١)]

فرجع إلى حران ووصله كتاب أبيه الصالح أيوب يأمره بالذهاب إلى الخوارزمية وموافقتهم على جميع مايطلبونه ثم يسير بهم إليه ليرفع عنه الحصار، ذهب المغيث عمر إلى الخوارزمية واجتمع بهم مع قاضى سنجار الذى تعهد لهم باقطاعات جزيلة فى البلاد الجزرية بما فيها حران والرها فوافقوا على ذلك وحلفوا على نصرة الصالح أيوب، سارت القوات الخوارزمية بقيادة حسام الدين بركة خان مع المغيث عمر وقاضى سنجار قاصدين فك الحصار عن الصالح أيوب ولمابلغ بدر الدين لؤلؤ وعسكره قرب القوات الخوارزمية منهم تركوا الحصار وكروا عائدين إلى بلادهم ولحقت بهم الخوارزمية وكسروهم كسرة عظيمة، فهرب بدر الدين لؤلؤ وعسكره إلى الموصل ووقعت أمواله واثقاله بيد الخوارزمية "وقوى الملك الصالح نجم الدين أيوب بهم وبهذا الفتح قوة عظيمة وعظم شأنة".[(٢)]

وبعد هذا النصر سير الصالح أيوب قواته من الخوارزمية إلى آمد المحاصرة من قبل قوات صاحب الروم غياث الدين كيخسرو وكان بها ابنه المعظم توران شاه فوصلت الخوارزمية وكسروا بعض عسكر الروم وهرب الباقون عائدين إلى بلادهم دون تحقيق غرضهم.[(٣)]

ولكى يضمن الصالح أيوب ولاءهم له وعدم التخلى عنه فى ساعة العسر سلم إليهم ماوقع الإتفاق عليه فاعطاهم حران والرها وزوج زعيمهم بركة خان بأخته

---

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٨٨-١٨٩،وانظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٤٢-٢٤٣، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٢٧١، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ص٢٤٠، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٥هـ، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧،ص ٣٣١، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٨، ابن العميد، أخبار الأيوبيين،ص ٢٧، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٢.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ١٩٠، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٧١-٢٧٢، ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٤٣.

لأمه، وبدأ الصالح أيوب يترقب الأحداث في مصر والشام علـه يستطيع بجنوده الخوارزمية أن يستأثر بحكم مصر والشام لأنه يرى أنه أحق من أخيه العادل باعتباره أكبر سناً منه[١]، وفعلاً تطورت الأمور لصالح الصالح أيوب، فالناصر داود منى بهزيمة مؤلمة وخسارة فادحة والجواد يتمرد شيئاً فشيئاً من التبعية للعادل فبذل الأموال وألزم خطيب دمشق يذكر اسمه بعد اسم العادل[٢]، فتوجس العادل خيفة من ذلك وأرسل إلى أبناء شيخ الشيوخ الأربعة وهم فخر الدين وعماد الدين وكمال الدين ومعين الدين وقال لهم : " أنتم ضيعتم على ملك دمشق، فإن أبى الملك الكامل فتحها وتوفى وهو مالكها، فسلمتم دمشق وخزائن أبى إلى الملك الجواد، فتغلب على دمشق وضيع الخزائن، وما أعرف عود دمشق لىّ وانتزاعها من يد الملك الجواد إلا منكم " فما كان من عماد الدين بن شيخ الشيوخ إلا أن استجاب لذلك وتعهد بارجاع دمشق إلى العادل لأنه هو المسئول الأول فى اختيار الجواد ليكون نائباً على دمشق نيابة عن العادل.[٣]

سار عماد الدين بن شيخ الشيوخ إلى دمشق واستقبله الجواد وأنزله بالقلعة، فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق إلى العادل وحذره من العصيان لأن ذلك سيؤدى إلى تحرك عسكر مصر نحوه فتنتزع منه دمشق بالقوة وتقبض عليه وتقتله، وعرض عليه أن هو استجاب لهم وسلم دمشق أن يعطى اقطاعات جيدة فى مصر، فلم يقتنع الجواد بذلك، وعندما عجز عماد الدين فى اقناعه حاول زعزعة حكمه عن طريق اجتماعه بكبار المسئولين فى دمشق واسقاط شرعية حكمه فقال لهم : " قد عزل

---

(١) المقريزى،السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٨٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٥.

(٢) المقريزى، المصدر السابق،ج١،ق١،ص٢٦١، على عوده،بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٥٦.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ١٩٣،١٩٨-١٩٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٢٣، على عوده، المرجع السابق، ص١٥٦.

السلطان الملك العادل الجواد عن نيابة دمشق فلاتدفعوا إليه مالاً ولا تقبلوا له قولاه". [١]

و،ما ادرك الجواد تصميم العادل على أخذ دمشق منه، وأنه لاقبل له بمقاومته أرسل إلى ا،صالح أي‌ب يعرض ؤليه أخذ دمشق مقابل أن يعطيه سنجار والرقة وعانة، فوافق الصالح أيوب على هذا العرض الذى طالما انتظره وزاد الجواد فأعطاه الجديدة[٢] وجعلها باسم أحد مماليكه، ولما علم المجاهد صاحب حمص بهذا الإتفاق خرج من دمشق وكان مقيماً بها لأنه كان يطمع هو الآخر فى ملك دمشق[٣]، سار الصالح أيوب بقواته من الخوارزمية إلى دمشق[٤] ولما قاربها خاف الجواد من عماد الدين بن الشيخ أن يتصل بالصالح أيوب ويحرضه ضده فيمتنع عن تسليم مااتفق عليه، فبادر بالتخلص منه بأن دس عليه رجلاً اعترضه فى الطريق وقتله سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م ثم قطع الخطبة للعادل وخطب للصالح أيوب وضرب السكة باسمه. [٥]

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٢٠٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٧٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٣-٢٤، الاصفهانى، البستان الجامع، حوادث سنة ٦٣٦، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٠، الذهبى،المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٧٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المفولي، ص١٥٧.

(٢) الجديدة: اسم لقلعة فى كورة بين النهرين التى بين نصيبين والموصل وأعمال متصلة بأعمال حصن كيفا، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٤، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧١٨-٧١٩، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ٩٣، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٣٢، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٥٣.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٤٤-٢٤٥، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٨٤.

(٥) ابن واصل المصدر السابق،ج٥،ص٢٠٠-٢٠٢، الذهبى، دول الاسلام،ج٢،ص١٠٣، ويذكر المقريزى، أن الجواد بعث إلى نواب الإسماعيلية فى قتل ابن الشيخ ودفع لهم مالاً وقربه، فسير الإسماعيلية فدائيين فقتلاه على باب جامع دمشق سادس عشر جمادى الأول سنة ٦٣٦هـ، السلوك،ج١،ق٢،ص

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

ولقد أقام الصالح أيوب قبل قدومه إلى دمشق ابنه توران شاه على بلاد الشرق يحكمها نيابة عنه، وطلب من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ مساعدته وكانا قد اصطلحا ليرى مدى صدقه، حتى لايغدر به ويهاجم أملاكه في الشرق اثناء غيابه ولكن يبدو أن صاحب الموصل أدرك أنه لايستطيع أن يهاجم املاك الصالح أيوب مرة أخرى مادام الخوارزمية موجودون في المنطقة لذلك سارع بارسال النجدة له، كما أرسل إلى المظفر صاحب حماة يدعوه إلى مقابلته ليدخل معه دمشق، فطار المظفر فرحاً بهذه الدعوة لحرصه الشديد على الإنتقام من المجاهد صاحب حمص، فسار على عجل مع وزيره الامير سيف الدين بن أبي على الهذباني واجتمعا بالصالح أيوب قبل دخوله دمشق.[١]

وفي جمادى الآخرة سنة ٦٣٦هـ / فبراير ١٢٣٩م وصل الصالح أيوب إلى دمشق وخرج الجواد لإستقباله وأدخله إلى قلعة دمشق بعد أن حمل الغاشية بين يديه كل من الجواد والمظفر وكان دخوله لدمشق يوماً مشهوداً، وانتقل الجواد إلى دار السعادة وندم على تفريطه في دمشق لأنه كان يخشى أن لايفى له الصالح أيوب بما وقع الإتفاق عليه ،فحاول أن يتدارك الأمر لأن عسكر الصالح أيوب اقل من عسكر دمشق، فاجتمع بهم وطلب منهم مساعدته لاسترجاع دمشق واستحلفهم على ذلك، " وكادت تقع فتنة عظيمة "، فبادر المظفر لإخماد هذه الفتنة واتصل بالجواد وطيب خاطره وضمن له الوفاء بما شرط له فغادر الجواد دمشق إلى الشرق وتسلم سنجار وغيرها من البلاد التي تم الاتفاق عليها.[٢]

---

٢٧٧ ،بينما يذكر ابن تغرى بردى أن الذى قام بقتله رجل نصرانى، انظر النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣١٤.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٠٢-٢٠٣، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٧٩، ابن واصل، التاريخ الصالحى، ورقة ٢٤٠، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٨، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٥٨.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٠٣-٢٠٥، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧/ ص

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

وعندما توطد حكم الصالح أيوب لدمشق خاف المجاهد صاحب حمص من اتفاق الصالح أيوب مع المظفر صاحب حماه فيقومان بهجوم شامل على مملكته فكان أول اجراء قام به المجاهد هو خراب سلمية وهدم قلعتها الداخلية لأنها كانت نقطة النزاع بين حمص وأمر أهلها بالانتقال إليها فلم يبق بها أحد وغدت قاعاً صفصفا.[١]

وما إن سمع المظفر بهذا الخبر حتى أعد العدة وجهز نفسه لمحاصرة حمص وأرسل إلى الخوارزمية يطلب منهم مساعدته فى حصارها، فتوجهت الخوارزمية إلى حمص وتقابلوا مع المظفر وضربوا الحصارحولها، ولمعرفة المجاهد بطبيعة الخوارزمية وأنهم سرعان مايتغيرون عندما تعرض عليهم مبالغ مالية كبيرة راسلهم واستمالهم بمال كثير فرضوا بذلك وأخذوه وانصرفوا عن محاصرة المدينة، ولما بلغ المظفر ذلك خاف أن تنقلب عليه الخوارزمية ورحل عائداً إلى حماه، ورجع الخوارزمية إلى اقطاعاتهم التى منحها لهم الصالح أيوب فى الشرق.[٢]

لم يرد المظفر أن يفوت هذه الفرصة على نفسه فأرسل رسله إلى الصالح أيوب يستحثه على المسير إلى حمص ومضايقتها وتواترت رسله فى الوقت الذى كان الصالح أيوب منهمكاً فى توطيد علاقته مع ملوك بنى أيوب الأقوياء فى الشام حتى يضمن مساعدتهم له فى السيطرة على مصر، فراسل عمه الصالح إسماعيل يطلب منه الاتفاق معه، فوافق الصالح إسماعيل وجاء إلى دمشق واظهر لابن أخيه

---

٣٣٢، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٦٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٣، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٧٩-٢٨٠، على عوده، المرجع السابق، ص١٥٨.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٠٣-٢٠٥.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٠٥-٢٠٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٨٠، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٠، الخطيب العمري، الدرر المكنون،ص ٢٥٣، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٩.

الصالح أيوب الود والصفاء وحلف له على مساعدته ثم عاد إلى بعلبك[١] ، كما أرسل الصالح أيوب إلى عمته ضيفة خاتون الوصية على الناصر صاحب حلب معلناً طاعته وخدمته لها مقابل أن تساعده على أخذ مصر من أخيه العادل، فلم توافقه على ماأراد بحجة أنهما ولد أخيها.[٢]

انزعج العادل الثانى وأمه وخواصه من سيطرة الصالح أيوب على دمشق لعلمهم أنه لن يتركهم يتمتعون بحكم مصر خاصة وأن أكثر الأمراء بمصر يرغبون فيه لحسن سيرته وكبر سنه وجدارته فى تدبيرشئون الدولة عكس ماكان عليه العادل الثانى من لهو ولعب واشتغال بسفاسف الأمور عن رعاية مصالح الدولة، فأرسل الأمراء فى مصر إلى الصالح أيوب يستدعونه حتى يمكنوه من حكم البلاد.[٣]

وبعد استيلاء الصالح أيوب على دمشق وصل إليه رسول ابن عمه الناصر داود يعرض عليه مساعدته لأخذ مصر من أخيه العادل مقابل أن يعطيه الصالح أيوب دمشق وجميع البلاد التى كانت تحت حكم أبيه، فوعده الصالح أيوب بأنه سينجز له ذلك بعد أخذ مصر إلا أن الناصر أصر على أن يسلمها له مقدماً، فرفض الصالح أيوب طلبه، فقرر الناصر أن يذهب إلى أخيه العادل ليستفيد من الخلاف الحاصل بينهما لاسيما وأن العادل فى قلق شديد من أخيه الصالح أيوب فوصل إلى مصر وأكرمه العادل ووعده باعطائه دمشق ومايتبعها من بلاد.[٤]

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٠٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢،ص ٢٨٠، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٩، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٤٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٥٨.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٥، على عوده، المرجع السابق، ص١٥٨-١٥٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٠٧، المقريزى، الخطط، ج٣، ص١٨٩.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٠٧،٢١٤، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٦٩، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ١٤١، ابن الوردى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٠، على عوده، المرجع السابق، ص١٥٩.

خرج الصالح أيوب إلى ثنية العقاب[١] لمساعدة المظفر فى حصار حمص إلا أنه اثناء إقامته فى الثنية وصلت إليه رسائل الأمراء فى مصر تحثه على سرعة القدوم إليها لتسهيل مهمته فى الإستيلاء على مصر فتحير فى أمره هل يذهب إلى مصر أم يذهب إلى حمص، وفى نهاية المطاف رأى أن المصلحة البدء بمصر أولاً لأنه إذا ملكها سهل عليه غيرها فرجع إلى دمشق لإعداد جيشه[٢]

---

(١) ثنيه العقاب: هى ثنية مشرفة على غوطة دمشق على طريق المسافرين من دمشق إلى حمص، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٨٠-٢٨١، أبوالفدا، المختصرج٣، ص ١٦٣، ابن العميد، أخبار الايوبين، ص ٢٧-٢٨، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٥٩-١٦٠.

# احتدام الصراع بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل ودور الخوارزميين في ذلك

بعد سيطرة الصالح أيوب على دمشق أمر مجموعة من عسكره بقيادة الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى بأن يخرجوا وينزلوا على جنين[١] قرب الساحل، فخرج حسام الدين ومعه المؤرخ المعاصر ابن واصل وأقاموا على بحيرة طبرية فى رمضان سنة ٦٣٦هـ / مايو ١٢٣٩م ووصلت الأخبار بخروج جماعة من أمراء مصر إلى الشام قاصدين الصالح أيوب[٢]، وبعد أن استكمل الصالح أيوب ترتيب أوضاعه خرج من دمشق فى نحو خمسة الآف فارس ومجموعة من أمراء بنى أيوب وقصد خربه اللصوص فاقام بها ينتظر استكمال بقية عساكره كما استقبل أمراء مصر الفارين من أخيه العادل وأكرمهم وأحسن إليهم ثم رحل السلطان بعساكره إلى نابلس وكانت تابعة للناصر داود فاقام بها إلى أن خرجت سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م[٣] وأخذ أمراء مصر يمنونه ويسهلون عليه الدخول إلى مصر ومن ثم السيطرة عليها وأنه متى مادخلها انحاز إليه جميع عساكرها وتخلوا عن العادل، وارسل إليه جواسيسه فى نفس الوقت يستحثونه على القدوم إليها وتواترت رسائلهم إليه فى

---

(١) جنين: بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن بها عيون ومياه، انظر ياقوت، معجم البلدان، انظر كذلك محمد محمد شراب، معجم بلدان فلسطين ص ٢٧٥.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢١٠-٢١١، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٨١، على غوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٠.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢١٠-٢١٣، المقريزى، المصدر السابق، ج١،ق٢ص ٢٨٢-٢٨٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،ج٦ ص ٣٠٦، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى،ج٢، ص ٢٤٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٥، ٢٧- ٢٨، على عوده، المرجع السابق، ١٦٠.

هذا المعنى، إلا أنه تردد فى ذلك مخافة أن لايكون لما قالوه حقيقة خاصة وأن عسكره لايقوى على الصمود أمام عسكر مصر، فى الوقت الذى اضطربت فيه عساكرها بقدوم الصالح أيوب إلى نابلس، فرأى كبار القادة فى جيش العادل الانضمام إلى الصالح أيوب[١] بما فيهم فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذى أرسل إلى الصالح أيوب يسحثه على القدوم إلى مصر فعلم بذلك العادل والقى القبض عليه، ومن هنا يتضح لنا مدى التفكك الذى يعانيه عسكر مصر نتيجة لسوء سياسة العادل التى ينهجها فى إدارة شؤن البلاد.[٢]

استطاع الصالح أيوب أن يستولى على كثير من البلاد التابعة للناصر داود كنابلس واعمال القدس والأغوار والخليل وبيت جبريل والساحل والعريش وغيرها من البلاد وولى عليها من قبله، وأمر بعض عسكره أن يتوجه إلى غزة استعداداً لدخول مصر فى الوقت الذى أخذ يعد نفسه للحاق بهم[٣]، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل ببعلبك يطلب منه القدوم عليه ليذهب معه إلى مصر فتعلل عمه واعتذر بحجج واهية وارسل ابنه المنصور نور الدين لينوب عنه فى الخدمة، فوعده بأنه متى ماسنحت له الفرصة فانه سوف يسارع للحاق به وانطلت هذه الحيلة على

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢١٣-٢١٥، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٨٣، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٩، يذكر ابن الفوطى أن الصالح أيوب هو الذى قام بمحاولة افساد الامراء على اخيه فعندما ملك دمشق حدثته "نفسه بأخذ مصر من اخيه العادل محمد وكان هو الاكبر والانجب واستفسد جماعة من الامراء المصريين ووعدهم الاحسان فأجابوه إلى ما أراد" فخاف العادل من ذلك وسارع بمراسلة الخليفة العباسى ليتوسط فى منع أخيه من دخول مصر، الحوادث الجامعة، ص ٦١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢١٥، يذكر المقريزى، أن الناصر داود عندما كان فى مصر هو الذى حسن للعادل القبض على فخر الدين بن شيخ الشيوخ حتى يتمكن من ضم الامراء إليه من جهة ويفرق بقية الامراء من العادل من جهة اخرى. ج١،ق٢، ص٢٨٣.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢١٦، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٨٣.

الصالح أيوب فقد كان الصالح إسماعيل يعد نفسه لانتزاع دمشق منه.[(١)]

في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ بنى أيوب وصل مبعوث الخليفة المستنصر بالله إلى الصالح أيوب فى محاولة للاصلاح بينه وبين أخيه العادل، وبعد محاولات ومناقشات وتردد بين نابلس والقاهرة تقرر على يد محى الدين بن الجوزى أن تكون دمشق ومايتبعها من البلاد فى زمن الاشرف موسى للصالح أيوب وتكون مصر للعادل ويرد للناصر داود ما أخذ منه من البلاد وكاد الصلح يتم بعد موافقة جميع الاطراف المعنية لولا مأحدث من الصالح إسماعيل الذى غير موازين الامور.[(٢)]

ترددت رسل الصالح أيوب إلى عمه الصالح إسماعيل يستحثه على سرعة القدوم إليه ولكنه تباطأ فى السير إليه[(٣)] وأرسل إلى ابن أخيه العادل الثانى يخبره بمخططه الذى يهدف إلى انتزاع دمشق من الصالح أيوب وأنه سوف يحكم دمشق نيابة عنه مع اقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه وارسل ايضاً إلى ألد اعداء الصالح أيوب وهو المجاهد صاحب حمص يطلعه على ماعزم عليه فى الوقت الذى كانت فيه الدسائس تعمل فى دمشق وفى صفوف جيش الصالح أيوب فقد كان ناصر الدين بن يغمور يطوف على الأمراء وكبار الجند يحرضهم على الصالح

---

(١) ابن واصل،مفرج الكروب، ج٥، ص ٢١٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٨، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٣-١٦٤، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٦٩-٣٧٠، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٠، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٢٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ص ٣٠٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٠.

(٢) السلوك، المقريزى، ج١،ق٢، ص ٢٨٣-٢٨٤، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٦١، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٦٩-٣٧٠، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٤، على عوده، المرجع السابق، ٣١٣-٣١٤.

(٣) اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ٩٣.

أيوب[١] ولما تأخر الصالح إسماعيل فى القدوم على الصالح أيوب ارسل اليه الحكيم سعيد الدين الدمشقي يستحثه على سرعة القدوم إليه، وسير مع سعد الدين قفصاً فيه حمام ليطلعه على تحركات الصالح إسماعيل وعندما وصل سعد الدين إلى بعلبك أحسن الصالح إسماعيل استقباله وامر بعض خواصه بتغيير الحمام الذى فى قفصه بحمام بعلبك دون أن يشعر الحكيم بذلك، وأخذ إسماعيل يعد العدة ويجهز العساكر لانتزاع دمشق، فاستغرب سعد الدين من عمله ذلك وأخذ يرسل إلى الصالح أيوب فى البطائق يخبره بغدر الصالح إسماعيل وأنه يسعى للسيطرة على دمشق وكان يعلق هذه البطائق فى اجنحة الحمام فينزل فى قلعة بعلبك فيأخذها البراج ويعطيها للصالح إسماعيل الذى يقوم بدوره بتزوير بطاقة أخرى على لسان الحكيم ويرسلها عن طريق الحمام الذى كان فى قفص سعد الدين، ومما جاء فى تلك البطائق المزورة قوله " أن المولى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل مهتم بالسير إلى العسكر المنصور بنابلس بنفسه، ومايتأخر قدومه على السلطان" فتصل إلى الصالح أيوب ويطمئن إلى عمه.[٢]

وبهذه الطريقة نجح الصالح إسماعيل فى تضليل الصالح أيوب وانقطعت بذلك الأخبار عن الصالح أيوب ولم يعد يصل اليه إلا مايزور على لسان سعد الدين الحكيم وبعد أن استكمل الصالح إسماعيل تجهيز عساكره للتوجه إلى دمشق

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٢٠، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٣٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٨، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٣-١٦٤، ابن العديم، بغية الطلب، ج٤،ص١٨٠٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦١.

(٢) سبط ابن الجوزى،المصدر السابق، ج٨، ص ٧٢٥، ابن ايبك، المصدر السابق، ج٧، ص ٣٣٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٨٥، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٤، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤١، أبوالبركات الحنبلى،المصدر السابق، ص٣٧٠-٣٧١، على عوده، المرجع السابق، ١٦١.

أرسل إلى ابنه المنصور يستدعية إليه وأوهم الصالح أيوب أنه لايستطيع أن يترك بعلبك بغير نائب ينوب عنه اثناء سيره إليه فعاد المنصور باتباعه إلى بعلبك، ويبدو أن الصالح أيوب أحس بمؤامرة تحاك ضده فارسل ابنه المغيث فتح الدين عمر إلى دمشق ليتولى أمرها.[1]

اتضح لدى المظفر صاحب حماه المخطط الذى يسعى إلى تحقيقه كل من الصالح إسماعيل والمجاهد، وكان المظفر من بين ملوك الشام كلهم منتمياً إلى الصالح أيوب ومن قبله كان موالياً لوالده فعاداه كل ملوك الشام بسبب ذلك وخاصة صاحب حمص المجاهد أسد الدين شيركوه، وأدرك المظفر أن الحامية الموجودة بدمشق مع المغيث عمر لاتكفى لحفظها، فقرر أن يرسل مجموعة من عسكره لتساند المغيث فى الدفاع عنها، وحيث أنه لايستطيع أن يوجه هذه القوة مباشرة إلى دمشق لعلمه الاكيد بأن صاحب حمص لن يتركهم يمرون بسلام فلجأ إلى حيلة ساذجة دبرها مع وزيره سيف الدين بن أبى على الهذبانى ليخدع بها المجاهد صاحب حمص حتى لايتعرض لعسكره فاتفقا على أن يوهم سيف الدين أهل حماه بأن المظفر مصمم على تسليم حماه إلى الفرنج، فاشاع سيف الدين هذا الخبر بين الناس، واستدعى المظفر مجموعة من الفرنج وأنزلهم بالقلعة ليصدق الناس هذا الخبر، وما أن انتشر هذا الخبر حتى اظهر سيف الدين الجزع والغضب واحتج على فعلته الشنيعة واتصل بجماعة من العسكر واعيان البلد يؤكد لهم هذا الخبر ويحذرهم من البقاء فى البلدة لأن الفرنج متى مااستولوا على حماه فلن يرحموا صغيراً ولاكبيراً عندئذ اصاب الناس والعسكر

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٢٢، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٢٥، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٢.

الخوف والذعر وقرروا الخروج مع سيف الدين بن أبى على.[(١)]

خرج سيف الدين بن أبى على الهذبانى من حماه بمن معه من العسكر والأعيان وعامة الناس سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وهو يظن أن حيلته تلك ستنطلى على المجاهد صاحب حمص الذى عرف بحكنته ودهائه، فوصل إلى بحيرة قدس وعسكر بها، وخرج إليه المجاهد صاحب حمص وطلب مقابلة سيف الدين فاستجاب له وذهب إليه منفرداً فأحسن المجاهد استقباله وسأله عن سبب خروجه على المظفر صاحب حماه فقال له سيف الدين " إنى ماسافرت من حماه أنا وهؤلاء الذين معى إلا لعلمنا من ميل الملك المظفر إلى الفرنج واعتضاده بهم، وخفنا من تسليمها إليهم، فأردنا النجاة لأنفسنا والخلاص من مخالطة الكفار أعداء الدين " تظاهر المجاهد بتصديقه فلاطفه وأنسه وطلب منه الدخول إلى حمص ليقوم بواجب الضيافة معه ومع اتباعه ثم يسمح لهم بعد ذلك بالذهاب إلى أى مكان يريدونه، انخدع سيف الدين بطلب المجاهد فوصل معه إلى حمص وبالغ فى اكرامه والاحسان إليه ليثق فيه فأمر اتباعه فيما بعد بالدخول إلى حمص وفعلاً هذا ماحصل فارسل إلى اتباعه يامرهم بالدخول فاغتر أكثرهم ودخلوا وأحس بعضهم أن هذه مكيدة فهربوا فقبض عليهم المجاهد واعتقلهم واستحوذ على مامعهم من أموال، وخسر المظفر جزء كبيراً من جيشه نتيجة حيلة مكشوفة ولم يعد فى استطاعته أن يقدم اى مساعدة للصالح أيوب.[(٢)]

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٢٢-٢٢٤، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٨٥-٢٨٦، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٤-١٦٥، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤١-٢٤٢، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٢٥-٢٢٦، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٨٧، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٤-١٦٥، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٧٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٣.

ونتيجة لضعف المظفر وبعد الصالح أيوب عن دمشق وخلوها ممن يدافع عنها حاول الصالح إسماعيل والمجاهد أن يغتنما هذه الفرصة فاتفقا على اقتسام البلاد فيما بينهما، وتحركا بقواتهما إلى دمشق ووصلا إليها فى صفر سنة ٦٣٧هـ / سبتمبر ١٢٣٩م ونزل الصالح إسماعيل على عقبة دمر ونزل المجاهدعلى ثنية العقاب وضربا الحصار حول دمشق وتسلق جماعة من العسكر باب الفراديس وكسروا قفل الباب بمساعدة بعض المؤيدين لهم داخل دمشق فدخلا بجيوشهما إلى المدينة واظهر الصالح إسماعيل لأهلها طاعته للعادل قائلاً لهم " ادعوا للسلطان الملك العادل فأنا نائبه وغلامه "، وحاول المغيث عمر الاعتصام بالقلعة فحاصروا القلعة ونقبوهاحتى اضطر إلى تسليمها إليهم، فاستولى عليها الصالح إسماعيل واعتقل المغيث عمر ليبقى كرهينة عنده يساوم به الصالح أيوب.(١)

أما الصالح أيوب فبعد أن كان واثقاً فى أيمان عمه إسماعيل وعهوده ومواثيقه جاءه الخبر بمسير عمه إسماعيل والمجاهد صاحب حمص إلى دمشق بقصد انتزاعها والسيطرة عليها فأمر قائده حسام الدين بن أبى على بالمضى فوراً إلى دمشق لمساندة حاميتها فى الدفاع عنها قبل أن يصل إليها الصالح إسماعيل والمجاهد، فخرج حسام الدين بقواته مسرعاً وكان بصحبته المؤرخ ابن واصل وعندما وصل إلى الكسوة(٢) ورد إليه الخبر بسقوط دمشق فادرك عجزه عن الدخول إليها وعاد إلى الصالح أيوب بعد أن ترك اثقاله وخزائنه فى قرية خياره(٣)

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٢٨-٢٣٠، ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ١٨٠٩، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٤، أبوالفدا، التبر المسبوك فى تواريخ أكابر الملوك، حوادث سنة ٦٣٧هـ، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص ١٠٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة،ج٦، ص ٣٠٦، ، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٣.

(٢) الكسوة: قرية تعتبر أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر،انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) خيارة: قرية قرب طبرية من جهة عكا قرب حطين بها قبر شعيب عليه السلام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

مع حامية بسيطة فجاءت جماعة من اتباع الصالح إسماعيل واستولت على الخزائن والأموال وعادوا بها إلى دمشق[١]

وعندئذ رحل الصالح أيوب بقواته وقطع نهر الأردن وجاءت الأخبار بسقوط قلعة دمشق فتغيرت نيات العسكر لأن اعداء الصالح أيوب يحيطون به من كل مكان ولم يعد بيده شيء من البلاد إضافة إلا أن أهاليهم وأولادهم بدمشق فكانوا يخافون عليهم من تسلط الصالح إسماعيل وكان من بينهم جماعة من أمراء بنى أيوب ارسلوا إلى الصالح أيوب يقولون له "لايمكننا المقام معك هاهنا فإن أهلنا وأولادنا بدمشق فأذن لنا فى الرحيل إليها " فلم يكن فى استطاعته أن يمنعهم فأذن لهم والتحقت العساكر بالصالح إسماعيل فتقوى بهم فى الوقت الذى تدهور فيه نفوذ الصالح أيوب وضعفت قوته إلى درجة أن أحد مماليكه تجرأ على نهب أمتعته وأمواله.[٢]

ولم يبق مع الصالح أيوب إلا ثلة قليلة من مماليكه اجتمع بهم واستشارهم فى أمره فاشار بعضهم بالمضى إلى الشقيف والاعتصام بها، فلم يحبذ ذلك لأنه خشى أن يلحق به عمه ويضيق الحصار عليه فيقع فى قبضته، واشار البعض الاخر بالمضى إلى املاكه فى الشرق لأن بها عدة حصون منيعة يستطيع أن يحتمى بها من عمه الصالح إسماعيل، فلم يعجبه هذا الرأى أيضاً لأن المسافة طويلة وربما يقع فى قبضته وفى نهاية الاجتماع عرض عليهم رأيه وقال لهم " ما أرى إلا التوجه إلى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٣٠-٢٣٢، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٨٧، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٣٣٦-٣٣٧.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٢-٢٣٣، ٢٣٦، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٢٦، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٥، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٧، ابن ايبك، المصدر السابق، ج٧، ص ٣٣٧، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٦٤.

نابلس والتجيء إلى ابن عمى الناصر"[١] وسار بهم إلى نابلس واعترضه اثناء مسيره إليها جماعة من قطاع الطرق لكنه تمكن من الانتصار عليها.[٢]

واتفق وصول الناصر داود من مصر بعد أن تدهورت العلاقات بينه وبين العادل فلما وصل إلى الكرك سمع باستيلاء الصالح إسماعيل على دمشق وتشتت قوات الصالح أيوب الذى أرسل إلى الناصر داود يقول له " قد مضى مامضى ومازالت الملوك كذا، وقد جئت الآن مستجيراً بابن عمى " ولما إطلع الناصر على ذلك أرسل إليه يطيب خاطره فاجتمعوا به وقالو له " طيب قلبك فقد بلغ ابن عمك أنك مستجير به، وقد أجارك، ونحن قد سيرنا إلى خدمتك خوفاً عليك من يد الغير"[٣] ، ثم سار الناصر إلى نابلس وأمر بنقل ابن عمه الصالح أيوب إلى الكرك ولم يصحبه سوى مملوكه ركن الدين بيبرس وجاريته شجر الدر، وأنزلوه بقلعة الكرك بعد إهانات لحقته من قبل العسكر وأرسل إليه الناصر يقول له " إنما فعلت هذا احتياطاً عليك لئلا يصل إليك مكروه من أخيك ولا من عمك، ولولم اسيرك إلى الكرك لقصداك واهلكاك"، وبقى الصالح أيوب معتقلاً بقلعة الكرك مايقرب من سبعة اشهر من سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م.[٤]

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٣٥، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٨٨، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٣٧، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٩، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٧١-٣٧٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٤.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٢٦، وانظر ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص٣٣٧، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٢٤١، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٢٨٩، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ٣٣٧-٣٣٨، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٦٥، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٤١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٦٥، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص٣٠٨.

ولما بلغ العادل استيلاء عمه الصالح إسماعيل على دمشق وسجن أخيه بالكرك سر لذلك سروراً عظيماً وامر بتزيين القاهرة واقامة الحفلات والولائم لهذا الأمر، واعتقد العادل أنه قد استقر له الحكم ولم يقتنع بذلك بل أرسل إلى الناصر داود يطلب منه أن يرسل إليه أخاه في قفص من حديد مقابل أن يدفع له أربعمائة ألف دينار[(١)] ويسترد له دمشق فرفض الناصر داود ذلك وأرسل إليه يقول: "وصل كتاب السلطان وهو يطلب أخاه إلى عنده في قفص من حديد وإنك تعطيني اربعمائة الف دينار مصرية وتأخذ دمشق ممن هي بيده وتعطيني اياها فأما الذهب فهو عندك كثير وأما دمشق فإذا أخذتها ممن معه وسلمتها إلى سلمت أخاك اليك وهذا جوابي والسلام " ولما قرأ العادل الرسالة أرسل إلى الناصر يتهدده بالخروج إليه وأخذ بلاده فلم يعر الناصر داود ذلك أي اهتمام.[(٢)]

وصلت في هذا الوقت سفارة من مصر إلى دمشق مكونة من محيي الدين بن الجوزي وجمال الدين بن مطروح لتسوية الخلافات بين ملوك بني أيوب إلا أن جهودهم فشلت في تحقيق مساعيها فرحل ابن مطروح إلى المظفر بحماه الذي قام بإرساله إلى الخوارزمية في الشرق يطلب منهم سرعة القدوم إلى الشام لنصرة الصالح أيوب وحمل معه رسالة اخرى من الناصر داود إلى الخوارزمية جاء فيها " إني لم اترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته خوفاً عليه من أخيه الملك العادل ومن عمه الملك الصالح عماد الدين وسأخرجه وأُملكه البلاد فتحركوا على بلاد حلب وبلاد حمص".[(٣)]

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٤٤، المقريزي، السلوك، ج١، ص ٢٩٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣١٠، ابن كثيرة، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٥، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ١٨٣.

(٢) المقريزي، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٩٠، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٢٥، ٢٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥٢، المقريزي، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٢٩٠.

استمر المظفر صاحب حماه فى مراسلة الخوارزمية يستحثهم على القدوم كما كان على اتصال بالناصر داود يطلب منه الافراج عن الصالح أيوب وتهيئة الامور لمجيء الخوارزمية لمساعدتهم فى القضاء على خصومهم واسترداد بلادهم، عندئذ قرر الناصر داود بعد أن عجز عن الحصول على دمشق عن طريق المساومة أن يخرج الصالح أيوب من الاعتقال عله يستطيع أن يستعيد عن طريقه ملك أبيه.(١)

فاطلق الناصر سراح الصالح أيوب فى سابع عشر رمضان سنة ٦٣٧هـ / ابريل ١٢٤٠م واستدعاه إليه بنابلس وأمر الخطيب بالدعاء له فى الخطبة ورجع إليه مماليكه واصحابه الذين تفرقوا عنه، ثم انطلقا إلى القدس وتحالفا على أن تكون مصر للصالح أيوب والشام والشرق للناصر داود، وأن يعطى الصالح أيوب للناصرداود مائتى الف دينار بعد استرداد مصر، ثم سارا إلى غزة.(٢)

بلغ العادل نبأ هذا التحالف الجديد فانزعج وخرج بعسكره إلى بلبيس فى نصف ذى القعدة سنة ٦٣٧هـ /يونية ١٢٤٠م وارسل إلى عمه الصالح إسماعيل يطلب منه الخروج من دمشق للقضاء على هذا الحلف الذى يهدد بلادهما.(٣)

فخرج الصالح إسماعيل بعساكره ونزل بالغوار من أرض السواد وكان يرافقه المنصور إبراهيم بن المجاهد صاحب حمص بعسكره، عندئذ خاف الناصر داود

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٥١-٢٥٢، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٦.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٥٨-٢٥٩،ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ١٨٠٩، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٣٨-٣٣٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٩، أبوالفدا، المختصر،ج٣، ص ١٦٦، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل،ج٢،ص٦، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرةج٦، ص ٣١٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ١٦٦-١٦٧.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٥٩-٢٦٠، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٤، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٥، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون،ج٥، ص ٣٥٦.

والصالح أيوب من اجتماع الجيوش عليهما فيقعا بين شقى رحى، فقررا الرجوع إلى غزة ومن ثم العودة إلى الكرك للاعتصام بها [١]، إلا أن الأمور تطورت فيما بعد لصالح الصالح أيوب فقد قام المماليك الاشرفيه وغيرهم بإلقاء القبض على العادل الثانى لسوء معاملته معهم وانشغاله باللهو واللعب وعزله لكبار المسئولين فى الدولة مع كفاءتهم وتعيين أخرين في مكانهم مع عدم صلاحيتهم لكونهم يوافقونه فيما يفعله بل ويشاركونه فى لهوه ولعبه، ومما حمل العادل الثانى على ذلك هو صغر سنه فقد كان عمره عندما ولى السلطة نحو عشرين سنة فكان ذلك سببا لنفور الامراء وكبار المسئولين في الدولة منه.[٢]

وبعد أن تم القبض على العادل الثانى وضعوه فى خيمه صغيرة وشددوا الحراسة حوله بحيث لايجرؤ أحد من الموالين له على فك اسره، وهنا انقسم أمراء مصر إلى فريقين فريق كان ميالاً إلى الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق وهم الاشرفية واما الفريق الثانى فكان ميله إلى الصالح نجم الدين أيوب وهم الخدام والمماليك الكاملية وأمراء مصر، ونظراً لأن مؤيدى الصالح أيوب كانوا أكثر عدداً من الاشرفية واقوى شوكة فلم يسع الاشرفية الخروج عليهم خاصة وأن الصالح أيوب والناصر داود بينهم وبين الصالح إسماعيل فاضطروا إلى الموافقة.[٣]

بادر الجميع بعد ذلك بمراسلة الصالح أيوب يستدعونه ليسلموا إليه مقاليد الحكم فى مصر فوصلت إليه هذه الرسائل بعد أن كان هو والناصر داود فى خوف

---

(١) ابن واصل،مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٦٠، ابوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٦٧.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٦٢-٢٦٣، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٩٤-٢٩٥، ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٤١، ابن العميد، أخبارالأيوبيين، ص ٢٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣١١، ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ١٨٠٩، ج٧، ص ٣٤٥٤، على عوده، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥،ص٢٦٣-٢٦٤ المقريزى، المصدر السابق ج١، ق٢، ص ٢٩٦.

شديد لاتفاق عساكر مصر ودمشق على حربهما فجاءهما الفرج بعد الشدة وما أن تأكد الصالح أيوب والناصر داود من القبض على العادل الثانى حتى سارا مسرعين نحو مصر وكان الأمراء والأعيان يخرجون لاستقبالهما على طول الطريق إلى بلبيس فلما وصلا إلى بلبيس تسلم الصالح أيوب أخاه العادل وتوجه بالعساكر إلى القاهرة ودخل قلعتها فى ٢٤ ذى القعدة سنة ٦٣٧هـ/ ١٨يونيو ١٢٤٠م.[(١)]

وفى هذا الوقت وصل إلى القاهرة سفراء كل من بغداد وحماه وحلب أما سفير بغداد وهو محيي الدين بن الجوزى فكانت مهمته الاصلاح بين ملوك بنى أيوب إلا أن الصالح أيوب كان موغر الصدر من محيي الدين بن الجوزى لعلمه أنه كان يطلب من الناصر داود أن يسلمه إلى أخيه العادل، فلذلك قصر فى ضيافته، وعلى العكس من ذلك نجد الصالح أيوب يقبل إقبالاً شديداً على سفير حماه ويحسن ضيافته لأن المظفر صاحب حماه من أشد المناصرين له ولابيه من قبله وتعرض فى سبيل ذلك إلى كثير من الاذى فاكرمه وسيره إلى حماه.[(٢)]

أما سفير حلب وهو المؤرخ المشهور كمال الدين ابن العديم فقد استدعاه الصالح أيوب وقال له " تقبل الارض بين يدى الستر العالى، وتعرفها أننى مملوكها، وأنها عندى بمحل الملك الكامل، وأنا أعرض نفسى لخدمتها، وامتثال ماترسم به " وحمله أيضاً مثل هذا القول للناصر صاحب حلب.[(٣)]

ويبدو أن الصالح أيوب كان حريصاً على تفتيت الوحدة السابقة بين ملوك بنى أيوب ضد مصر وضم مملكة حلب فضلاً عن حماه إلى صفه خاصة وأن عمه

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٦٤-٢٦٥، الخطيب العمري، الدر المكنون، روقة ٢٥٤، أبوالفدا، المختصر ، ج٣، ص ١٦٦، ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٤١-٢٤٢، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص ١٠٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣١١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٦٥-٢٦٦، المقريزى، السلوك، ص ٢٩٨.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٧، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٦٧-٢٦٨.

الصالح إسماعيل الذى غدر به واستولى على دمشق لن يقر له قرار حتى يؤلب جميع ملوك بنى أيوب فى الشام ضده ويسعى للقضاء عليه، كما أن الصالح أيوب إذا فكر فى الخروج من مصر للانتقام من عمه إسماعيل واستراداد دمشق لن يجد الاخير من يقف إلى جواره فيسهل على الصالح أيوب انتزاع دمشق منه وفك اسر ابنه ولقد نجح الصالح أيوب فى تحييد مملكة حلب بهذه الطريقة لفترة من الوقت، ويظهر ذلك واضحاً جلياً عندما خرج ابن العديم من مصر واجتمع بالصالح إسماعيل الذى طلب منه تجديد الحلف السابق وحمله رساله إلى الصاحبة ضيفة خاتون " يطلب منها معاضدته ومساعدته على الملك الصالح نجم الدين " فلم تجبه إلى طلبه ذلك.(١)

وسر المظفر صاحب حماه سروراً عظيماً باستيلاء الصالح أيوب على مصر وأمر بتزيين قلعة حماه ابتهاجاً بهذا النصر الذى تحقق للصالح أيوب لأنه كان على خوف شديد من مجاوريه وازداد هذا الخوف عندما اتفق العادل الثانى مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور ابراهيم صاحب حمص على القضاء على الصالح أيوب والناصر داود وكانا فى قلة من العدد والعدة بالنسبة لخصومهم، كما أن انتصار الصالح أيوب يعنى تعزيز موقف المظفر امام خصومة واسترداد ماانتزع منه من البلاد والانتقام فيما بعد من كل من حاول القضاء على هذه المدينة.(٢)

استوحش الصالح أيوب بعد سيطرته على مصر من ابن عمه الناصر داود ولعل ذلك يرجع إلى عدة أمور منها أنهما عندما وصلا إلى بلبيس طلب الناصر داود من الصالح أيوب أن يجتمع بالعادل وكان معتقلاً عنده فسمح له بذلك، فمضى إلى مكان الاعتقال ودخل على العادل وقال له " تبصر أى شيء فعلت، وكيف أوقعتك

---

(١) ابن العديم،زبدة الحلب ج٣، ص ٢٤٧-٢٤٨،ابن واصل، مفرج الكروب،ج٥،ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٦٩، أبوالفدا، المختصر، ج٣،ص ١٦٦، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٣.

فى هذه الحال، وأنا قادر أن أردك إلى ملكك"، فبلغ ذلك الصالح أيوب وتغاضى عنه لعدم استقرار الامور، ومما زاد فى غيظه اجتماع الناصر داود بعد ذلك بجماعة من الأمراء سراً.[١]

وربما لجأ الناصر داود إلى هذه الأمور بعد أن تيقن عدم وفاء ابن عمه الصالح أيوب بما وقع الاتفاق عليه من تسيير الجيوش معه ليسترد دمشق وجميع البلاد التى خرجت عنه من مملكة ابيه، خاصة بعد أن طلب الناصر داود من الصالح أيوب بعد دخولهما إلى مصر مباشرة قلعة الشوبك فرفض تسليمها له، وكان الصالح أيوب يبرر قسمه للناصر داود عند الصخرة بما اقترحه " انما كان فيه مكرهاً لأنه كان فى قبضته".[٢]

كل هذه الامور جعلت الصالح أيوب يتوجس خيفة من الناصر داود وعلم أنه لن يستقر له قرار مادام الناصر موجوداً بمصر خاصة وأن الصالح أيوب لايضمن ولاء الأمراء التام له فربما يجرى عليه ماجرى على أخيه من قبل لذلك حرص على إخراج الناصر داود من مصر فى اسرع وقت فأرسل بعض اصحابه إليه وقال له " امضى إلى الملك الناصر، وخوفه منى لعله يرحل إلى بلاده، فإنى لايمكننى القبض عليه، فإن الناس لايعلمون صورة الحال، وينسبوننى إلى الغدر، وعدم المكافأة " فمضى ذلك الرجل واجتمع بالناصر وقال له " إنى قد جئت إليك لحق أنعمك، فاكتم على ماأقوله لك، لئلا يؤذينى ابن عمك الصالح، فإنه قد أمر بالقبض عليك،

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٧٠-٢٧٢، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٩٧-٢٩٨، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٢٩، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص٣٤٠، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٤، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣١١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧١، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٩٩، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٦.

فخذ حذرك منه".[١]

عندئذ تحقق الناصر داود من غدر ابن عمه به وأن مقامه بمصر اصبح مستحيلاً فخرج مسرعاً بأصحابه منها وهو خائف يترقب، وعمد الصالح أيوب إلى ارسال فرقة عسكرية تلاحق الناصر داود من بعيد بحيث توهمه بانهم يريدون اللحاق به ومن ثم القبض عليه، فانطلت عليه هذه الحيلة وزاد من سرعته هو واصحابه حتى وصل إلى الكرك سنة ٦٣٧هـ.[٢]

ولكى يتمكن الصالح أيوب من التصدى لكل خطر خارجي يهدد كيان دولته فضلاً عن القيام بحملات خارجية كان لابد له أن ينظر إلى بنية الدولة الاساسية فبقدر ماتكون عليه الجبهة الداخلية من ترابط وتوافق يكون اثر ذلك واضحاً فى الصمود امام كل الاخطار، لذلك لاغرابة من أن نجد الصالح أيوب يستشعر الحذر من عز الدين ايبك والمماليك الاشرفية وغيرهم من الجند فالمرء المؤمن لايلدغ من جحر مرتين فهؤلاء هم الذين قبضوا على أخيه العادل واستدعوه ليملكوه مصر وهم ايضاً الذين عزموا على تدبير مؤامرة للقبض عليه وانتزاع مصر منه وتسليمها إلى عمه الصالح إسماعيل.[٣]

عندئذ أخذ الصالح أيوب بعد أن تحقق من غدرهم يعمل على تدبير مخطط يقضى على هؤلاء جميعاً دون أن يتيح لهم أى فرصة للمقاومة وقال " لابد هؤلاء الغدارين أن يفعلوا بى كما فعلوا بأخى الملك العادل"، وعزم على القضاء عليهم قبل أن يقضوا عليه، ونظراً لأن تكتلهم حوله يتيح لهم الفرصة فى تحقيق مآربهم

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٧٢.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٢، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٤.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٢-٢٧٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٠، ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج٥، ص ٣٥٦، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص٣٧٥، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٧-٢٩٩.

فقد لجأ إلى تفريقهم فى مملكته، واسند إلى كل من خاف غائلتـه حكـم منطقـة مـن المناطق البعيدة يوهمه أنه يعتمد عليه في ادارة شؤنها، وكان أول من وقع في الفخ عز الدين ايبك الاسمر الذى ارسله الصالح إلى حكم أحدى المنـاطق البعيـدة، ومـا إن وصل عز الدين إلى تلك المنطقة حتى قبض عليه بامر من الصالح أيوب، ففـترت عزيمة المماليك الاشرفية وأصابهم الخوف فسهل على الصالح أيوب القبض عليهـم الواحد تلو الآخر حتى تم القبض عليهم عن بكرة ابيهم وادخلهم السجون.[١]

كان الصالح أيوب وهو يقبض على هؤلاء الخونة – على حد قوله – يدرك أنه لن يستطيع ادارة شؤن الدولة دون وجود قوة يعتمد عليها تشغل مكان هـؤلاء فلجأ إلـى شـراء الممـاليك الـترك والخطائيـة، واسـتخدام الاجنـاد واعطـاهم الإقطاعـات الجديده، فأصبحت قوته بذلك تزداد يوماً بعد يوم.[٢]

واصل الصالح أيوب سياسته الرامية إلى تطهير البلاد من الخونة الذين يعملـون على قلـب نظام الحكـم فقبـض علـى جـوهـر النوبـى، وشـمس الخـواص وكانـا أصحاب كلمة فى الدولة، كما قبض على جماعة مـن أكـابر أمـراء الدولـة الكامليـة كان لهم نفوذ كبير وأرسل بعضهم إلى قلعة صدر[٣] والبعض الاخر إلى قلعة الجبـل حيث تم إلقاء القبض عليهم هناك وأودعوا السجون.[٤]

وفي ظل هذا الصـراع الدائـر بيـن ملـوك بنـى أيـوب تـرك بيـت المقـدس بيـد

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٧٤-٢٧٥، ابـن تغـرى بـردى، النجـوم الزاهـرة، ج٦، ص ٣٢٠، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٠، ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٢٤٣-٢٤٤، أبوالبركـات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٥.

(٢) ابن واصـل، المصـدر السـابق، ج٥، ص ٢٧٥، السيوطى، حسـن المحـاضرة، ج٢، ص ٣٤، ابـن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٢٦٩، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢٠.

(٣) قلعة صدر قلعة في البرية، قريبة من عقبة أيلة. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٢٧٦.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٦، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر ، ج٧، ص ٣٤٣، ابـن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢٠.

الصليبيين مايقرب من أحدى عشرة سنة دون أن يفكروا في استعادته إلى أن قيض الله له الناصر داود الذي تمكن من تحريره وهذا ماسنوضحه في المبحث التالي.

# هجوم الناصر داود على بيت المقدس

لم يحاول ملوك الأيوبيين خلال السنوات الأحدى عشرة بين سنة ٦٢٦هـ وسنة ٦٣٧هـ أن يستردوا بيت المقدس ويخلصوه من الاحتلال الصليبي، على الرغم من بقاء المدينة غير محصنة، واسوارها مهدمة، ولم يكن للصليبيين فيها ملك قوى أو شخصية بارزة ترعى شؤونهم وتدافع عنهم، إضافة إلى عدم وجود جيش كبير للصليبيين فى بيت المقدس وهذا هو السر الذى ادى إلى بقاء حكومة مملكة بيت المقدس فى عكا ولم تفكر فى العودة إلى بيت المقدس فى تلك الفترة الحرجة.[١]

إن تسليم بيت المقدس للصليبيين بمقتضى صلح يافا سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م لم يكن له أهمية بالغة لدى المجتمع الصليبى كما كانت فى السابق قبل أن يفتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١٠٩٩م نظراً لبقاء المدينة مفتوحة وغير محصنة[٢] فكان من حق المسلمين أن يدخلوا المدينة ويشرفوا على مقدساتهم فيها، وبقيت مدينة بيت المقدس نتيجة لذلك قسمة بين النفوذ الإسلامى والصليبى، مما جعل كل فريق منهم يخشى الإستقرار فيها والمتاجرة بها حتى اصبحت المدينة فقيرة تشكو من قلة السكان بها من المسلمين والصليبيين ولم يبق لها غير مكانتها الدينية فقط.[٣]

حاول الصليبيون أن يعززوا موقفهم فى بلاد الشام باعادة مملكة بيت المقدس

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٨١، عبدالجليل عبدالمهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية، ص ٢٠٥، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ٣٦٦.

(٢) مكسيموس مونرود تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب، ص ٢٧٨، رنيسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٤٠، سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٧٦.

(٣) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ٩٧٦.

كما كانت عليه فى السابق فارسلوا إلى الامبراطور فردريك الثانى يطلبون منه أن يرسل ابنه كونراد الرابع إلى بلاد الشام لينصب ملكاً على مملكة الصليبيين باعتباره الممثل الوحيد للسلالة الشرعية -بزعمهم- لملوك المملكة، إلا أن الامبراطور فردريك رفض هذا العرض.[١]

وبالرغم من جمود ملوك الأيوبيين وعدم محاولتهم استغلال الظروف السيئة التى ألمت بالصليبيين بعد صلح يافا سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، فإن عامة المسلمين اظهروا حزنهم وأسفهم العميق على ترك مدينة بيت المقدس لقمة سائغة فى ايدى الصليبيين[٢]، وحاولوا القيام بواجب الجهاد المفروض على المسلمين لتخليص بيت المقدس وغيره من البلاد الاسلامية من ايدى الصليبيين فى الوقت الذى تشاغل فيه ملوك الأيوبيين عن ذلك بحروبهم الاهلية[٣]، لذلك قام مجموعة من آئمة المسلمين الزهاد فى حبرون ونابلس بشن غارة على الصليبيين فى بيت المقدس، فلاذ الصليبيون بالفرار وتحصنوا فى برج داود، فبادر سيد حيفا بطلب النجدة من عكا لحماية الصليبيين فى بيت المقدس وبما أن هذه الحملة لم تكن قوية فإنها إنسحبت على الفور عندما علمت بقدوم جيش صليبيى يقوده نائبي الأمبراطور الألماني فى بلاد الشام باليان سيد صيدا وجارنييه، ولإنشغال امراء المسلمين بصراعاتهم الداخلية وخوفهم من الدخول فى حرب عامة مع الصليبيين انكروا صلتهم بهذه الغارة على بيت المقدس، فاكتفت الحملة بهذا الانكار وعادت من حيث اتت دون أن تحاول تعزيز الحامية الموجودة فى المدينة.[٤]

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٧٦.

(٢) سعيد عاشور، المرجع السابق، ج٢، ص ٩٨١.

(٣) عبدالجليل حسن عبدالمهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية، ص ٢٠٥.

(٤) رنيسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٤٠-٣٤١، شفيق جاسر أحمد محمود، القدس تحت الحكم الصليبى، ص ٢٨.

ويبرر البعض تقاعس الأيوبيين عن القيام بواجب الجهاد ضد الصليبيين واسترداد بيت المقدس وغيرها من البلاد الإسلامية بأن ذلك يعود إلى تخوفهم من الخوارزمية وغاراتهم المدمرة التى شنوها على كثير من البلدان الإسلامية وتخوفهم كذلك من المغول الذين تمكنوا فيما بعد من القضاء على الدولة الخوارزمية واستولوا على سائر ماكان بيد الخوارزمى من بلاد، واصبحوا بذلك على مقربة من املاك الأيوبيين فى الجزيرة.[١]

ولو سلمنا بهذه المبررات فهل يسوغ لهم ذلك تقسيم الدولة إلى ممالك صغيرة يتربع على عرش كل مملكة من هذه الممالك حاكم من افراد البيت الأيوبى مستقل فى حكمه وإدارة شؤن مملكته عن الممالك الاخرى ولم يقتصر الامر على ذلك بل وقعت بينهم الخصومات والصرعات لدرجة أن استعان بعضهم على بعض بالصليبيين والخوارزميين وسلاجقة الروم فتمزقت بذلك جهود المسلمين وأصبحوا لقمة سائغة للاعداء.

وفى سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م انتهز الصليبيون فرصة الاختلاف بين الملوك وعملوا على تحصين بيت المقدس فعمروا " فى غربية قلعة جعلوا برج داود عليه السلام من ابراجها وكان هذا البرج لم يخرب لما خرب المعظم اسوار القدس"، فخالفوا بذلك نصوص الاتفاق بين الملك الكامل والامبراطور فردريك. وكان من شروط ذلك الاتفاق أن يكون الحرم الشريف بما فيه من المقدسات للمسلمين وأن تكون اعمال القدس ماعدا عشر ضياع على طريق الصليبيين من عكا إلى القدس للمسلمين ايضاً وشرط أن يكون بيت المقدس خراباً لاتجدد فيه عمارة.[٢]

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق١، انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٨١-٩٨٣، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٤٦، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٢٩١، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٥١، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ١٤١، أبوالفدا،

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

وبعد انتهاء أمد الهدنة دعا البابا جريجورى التاسع إلى القيام بحملة صليبية خوفاً منه على بيت المقدس، وارسل إلى كل من ملكى فرنسا وانجلترا يدعوهم إلى الاعداد لهذه الحملة وبما أنهما لم يكونا مستعدين للقيام بهذه الحملة فقد بذلا كل دعم وتشجيع للدعوة إليها، فلقيت هذه الدعوة استجابة لدى عدد كبير من الفرسان فى فرنسا بوجة خاص وكان على رأسهم مجموعة من كبار الامراء ثيبوت الرابع (Thibautiv) اميرشامبنى وملك نافا، وهيو الرابع (Hugh IIII) امير برجنديا، وبطرس موكلرك (Peter Mauclark) أميربريتانى وغيرهم.[1]

وبما أن أغلب فرسان هذه الحملة من فرنسا خشي الامبراطور فردريك على نفوذه فى الشرق إذ أنه يعتبر نفسه حاكماً على مملكة بيت المقدس بالنيابة عن ابنه الصغير كنوراد لذلك كان يرى أن تخضع هذه الحملة لسلطته إضافة إلى أنه كان غير موافق على اشتراك امراء فرنسا فى هذه الحملة لأنه يعلم أن هؤلاء سيقومون بمساندة بارونات الشرق ضده، كما أنه كان يأمل أن يمكن للصليبيين فى الشام عامة وبيت المقدس خاصة عن طريق المفاوضات السياسية نظراً لادراكه لاوضاع المسلمين فى بلاد الشام ومصر وبما أن الأمبراطور لم تكن له القدرة على ضبط هذه الحملة فقد أخذ منهم وعداً بالا يصدر منهم شيء إلا عند انتهاء أجل الهدنة.[2]

انطلقت الحملة الصليبية من أوربا قاصدة بلاد الشام، وتعرضت اثناء سيرها

---

المختصر فى اخبار البشر، ج٣، ص ١٦٥، مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، ص ٢٨١.

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٨٦-٩٨٧، محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٠٢، سعيد أحمد برجاوى، الحروب الصليبية فى المشرق، ص ٥٢٢، مكسيموس مونروند، المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٧١.

لعواصف عاتية فى البحر الابيض المتوسط فرقت جموعهم حيث ساقت بعض السفن إلى قبرص ودفعت سفناً أخرى إلى جزيرة صقلية، ثم عادت هذه الحملة وجمعت صفوفها ووصلت إلى عكا فى أول سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م بقيادة ثيبوت الرابع ومعه من الجند حوالى ألف وخمسمائة فارس عدا المشاة، ويؤكد بعض المؤرخين أن هذه الحملة الصليبية الفرنسية افتقرت إلى المرونة السياسية التى عرف بها كل من ريتشارد قلب الأسد وفردريك الثانى، نظراً لأنهم لم يحاولوا الافادة من الصراعات العنيفة التى قامت بين ملوك بنى أيوب بعد وفاة السلطان الكامل سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م واتخذوا طابعاً عسكرياً جامداً مما أدى إلى فشل حملتهم فى نهاية المطاف.[(١)]

وكيفما كان الأمر فإن زعماء الحملة الفرنسية بقيادة الصليبيين فى بلاد الشام اجتمعوا للتشاور فى هذا الامر وتحديد الخطوة التى يجب أن يتخذها الصليبيون، ولكنهم انقسموا على أنفسهم، فرأى قسم منهم أن تتوجه الحملة إلى مصر باعتبارها القلب المحرك فى الدولة الأيوبية، فإذا تمكنوا من السيطرة على دمياط والاسكندرية امكنهم اجراء مقايضة مع الأيوبيين، فيرجع إليهم بيت المقدس بكل سهولة ويسر.

ورأى قسم آخر أن يقصدوا دمشق مباشرة، ورأى قسم ثالث أن يتجهوا إلى صفد لاحتلالها من المسلمين، وتحصينها لتصبح قاعدة حصينة لهم فى بلاد الشام، ومركزاً لعملياتهم العسكرية ضد دمشق وبيت المقدس على حد سواء، ورأى قسم رابع أن يتجه الصليبيون مباشرة إلى بيت المقدس ومركز عملياتهم فى الإستيلاء عليها، وفى الاخير استقر رأى الصليبيين على أن يقصدوا عسقلان لهدمها واحتلالها، ثم يقصدون دمشق وينتزعونها من المسلمين، ولقد فطن حكام

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيه، ج٣، ص ٣٧١-٣٧٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبيه، ص٩٨٧، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧١-٣٧٢.

المسلمين لهذا المخطط فسارع الصالح إسماعيل إلى تحصين دمشق بينما بادر العادل الثاني إلى إرسال فرقة عسكرية من مصر إلى غزة لحماية عسقلان من خطة الصليبيين.[١]

عندئذ خرجت الحملة الصليبية من عكا سنة ٦٣٧هـ نوفمبر سنة ١٢٣٩م متوجهة إلى الحدود المصرية، وانضم إلى هذه الحملة مجموعة من فرسان الطوائف الدينية الحربية، وعدد كبير من البارونات في بلاد الشام، وأثناء سير هذه الحملة إلى مصر ورد الخبر إلى بطرس كونت بريتانى أن قافلة للمسلمين وافرة الثروة تسير بمحاذاة نهر الاردن قاصدة دمشق، فلم يرد بطرس كونت بريتانى أن يفوت هذه الفرصة على نفسه فبادر باصطحاب مجموعة من فرسانه ونصبوا كميناً للقافلة الإسلامية، ومع ذلك فإن القافلة الإسلامية لم تكن لتسير هكذا بلا حراسة لأن قطاع الطرق كثيرون وعلى رأس هؤلاء الصليبيين الذين لايؤمن جانبهم، فقد كانت مزودة بحراس اقوياء مسلمين، وعندما تقابل الطرفان صمد المسلمون فى وجه الصليبيين وكاد بطرس أن يلقى مصرعه، غير أن امكانيات المسلمين لم تكن كافية لمواصلة المقاومة فولوا الأدبار بعد أن تركوا فى ايدى الصليبيين جميع مافى القافلة من الماشية والاغنام وغيرها وعاد بطرس إلى يافا منتصراً ومحملاً بالغنائم فلقى بذلك كل حفاوة وتكريم من الصليبيين، نظراً لنقص المؤنة لدى الجيش الصليبي المتجة إلى مصر.[٢]

---

(١) مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، ص ٢٨٢-٢٨٣، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٨٧-٩٨٨، عبدالجليل حسن عبدالمهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبيه، ص ٢٠٦، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٢، سعيد أحمد برجاوى، الحروب الصليبية فى المشرق، ص ٥٢٣.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج٣،ص٣٧٣، سعيد أحمد برجاوى، المرجع السابق،ص٥٢٣-٥٢٤.

غادر الجيش المصرى بقيادة الامير المملوكى ركن الدين مصر سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م قاصداً غزة وكانت عدة هذا الجيش تبلغ حوالى الف رجل فقط، فطمع فيهم بعض قادة الصليبيين وقرروا المبادرة بالهجوم عليهم ليتحقق لهم النصر والغنيمة على غرار مأحدث عندما استولى بعض الصليبيين على القافلة الإسلامية، وكان هؤلاء القادة يحيطون اطماعهم تلك بشيء من السرية، حتى لايسمع بهم قائد الحملة الفرنسية ثيبوت الرابع[١]

استعد هؤلاء القادة للهجوم على غزة فى ١٢نوفمبر سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م على رأس جماعة مؤلفة من خمسمائة فارس، ومايزيد على ألف راجل، إلا أن الأخبار تسربت إلى ثيبوت الرابع ومجموعة من الأمراء وزعماء الطوائف الدينية العسكرية، فقدموا عليهم وحاولوا اقناعهم بعدم المسير إلى غزة ولكن دون جدوى فقد أصر أولئك على المسير إلى غزة واتهموا ثيبوت الرابع (Thibautiv)ومن معه من الأمراء بالجبن وهذا يدل على فوضى الحملة الفرنسية وضعف قيادتها، فقد عجزت عن أن تثنى عزم بعض المنشقين عن تنفيذ مخططهم.[٢]

عندئذ سار المنشقون من الصليبيين صوب غزة، وحينما اقتربوا منها قبيل الفجر، أصدر هنرى(Henry) كونت بار أوامره إلى جنده بالتوقف فى منخفض وسط التلال الرملية على ساحل البحر الابيض المتوسط، حتى يأخذوا قسطاً من الراحة، فعلم به قائد الجيش المصرى وأرسل جواسيسه يتتبعون أخبارهم، علماً بأن الجيش المصرى فاق فى الضخامة والقوة ماكان يعلمه الصليبيون ويعقب رنسيمان على جهالة الصليبيين وعدم اتخاذهم الحيطة والحذر بقوله " لم يعتقد الامير ركن الدين أن يكون عدوه على هذه الدررجة من الحماقة، فأرسل رماته، ليزحفوا حول التلال

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٨٩ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج٣،ص٣٧٣-٣٧٤.

(١) رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٧٤.

الرملية، حتى كاد يتم تطويق الفرنج".[١]

أدرك أحد أمراء الصليبيين خطورة الموقف الذى هم فيه فامر الجند بالتراجع السريع لأن بقاء القوات فى الرمال يعيق تحركها فى صد أى هجوم، فيقعوا بذلك لقمة سائغة للمسلمين، وعندما تراجع مجموعة من أمراء الصليبيين باتجاه الشمال لحق بهم سائر الفرسان، ولم يبق غير هنرى كونت بار الذى لم يشأ أن يترك جنده يقعون فى قبضة المسلمين، وبقى معه أقرب الأصحاب وأخلصهم له، ثم دارت المعركة بين المسلمين والصليبيين يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وانتهت بهزيمة الصليبيين وانتصار المسلمين عليهم نصراً مؤزراً، حيث عجز الصليبيون عن التنقل فى أرض المعركة لثقل الأسلحة التى يحملها الجند[٢] "وأخذ من الفرنج ملوكهم واكنادهم وثمانون فارساً ومائتان وخمسون راجلاً ووصلوا إلى القاهرة وقتل منهم الف وثمانمائة ولم يقتل من المسلمين غير عشرة".[٣]

ويتحدث ابن العديم عن ذلك النصر فيقول " وكنت إذ ذاك بالقاهرة رسولاً إلى " الملك العادل" اهنئه بكسر عسكر الفرنج على غزة"[٤] وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى ثيبوت الرابع قائد الحملة الصليبية عن طريق الفارين من الصليبيين، فحزن لذلك وقرر أن يزحف على الفور إلى غزة للانتقام من المسلمين، غير أن الأمراء الصليبيين حذروه من ذلك واعلنوا تخليهم عنه لأن ذلك سوف يؤدى إلى

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيه، ج٣، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، ٢٨٣، رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٧٥، سعيد أحمد برجاوى، لحروب الصليبية فى المشرق، ص ٥٢٤، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٨٢.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٢٩٢.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٧.

قتل الأسرى من الصليبيين على ايدى المسلمين، بالاضافة إلى خوفهم من مطاردة المسلمين لهم عقب الانتصار الذى احرزوه فى غزة.[١]

ويتبين لنا من خلال ذلك ضعف الصليبيين وجهلهم بأحوال الدولة الأيوبية إذ أن النزاع كان قد استحكم بين ملوك بنى أيوب لدرجة أن استعان بعض حكام المسلمين بالصليبيين أنفسهم، كما حصل عندما طلب المظفر تقى الدين صاحب حماه المساعدة من الصليبيين ضد خصومه، الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وشيركوه صاحب حمص والحلبيين، غير أنه تراجع فى ذلك عندما قدم الصليبيون لمساندته ورفض خدماتهم فرجعوا إلى عكا متذمرين من ذلك.[٢]

ولقد استثمر الناصر داود هزيمة هذه الحملة وقرر حماية بيت المقدس وتحريره من يد الصليبيين على أن الروايات تختلف حول تحرير بيت المقدس سنة ٦٣٧هـ على يد الناصر داود، فقد ذكر أن الناصر داود توجه بجيشه ومن معه من اتباع الصالح نجم الدين أيوب إلى بيت المقدس، وحاصر القلعة التى بناها الفرنج، ونصب عليها المنجنيقات، واستمر محاصراً لها، وذكر أنه حاصرها وأحداً وعشرين يوماً، حتى اضطر العدو إلى طلب الامان مقابل أن يسمح لهم الناصر داود بالرحيل، فامنهم الناصر داود وخرج من كان فى بيت المقدس من الصليبيين ورجعوا إلى بلادهم، ثم دخل الناصر داود القلعة وهدمها وهدم برج داود عليه السلام واستولى على بيت المقدس وطهره من دنس الصليبيين واعاده إلى حظيرة الإسلام.[٣]

---

(١) مكسيموس مونروند، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق، ص ٢٨٣-٢٨٤، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبيه، ج٣، ص ٣٧٥.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٩٨٩.

(٣) ابن وصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٢٤٧، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩١، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٦٥، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٤٢، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص٣٥١، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٢، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج٢، ص ٥، الخطيب العمري، الدر المكنون فى الماثر الماضية من القرون، حوادث سنة ٦٣٧هـ.

ويذكر رنسيمان أن الناصر داود زحف على بيت المقدس، وأنه لم يكن للمدينة أسباب دفاع تحميها من الهجوم، سوى جزء من السور الذى بناه فردريك عند باب اصطفان بالإضافة إلى القلعة التى حصنها الصليبيون بما فى ذلك برج داود عليه السلام ويذكر ايضاً أن المدينة المقدسة لم تخضع للحكومة الصليبية بل لرتشارد فلانجيرى فى صور، الذى لم يحاول أن يشحنها بحامية كبيرة تدافع عن المدينة، ولهذا لم يصادف الناصر داود صعوبة فى السيطرة على بيت المقدس وإعادته إلى المسلمين ويضيف بأن " العساكر المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون سبعة وعشرين يوماً، حتى نفذت مؤنهم، فأذعنوا " فى السابع من كانون الاول سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وحصلوا على أمان بالرحيل إلى الساحل، ورجع الناصر داود إلى الكرك بعد أن دمر الاستحكامات بما فيها برج داود، كما تقدم.(١)

وتذكر رواية أخرى أن الناصر داود قام بتقسيم جيشه إلى فرق وعقد لكل وأحدة منها راية، وعين لكل فرقة جانباً من جوانب بيت المقدس، وتبين هذه الرواية أن الناصر داود لم يتسرع فى الهجوم وانتظر حتى كانت ليلة عيد من أعياد الصليبيين، فانشغلوا باحتفالاتهم وكان فى جمادى الاولى سنة ٦٣٧هـ/ديسمبر ١٢٣٩م فشنت القوات الإسلامية هجوماً مفاجئاً، تمكنوا فيه من دك الحصون وتدمير القلاع، ثم رفعوا اعلامهم فوقها.(٢)

ولعل ارجح رواية وردت فى فتح بيت المقدس سنة ٦٣٧هـ هى الرواية الأولى، ويتضح ذلك من خلال الرسالة التى كتبها الناصر داود إلى الخليفة العباسى المستنصر بالله (٦٢٣هـ-٦٣٩هـ / ١٢٢٦م -١٢٤١م) فى بغداد يبشره فيها

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٦-٣٧٧.

(٢) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، قسم لبنان والاردن وفلسطين، ج٢، ص ٢٢٥-٢٢٧، السيوطى، اتحاف الإخصا، ص ٢٨٨.

بفتح بيت المقدس، حيث يقول متحدثاً عن نفسه، مخاطباً الخليفة "... فنزل العبد عليهم بطائفة من عسكره، وراوحهم وغاداهم بالمناوشة في اصائل الحصار وبكره ورجا بالمطاولة أن يسلموها من غير اراقة دم، أو قتل موحد يفتدى من المشركين بأمم" إلى أن يقول:"ونصب عليهم المجانيق التى تزاحم الحصون بمناكبها، وتحرث شياطينها برجوم حجارتها بدلاً من نجوم كواكبها..، وأوجد النقابون فى الاسوار نقوباً سفرت نقامها، وولى الزراقون فى الستائر نيراناً هتكت حجابها" ثم يتحدث عن اعتصام الفرنج فى برج داود عليه السلام، وأنهم كانوا" قد سيروا رسولاً يطلب لهم الامان على نفوسهم واموالهم، والخروج بما يقدرون عليه من اسلحتهم واثقالهم " فلم يستجب لهم الناصر داود واعرض عنهم وضيق الحصار عليهم، ثم عادوا بعد ذلك سألوا الامان على نفوسهم والخروج بمجرد نفوسهم " فاستجاب لهم بعد أن ضربت عليهم الذلة والمسكنة.[١]

وعلى اية حال فإن الناصر داود استطاع أن يعيد بيت المقدس للمسلمين ويطهره من دنس الصليبيين، غير أن هذا الفتح لم يلق اهتماماً من عدد من المؤرخين، فلم يتحدثوا عنه فى حوادث سنة ٦٣٧هـ من امثال سبط بن الجوزى، والذهبى، وأبو شامة المقدسى[٢] ، على الرغم من أن الناصر داود " أمر بكتابة البشائر إلى سائر الممالك بهذا الفتح المبين، والنصر العزيز، فكتب وعادت الاجوبة عنها"[٣] ولقد اشاد بهذا الفتح الشاعر جمال الدين بن مطروح[٤] حيث

---

(١) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، قسم لبنان والاردن وفلسطين، ج٢، ص ٢٢٨-٢٣١.

(٢) عبدالجليل حسن عبدالمهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٣) السيوطى، اتحاف الاحضا، حوادث سنة ٦٣٧هـ.

(٤) هو الاديب الشاعر جمال الدين أبوالحسن بن يحىي بن عيسى بن ابراهيم بن مطروح المصرى صاحب الشعر الرائق، ولد سنة ٥٩٢هـ بصعيد مصر، برع فى الأدب وخدم الملك الصالح أيوب واقام عنده بحصن كيفا وسنجار وتنقل فى الوظائف حتى اصبح من أكابر رجال الدولة الأيوبية توفى فى شعبان سنة ٦٤٩هـ، انظر ترجمته فى ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص ٣٠٢-٣٠٩، ابن العماد

استكمال الحواشي في الصفحة التالية

اتفق وصوله ساعة الفتح مع رسـول الخليفـة محيى الدين بن الجوزى الـذى قـدم للاصلاح بين ملوك بنـى أيـوب " فقـال جمـال الديـن يمـدح الملـك النـاصر داود، ويذكر مضاهاته فى فتـح القـدس لعمـه الملـك النـاصر صـلاح الديـن يوسـف على اشـــــتراكهما فى اللقب والفعل وهو معنى لطيف مليح"، فيقول:

| | |
|---|---|
| المسجد الاقصى له عادة | سارت فصارت مثلاً سائراً |
| إذا غدا بالكفر مستوطنـا | أن يبـــعث الله له ناصراً |
| فنـــــاصر طهره أولاً | ونـــاصر طهره اخراً [(١)] |

كذلك اشاد به ابنه الأمجد مجد الدين أبومحمـد الحسـن بـن النـاصر داود، ويصفـه بأنه " السـلطان الملـك النـاصر.. صـلاح الدنيـا والديـن، سـلطان الاسـلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من ايدى المشركين، ناصر الاسلام وحصنـه، ذخـر الإمام وركنه مؤيد الملة وعزها، غياث الامـة وكنزهـا، كهـف الشـريعة وحسـامها " ويطيل الأمجد الإشادة بوالده الناصر داود محرر بيـت المقـدس، فيصـوره موضحـاً للحق وممهداً له ومظهراً للعدل ومحباً للعلوم، وأنه " جامع كلمة الايمان، ورافعها، مفرق كلمة الكفر وواضعها" ويسترسل فى الإشـادة بوالـده فيبيـن مكارمـه ويفضلـه على غيره من الملوك الاخرين[(٢)] ، ويصفه صـاحب مواقـف مشـهودة فـى الإسـلام، يقـول " لاجـرم أن لـه فـى الإسـلام مواقـف مشـهوده، ومشـاهد تعـددت فهـى غـير معدودة، جعل دأبه المحاماه عن الإسـلام وأهلـه، ولـم يتخـذ إلا رؤوس المشـركين اغماداً لرمحه، ونصله، ونصر دين الله، فارتضاه له ناصراً، وطهـر بـه وبسـميه بيتـه

---

الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص ٢٤٧-٢٤٩، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٦٤.

(١) ابـن واصـل، مفـرج الكـروب، ج٥، ص ٢٤٧، اليونينـى، ذيـل مـرآة الزمـان، ج١، ص ١٤٢، أبوالبركات الحنبلى، شـفاء القلـوب، ص ٣٥١، مجير الديـن الحنبلـى، الانـس الجليـل بتـاريخ القـدس والخليل، ج٢، ص ٥.

(٢) الأمجد مجد الدين أبومحمد الحسن بن الناصر داود الفوائد الجلية فى الفرائـد الناصريـة، حـوادث، سنة ٦٣٧هـ، وانظر عبدالجليل حسن عبدالمهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية، ص ٢١١.

المقدس أولاً واخراً".[١]

كما أن الناصر داود هو الاخر اشاد بهذا ا لفتح الذى تم على يده، ويظهر ذلك واضحاً جلياً فى الرسالة التى أرسلها الناصر داود إلى الخليفة العباسى المستنصر بالله فى بغداد، يبشره بهذا الفتح، وهو الفتح الناصرى الدويدارى " كما يسميه مجير الدين العليمى الحنبلى[٢] ، وكانت هذه الرسالة تتضمن وصفاً دقيقاً لهذا الفتح الذى تم فيه استنقاذ بيت المقدس وتطهيره من دنس الصليبيين

ومن أهم النتائج المترتبة على ذلك مايلى :

١ - عودة بيت المقدس للمسلمين.

٢ - تطهير بيت المقدس من دنس الصليبيين.

٣ - هدم القلاع والحصون التى شيدها الصليبيون.

٤ - إظهار قوة المسلمين ومحبتهم لمقدساتهم مهما بلغ بهم الضعف.

٥ - فرح المسلمين بعودة ثالث الحرمين إلى حوزة الإسلام.

وهكذا تمكن الناصر داود من استغلال الاوضاع السيئة للصليبيين في بلاد الشام وأعد العدة للاستيلاء على القدس وقد تحقق له ذلك إلا أن هذا العمل لم يتمتع به المسلمون كثيراً فقد عاد النزاع بين ملوك بنى أيوب الامر الذى أفقدهم القدس مرة أخرى إلا أن الخوارزمية الذين دخلوا بلاد الشام تمكنوا من استعادة القدس من الصليبيين رغم هزائمهم المتلاحقة على يد بعض ملوك بنى أيوب وهذا ماسنراه مفصلاً في المباحث التالية:

---

(١) الامجد مجد الدين، الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية، حوادث سنة ٦٣٧هـ.

(٢) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ٢٣٢.

# الفصل الثالث

(٢٣١)

# موقف الخوارزميين من الخلافات

## المتجددة بين ملوك بني أيوب

## (٦٣٨ - ٦٤١هـ)

- هزيمة الخوارزميين أمام الأيوبيين عند الرها سنة ٦٣٨هـ.
- تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين سنة ٦٣٨هـ
- تجدد خطر الخوارزميين على بلاد الشام سنة ٦٤٠هـ.
- تحالف الصالح أيوب مع الخوارزميين سنة ٦٤١هـ.

# هزيمة الخوارزميين أمام الأيوبيين عند الرها سنة ٦٣٨هـ

بعد استرداد بيت المقدس سنة ٦٣٧هـ على يد الناصر داود واعتقال الصالح أيوب في قلعة الكرك تطلع الخوارزميون إلى التحكم فى بلاد الشرق ونهب خيراتها، وكانت أول ضحية تقع فى ايديهم هى قلعة جعبر[1] التى كان يحكمها الملك الحافظ ارسلان ابن الملك العادل، إذ لم تكن له قوة يحافظ بها على قلعته من اطماع الخوارزمية إلا ماكان يبذله لهم من أموال لكف شرهم عنه، غير أن اطماع الخوارزمية لاتقف عند حد، فخاف الحافظ منهم خاصة وأن ولده الذى خرج عليه قد انضم إليهم، فارسل إلى أخته الصاحبة ضيفة خاتون جدة الملك الناصر الصغير صاحب حلب، يطلب منها أن تأخذ منه قلعة جعبر وبالس[2] وتعطيه مقابل ذلك مايماثلها من أعمال حلب، فرضيت أخته بذلك وتم الاتفاق بينهما فى صفر سنة ٦٣٨هـ /١٢٤٠ م على أن يأخذ الحافظ عوضاً عنها عزاز[3] وغيرها من الأعمال التى تكافىء بلاده.[4]

---

(١) قلعة جعبر: تقع على الفرات مقابل صفين، وكانت تعرف باسم دوسر فتملكها رجل من بنى نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به، انظر ياقوت معجم البلدان.

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) عزاز: بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب بينهما مسيره يوم، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢٤٨-٢٤٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥،ص٢٧٩،

استكمال الحواشى السفلية في الصفحة التالية

وما إن تم الاتفاق بين الطرفين وأرسل كل واحد منهما نوابه لتسلم البلاد التى وقع الاتفاق عليها، حتى خرجت الخوارزمية بمجموعها واغـارت على قلعة جعبر، ثم زحفوا إلى بالس وانقضوا عليها ونهبوها ودمروها، ولم يسـلم من أهلها إلا من كان قد خرج منها قبل وصولهم إليها إلى حلب وإلى منبج[(١)]

انتهز بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ماقام به الخوارزمية من الهجوم على ممتلكات الأيوبيين فأغار فى سنة ٦٣٨هـ /١٢٤٠م على سنجار واخذها من صاحبها الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل الأيوبى، الذى لم يبق بيده بعد سنجار سوى عانه فاضطر إلى بيعها للخليفة المستنصر بالله بجملة من المال، أما سنجار فقد بقيت بيد لؤلؤ حتى توفى فى الثالث من شعبان سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م.[(٢)]

ثم قصدت الخوارزمية بعد ذلك التوجه إلى حلب، وانضم إليهم جمع غفير منهم الجواد يونس وولد الملك الحافظ والملك الصالح بن الملك المجاهد صاحب حمص حتى أصبح جيشهم يقدر بحوالى إثنى عشر ألف فارس[(٣)] ويزعم

---

ابو الفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٧، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٤١، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٧٦.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٢، ومنبج: بلد قديم بالشام وما أظنه إلا روميا وتبعد عن حلب عشرة فراسخ، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨١، نافع العبود، الدولة الخوارمية، ص١٧٠، عفاف صبره، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٧٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٢، ويذكر سبط ابن الجوزى، وابن ايبك أن عدد قوات الخوارزمية ومن انضم إليهم تقدر بحوالى خمسة الاف فارس، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٣٥، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٤١، وانظر كذلك ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٧٥.

البعض أن سبب هذه الحملة على حلب، أن زعيم الخوارزمية محمد تركان خان بن دولة شاه الخوارزمي أرسل إلى زعيم حلب يخطب ابنته، فلم يلبى طلبه، وأمر بإهانه رسوله.[1] عندئذ خرج إليهم عسكر حلب بقيادة المعظم توران شاه بن صلاح الدين وعسكروا بالنقرة[2]، ثم نقلوا معسكرهم إلى منبج حيث اقاموا بها فى انتظار قوات الخوارزمية التى توجهت إليهم فى جمع غفير من العرب بقيادة الأمير على بن حديثة من آل فضل، وكان هذا الأخير فى صفوف الحلبيين وتركهم لتقريبهم الأحلاف لأنهم اعداؤه[3]

لم يأبه الخوارزميون للجيش الحلبى بل واصلوا مسيرهم إلى الفرات وعبروا من جسر الرقة وساروا حتى وصلوا إلى نهر بوجيار[4]، فسمع بهم عسكر حلب وقرروا تغيير معسكرهم، فانتقلوا إلى وادى بزاعا" واصبح كل من الفريقين يطلب صاحبه"، ولم يكن عسكر حلب فى مرحلة تمكنه من الانتصار على القوات الخوارزمية حيث أن عسكرهم لم يتجاوز ألف وخمسائة فارس، ومع ذلك كانوا متفرقين فى الاقطار، فبعضهم كان فى نجدة غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم على التتر، وبعضهم كان متحصناً فى قلعة جعبر لحمايتها من الخوارزمية،

---

(١) ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٧٥، الهمذانى، جامع التواريخ،ص ١٩٣.

(٢) النقرة: بالفتح ثم السكون، جبل بحمى ضرية بإقبال نضاد عند الجثجاثة، وقيل ماء لغني، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٩-٢٥٠، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٢٨٢، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٦.

(٤) نهر بوجيار: لم يعرف مكان هذا النهر فى المعاجم المتوفرة، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٠، حاشية ٢.

**والبعض الآخر متفرقون فى بقية القلاع التابعة لحلب مثل شيزر وحارم وغيرها.[(١)]**

**استعد كل من الفريقين لقتال خصمه، فاقبلت الخوارزمية مع زعيمهم بركة خان ومعه من الأمراء كشلوخان، وبردى خان، وغيرهم وكذلك من إنضم إليهم كالجواد يونس وابن الملك الحافظ والصالح ابن المجاهد صاحب حمص بالاضافة إلى نجدة ماردين وعبروا نهر الذهب[(٢)] وتقابل الفريقان في قرية البيرة[(٣)] فى يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م " فصدموا عسكر حلب صدمة تزحزحوا لها "[(٤)] والتف على بن حديثة من ورائهم فوقع على الغلمان والركبدارية[(٥)]، فاضطربت صفوف الحلبيين لاحاطة العسكر بهم من جميع الجهات، وانهزموا اقبح هزيمة ولم ينج منهم إلا القليل بعد القتل والاسر الذى حل بكثير منهم من قبل القوات الخوارزمية.**

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢٥٠، ابن واصل،مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٢-٢٨٣، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٤١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٣٣٩. وشيزر: قلعة تشمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم فى وسطها نهر الأردن، تعد فى كورة حمص، وحارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية، وهى من أعمال حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) نهر الذهب: يزعم أهل حلب أنه نهر وادى بطنان الذى يمر ببزاعة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهى قلعة حصينة ولها رستاق واسع، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٠، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٢٨٣، أبوالفدا، المختصر ، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٤، الخطيب العمري، الدررر المكنون، ورقة ٢٥٦، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص٣٤١، على عوده، المرجع السابق، ص٣٣٩.

(٥) الركبدارية: الركبدارية هم الذين يحملون السرج أو الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب العامة والاعياد، انظر القلقشندى، صبح الاعشى ج٤،ص٧.

وكان من ضمن الذين وقعوا فى قبضة الخوارزمية قائد القوات الحلبية المعظم ابن صلاح الدين واخوه واغلب الأمراء، كما قتل الصالح بن الأفضل بن صلاح الدين، ووقعت اثقال العسكر فى ايدى الخوارزمية، وتمكن الاعراب من نهب الاموال وغيرها وكانوا " أشد ضرراً على العسكر من اعدائهم".[١]

تقدمت الخوارزمية بعد ذلك صوب حيلان[٢]، وساروا على النهر إلى فافين[٣]، واخذوا أموال العسكر بتلك المناطق، ولحبهم الشديد لجمع الأموال وخوفهم من الأسرى، أخذوا يقتلون بعضهم ليشترى غيرهم نفسه بماله، فنجا بعضهم وغدروا بالبعض الاخر بعد أن اخذوا منه المال فلم يطلقوه" وشربوا تلك الليلة وقتلوا جماعة من الاسرى صبراً"[٤]

اضطرب أهل حلب من جراء هذه النكسة التى وقعت على العسكر وخافوا من تقدم الخوارزمية إلى حلب فتدور الدائرة عليهم إذ أن الخوارزميين متى ماتحكموا فيهم فإنهم لن يرقبوا فيهم إلا ولاذمة لذلك أمرت الصاحبة ضيفة خاتون المعنين فى البلد بتحصينها وحفظ الأسوار والأبواب فخاف الأهالى المقمين خارج السور

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٤٩-٢٥١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٣-٢٨٤، ابن خلدون،العبر، ج٣، ص ١٦٨، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٥٦، الغزى، نهر الذهب فى تاريخ حلب، ج٣،ص١٥٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢) حيلان: قرية من قرى حلب تخرج منها عين فواره كثيرة الماء تسيح إلى حلب وتدخل إليها فى قناة وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) فافين: قرية معروفة قرب حلب، انظر ابن العديم، المصدر السابق،ج٣،ص ٢٥١، حاشية ٤.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥١، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٢٨٤، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٦٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٤، الغزى، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٢.

وسارعوا بالدخول إلى المدينة بعد أن نقلوا معهم ما استطاعوا من الأقمشة والأمتعة، ولم يكن في حلب من الجند سوى اميرين في جماعة قليلة لاتتجاوز مائتي فارس كانوا يخرجون إلى ظاهر حلب في دوريات متتابعة لتستكشف الأخبار حتى لايأتيهم العدو على حين غرة من أمرهم.(١)

استمر الخوارزمية في مواصلة مسيرتهم الفوضوية فبثوا سرياهم في قرى حلب ووصلت غاراتهم إلى بلد عزاز وتل باشر وبرج الرصاص(٢) وجبل سمعان وطرف العمق وبلد الحوار(٣) واحاطوا باهل تلك المناطق احاطة السوار بالمعصم فلم يستطيعوا الفرار منهم " واخذوا من الغنائم من المواشي والأمتعة والنساء والصبيان مالايعد ولايحصى، وفعلوا من ارتكاب الفواحش مع حرم المسلمين مالايفعله التتر، ولا غيرهم من الكفار إلا ماسمع عن القرامطة"(٤)، انطلق الخوارزمية بعد ذلك صوب بزاعا والباب(٥) وعذبوا أهل هذين البلدين واجبروهم على إخراج اموالهم التى أخفوها وقتلوا بعضهم ونهبوا كل ما وقعت ايديهم عليه من الأمتعة والأموال، ثم ساروا إلى منبج فاعتصم أهلها بسور

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢٥٢، ابن واصل، مفرج الكرب، ج٥، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة شمال حلب أهلها نصارى أرمن. برج الرصاص: قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) بلد الحوار: قرب العمق، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٢، حاشية ١.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٢، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٢٨٥، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٦٨،ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى ج٢، ص٢٤٤، الغزى، نهر الذهب، ج٣، ص ١٥٢.

(٥) بزاعا: بلدة من أعمال حلب فى وادى بطنان بين منبج وحلب، بينهما وبين كل واحدة منها مرحلة وفيها مياه وعيون جارية وأسواق حسنة، انظر ياقوت، معجم البلدان. والباب: يعرف بباب بزاعا بليدة من اعمال حلب، انظر أبوالفدا، تقويم البلدان.

ولكن الخوارزمية تمكنوا من دخولها عن طريق الأماكن التى لاسور لها ووضعوا السيف فى أهل البلد وكان ذلك فى يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ فقتلوا ونهبوا ودمروا واستباحوا الاعراض بل بلغ بهم الأمر أن جاهروا الله تعالى بالمعاصى فى بيت من بيوته فقد " التجأ جماعة من النساء إلى الجامع فدخلوا عليهن، وارتكبوا الفواحش فى الجامع"وفقدوا كل معنى من معانى الإنسانية والشفقة والرحمة إذ " كان الواحد منهم يأخذ المرأة وعلى صدرها ولدها الرضيع فيأخذه ويضرب به الأرض ويأخذها ويمضى" وبعد هذه الأعمال الوحشية الهمجية التى صدرت منهم فى حق اخوانهم المسلمين رجعوا إلى بلادهم.[١]

وبدراستنا التاريخية لاحداث تلك الفترة يعجز الانسان عن مواصلة الكتابة لدهشته الشديدة وحيرته اللامحدودة من هذه الأعمال التى قامت بها الخوارزمية، ويتساءل هل هؤلاء مسلمون ؟ وإذا كانوا مسلمين فما الذى حملهم على ذلك؟ ومامقدار تمسكهم بالاسلام ؟ إن المطلع على هذه الأعمال يكاد يجزم بأنها لايمكن أن تصدر عن مسلم قط... فما هو السبب إذاً ؟ كل ذلك يمكن أن يستنبط من قوله تعالى: ﴿وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[٢] وقوله تعالى:﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾[٣] فالله سبحانه وتعالى سلط هؤلاء الظلمة من الخوارزمية على أهل تلك البلاد بسبب انحرافهم عن شرع الله، كما أن ذلك فى نفس الوقت استدراج من الله سبحانه وتعالى للخوارزمية الذين طغوا وبغوا فى البلاد. إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٢-٢٥٣، ابن واصل، مفرج الكروب،ج٥، ص٢٨٥-٢٨٦، المقريزى، السلوك، ج١،ق٢،ص٣٠٣، أبوالفدا، المختصر،ج٣،ص١٦٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٣٤١.

(٢) سورة هود، آية ١١٧.

(٣) سورة الانعام، آية ١٢٩.

يفلته، ومما شجع الخوارزمية كذلك على القيام باعمالهم تلك هو الصراع الدائر بين ملوك بني أيوب.

وما أن سمع المنصور صاحب حمص بتلك الأعمال الشنيعة التى قام بها الخوارزمية،حتى اخذته الحمية وقرر الدفاع عن حلب والانتقام منهم رغم أنه كان فى مقابلة الفرنج، فسار إلى حلب بعسكره ومن كان عنده من عسكر دمشق ووصل إليها يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الآخر وخرج الناصر صاحب حلب واهل البلد لاستقباله فى السعدى[1] ثم انتقل المنصور صاحب حمص إلى الهزازه[2] وعقد اجتماع مع المسئولين فى حلب تقرر فيه أن تجمع العساكر مع بعضها وتكون قيادتها بيد المنصور صاحب حمص[3]، وكان للمؤرخ المعاصر ابن العديم دور كبير فى تعزيز قوات حلب عندما طلب من الصالح إسماعيل فرقة مساندة للقوات المجتمعة بها وذلك عندما أرسلته الصاحبة ضفية خاتون فى سفارة إلى أخيها الصالح إسماعيل لتحليفه لها ولابن ابنها السلطان الناصر فحلف له الصالح إسماعيل وأرسل معه فرقة مساندة، وحتى لاتتشتت الجهود قامت الصاحبة " باطلاق الاسرى الداوية الموجودين بحلب استكفاء لشرهم "وحين سمع الخوارزمية بتجمع العساكر فيها لقتالهم بقيادة المنصور صاحب حمص أخذوا يتجمعون بحران وعزموا على مهاجمتها ومباغتتهم قبل أن يتم

---

(١) السعدى: فضاء فياح تجرى فيه أنهر متشعبة من نهر واحد بحافتيها مروج خضراء وبها من الزهور المختلفه مالايبلغه الوصف، وقد ذكر ابن الشحنة فى الدرر المنتخب ص ٢٥٥، أنها منتزهات حلب، انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٤، حاشية ١.

(٢) الهزازة: كانت فى ظاهر حلب وهى اليوم من أحياء المدينة وفى قلبها، انظر الدر المنتخب، ص ١٠٥، وانظر كذلك ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٤، حاشية ٢.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٣-٢٥٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٦-٢٨٧، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٤١٠، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٨.

استكمال تجمع القوات الأيوبية بحلب وعندئذ يضطرون إلى طلب الصلح منهم إلا أنهم عدلوا عن خطتهم تلك وأثروا عدم الأصطدام بالأيوبيين بعد انفصال على بن حديثة عنهم وانضام طاهر بن غنام ومن معه إلى القوات الأيوبية.[١]

تحركت الخوارزمية من حران في يوم الأثنين سادس عشر من شهر رجب سنة ٦٣٨هـ وعبروا الفرات إلى الرقة، ونقل المنصور معسكره إلى شرقي حلب على أرض النيرب وجبرين وأخذ الخوارزمية يعيثون الفساد في البلدان التي يمرون عليها ويحرقونها ويأخذون مايقدرون عليه منها ومن هذه البلاد التي لحقها الضرر من القوات الخوارزمية ألفايا وديرحافر والجبول وأرض النقرة[٢] وكان الملك المنصور صاحب حمص ينقل عسكره من مكان إلى مكان اخر تبعاً لتنقلات الخوارزمية وأقام الخوارزمية لهم يزكاً في تل عرن[٣] بينما كان يزك المنصور في بوشلا[٤] ومن أسوأ ماقامت به القوات الخوارزمية احراقها " الاقوات التي في القرى واخذهم ماقدروا عليه".[٥]

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٤-٢٥٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٣٤٢.

(٢) الفايا: قرية من عمل المعرة وصفها ابن الشحنة في الدر المنتخب ص ٣٥إلى"القانا" انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥، حاشية ١. دير حافر: قرية بين حلب وبالس. الجبول: قرية كبيرة إلى جنب ملاحة حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان. النقرة: على بعد مرحلة واحدة من معرة النعمان، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٢، حاشية ٦.

(٣) تل عرن: يقال لها تل أعرن وهي قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) بوشلا: لم يعرف موقعها بالضبط، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥، حاشية ٣.

(٥) ابن العديم : المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٩، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨، الغزى، نهر الذهب، ج٣، ص١٥٣ عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوازمية، ص ٢٨١.

واصل الخوارزميين التدمير والنهب في البلدان الاسلامية فدخلوا كل من الصافية وسرمين[١] ومعرة النعمان وكفرطاب وشيزر[٢] التي اعتصم أهلها بالربض تحت القلعة فهاجمهم الخوارزمية وأطلق عليهم أهل القلعة الجروخ[٣] والحجارة التي أدت إلى قتل جماعة كثيرة منهم واضطر البقية إلى الخروج من الربض، وحاول المنصور صاحب حمص أن يقطع طريق العودة على الخوارزميين إلا أنهم فطنوا لهذه الخطة فغيروا طريق عودتهم واتجهوا صوب حماه ولم يتعرضوا لهذه المدينة بأذى لأن صاحبها من اتباع الصالح أيوب صاحب مصر الذي يعتبر مسؤلاً عنهم، حتى أنهم كانوا يبررون جميع اعمالهم تلك بأنها انتقام له من خصومة الحلبيين وصاحب حمص وصاحب دمشق.[٤]

سمح صاحب حماه لبعض الخوارزمية بالدخول اليها والتزود منها نكاية بالقوات الأيوبية التي يقودها المنصور صاحب حمص وخرجوا من حماه وتوجهوا

---

(١) الصافية: بليدة كانت قرب ديرقنى فى أواخر النهروان قرب النعمانية. سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) كفرطاب: تقع بين المعرة وحلب، انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٦، حاشية ١.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥-٢٥٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٨٩-٢٩٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٣ أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٤، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٤١٠، الغزى، نهر الذهب، ج٣،ص ١٥٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٤) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٥-٢٥٦، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٩-٢٩٠، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٠٣ أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٤، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٤١٠، الغزى، المصدر السابق، ج٣،ص ١٥٣، على عوده، المرجع السابق، ص ٣٤٢-٣٤٣.

إلى سلمية التابعة لصاحب حمص، ثم ساروا إلى الرصافة[١]، فى الوقت الذى كانت قوات المنصور تلاحقهم لقطع الطريق عليهم[٢] وانقض عليهم جمع من العرب قرب الرصافة بعد أن تعبت خيولهم نتيجة لقلة الزاد والعلف ومواصلة السير بدون انقطاع، فعمدوا إلى التخفف من اثقالهم وغنائمهم التى جمعوها من البلدان، وفكوا جمعاً كثيراً من الاسرى وساروا مسرعين إلى الرقة حتى لايقطع عليهم المنصور الطريق فوصلوا إلى الفرات مقابل الرقة يوم الاثنين خامس شعبان سنة ٦٣٨هـ /١٢٤٠م، وفى الوقت نفسه كان المنصور فى سباق مع الخوارزمية فوصل بعسكره إلى صفين[٣] ثم انطلق منها مسرعاً ليسبقهم ويحول بينهم وبين الماء فلايستطيعوا بذلك العبور إلى الشرق ولكنه وصل بعد فوات الاوان وتقدمت الخوارزمية عليه بساعة واحدة، ووجدوهم قد احتموا فى بستان البليل[٤] واخذوا منها الابواب وجعلوها ستائر واداروا عليهم خندقاً.[٥]

ورغم تحصن الخوارزمية فان المنصور استطاع أن ينتصر عليهم بعد أن استمر الصراع بينهم إلى العشاء وغنم منهم كثيراً من الغنائم، ولم يستطع المنصور

---

(١) الرصافة: هى رصافة هشام بن عبدالملك تقع فى غربى الرقة، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) ابن العديم،زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٦، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٩١، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨هـ، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٤، الغزى، نهر الذهب، ج٣، ص ١٥٣.

(٣) صفين: قرب الرقة وعندها الواقعة المشهورة باسمها، ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٧، حاشية ١.

(٤) بستان البليل: اسم لشريعة صفين فى الشعر، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٦-٢٥٧، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩١-٢٩٢، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٤، الغزى، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٣.

مواصلة القتال بسبب نقص الزاد والعلوفة، فرجعوا إلى منزلتهم بصفين بعد أن وضعوا حامية بسيطة فى البليل تراقب تحركات الخوارزمية واستطاعت الخوارزمية أن تنقض على هذه الحامية فتقتلهم عن اخرهم، ثم عبروا الفرات إلى الرقة بعد أن وهنت قواتهم وهلكت دوابهم ورجالهم، وارسلوا جماعة منهم إلى حران ليحضروا لهم دواباً ليركبوها فاحضروها لهم وتوجهوا إلى حران[١]

ثم تحرك المنصور بعساكره للحاق بهم وأراد العبور من جسر قلعة جعبر فلم يتمكن من ذلك لقلة العلوفة فتوجه بالعساكر إلى البيرة وعبر عن طريق جسرها وعسكر بقواته مابين سروج والرها، وأخذ يتعقب الخوارزمية في تلك المناطق حتى تراجعوا إلى حران واخذوا يعدون أنفسهم ويجمعون فلولهم المتفرقة فى الاطراف إلا أنهم أحسوا بضعفهم أمام قوات المنصور فعمدوا إلى الزام سكان حران بالخروج معهم حتى يكثروا سوادهم كما انهم عزموا على تدبير خدعة ضد المنصور " فعملوا الرايات من القصب على الجمال ليلقوا الرعب فى قلوب العسكر بتكثير سوادهم " ونقلوا معسكرهم من حران إلى قرب الرها، فى الوقت الذى أرسل فيه صاحب الروم غياث الدين كيخسرو نجده للمنصور.[٢]

لم يعبأ المنصور بما فعله الخوارزمية بل سار إلى أن وصل إليهم وتقابل معهم يوم الاربعاء الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٣٨هـ فانكسروا، واستبيح عسكرهم وهربوا من أرض المعركة فتبعتهم عساكر المنصور حتى حال الليل بينهم ولم تتوقف الخوازرمية إلا فى حران حيث اخذوا نساءهم وفروا بعد أن عين

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٧، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٩٢، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨هـ.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٥٧-٢٥٨، وانظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩٢-٢٩٣، الغزى، نهر الذهب، ج٣، ص ١٥٣.

زعيمهم بركة خان والياً على القلعة[١] وتوجهوا حتى وصلوا إلى الخابور والمنصور بعساكره يتعقبونهم فاضطروا إلى إلقاء اثقالهم وبعض أولادهم ونزلوا في واد بالقرب من الفرات فجاءهم السيل ليلاً على حين غرة من أمرهم فغرقت منهم اعداد كبيرة وماذاك إلا جزاء من الله سبحانه وتعالى على فسادهم في المناطق التي آوتهم بعد هزيمتهم امام المغول، ودخلت البقية الباقية منهم إلى بلد عانة واحتموا به لأنه بلد الخليفة المستنصر بالله[٢]، وتوجه امير الخوارزمية من عانة إلى بغداد ملتجأ إلى الخليفة فخرج إليه موكب الديوان وتلقاه صاحب باب المراتب خارج السور ودخل معه فقبل العتبة ثم دخل دار الوزارة فخلع عليه نائبها، واهدى سيفاً واسكن داراً بدرب دينار الصغير، ووصل بعده ابن كشل خان أحد أمراء الخوارزمية واعتمد معه مثل ماعتمد مع صاحبه.[٣]

عمت الفرحة حلب وغيرها من البلاد المتضررة من الخوارزمية وزينت حلب وضربت البشائر ووصلت اعلامهم وأسراهم إلى حلب، وصمدت قلعة حران عدت أيام ثم سلمت إلى الحلبيين وأخرج من كان بها من الأسرى من أمراء حلب وغيرهم، وانتهز بدر الدين لؤلؤ هذه الفرصة فسار بقواته إلى نصبين وإلى داراً[٤]

---

(١) ابن العديم،زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٨، ابن واصل،مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٩٣، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٤٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨هـ، الذهبي، دول الاسلام، ج٢، ص ١٠٩،ا المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٧٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٣٤٤.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق،ج٣،ص٢٥٩، ابن واصل، المصدر السابق،ج٥،ص٢٩٣، الخطيب العمري، المصدر السابق، حوادث سنة ٦٣٨هـ، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى،ج٢،ص٢٤٤-٢٤٥.

(٣) ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٧٥، الهمذاني، جامع التواريخ، ص ١٩٣.

(٤) دارا: بلدة من بلاد الجزيرة بين نصيبين وماردين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

فاستولى عليها واستخلص من دارا المعظم تورنشاه بن صلاح الدين واخذه إلى الموصل وقدم له تحفاً وهدايا ومراكب جميلة ثم أرسله معززاً مكرماً إلى حلب.[(١)]

وحاول المنصور وعسكر حلب ان يستردوا جميع البلاد التى فقدوها، فاستولى عسكر حلب على حران وسروج والرها ورأس عين وجملين والموزر والرقة[(٢)] وضموها جميعاً إلى مملكتهم أما المنصور إبراهيم صاحب حمص فقد اخذ لنفسه الخابور وقرقيسيا[(٣)]، وتسلم نواب صاحب الروم السويداء بعد استيلاء عسكر حلب عليها لانها من مضافات أمد، وكانت النجدة التى سيرها صاحب الروم وصلت بعد هزيمة الخوارزمية فارسل الحلبيون لافرادها الخلع والنفقات، ثم تقدمت عساكر حلب والتقت بعساكر الروم وتوجهوا إلى أمد وضربوا الحصار حولها وكان بها المعظم غياث الدين بن الصالح أيوب الذى اضطر إلى تسليمها إليهم مقابل أن يبقوا عليه حصن كيفا وقلعة هيثم فتم الاتفاق على ذلك.[(٤)]

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٥٩، ابن واصل، مفرج الكروب،ج٥ ص ٢٩٤-٢٩٥، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٣٨هـ، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٥، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٤١١، الغزى، نهر الذهب، ج٣، ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) جملين والموزر، قلعتان على يوم من حران بين ديار بكر وديار مضر، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٢، حاشية ٢.

(٣) قرقيسيا: بلد على نهر الخابور، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢٦٠، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٥٧-٢٥٨، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٥٧، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٥، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى،ص ٣٤٥.

## تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين

## (٦٣٨هـ / ١٢٤٠م)

ورغم فرح الصالح إسماعيل بهزيمة الخوارزميين – حلفاء الصالح أيوب إلا أنه استاء من ذلك الانقلاب الذى حدث فى مصر وادى إلى سلطنة الصالح أيوب لأنه كان يدرك تمام الادراك أن الصالح أيوب لن يغفرله تلك الضربة التى وجهها إليه من الخلف حيث وعده أنه سيلحق به لانتزاع مصر من اخيه العادل ولكنه غدر به واتجه إلى دمشق وانتزعها من ولده المغيث، إضافة إلى أن الصالح إسماعيل كان يعلم تمام العلم أن ابن اخيه الناصر داود والذى كان له دور كبير فى مساندة الصالح أيوب فى استرداد مصر لن يقر له قرار حتى يحرض الصالح أيوب على تسيير الجيوش معه لاسترداد مملكة أبيه " فخاف منه الصالح إسماعيل خوفاً منعه المنام والطعام والشراب"[(١)]

وكان أول اجراء قام به الصالح إسماعيل إزاء هذا الأمر الذي أقلقه هو مهاجمة املاك الناصر داود انتقاماً منه لتحالفه مع الصالح أيوب، فأوعز بذلك إلى الصليبيين المنتظرين لكل فرصة مواتية للاغارة على البلدان الاسلامية وفعلاً تحركت جموع الصليبيين صوب نابلس من أملاك الناصر داود، ومن فضل الله أنهم لم يستطيعوا تحقيق مايصبون إليه فقد تمكن أهل نابلس من مقاومتهم وكسرهم، فعادوا إلى ديارهم يجرون اذيال الخيبة والخسران.[(٢)]

أيقن الصالح إسماعيل بعد ذلك أنه اصبح أمام خطر محقق يتهدده كما ايقن أن قوته العسكرية لاتستطيع بمفردها الصمود أمام عساكر مصر فقرر المبادرة

---

(١) السبكى، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٤٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، ص ٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٦٩.

(٢) يوسف غوانمه، امارة الكرك الأيوبية، ص ٢٦٣.

**بالهجوم على الصالح أيوب فى مصر قبل أن يتمكن من توطيد نفوذه بها خاصة وأنه بلغه قبض الصالح أيوب على المماليك الأشرفيه والخدام وبعض الامراء، وأن البقية الباقية من أمراء مصر كل واحد منهم خائف على نفسه من الصالح أيوب[(١)]، وقبل أن يتوجه الصالح إسماعيل إلى مصر أراد يستند إلى قوة عسكرية تساعده فى تحقيق مايصبو إليه، فكاتب الصليبيين واتفق معهم على معاضدته ومساعدته فى محاربة الصالح أيوب صاحب مصر، وكان من الطبيعى أن يرفض الصليبيون تقديم مساعدتهم له دون مقابل لذلك لجأ إلى إعطائهم قلعة صفد[(٢)] وقلعة الشقيف[(٣)] وبلادها ومناصفة صيدا[(٤)] وطبرية ومايتبعها، وجبل عاملة[(٥)] وسائر بلاد الساحل، وارسل فى الوقت نفسه إلى كل من الحلبيين والمنصور صاحب حمص يطلب منهم القدوم لمشاركته فى الهجوم على مصر.[(٦)]**

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٣١.

(٢) صفد: مدينة فى جبالة عاملة المطلة على حمص بالشام وهى من جبال لبنان، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) الشقيف: قلعة حصينة جداً فى كهف من الجبل قرب نابلس من أرض دمشق بينها وبين الساحل، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما فراسخ، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) جبل عاملة: يطلق هذا الأسم على جهة جبلين قرب الساحل فى اقليم صفد، ويوجد بها حصن الشقيف، انظر المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣٠٣، حاشية ٤.

(٦) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٠٣، ابن العميد، المصدر السابق، ص٣١، السبكى، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٤٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج٢، ص٦، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص١٤٣-١٤٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ص٢٥٦، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٢، ص٤٢١، النجوم الزاهرة ج٢، ص٣٣٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٢٧٦.

ومن جراء ذلك ارتاع رعايا الصالح إسماعيل من تلك الطامة الكبرى التى حلت بهم فقررت بعض القلاع عدم الإنصياع لأوامر الصالح إسماعيل لأن ذلك يعد فى نظرهم من المولاة للكفار التى نهوا عنها فى قوله تعالى " ﴿لاتجدوا قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانو آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمن وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خلدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون﴾[١]، ومن تلك القلاع التى رفضت الانصياع لاوامر الصالح إسماعيل قلعة الشقيف ففى اوائل سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م أمر الصالح إسماعيل نائبه على قلعة شقيف أرنون ويدعى الحاج موسى بتسليمها لفرسان الداوية، فرفض تسليمها ورد على الصالح إسماعيل بعبارة تنم عن حقيقة مشاعره حيث قال:" والله لاجعلته فى صحيفتى "، فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن قبض عليه وضربه ضرباً مبرحاً حتى قتله وصادر كل أمواله ومدخراته، ورغم مافعله الصالح إسماعيل بنائبه على هذه القلعة فان حاميتها بزعامة رجل يدعى أحمد الشقيفى اعتصموا بالقلعة عليه ورفضوا تسليمها للصليبيين، وبادروا بمراسلة الناصر داود صاحب الكرك ودخلوا فى طاعته[٢]

خاف الصالح إسماعيل من أن يكون ذلك سبباً لاثارة الرأى العام فى العالم الإسلامى ضده هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى خشى أن يكون ذلك مدعاة لتخلى الصليبيين عنه فى الهجوم على مصر، فسارع بالخروج من دمشق بعسكره وحاصر قلعة الشقيف حتى اضطروا إلى تسليمها إليه بعد أن طلبوا منه الأمان على أنفسهم قائلين " أنت أمرتنا أن نسلمه إلى نواب الداوية ونحن فما يحل لنا أن نسلمه

---

(١) سورة المجادلة، آية ٢٢.

(٢) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٢٧٧.

للفرنج، ونحن نسلمه إليك وأنت تفعل فيه ماتختاره" فسلمه الصالح إسماعيل بعد ذلك للداوية وظل بأيديهم حتى تم استرداده على يد الظاهر بيبرس[١]

وما إن تسلم الصليبيون هذه القلاع حتى شرعوا فى بنائها وتحصينها، ومن تلك القلاع التى حرصوا على بنائها قلعة صفد التى كانت خراباً منذ سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م حين دمرها المعظم عيسى زمن الحملة الصليبية الخامسة، وبما أن البناء يحتاج إلى ايد عاملة كثيرة فقد قرر الصليبيون إحضار جميع الاسرى المسلمين لديهم وكانوا يقدرون بحوالى الف مسلم وتسخيرهم فى بناء القلعة، واقام الصليبيون عليهم حوالى مائتى رجل منهم لحراستهم.[٢]

أحس الأسرى المسلمين بالحرقة والاسى من هذا العمل الذى يخدم مصالح الكفار فى بلاد المسلمين ويقوى عزيمتهم، فاتفقوا فيما بينهم على الانقضاض على حراسهم وتجريدهم من اسلحتهم والاستيلاء على صفد، وحتى يضمنوا نجاح خطتهم ارسلوا إلى الأمير سيف الدين على بن قلج النورى والى قلعة عجلون من قبل الناصر داود ليرسل إليهم من يتسلم القلعة إذا تخصلوا من حراسهم، فارسل والى قلعة عجلون رسالة الاسرى إلى سيده الناصر داود صاحب الكرك الذى أرسلها بدوره إلى عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وفى الحقيقة أن هذا الأمر مستغرب من الناصر داود إذ كيف يرسل هذه الرسالة إلى عمه الصالح إسماعيل وهو يعلم موقفه من الصليبيين. وكيفما كان الأمر فإن الصالح إسماعيل بعد أن تسلم رسالة الناصر داود بشأن الأسرى المسلمين سارع بتسليمها إلى فرسان الداوية، وهنا نطرح تساؤلا آخر أما كان الأجدر بالصالح إسماعيل أن يحذر الأسرى من تنفيذ خطتهم أو على الأقل إهمال شأن الرسالة وعدم الرد عليها وعندما

---

(١) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٧٧.

(٢) على عودة، المرجع السابق، ص ٢٧٨.

إطلع الداوية على تلك الرسالة قبضوا على أولئك الاسرى ودخلوا بهم عكا " فذبحوهم عن آخرهم " ثم واصل الصليبيون بناء قلعة صفد بمساعدة الصالح إسماعيل الذى لم يراع حرمة الدم بارتكابه هذا العمل الشنيع الذى يتنافى مع كل القيم الخلقية[١]، وبلغت به الجرأة والتواطؤ مع الصليبيين أن يسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين، فتأثر العز بن عبدالسلام[٢] من ذلك وتحرج المتدينون من تجار السلاح من مبايعتهم، فاستفتوا الشيخ العز ابن عبدالسلام فى بيع الصليبيين السلاح، فافتاهم بقوله:" يحرم عليكم مبايعتهم، لانكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به اخوانكم المسلمين".[٣]

وسرعان ماثار الرأى العام الإسلامى على الصالح إسماعيل ويروى أبوالفدا أن المسلمين حنقوا على الصالح إسماعيل لتفريطه فى بلادهم وعظم على المسلمين وأكثروا من التشنيع عليه[٤] أما المقريزى فيروى أن اثنين من ائمة الإسلام فى دمشق وهما شيخا الشافعية والمالكية العز بن عبدالسلام وجمال الدين أبو عمر بن

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ج٢، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) هو عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمى بن ابى القاسم أبو محمد الإمام العلامة وحيد عصره سلطان العلماء السلمى الدمشقى ثم المصرى الشافعى، برع فى الفقة والأصول والعربية وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقة وبلغ رتبة الاجتهاد رحل إليه الطلبة من سائر البلاد وصنف التصانيف منها قواعد الاحكام فى معالم الانام، ولد سنة ٥٧٧هـ وتوفى سنة ٦٦٠هـ، انظر ترجمته فى السبكى، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٠٩-٢٥٥،، محمد بن شاكر الكتبى، فوات الوفيات بالذيل عليها، ج٢، ص٣٥٠-٣٥١، ابن تغرى بردى، الدليل الشافى على المنهل الصافى، ص ٤١٦، ابن حجر، رفع الاصر عن قضاة مصر، ج٢، ق١، ص٣٥٠، ابن منقذ، الوفيات، ص٣٢٧.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٤، السبكى، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٤٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٧٨.

(٤) أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٩، على عوده، المرجع السابق، ص ٢٧٨.

**الحاجب[1] قد نددوا بعمل الصالح إسماعيل وأكثروا من التشنيع عليه، وعمد الشيخ العز بن عبدالسلام إلى قطع الدعاء للصالح إسماعيل بجامع دمشق واستبدله بدعاء آخر يقول فيه " اللهم ابرم لهذه الامة أمراً رشدا، تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك " وكان الناس يبتهلون وراءه بالدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله من الكافرين.[2]**

**وكان الصالح إسماعيل فى تلك الفترة غائباً عن دمشق، فكاتبه اعوانه بذلك وحرفوا القول وزخرفوه وهذه عادة اتباع السلاطين في الغالب فى كل عصر وزمان - فورد كتاب الصالح إسماعيل إلى نائبه بدمشق بعزل الشيخ العز بن عبدالسلام عن الخطابة واعتقاله هو والشيخ أبى عمرو بن الحاجب فتم اعتقالهما، ولما قدم الصالح إسماعيل إلى دمشق افرج عن الشيخين وفرض على الشيخ العز بن عبدالسلام الاقامة الجبرية فى منزله وأمره بان لايفتى لاحد البتة، ثم سمح لهما بمغادرة دمشق فذهبا إلى بيت المقدس فقابله الناصر**

---

(١) هو عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس الروينى ثم المصرى الدمشقى ثم الاسكندرى يكنى أباعمرو المعروف بابن الحاجب الملقب بجمال الدين الامام العلامة الفقية المالكى المتكلم النظار خاتمة الآئمة المبررزين الاخيار امام التحقيق وفارس الاتقان والتدقيق اشتهر بعلوم العربية، ولد سنة ٥٩٠هـ وتوفى بالاسكندرية سنة ٦٤٦هـ، انظر ترجمته فى ابن فرحون، الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، ج٢، ص ٨٦-٨٩، محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، ص ١٦٧-١٦٨، الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص ١٤٥٥-١٤٥٧، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص ٢٦٤.

(٢) المقريزى، السلوك، ق٢، ج٥، ص٣٠٤، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص١٤٣-١٤٤، السبكى، طبقات الشافعية، ج٨، ص٢٤٣، ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، ج٢، ص٣٥٠-٣٥١، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج٥، ص٣١١-٣١٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٨.

داود صاحب الكرك فى الطريق وعرض عليه الاقامة عنده فقبل ذلك فنزل بنابلس فترة قصيرة ثم انتقل إلى بيت المقدس واقام بها مدة.[١]

وفى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م تحرك الصالح إسماعيل بعد ان جمع جموعه من حمص وحلب وغيرها وطلب مساعدة الصليبيين، وسار قاصداً مصر لامتلاكها ونزل بنهر العوجاء، فبلغه أن الناصر داود صاحب الكرك يقيم فى حسبان[٢] من أرض البلقاء، فخشى أن يعقبه على دمشق ويستولى عليها نظراً لما يعرفه عن الناصر داود من حرصه الشديد على استرداد دمشق بأى طريقة ممكنة " فما أمكنه من التوجه إلى مصر وهذا الداهية خلفه"، فقرر أن يتخلص من خطره فتوجه بقواته نحوه وتقابلا فى حسبان ودارت بينهما معركة ضارية إنتهت بهزيمة الناصر داود واستولى الصالح إسماعيل على احماله واثقاله وأسر جماعة من أصحابه[٣]

فر الناصر داود بعد هذه الهزيمة الشنيعة على يد عمه الصالح إسماعيل إلى الكرك وتحصن بها[٤] بينما واصل الصالح إسماعيل مسيره إلى مصر " بعد ان قوى ساعده واشتدت شوكته" واقام فى العوجاء وأرسل إلى الصليبيين يطلب منهم سرعة القدوم إلى مصر ووعدهم " أنه يعطيهم جميع مافتحه السلطان صلاح الدين

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٤، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٣٢-٧٣٣، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٠، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٥٦، أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٦٦-١٦٧، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٧٦، السبكى، طبقات الشافعية، ج٨،ص٢٤٣ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٣٨، المنهل الصافى، ج٢، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) حسبان: بلدة توجد بمنطقة البلقاء فى فلسطين، انظر أبوالفدا، تقويم البلدان.

(٣) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٠٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٣١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٧٠.

(٤) ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣١.

يوسف" ورحل عن العوجاء وعسكر بتل العجول، وفرح الصليبيون بهذا العرض الجديد فساروا بقواتهم إلى الصالح إسماعيل بزعامة ثيبوت الرابع ملك نافار وأمير شامبنى الذى كان يتطلع منذ وصوله إلى بلاد الشام إلى تقوية نفوذ الصليبيين.[١]

تقابلت القوات الإسلامية بقيادة الصالح إسماعيل مع عساكر الصليبيين فى بيت المقدس وكان الشيخ العز بن عبدالسلام مقيماً به فأرسل الصالح إسماعيل بعض خواصه بمنديله ليسترضيه ليسلم بذلك من إثارة المسلمين ضده وقال لرسوله:"تدفع منديلى إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعودة إلى منصبه على أحسن حال، فإن وافقك فتدخل به علي، وإن خالفك فاعتقله فى خيمه إلى جانب خيمتي " ذهب الرسول إلى الشيخ وأجتمع به وأخذ فى سياسته وملاطفته ثم قال له: " بينك وبين أن تعود إلى منصبك وماكنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لاغير" فكان رد الشيخ مسكتات له وهذه عادة العلماء لايبغون بعلمهم الدنيا وإنما يطلبون به وجه الله - فقال له: " والله يامسكين، مأرضاه أن يقبل يدى فضلاً أن أقبل يده، ياقوم، أنتم فى واد وأنا فى واد والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به"[٢]، فتهدده الرسول بأنه إذ لم ينصاع للأوامر فإنه سوف يعتقله فقال له الشيخ " افعلو مابدالكم" : فأخذه واعتقله فى خيمة بجوار خيمة الصالح إسماعيل.[٣]

ويدور الحديث بعد ذلك بين الصليبيين والصالح إسماعيل فى الخيمة المجاورة لمعتقل العز بن عبدالسلام وينشغل الشيخ بترتيل القرآن، فيؤثر فى قلوب الناس وعقولهم بأدائه الحسن، فيقول الصالح إسماعيل مفتخراً: تسمعون هذا

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣١، السبكى، طبقات الشافعية، ج٨، ص ٢٤٣، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٧٩.

(٢) السبكى، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٣) السبكى، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٤٤.

الشيخ الذى يقرأ القرآن، قالوا: نعم، فقال هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره على تسليمى لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبة، ثم اخرجته حتى جاء القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم! قالوا : لوكان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها.(١)

وعلى أية حال فإن قوات الحلفاء من المسلمين والصليبيين تقدمت نحو غزة عازمه على المسير نحو مصر، وحينما بلغ الصالح أيوب تقدم قوات الحلفاء نحو مصر جرد العساكر المصرية إلى لقائهم، وقبل أن يتقابل الطرفان سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م انفصلت العساكر الشامية التابعة للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص عن الصليبيين لانهم لم يقبلوا بفكرة محالفة الصليبيين ضد اخوانهم المسلمين وانضموا إلى القوات المصرية ليشترك الجميع فى محاربة الصليبين وهكذا " ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعاً على الفرنج، فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لايحصون" وبهؤلاء الاسرى عمر الصالح أيوب قلعة الروضة والمدارس الصالحية بالقاهرة.(٢)

فرح الصالح أيوب فرحاً شديداً بهذا النصر الذى تهيأ له فيه تحطيم التحالف بين الصالح إسماعيل والصليبين، وحاول ان يستثمر ذلك لصالحه فعرض على الصليبيين أن يطلق سراح الاسرى الذين وقعوا فى قبضته فى غزة، وان يكون لهم الحق فى السيطرة على عسقلان وتحصينها واشترط عليهم مقابل ذلك أن يلتزموا الحياد فى الصراع بينه وبين الصالح إسماعيل، فوافق الصليبيون على ذلك وتم توقيع الاتفاق مع مقدم الاسبتارية فى عسقلان(٣) ويعلق رنسيمان على ذلك بقوله "

---

(١) السبكى، طبقات الشافعية، ج٨، ص٢٤٤.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٥، السبكى، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٤٤، على عودة بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٧٠، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٤.

(٣) المقريزي، السلوك،ج١،ق٢،ص٣٠٥، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج٣،ص٣٧٩.

والواقع ان ذلك كان يعتبر انتصاراً دبلوماسياً للصالح أيوب الذى استطاع بتضحية بسيطة من جانبه، أن يدمر تحالفاً لم ينجزه الصالح إسماعيل إلا بعد أن أذل نفسه".[١]

لم تستطع الحملة الفرنسية التى قدمت إلى الشام سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م أن تحقق طموحات الصليبيين بالسيطرة على مصر، وكانت خيبة أملهم كبيرة على اثر الهزيمة الساحقة التى لحقت بهم من قبل عساكر مصر والشام، فاضطرت هذه الحملة ان تغادر الشام، فخرجت من عكا إلى المغرب سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م وبالرغم من ذلك فإن هذه الحملة لم تخل من قيمة واهمية بالنسبة للصليبيين إذ أنه عاد إلى سيطرتهم بيت المقدس وهو نين وصفد وعسقلان.[٢]

كان الجواد لسوء سيرته قد فقد جميع ممتلكاته فى البلاد الشرقية التى اخذها بدلاً من دمشق فالتجأ إلى الخليفة فى بغداد[٣]، ثم قدم إلى الشام وحاول دخول مصر ملتجأ إلى ابن عمه الصالح أيوب، فلم يأذن له خوفاً من أن يفسد عليه عسكره، وعزم على ان يقبض عليه فرجع والتجأ إلى الناصر داود صاحب الكرك فقبله مع ماكان عليه من السخطِ والغضب، ومن هنا اراد الصالح أيوب توجيه ضربة قوية للناصر داود لأمرين أولها أنه دخل فى تحالف الصالح إسماعيل وحمص وحلب ضده ثانيهما أنه استقبل الجواد يونس ورضى بإقامته عنده، فأرسل قوة عسكرية بقيادة كمال الدين بن شيخ الشيوخ لقتال الناصر داود والقبض على الجواد ونزل ابن الشيخ فى غزة وكان الناصر داود بالقدس، فسير قواته مع الجواد

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٧٩.

(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٨٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص٩٩٢.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٣٦-٧٣٧، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص١٤٤، ابن كثير، البداية والنهاية ج١٣، ١٦٨.

وتقابل الفريقان سنة٦٣٩هـ/١٢٤١م فى مكان يقال له بيت فورلك بالقرب من القدس، وانتهت المعركة بانتصار قوات الناصر داود، ووقع الكمال بن الشيخ مع مجموعة من اصحابه في الاسر وجيء به إلى الناصر داود الذى اكتفى بتوبيخه وحجزه لعدة ايام ثم من عليه واطلقه مع اصحابه المأسورين فرجعوا إلى الديار المصرية.(١)

تأثر الصالح أيوب من تلك الهزيمة التى منيت بها قواته فأراد أن يعاود الكرة مرة أخرى لغزو بلاد الشام لرد الاعتبار فخرج فى السنة التالية سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م بنفسه إلا أنه تراجع عن ذلك وعهد بقيادة الجيش إلى كمال الدين ابن الشيخ، فسار ابن الشيخ بتلك الحملة ووصل إلى غزة إلا أن الحملة لم تحقق غرضها بسبب وفاة كمال الدين ابن الشيخ عند وصوله إليها(٢)

وفى تلك الاثناء وصل إلى عكا الأمير الشاب ريتشارد شقيق هنرى الثالث ملك انجلترا فى صحبة جيش صليبي جديد وارتاع عند وصوله من النزاع بين الصليبيين ورفض الاشتراك فى ذلك النزاع القائم بين الاسبتارية الذين ايدوا مبدأ التعاون مع مصر والداوية الذين يرون ضرورة تحالف الصليبيين مع دمشق ضد مصر، واختار ريتشارد أن يوجه جهود الصليبيين نحو تحصين عسقلان حتى يأمن الصليبييون فى الشام أى هجوم مباغت من جانب القوات المصرية، وما أن سمع بهم الصالح أيوب حتى سارع بارسال سفارة إلى عسقلان للتصديق على المعاهدة التى عقدها الإسبتارية فوافق ريتشارد على ذلك بشرط أن يقر الصالح أيوب ماتنازل عنه الصالح إسماعيل صاحب دمشق من البلاد، وأن يضيفوا إليها ماتبقى من الجليل

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٢٩٧، ٣٠١، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٣٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠٥،٣٠٩، ابن ايبك الدوادار، كنز الدر، ج٧، ص ٣٤٧، على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ١٧٠.

(٢) الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص١٤٥، على عودة، المرجع السابق، ص ١٧١.

ويدخل فى ذلك شقيف أرنون وجبل الطور وطبرية فضلاً عن بيت المقدس وبيت لحم ومجدل ويافا وعسقلان، فوافق الصالح أيوب على تلك الشروط وتم توقيع الاتفاق بين الطرفين على ذلك، ويقول رنسيمان أن الامبراطور فردريك أرسل بناء على هذا الاتفاق الجديد سفارة لتهنئة الصالح أيوب، وأنه جرى استقبال هذه السفارة بالقاهرة بكل مظاهر الحفاوة والإكرام.(١)

وأخيراً غادر ريتشارد عكا سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م بعد أن نجح بحكمته وكياسته وحسن سياسته اتمام العمل الذى قام به ثيبوت الرابع.(٢)

ويكفى أن نعلق على هذه الحوادث السابقة فى هذه الفترة العجيبة من الحروب الصليبية ذات الاحداث السريعة المتلاحقة بما قاله أحد المؤرخين حيث يقول " وكان المسلمون منهمكين انهماكاً شديداً بخلافاتهم الشخصية بحيث انصرفوا عن محاولة القيام بأى عمل موحد ضد اللاتين حتى أن افراد الطوائف العسكرية الكبيرة، وهم ألد اعداء الاسلام، نسوا المواثيق التى قطعوها على انفسهم، وحالفوا، ودون خجل، المسلمين ضد النصارى، وخاصة ضد الطوائف العسكرية الاخرى فقد تحالف فرسان الداوية مع دمشق ضد فرسان الاسبتارية ومصر، وكانت المعارك التي وقعت بين طوائف الفرسان النصارى المتنافسة من أشد المعارك ضراوة والتى حدثت فى هذه الفترة".(٣)

لم تلبث أن تجددت النزاعات بين الصليبيين فى بلاد الشام، فرفضت الداوية الإلتزام بالاتفاقية التى عقدت مع الصالح أيوب، وحملهم ذلك على الاغارة على

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٨١-٣٨٢، عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٢-٩٩٣، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٤.

(٢) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٩٩٣.

(٣) قدرى قلعجى، صلاح الدين قصة الصراع بين الشرق والغرب، ص ٥١٨.

مدينة حبرون الإسلامية فتأثر الناصر داود صاحب الكـرك مـن ذلـك ورد علـى هـذا الهجوم بقطع الطريق المؤدى إلى بيت المقدس على الصليبيين لجباية الرسوم من الحجاج والتجار الذين يسلكونه.(١)

انزعجت الداوية من هذا الإجراء الذى اقدم عليه الناصر داود فقرروا الخروج إلى نابلس التابعة للناصر داود، فخرجوا فى جمادى الأولى سنة ٦٤٠هـ / ديسمبر ١٢٤٢م وهجموا على المدينة ونهبوا وأسروا ودخلوا إلى المسجد وقتلوا المصلين وأحرقوه بعد أن أخذوا منبر الخطيب، وافسدوا فى البلد ونهبوا الأموال(٢) وذكر سبط ابن الجوزى أن الجواد يونس بن مودود حضر معهم عندما هاجموا قلنسوه – ضيعة من أعمال نابلس – "وقتلوا فيها الف مسلم وهو قائم لم يتكلم كلمة" ونتيجة لذلك خاف الصالح إسماعيل على مكانته ونفوذه عند الصليبيين فاحتال على الجواد حتى حضر فقبض عليه وأودعه السجن(٣)

وكتب الناصر داود صاحب الكرك إلى شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام بعد هذه الحادثة يشكو إليه " مالقى الإسلام من إهلاك النسل والحرث....، ويحثه على أن يوضح للسلطان الملك الصالح ماتعين عليه من فرض الجهاد، ويرغبه فى إعلاء دين الله وإعزازه، ويحرضه على تعجيل النصر الذى تكفل الله بانجازه" ويبين الناصر داود فى رسالته، ان مصيبة حلت بالمسلمين فى مدينة نابلس، راح ضحيتها عدد من العلماء وسبيت الحلائل والصبيان وكان ذلك اليوم يوماً " ضرب فيه الكفر

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٠-٣١١، رنسيمان، المرجع السابق،ج٣، ص ٣٨٤، على عودة، بلاد الشام، قبيل الغزو المغولى، ص ٢٨٠.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٣-٧٤٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣١، على عودة، المرجع السابق، ص ٢٨٠.

بجيرانه، وتبختر تيهاً بين انصاره واعوانه"، ويصور ماحل من فجيعة "هجمت على القلوب من اسماعها، فودت لو أنها سبقت بالمنون"

ثم يقول شعراً

ألا ليت امى ايم طول عمرها ... فلم يقيضها ربى لمولى ولابعل

وياليتها لماقضاها لسيد ... لبيب اريب طيب الفرع والاصل

قضاها من اللائى خلقن عواقراً ... فما بشرت يوماً بأنثى ولافحل

وياليتها لما غدت بى حاملاً ... اصيبت بما اجتنت عليه من الحمل

ويختم رسالته بقوله " ألا وان الإسلام بدأ غريباً وسيرجع غريباً كما بدأ، وتقاصرت الهمم عن إسعاده حتى لايرى له مسعداً ".[١]

ويبدو أن تلك الرسالة اثرت فى الصالح أيوب، فى الوقت الذى لم يكن مستعداً للقتال فاكتفى بتسيير جيش يبلغ تعداده حوالى الفى فارس اتجهوا نحو غزة وانضموا إلى قوات الناصر داود ثم تحركوا من هناك للإنتقام من الصليبيين فى يافا، فأدرك الصليبيون حينئذ خطورة الموقف وأرسلوا إلى الصالح أيوب يسترضونه ويعتذرون عما بدر منهم، فعفى عنهم وفك الحصار وسحب جيشه إلى مصر.[٢] كل ذلك يحدث والخوارزميون في ضعف شديد بعد هزيمتهم الأولى عند الرها سنة٦٣٨هـ.

---

(١) مجير الدين أبومحمد، الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية، ورقة ٩٤-٩٧، اليونينى، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ١٥٨، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٩٦، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٨٦-٢٨٧، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٥٨، القلقشندى،صبح الاعشى، ج٤،ص ١٧٥، عبدالجليل حسن عبدالمهدى، بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية، ص ٢٠٤.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٨٤، عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٣-٩٩٤.

## تجدد خطر الخوارزمية وهزيمتهم سنة ٦٤٠هـ

أصبح الخوارزمية فى عزلة عن القوى السياسية من حولهم بعد أن سلبت منهم جميع المناطق التى كانوا يسيطرون عليها مثل دارا ونصيبين وغيرهما وبقوا بعد هزيمتهم تلك لايجرؤن على دخول الشام، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وانعدمت الاقوات فلم يجدوا إلا مايحصلون عليه من السلب والنهب، ولشدة الكربة التىالمت بهم حاولوا ان يجدوا لهم متنفساً فساروا إلى الموصل وضربوا الحصار حولها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م بقصد الاستيلاء عليها، نظراً لما تتمتع به هذه المملكة من مدخرات مالية وثروات طائلة، وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بطلب النصرة من الصالح إسماعيل صاحب دمشق فاستجاب له وأرسل إليه فرقة عسكرية بقيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص والامير شمس الدين لؤلؤ الامينى، وقد استطاعت هذه الجيوش أن تبعد الخوارزمية عن المدينة وتحافظ على مدخراتها[١]، غير أن الخوارزميين لايمكن أن يستسلموا لضيق العيش الذى حل بها فعاودوا هجومهم على الموصل سنة٦٣٩/١٢٤١م الأمر الذى اضطر صاحب الموصل إلى مسالمتهم وسلم إليهم نصيبين حفاظاً على مملكته من غاراتهم المدمرة وضماناً لاستمرار حكمه على الموصل.[٢]

وبعد أن هادنهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل توجهوا إلى ميافارقين فهادنهم صاحبها المظفر شهاب الدين غازى وأرسل إلى حلب يخبرهم بذلك ويطلب منهم أن يقفوا معه إذا ماقصده غياث الدين صاحب الروم ويدافعوا عنه فلم

---

(١) نافع العبود، تاريخ الدولة الخوارزمية، ص ١٧٦.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٠٤-٣٠٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦٠.

يوافق الحلبيون على ذلك نظراً لصلتهم القوية بصاحب بلاد الروم، فاستاء من ذلك واتفق مع الخوارزمية على الخروج إلى آمد.[١]

سار المظفر مع الخوارزمية قاصدين آمد فخرجت إليهم عساكر حلب بقيادة المعظم توران شاه بن صلاح الدين، ووصلوا إلى حران فى صفر سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م وتقابل الجمعان بالقرب من آمد وتمكن العسكر الحلبى من طرد الخوارزمية والمحافظة على آمد من اعتداءتهم ثم قرر الحلبيون ملاحقة المظفر واتباعه من الخوارزمية والحاق الهزيمة بهم فى عقر دارهم فتوجهوا إلى ميافارقين " وأغاروا على رستاقها [٢]، ونهبوا بلدها، فاعتصمت الخوارزمية بحاضرها خارج البلد".[٣]

وصلت نجدة صاحب الروم غياث الدين كيخسرو إلى حلب فضيقوا الخناق على ميافارقين وجرت بينهم عدة وقعات وعجز المعظم توران شاة عن دفع الخوارزميين وخشي ان تدور الدائرة عليه فارسل إلى حلب فى هذا المعنى وطلب منهم أن يرضونهم بما يقع الاتفاق عليه، فبادرت حلب بمراسلة صاحب الروم تشرح له حقيقة الوضع، واستقر الامر بعد تردد الرسل بين الطرفين على أن يهادنوا المظفر ومن معه من الخوارزمية بحيث يعطى السلطان غياث الدين للخوارزمية الاقطاع السابق لهم فى بلاده وأن يسمح لهم فى الإقامة فى أطراف بلاد الروم فى المقابل تقوم الصاحبة ضيفة خاتون باعطاء أخاها المظفر شهاب الدين غازي

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٠٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص٢٦٠-٢٦١، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٦٩، ابن العبرى، تاريخ الزمان، ص ٢٨٦، الخطيب العمري، الدرر المكنون، ورقة ٢٥٧، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٦.

(٢)رستاقها: الرستاق كلمة فارسية ومعناها القرية أو البلد التجارى أو محله العسكر، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٢، حاشية ١.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦١، انظر ابن واصل،المصدر السابق، ج٥،ص ٣٠٥.

مايختاره من غير اشتراط عليها وعلى أن يكونوا جميعاً سلماً لمن هو داخل فى هدنتهم، وبعدها تم اطلاق اسرى الخوارزمية الموجودين فى حلب، لم يقتنع المظفر شهاب الدين والخوارزمية بما وقع الاتفاق عليه فارسلوا رسلهم إلى صاحب حلب يلتمسون منه أن يعطيهم اقطاعاً آخر زيادة على ماوقع عليه الشرط فرفض طلبهم ذلك فخرجوا إلى الموصل بقصد الاستيلاء عليها وانضم إليهم صاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين غازى بعد أن حلف لصاحب حلب، ونزلوا على الموصل ونهبوا رستاقها ولماعجزوا عن دخول المدينة استاقوا مواشيها وتوجهوا إلى ناحية الخابور وكانوا يريدون التوجه إلى رأس عين.[١]

تقدم المظفر شهاب الدين غازي ومعه الخوارزمية إلى رأس عين فخاف الأهالى من البطش بهم فتحصنوا فى العسكر الموجود بها وكان يوجد بها جماعة من الرماة الجرخية من الفرنج وطلب الأهالي الأمان فامنتهم الخوارزمية ودخلوا البلد واسروا كل من بها من العسكر.[٢]

ولما كانت مملكة حمص قد ذاقت الامرين من الخوارزمية فقد تقدم المنصور إبراهيم صاحبها إلى حلب وكان فى استقباله بالوضيحي[٣] الناصر صاحب حلب وكبار المسؤلين فيها واعدت له دار علم الدين قيصر لينزل بها وأمر بجمع العساكر ثم توجه بهم إلى الشرق فوصل إلى حران وعبر إلي رأس عين، فلما علم المظفر شهاب الدين غازي بملاحقته لهم عاد ومعه الخوارزميين إلى ميافارقين واطلقوا الأسرى الذين قبضوا عليهم من عسكر رأس عين عندئذ توجه المنصور

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦١-٢٦٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٢.

(٣) الوضيحي، قرية قرب حلب، انظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٢، حاشية٢.

وجيشه إلى آمد واجتمعوا بمن كان مقيماً بها من عسكر سلاجقة الروم[١] واقاموا بها ينتظرون وصول امدادات اخرى من عسكر سلاجقة الروم لمنازلة ميافارقين، إلا أن الظروف لم تسعف المنصور فقد كان السلاجقة في وضع سياسي حرج لايسمح لهم بتقديم المساعدة العسكريه للمنصور واتباعه الحلبيين فقد هاجم المغول مدينة ارزن الروم فاشتغلوا بقتالهم عن تقديم المساعدة وواصل المغول غاراتهم على بلاد الروم حتى وصلوا إلى خرتبرت فانزعج المنصور من ذلك وخشي من أقامته في آمد خوفاً على بلاده فتراجع المنصور بعسكره إلى رأس عين.[٢]

انتهز الخوارزمية ومعهم المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين هذه الفرصة وساروا إلى دنيسر[٣] وهي لصاحب ماردين فتبعهم المنصور بعساكره وسار إلى جهتهم ثم سار الخوارزمية ومعهم المظفر وعسكروا في الخابور بينما عسكر المنصور بجيشه في المجدل[٤]، وانضم إلى الخوارزمية والمظفر جمع غفير من التركمان على رأسهم أمير يقال له ابن دودي، فازدادت بذلك قوة المظفر شهاب الدين حتى أنه قيل أن امير التركمان قال له " أنا أكسر عسكر حلب بالجوابنة[٥]

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٠٩.

(٢) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٣-٢٦٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٠٩-٣١٠، عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ٢٨٦، عماد الدين خليل، مقال بعنوان " مسعى التتر لاخضاع ديار بكر" مجلة المؤرخ العربي، العدد الحادى عشر، ص١٦٤.

(٣) دنيسر: بلدة كبيرة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ميافارقين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) المجدل: أحسن مدينة في الخابور من نواحي الجزيرة، انظر أبوالفدا، تقويم البلدان،ص٢٧٤.

(٥) الجوابنه: يبدو أن الجوابنة إما نسبة إلى جوبى وهى قبيلة من قبائل الأكراد، السلوك، المقريزى، ج١، ص ٤، وإما نسبة إلى جوبان من قرى مرو، (ياقوت، معجم البلدان )، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣١٠، حاشية ٨.

الذين معى" وكان عددهم يقدر بحوالى سبعين الـف جوبـان فضلاً عـن الخيالـة مـن التركمان(١)

سار المظفر شهاب الديـن غـازى بقواتـه مـن الخـوارزمية مـن الخـابور ونـزل بالقرب من المجدل فعلم بهم المنصور وأشار عليه أحد الأمراء بمبـاغتتهم فسـاق إليهم المنصور بعساكره سوقاً حثيثاً ووصل إليهم يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر سـنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ووقـف الخوارزميـة فـى الميمنـة والميسـرة والمظفـر غازى فى القلب وتقابل الجمعان والتحم الصفان وحمى الوطيس وماهى إلا لحظات حتى انتصر المنصور وولى المظفر واتباعه مـن الخوارزميـة الادبـار منهزميـن ولـولا وجود الخيم التى حالت بين الفريقين لتمكن المنصور مـن الفتـك بهـم، ومـع ذلـك قتل منهم جماعة " ووقع العسـكر فـى الخيـم والخركـات وبهـا الأقمشـة والنسـاء، فنهبوا جميع مافى العسكر، وأخذوا النساء وجميع ماكان معهن من الأموال والحلى والذهب، ولم يفلت من النساء واحدة"(٢)

لم يقف المنصور عند هذا الحد بل واصل فى جمع الغنائم فنزل علـى خيمـة المظفر شهاب الدين غازي واخذ خزائنه وجميع ماكان معه فى تلـك الخيمـة وغنـم العسـكر مغـانم كثيـرة مـن الخيـل والبغـال والجمـال والالات، والاغنـام مـالايعد ولايحصى(٣)، ومن كثرة الغنائم التى حصـلوا عليها وصلت إلى كـل مـن الموصـل

---

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣١٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣١٠-٣١١، وانظر ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٤-٢٦٥، الغزى، نهر الذهب فى تاريخ حلب، ج٣، ص ١٥٤، الخطيـب العمـري، الـدر المكنون، ورقة ٢٥٨، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٧٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٢، الهمذانى، جامع التواريخ، ص ١٩٣.

(٣) ابن العديم، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٦٥، ابن واصل، المصـدر السـابق، ج٥، ص ٣١١، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٧٠-١٧١، الخطيب العمري، المصدر السابق، ورقـة ٢٥٨، ابـن

استكمال الحواشى السفلية في الصفحة التالية

وحلب وحمـــاه وحمص وبيعت فيها بابخس الاثمـــان، واقيمت الاحـتفالات في حلب وضربت البشائر بهذا النصر الذي تحقق لهم على عـدو لايبقى ولايـذر وعـاد المنصور بجيشه إلى حلب حيث استقبل من قبل الناصر في منبج ودخـل حلـب يـوم الاربعاء مستهل جمادي الاولى سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م.(١)

ومما يثير الاستغراب هنا مشاركة المظفر شهاب الدين غازي للخوارزميـة في أعمالهم العدوانية ضد الممالك الأيوبية وغيرهـا علماً بـان المظفـر كـان قـد شـهد اوائل الزحف المغولي بالقرب من بـلاده وذلـك عندمـا تتبـع المغـول جـلال الديـن للقضاء عليه(٢) بل ومما زاد الأمر سوء أن جرس الانـذار قـد طـرق مسـامعه عندمـا أرسل امبراطور التتار تولى بن جنكيز خان رسالة إلى الملك المظفر وغيره من ملوك الإسلام "يدعوهم إلى طاعته ويأمرهم بتخريب اسوار بلدانهم"وكان عنـوان الكتـاب الذى أرسله إليهم " من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشـرق والغـرب خاقان "، ورد شهاب الدين غازي على رسول القان بقولـه " أنـا مـن جملـة الملـوك وبلادي حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر فتوجه إليهم ومافعلوه فعلته".(٣)

ومن هنا يمكن القول أنه كـان الاجـدر بشـهاب الديـن غـازى أن يعـد العـدة ويجهز الجيوش استعداداً للقاء هذا العدو المنتظر هذا من ناحية ومـن ناحيـة أخـرى كان الاجدر به أن يبذل قصارى جهده في التوفيق بين ملوك بنى أيوب ويحذرهم من الشتات والفرقة.. كما أنه كان من الأولى به أن يجمع الخوارزمية ويدعوهم للأخـذ

---

الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٤٧، الغزى، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٤.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٦٥، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣١١، ابـن الوردى، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٤٧، الغزى، نهر الذهب، ج٣، ص ١٥٤.

(٢) انظر المبحث الرابع في الفصل الأول.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٧-٣٠٨، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٣٤٢، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٧٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٦٧.

بثأرهم من عدوهم الذى مزقهم كل ممزق.

لم تؤد هزيمة الخوارزمية على يد المنصور صاحب حمص في اخماد فتنتهم بل تمكنوا من جمع شتاتهم، مع جمع من التركمان وعاثوا الفساد فى بلاد الجزيرة، إلا أن صاحب حلب كان لهم بالمرصاد حيث جهز لهم قوة بقيادة الأمير جمال الدولة اقبال الخاتونى فى جمادى الاخرة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وعسكرلهم فى رأس عين فانضم الخوارزمية إلى الملك السعيد نجم الدين غازى صاحب ماردين وأحتموا بالجبل وطوق عليهم عسكر حلب وجرت بينهم مناوشات وكادت تستمر[١] لولا تدخل رسول غياث الدين كيخسرو الذى عرض توسطه للصلح بين الأطراف المتنازعة فوافق الجميع على ذلك، على أن يعطى الملك السعيد رأس عين ويأخذ الخوارزمية خرتبرت وشيء من البلاد، أما المظفر غازى فإنه يأخذ خلاط ومايتبعها من البلاد، ورجعت العساكر الحلبية مع رسول الروم إلى حلب.[٢]

وهنا يتبادر إلى الاذهان سؤال عن سبب وساطة صاحب الروم " غياث الدين كيخسرو" فى القتال بين الخوارزمين والحلبيين وللإجابة على ذلك نقول أن صاحب الروم كان قد تعرض لتهديد المغول فرغب فى تحسين علاقاته بالقوى الإسلامية والسعى إلى حل خلافاتهم ولم يقف عند هذا الحد بل أرسل "الأموال العظيمة إلى زعماء القوى المتصارعة بما فيهم الخوارزمية بقصد استمالتهم للقاء التتار " وكان صاحب حلب أول المنجدين لصاحب الروم " غياث الدين كيخسرو فقد جهز حملة عسكرية جعل على قيادتها الامير ناصح الدين الفارسى فى ذى الحجة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م.[٣]

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٢٦-٣٢٧، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٣٥١.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٦، نافع العبود، الدولة الخوارزمية، ص ١٨٠.

ورغم الاقطاعات التى منحت للخوارزمية إلا أنهم لم يكفوا عن مهاجمة املاك الأيوبيين فعبر أكثر من عشرة الاف مقاتل منهم نهر الفرات سنة٦٤١ هـ / ١٢٤٣م بقيادة حسام الدين بركـة خـان ومعـه مـن زعمـائهـم امثـال خـان بـردى وصاروخـان وكشلوخان وانقسموا إلى مجموعتين ذهبت طائفـة منهـم إلـى بقـاع بعلبـك، بينمـا سارت الطائفة الاخرى إلى غوطة دمشق، واخذوا يقتلـون ويسـبون وينهبـون فجفـل الناس من بين ايديهم وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق.[1]. وسارع الصـالح أيـوب عندئـــــذ إلـــــى تجديـــــد علاقتـــــه مـــــع الخوارزميـــــة.

---

١) ابن العديـم، زبـدة الحلـب، ج٣، ص ٢٦٨، ابـن واصـل، مفـرج الكـروب، ج٥، ص ٣٢٧، أبو الفدا، المختصر، ج٣، ص ١٧٢.

# تحالف الصالح أيوب مع الخوارزمية

## (٦٤١هـ-١٢٤٣م)

ترجع علاقة الصالح أيوب بالخوارزمية منذ أن كان نائباً عن ابيه الكامل فى حكم البلاد الشرقية حيث طلب منهم بعد خروجهم من آسيا الصغرى سنة ٦٣٤هـ أن ينضموا إليه مقابل أن يعطيهم مجموعة من الإقطاعات فى الجزيرة حتى يضمن ولاءهم له فانضموا إليه واشتركوا معه فى الهجوم على سنجار إلا أنهم سرعان ماخرجوا عليه وطمعوا فيه بعد وفاة ابيه الكامل سنة ٦٣٥هـ فاعتصم الصالح أيوب بسنجار خوفاً على نفسه منهم تاركاً خلفه أمواله وأثقاله فوقعت بايدى الخوارزمية وتحكموا فى البلاد الجزرية.[١]

وطمع فى الصالح أيوب كل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وغياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم ووقع الصالح أيوب فى حرج شديد لولا أن الأمور تطورت فيما بعد فجاء الفرج بعد الشدة عندما عرض الصالح أيوب عن طريق أحد القضاة على الخوارزمية أن يدافعوا عنه مقابل أعطيات وأموال كثيرة يتعهد بانفاذها إليهم فوافقوا على ذلك وانضموا إليه وساعدوه فى التخلص من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ومن غياث الدين صاحب الروم.[٢]

استمر ولاء الخوارزمين للصالح أيوب بعد ذلك فدخل بعضهم معه إلى دمشق عندما قايض الجواد يونس عليها وبقى البعض الآخر فى بلاد الجزيرة يعيثون فى الأرض الفساد ويغيرون على البلدان بحجة أنهم يفعلون ذلك انتقاماً لسيدهم الصالح أيوب من صاحب دمشق وصاحب حمص والحلبيين.[٣]

---

(١) انظر ماسبق ص ١٨٩- ٢٠٠.

(٢) انظر ماسبق، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٠٣.

ولم تنقطع علاقة الخوارزمين بالصالح أيوب بعد سيطرته على مصر، ويدل على ذلك ماقاله ابن واصل سنة ٦٤١هـ " ثم سرنا إلى نصيبين ووجدنا الخوارزمية، وهي بأيديهم مقيمين بها، وهم يظهرون طاعة السلطان الملك الصالح نجم الدين صاحب مصر".[١]

كما أن المظفر صاحب حماة كان حريصاً على تقوية الصلات بين الصالح أيوب والخوارزمين لأن ذلك يدعم موقفه أمام خصومه في دمشق وحمص وحلب، فأوفد في سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م سفارة إلى الخوارزمية كان من بينهم المؤرخ المعاصر ابن واصل واجتمعت هذه السفارة بالامير حسام الدين بركة خان زعيم الخوارزمية وتحدثوا معه في "معنى القيام بنصرة السلطان الملك الصالح نجم الدين، والمضى بالخوارزمية إلى خدمتة ومعاضدته على اعدائه " فوعدهم بركة خان بتلبية طلبهم وعادت هذه السفارة إلى حماه في نفس السنة.[٢]

أدرك الصالح أيوب عجزه عن غزو بلاد الشام دون مساعدة الخوارزمية خاصة بعد تحالف ملوك الشام كلهم ضده ماعدا المظفر صاحب حماه الذى اصيب بالفالج واشتد به المرض، ولم يكن باستطاعته أيضاً أن يستدعى الخوارزمية ويوجه ضربه قوية للصالح إسماعيل في دمشق لأن ابنه المغيث عمر مازال معتقلاً بقلعة دمشق فآثر الصالح أيوب أن يلجأ إلى الطرق السلمية مع عمه الصالح إسماعيل عله ينجح في فك أسر ابنه من قبضته.[٣]

ترددت الرسل بين مصر ودمشق سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م في شأن تقرير

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٢٥.

(٣) ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٤٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢١،على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧١.

قواعد الصلح بين الصالح إسماعيل والصالح أيوب وقد انتهت هذه المحاولات باتفاق الطرفين على إنهاء الخلافات بينهما ونصت هذه الاتفاقية على النقاط التالية:-

١-أن تكون دمشق والبلاد التابعة لها تحت سيطرة الصالح إسماعيل.

٢ -أن تكون مصر ومايتبعها من البلاد تحت سيادة الصالح أيوب.

٣-أما حمص وحلب وحماه وغيرها من البلاد الشامية فتبقى كما هى تحت يد أصحابها ماعدا الكرك فينتزع من صاحبه الناصر داود ويعطى قسم منه للصالح أيوب والقسم الآخر للصالح إسماعيل.

٤ -أن تكون الخطبة والسكة فى حمص وحلب ودمشق باسم الصالح نجم الدين أيوب.

٥ -يطلق سراح كل من حسام الدين بن أبى على الهذبانى والمغيث عمر ولد الصالح أيوب حيث كان الأول معتقلاً فى بعلبك والثانى فى قلعة دمشق.(١)

ولو قدر لهذا الاتفاق ان يستمر بين الطرفين لأدى ذلك لاستقرار سياسي للممالك الأيوبية للاسباب التالية : -

١ -أنه سوف يعيد الوحدة للدولة الأيوبية.

٢-أنه بموجبه تم اعتراف الأيوبيين بسيادة سلطان مصر عليهم.

٣-أصبح الصالح أيوب زعيماً للبيت الأيوبى بمحض هذا الاتفاق.(٢)

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٧-٣٢٨، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢،ص ٣١٤، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص ١٤٦، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٧١.

(٢) فتحى السيد عيد عرفات، مصر فى عهد الصالح نجم الدين أيوب، ص ٢١٦.

ولحرص الصالح إسماعيل على هذا الاتفاق سارع بإرسال عساكره إلى عجلون لانتزاعها من صاحبها وحطت عساكره حول عجلون[1] وحاصرتها بقيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص، ولم تستطع هذه العساكر دخول مدينة عجلون بسبب حصانتها القوية وبسالة القوات المحاصرة في عجلون واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم، وتمكنت حامية عجلون من أن تقضى على أكثر من مائة جندى من عساكر دمشق، وخسر الصالح إسماعيل على هذه الحملة مبالغ طائلة تقدر بما يزيد على الإلاربعمائة الف دينار ورغم ذلك لم يوفق فى الإستيلاء عليها.[2]

ولإثبات حسن النوايا بين الطرفين فقد اقيمت الخطبة للصالح أيوب فى كل من دمشق وحمص، واطلق سراح الأمير حسام الدين بن ابى على بن محمد بن أبى على الهذبانى الذى كان معتقلاً ببعلبك وحمل إلى دمشق، كما افرج عن المغيث عمر بن الصالح أيوب وأذن له فى الركوب مع وجود الحراسة المشددة حوله، ثم أذن للأمير حسام فى الانتقال من القلعة وأن يعد نفسه للمسير إلى مصر، فخرج من القلعة، وذهب إلى مدرسة عز الدين ايبك المعظمي حيث أطلق له ماكان أخذ منه وخلع عليه وأعطى ماله، وغلمانه وأطلق سراح جماعة من أصحاب الصالح أيوب كانوا فى السجن منهم مجير الدين بن أبى زكرى.[3]

تم اختيار مجموعة من الأمراء والقضاه ليقرروا قواعد الصلح بين ملوك بنى أيوب ويحلفونهم على ذلك، فاختار صاحب حمص القاضى عماد الدين ابن ابى القطب الذى كان قاضياً فى حماه واختار صاحب حلب الأمير ناصح الدين الفارسى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦،ص ٣٢١، يوسف غونمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص ٢٦٥.

(٢) الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص ١٤٧، يوسف حسن درويش غوانمه، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق،ج٥، ص٣٢٨-٣٢٩، المقريزى، السلوك،ج١،ق٢،ص٣١٤، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢١.

واختار الصالح إسماعيل جلال الدين الخلاطى بينما كان مندوب الصالح أيوب فى هذه المفاوضات هو الامير معين الدين بن شيخ الشيوخ، سار هذا الوفد من بلاد الشام إلى مصر ليحلفوا الصالح أيوب على قواعد الصلح كل واحد منهم يحلف لصاحبه، وسير مع هذا الوفد الامير حسام الدين بن أبى على الهذبانى وكان قد اطلق سراحه مع المسجونين من اصحاب الصالح أيوب وتم حجز المغيث عمر ريثما يتم توقيع الصلح رسمياً وأخذ اليمين من ابيه الصالح أيوب.(١)

واثناء اجراء المفاوضات بين الجانبين وقع بيد الصالح إسماعيل صاحب دمشق رسالة سرية ارسلها إبن اخيه الصالح أيوب إلى الخوارزمية يطلب منهم القدوم لنصرته فارسلها الصالح إسماعيل بدوره إلى مندوبه فى المفاوضات جلال الدين الخلاطى وهو الذى وضح لنا ذلك حيث قال " كنت بمصر رسولاً من جهة مخدومى الملك الصالح عماد الدين، وقد تقررت القواعد ولم يبق إلا الايمان، فورد على كتاب من مخدومى الملك الصالح وفى طيه كتاب من الملك الصالح نجم الدين إلى الخوارزمية، يحثهم على الحركة، ويذكر لهم أنه إنما أظهر الصلح مع عمه ليخلص ابنه الملك المغيث من يده، وأنه باق على عداوة عمه، ولابد له من قصده وأخذ دمشق منه"، وأخذ جلال الدين الخلاطى هذا الكتاب ومضى به إلى مندوب الصالح أيوب فى المفاوضات معين الدين بن شيخ الشيوخ واطلعه على مافيه فما استطاع أن يرد على ذلك بعذر يمكن قبوله.(٢)

ولذلك انتقض الصلح بين الطرفين ورد الصالح إسماعيل المغيث عمر إلى الاعتقال وأبطل الخطبة للصالح أيوب، ورجع الأمر كما كان عليه من الاختلاف والفرقة وأرسل إلى العساكر المحاصرة لعجلون يأمرهم بالعودة إلى دمشق وراسل

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٢،على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٢.

الناصر داود بعد أن اعتذر لـه واتفق معه على حرب الصالح أيوب، ورجع عن الصالح أيوب كل من صاحبى حلب وحمص وانضموا إلى الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك واصبحت كلمة الجميع واحدة، فقبض الصالح أيوب بعد ذلك على نجم الدين الخلاطى واعتقله ومنع القاضى بن القطب عن الخروج من مصر.[١]

ويذكر الذهبي أن هناك سبب آخر لانتقاض الصلح بين الطرفين يرجع إلى وزير الصالح إسماعيل السامرى امين الدولة أبوالحسن غزال المسلمانى الذي زين له سوء فعله بعدم باطلاقه سراح المغيث عمر قائلاً " هذا خاتم سليمان لاتخرجه من يدك"، فعند ذلك أبطل ماوقع من الصلح.[٢]

وهكذا يتضح لنا جلياً ان زعماء بنى أيوب فى مصر والشام قد تناسوا المصلحة العامة للمسلمين واهتموا بالمصالح والمطامع الاقليمية والشخصية، فلو قدر لهذا الاتفاق ان يتم لعادت الوحدة للدولة الأيوبية من جديد ومن ثم تفرغت لمواصلة مسيرة الجهاد التى بدأها صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبيين الذين كانوا يعانون فى تلك الفترة من شدة التطاحن بين مختلف الطوائف كالداوية والاسبتارية وغيرهما، إذ لم يكن لهم سلطة عليا تجمع كلمتهم وتوحد صفوفهم لتحقيق مطامعهم فى بلاد الشام.[٣]

ونتيجة لتلك الفرقة التى حلت بملوك الإسلام والصراع المرير الذى دمر وحدة الأمة الإسلامية سارع المغول باستغلال فرصة النزاع بين سلاجقة الروم فى اسيا الصغرى من جهة وبين الحكام فى الشام ومصر من جهة اخرى، فتقدم

---

(١) ابن واصل،مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهره، ج٦، ص٣٢٢.

(٢) الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص ١٤٦.

(٣) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٨٤.

بايجونويان سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م على رأس جيش كبير تعداده ٣٠,٠٠٠ الف مقاتل مزودون بالات الحرب، واتجهوا نحو " أرزن الروم" وتقابلوا مع عساكر السلطان غياث الدين كيخسرو سلطان سلاجقة الروم فلم تستطع قوات السلاجقة الصمود أمام قوات المغول فانهزموا وسقطت مدينة ارزن الروم فى ايديهم، ودخلوا المدينة وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها ووقع كثير منهم فى الاسر.[١]

وبالرغم من هذا الحدث العظيم فإن ملوك مصر والشام استمروا فى نزاعاتهم المقيتة ولم يلقوا بالاً لهذا الخطر العظيم الذى بات يهدد كيانهم جميعاً، وترك غياث الدين كيخسرو بمفرده يجابه هذا الخطر الجاثم، فحشد قواته واستعد للقاء المغول وكون جيشاً عظيماً من الخوارزمية والارمن والكرج واليونانين والفرنج وسار هذا الجيش شرقاً لصد المغول، فتقابل الجيشان بمكان يسمى " كوسة طاع " (الجبل الاقرع) من نواحى ارزنجان، ودارت هناك رحى معركة عنيفة سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م وانتهت بانتصار القوات المغولية وهزيمة الجيش السلجوقى غير المتجانس، وفر السلطان غياث الدين إلى مدينة انقوره[٢] (انكورية) وتحصن بها، بينما واصل المغول سياستهم التوسعية فاستولوا على سيواس وقيسارية[٣] (قيصرية) وخربوها[٤]، ووقعت بذلك مملكة السلاجقة فى قبضة المغول، وعندما ادرك غياث الدين عجزه عن مقاومة المغول ارسل اليهم رسولاً يعلن خضوعه ويتعهد بدفع

---

(١) الذهبى، المختار في تاريخ ابن الجزرى، ص ١٧٩، الصياد، المغول فى التاريخ، ص١٨٢.

(٢) انقورة: أو أنقرة هى اسم للمدينة المسماة انكورية وهى بليدة لها قلعة على تل عال وليس لها بساتين ولاماء سارح وهى فيما بين الجبال، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) قيسارية: ويقال لها قيصرية، مدينة كبيرة فى بلاد الروم كانت كرسى ملك بنى سلجوق، انظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص ٢٣٢، حاشية ٣.

(٤) ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٢-٣٥٣، الصياد، المغول فى التاريخ، ص ١٨٢-١٨٣.

أتاوة سنوية لهم وبذلك اصبحت قوات المغول على مقربة من بلاد الشام ولم يحرك ملوك الشام ومصر بذلك ساكناً[١] وتتابعت النذر ولكنهم فى غفلة معرضون، ففى سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م تحركت فرقة من المغول بقيادة " يساورنوين " وقصدوا الشام ووصلوا إلى موضع يسمى حيلان على باب حلب ولكنه لم يقدر لهم أن يدخلوها وعادوا منها بحفاً أصاب خيولهم، وأغاروا على ملطية وخربوا بلدها واخذوا منها امولاً عظيمة[٢] وعلى الرغم من ذلك ازدادت حدة الصراع بين ملوك المسلمين بل أدى بهم الامر إلى تسليم بيت المقدس للصليبيين وهذا ماسنوضحه في الفصل الرابع.

---

(١) الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٨٣، وانظر عماد الدين خليل مجلة المؤرخ العربي، العدد الحادى عشر، مقال بعنوان " صفحات مجهولة من تاريخ الغزو التترى" ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص٤٤٦، الغزى، نهر الذهب فى تاريخ حلب، ص١٥٤-١٥٥.

# الفصل الرابع

# الخوارزميون واسترداد بيت المقدس

# (٦٤١-٦٤٢هـ)

- الصالح إسماعيل يسلم بيت المقدس للصليبيين وأثر ذلك على الأوساط الإسلامية سنة ٦٤١هـ.
- دخول الخوارزميين بلاد الشام واستعادة بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ.
- معركة غزة ( حطين الثانية) سنة ٦٤٢هـ.

# الصالح إسماعيل يسلم بيت المقدس وغيرها للصليبيين

## (٦٤١هـ/١٢٤٣م)

إحتدم النزاع بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق بعد فشل محاولات الصلح التى جرت بين الطرفين وأخذ كل وأحد منهم يعمل على الانتقام من خصمه بغض النظر عما يترتب على ذلك من إهدار لكرامة المسلمين وإضاعة لحقوقهم ومقدساتهم فضلاً عن توقف حركة الجهاد ضد الصليبيين وغيرهم من أعداء الإسلام، إذ لو قدر لحركة الجهاد أن تستمر كما كانت من قبل فى عهد نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى لما طال أمر العدوان الصليبيى على العالم الإسلامى، "ولاختزلت أيام المحنة والإستنزاف يقيناً"[(١)]

انضم إلى الصالح إسماعيل فى هذا النزاع ضد الصالح أيوب كل من المنصور صاحب حمص والحلبيون والناصر داود صاحب الكرك، واتفقت كلمة هؤلاء على حرب الصالح نجم الدين أيوب ومنابذته لما علموا أنه أرسل إلى الخوارزمية يستحثهم على القدوم لمساعدته ضد عمه إسماعيل[(٢)]، ونظراً لما عرف به الخوارزمية من جشع وظلم وسعى وراء العطايا فانهم لن يترددوا فى الإستجابة لحليفهم السابق نجم الدين أيوب، لذلك خاف الصالح إسماعيل ومن معه من الحلفاء من اجتماع الخوارزمية مع عساكر مصر على حربهم فلايستطيعون عندئذ الوقوف امامهم، فراسلوا الصليبيين وصالحوهم وجرت بينهم مفاوضات حول تقديم

---

(١) عماد الدين خليل، هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى، ص ٣٤.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢١.

المساعدة لملوك الشام ضد الصالح أيوب صاحب مصر[١] ، فوافق الصليبييون على ذلك بشروط هى :-

١-أن يسلم بيت المقدس إليهم بما فى ذلك الحرم ومافيه من المزارات.

٢ -أن تسلم إليهم طبرية وعسقلان وكوكب.

٣ -أن يسمح لهم الحلفاء فى عمارة بيت المقدس وغيرها مثل طبرية وعسقلان وكوكب.[٢]

٤- أن الصالح إسماعيل ضمن للفرنج أنهم إذا ملكوا مصر أن يكون لهم فيها نصيب.[٣]

وافق الحلفاء على هذه الشروط المهينة، وتسلم الصليبيون على الفور ماوقع الاتفاق عليه، وشرعوا فى بناء قلعة طبرية واحكموا تحصيناتهم وأخذت فرقة الاسبتارية[٤] كوكبا وعزموا على عمارتها، ثم دخل الصليبيون بيت المقدس وتسلموا الصخرة المقدسة والمسجد الاقصى ومافى الحرم الشريف من المزارات، ولم يكتف الحلفاء بذلك بل تعهدوا للصليبيين أنهم إذا ملكوا مصر اعطوهم نصيباً منها، ولقد طار الصليبيون فرحاً بذلك وجمعوا الفارس والراجل لمساندة الحلفاء

---

(١) انظر ماسبق عرضه في المبحث الثانى في الفصل الثالث.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢١.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٢٣.

(٤) الإسبتارية: طائفة من فرسان الصليبيين نشأت منذ فجر الحروب الصليبية وبدأت أول الأمر على هيئة جمعية هدفها العناية بمرضى الصليبيين، وإيواء الحجاج ورعايتهم وطبقت مبادىء الديرية البندكتية فى فلسطين ولم تلبث أن تخلت عن تبعتها للبندكتية وانتمت للبابوية مباشرة ثم تطورت واكتسبت صفة حربية وارتدى اصحابها زى الرهبان، وأخذوا يقاتلون من على ظهور الخيل كالفرسان تماماً، ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين منذ سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م، واسهمت مع طائفة الداوية فى حماية كيان الصليبيين فى الشام طوال أكثر من قرن من الزمان، انظر على عوده،المرجع السابق،ص٢١٧حاشية٤.

ضد الصالح أيوب صاحب مصر[(١)]

ويورد بعض المستشرقين روايات اخرى تفيد بأن الصالح أيوب قد عرض على الصليبيين نفس العرض الذى قدمه الحلفاء ضده إلا أننا لايمكن أن نسلم لهذه الروايات لعدة اسباب هى : –

١– أن المصادر الإسلامية المعاصرة للحوادث لم تورد أى اشارة على الاطلاق تفيد بوقوع شيء من ذلك ولو حدث فعلاً لذكر ذلك ابن واصل صديق حسام الدين الهذبانى قائد الصالح أيوب ووزيره.

٢ – أن الصالح أيوب لم يلجأ إلى الاستعانة بالصليبيين فى أسوأ الظروف التى مرت به عندما كان أخوه العادل يحكم مصر ولم يكن بيده سوى دمشق التى انتزعت منه فيما بعد واعتقل بالكرك فلم يفكر فى طلب العون منهم فكيف فى ذلك بعد أن اصبح الحاكم على مصر بامكاناتها ومواردها الضخمة؟.

٣ – ومما يدحض هذه المزاعم أن بيت المقدس وطبرية وكوكب وعسقلان وغيرها من البلاد التى سلمها الحلفاء للصليبيين لم تكن فى ذلك الوقت تحت سيطرة الصالح أيوب حتى يعرضها عليهم مقابل التحالف ضد الصالح إسماعيل ومن معه من ملوك الشام وهل يعقل أن يعرض عليهم بلاداً لايملكها؟.[(٢)]

٤ – الحقد الصليبيى على مصر نظراً لكونها المخزن الذى يمد المجاهدين فى بلاد الشام بالرجال والسلاح بالإضافة إلى أن معظم الوقائع الكبرى التى كسر فيها الصليبيون كانت على ايدى قادة إسلاميين قدموا من مصر.[(٣)]

---

(١) ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٦٤٤–٦٤٥، شفيق جاسر أحمد محمود، القدس تحت الحكم الصليبيى، ص ٨٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٨١.

(٢) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٢٨٢.

(٣) جوزيف نسيم، العدوان الصليبيى على مصر، ص ٢٧، العرب والروم واللاتين فى الحروب الصليبية الاولى، ص ٢٧٩، فتحية النبراوى، العلاقات السياسية الإسلامية، ص ٢٤٥، محمد المنسى عاصى، تارخ الحروب الصليبية وغارات المغول في العالم الاسلامي، ص ٦٢.

٥ – حرص الصليبيون على التحالف مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق لقربه منهم واحساسهم بمدى العداوة بينه وبين الصالح أيوب صاحب مصر فضلاً عن أن التحالف مع الصالح إسماعيل يعنى كسب كل من الناصر داود صاحب الكرك والمنصور إبراهيم صاحب حمص.[١]

وكيفما كان الأمر فإن الصالح إسماعيل ومن معه من ملوك بنى أيوب تخلوا عن مقدسات المسلمين فى بيت المقدس وغيرها دون أن يعيروا ذلك أى اهتمام، ولقد علق أحد الباحثين[٢] على هذا الجرم الذى أقدم عليه الصالح إسماعيل وأتباعه بآية من كتاب الله العزيز، حيث يقول الله تعالى ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾.[٣]

وهكذا فقد نجحت سياسة الداوية التى تولت امر المفاوضات فى الإيقاع بين ملوك المسلمين واستطاعوا أن يحصلوا منهم على بيت المقدس وغيرها من القلاع الحصينة، وكتب مقدم الداوية ارمان بريجورد رسالة مثيرة إلى أوربا سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م يبشرهم فيها بما حصل لهم من نتيجة سعيدة أعادت لهم مقدساتهم دون عناء واخبرهم أن فرقة الاسبتارية تعكف على إعادة بناء أسوار المدينة المقدسة ويعلق المؤرخ الغربى رنسيمان على ذلك بأنه آخر انتصار دبلوماسي للصليبيين فى الشرق الادنى.[٤]

وفى الحقيقة أن ذلك التنازل عن بيت المقدس وغيره من بلدان المسلمين يعد وصمة عار فى تاريخ أولئك الملوك، فلقد حكى المؤرخ المعاصر ابن واصل كيف انتهك الصليبيون حرمة المقدسات الإسلامية فى بيت المقدس عندما مر بها فى

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٦.

(٢) على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى، ص ٢٨٢.

(٣) سورة الكهف، آية (١٠٣-١٠٤).

(٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٨٩-٣٩٠.

أواخر سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٤م وهو فى طريقه إلى مصر حيث قال:"ودخلت البيت المقدس، ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة. وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلت الجامع الاقصى، وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة، وأعلن فيه بالكفر" وفى نفس الوقت وصل إلى بيت القدس الناصر داود ونزل غربى القدس فخاف منه ابن واصل ولم يجتمع به لكى لايصده عن الذهاب إلى مصر.[(١)]

ويعقب مجير الدين العليمى الحنبلى على مافعله الناصر داود، وكان قد حرر بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ثم كان ممن تنازلوا عنه، وفرطوا به يقول " وكان الناصر داود فتح بيت المقدس فى سنة ٦٣٧هـ، ثم فعل هذه الفعلة القبيحة، وقد انتقم الله منه فيما بعد فنعوذ بالله من سوء الخاتمة، والضلال بعد الهداية".[(٢)]

ونحن نعجب هنا من ثقة بعض ملوك المسلمين بالصليبيين، إذ كيف يجهل هؤلاء عداء الصليبيين الشديد للإسلام والمسلمين، وكيف يأمنون غدرهم ومكرهم وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك فى كتابه العزيز حيث قال ﴿ولايزالون يقتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعو﴾.[(٣)]

ورغم ذلك فإن الصالح إسماعيل ومن وافقه من ملوك المسلمين لم يخجلوا من عملهم ذلك بل بلغت بهم الجرأءة أنهم أرسلوا المنصور إبراهيم صاحب حمص إلى الصليبيين فى عكا للتوقيع على تلك الإتفاقية، وليعرض على الصليبيين بالنيابة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب،ج٥، ص٣٣٣. ١٠٩، عبدالجليل حسن عبدالمهدى، بيت المقدس فى ادب الحروب الصليبية، ص ٢١٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص٢٨٢.

(٢) مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، ص٦،٩-١٠.

(٣) سورة البقرة، آية ٢١٧.

عن الحلفاء نصيبهم فى مصر عندما تحل الهزيمة بالصالح أيوب، ولما وصل المنصور إبراهيم إلى الصليبيين فى عكا جرى إستقباله بكل مظاهر التشريف والحفاوة وتكفلت فرقة الداوية بمعظم نفقات الضيافة.[١]

وبذلك يكون اولئك الحكام من المسلمين قد اوقفوا حركة المقاومة والجهاد ضد الصليبيين ومكنوا لهم فى بلاد المسلمين مما كان له أكبر الأثر فى تأخر جلاء الصليبيين عن البلاد الإسلامية، ويعلق عماد الدين خليل على ذلك بقوله" هذا إلى أن عدداً غير قليل من الأمراء المحسوبين على عالم الإسلام مارسوا انماطاً من الخيانة وصنوفاً من الغدر من أجل منافعهم الشخصية ومصالحهم العاجلة لعبت دورها فى عرقلة حركة المقاومة ووضع العقابيل والحواجز فى طريقها وكثيراً ماكان هؤلاء يوجهون طعناتهم القاضية فى أشد المراحل حساسية وخطورة فجلبوا بذلك على حركة المقاومة الكوارث والويلات، ورغم أن الجهاد كان يستأنف المسير بعد كل كبوة، ورغم أن قيادات المجاهدين ماكانت تأبه للغدر فإنها تحتاج دوماً لزمن إضافى كي تجدد القدرة على مواصلة الطريق"[٢] ثم يعقب الكاتب على تلك الخيانات التى أخرت زمن المقاومة بتساؤل يقول فيه " ترى كم من الاوقات المستقطعة كما يعبر الرياضيون فى ساحات الالعاب، اقتضتها تلك الخيانات فحسبت على زمن الصراع المرير؟".[٣] وأنت حين تستعين بعدوك التاريخى وتفقد القدرة على الرؤية الصحيحة.. فلا ضير في أن تموت.. فأنت – في البدء – إنسان منتحر....!![٤]

وعلى اية حال فإن الصالح إسماعيل أعد قواته وسيرها إلى غزة " فنزلوا بها وعزموا على قصد الديار المصرية " وفى نفس الوقت كانت بعض العساكر المصرية قد تقدمت إلى العباسية لدحر العدوان على مصر بيما كان دهليز السلطان الصالح نجم الدين أيوب

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٣، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٠.

(٢) عماد الدين خليل، هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى، ص ٣٤-٣٥.

(٣) عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٤) عبدالحليم عويس، دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية، ص ١١١.

مضروباً على بركة الجب[١] ومعه بقية العساكر مستعدة للخروج إلى الشام سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م وكان حريصاً على اكرام قواده لضمان ولاءهم له ومن اؤلئك القواد الذين اكرمهم الامير حسام الدين بن ابى على الهذبانى حيث اعطاه إقطاعاً جليلاً واسكنه فى الدار المعروفة بدار الملك على شاطىء نيل مصر فى مدينة مصر ليكون قريباً منه[٢]

---

(١) بركة الجب: كانت بركة الجب منتزها بظاهر مدينة القاهرة من بحريها للخلفاء الفاطميين وسلاطين بنى أيوب ثم سميت فى عصر سلاطين المماليك باسم بركة الحاج لنزول الحجاج المسافرين براً بها عند سيرهم من القاهرة وإليها فى موسم الحج، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٤، حاشية ١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٣-٣٣٤.

## دخول الخوارزميين بلاد الشام واستردادهم لبيت المقدس (٦٤٢هـ)

وكما سبق أن ذكرنا لم يتمكن المسلمون من المحافظة على بيت المقدس الذى تمكن الناصر داود من الاستيلاء عليه فقد تجدد الصراع مرة اخرى بين بنى أيوب وخاف الصالح إسماعيل صاحب دمشق من الصالح أيوب صاحب مصر فاستنجد بالصليبيين وعرض عليهم مقابل مساعدته أن يتنازل لهم عن بيت المقدس بما فيه من الحرم والمزارات.[١]

ونتيجة لذلك بدأ يبرز دور الخوارزمية كقوة تشارك فى الصراع الإسلامى الصليبي، إذ أن الصالح أيوب أرسل إلى حلفائه من الخوارزمية " يستدعيهم إلى ديار مصر، لمحاربة أهل الشام، فخرجوا من بلاد الشرق" وعسكر الصالح أيوب فى العباسة ينتظر وصول الخوارزميه ليلقى بهم عمه الصالح إسماعيل وابن عمه الناصر داود اللذين جهزا عسكرهما وتوجها بصحبة المنصور صاحب حمص ونزلوا على غزة عازمين على قصد الديار المصرية.[٢]

وما إن وصلت دعوة الصالح أيوب إلى الخوارزمية حتى وجدوها فرصة سانحة للخروج من عزلتهم السياسية وتعويض مافقدوه من أراضى الجزيرة فقد سبق وأن أشرنا إلى كسرتهم على يد الحلبيين[٣] سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م لذلك ساروا مباشرة من الشرق فى أوائل سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م وقطعوا الفرات، تحت قيادة مقدمهم حسام الدين بركة خان وجان بردى، وصاروخان، وكشلوخان[٤] فى قوة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٢، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٥.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣١٥وانظر ابن واصل، المصدر السابق ج٥، ص٣٣٦، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٤٢، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ١٠٥.

(٣) انظر الفصل الثالث المبحث الثالث.

(٤) بركة خان: قائد الخوارزمية ومقدمهم الكبير، انظر الذهبى، تاريخ الاسلام، طبقة ٦٤، ص ٣٢.

**تزيد على عشرة الآف مقاتل، وانضم إليهم مجموعة القيمرية[(١)] على رأسهم الأمير ناصر الدين وضياء الدين واعداد كثيرة من اصحابهم واتباعهم.[(٢)]**

**ولم يتخل الخوارزمية عن اساليبهم الوحشية السابقة، فقد مارسوا اثناء مرورهم في البلدان الاسلامية منذ عبورهم الفرات الواناً من الهمجية والشراسة ضد الاهالى فى تلك البلدان وافاضت المصادر الإسلامية فى ذكر تلك الإساليب التى مارستها الخوارزمية فبين المقريزى بأنهم كانوا " ينهبون ويقتلون ويسبون"[(٣)] ويوضح ابن واصل رد الفعل لدى سكان البلاد التى يمرون بها بقوله " فأجفل الناس بين ايديهم وما مروا بموضع إلا نهبوه وعاثوا فيه"[(٤)]**

---

خان بردى: هو اختيار الدين خان بردى دون بركة خان فى الرتبة وقد كان أمير صاحب السلطان جلال الدين وهو شيخ داهية له رأى ورواء، انظر الذهبى، تاريخ الإسلام، طبقة٦٤، ص ٣٣.صاروخان: يعتبر شحنة الجمال التى لجلال الدين خوارزم شاه وهو شيخ بطين أبله، انظر الذهبى، المصدر السابق، طبقة ٦٤، ص ٣٣. **كشلوخان:** تربية جلال الدين وهو شاب عاقل وابن اخت جلال الدين، انظر الذهبى، المصدر السابق، طبقة ٦٤، ص ٣٣.

(١) القيمرية نسبة إلى قيمر، وكانت قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط، ذكر ياقوت في معجم البلدان، أنه نسب إليها جماعة من أعيان الأمراء بالموصل وخلاط وكان أهلها من الأكراد، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٦، حاشية ٣، انظر أيضاً المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٦، حاشية ٤.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٦، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢،ص٣١٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٣، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٤١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٢-٣٣، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ١٠٥، الذهبى، العبر، ج٣،ص ٢٤٢، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٧٢، عفاف صبرة،التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص٢٩٠.

(٣) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣١٦ وانظر كذلك سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٤١، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٣، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢٣.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق،ج٥،ص٣٣٦، وانظر ايضاً المقريزى، المصدر السابق،ج١،ق٢،ص٣١٦.

وقد قامت الخوارزمية بتقسيم قواتهم إلى قسمين، قسم توجه نحو بقاع بعلبك[١]، وقسم آخر نحو غوطة [٢] دمشق التى كانت حصينة، ثم انحرفوا صوب الجليل[٣] حيث تمكنوا من الاستيلاء على طبرية ثم نابلس[٤] وتوجهوا بعد ذلك صوب الجنوب نحو بيت المقدس[٥]

ولما سمعت قوات الحلفاء المقيمة بغزة بتحركات الخوارزمية أصابها الخوف والذعر فسارعوا بالعودة إلى ممالكهم فرجع الصالح إسماعيل إلى دمشق ورحل الناصر داود إلى الكرك وتحصن به وفر الصليبيون الذين كانوا ببيت المقدس بعد استيلائهم عليه، واضطربت الأوضاع فى بلاد الشام وأصبحت الفرصة سانحة للخوارزمية للهجوم على بيت المقدس والإستيلاء عليه وطرد العدو الصليبي منه واعادته مرة اخرى إلى المسلمين[٦]

علماً بأن بيت المقدس فى ذلك الوقت كانت اشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين، ولايوجد بها ملك أو قائد صليبي يدافع عنها، وعندما علم من فيها من

---

(١) بعلبك مدينة قديمة، فيها أبنية عجيبة وأثار عظيمة وقصور على اساطين الرخام لانظير لها فى الدينا بينها وبين دمشق مسيرة ثلاثة أيام، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٢) غوطة دمشق: الغوطة هى الكورة التى منها دمشق استدارتها ثمانية عشر ميلاً يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها يقول ياقوت أنها من أحسن بلاد الله منظراً، معجم البلدان.

(٣) الجليل : يقع في ساحل الشام ممتد إلى قرب حمص، ياقوت، معجم البلدان.

(٤) طبرية ونابلس: طبرية بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهى من أعمال الأردن، ونابلس مدينة مشهورة بأرض فلسطين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٥) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤١، المقريزى،السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٦، عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٩١، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى ص ٣٧٦.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٧، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٥٣.

الصليبيين بقدوم الخوارزميين استغاثوا بكل من بوهمند الخامس امير انطاكية ويوحنا أمير طرابلس وملك قبرص هنرى الأول، فضلاً عن جموع الصليبيين فى عكا وحلفائهم المسلمين ملوك دمشق وحمص والكرك، ولكن هذا النداء لم يجد استجابة من هذه الأطراف على الرغم من أهمية بيت المقدس للصليبيين وحرصهم الشديد على أن تعود له مكانته السابقة قبل موقعة حطين، ولعل إنشغالهم بمشاكلهم الخاصة فى الشام وقبرص أدى إلى عدم مبالاتهم بهذا الأمر[١] . وفي رأى أن هذا ابلغ دليل على تضارب مصالح الصليبين وحلفائهم المسلمين في بلاد الشام.

كما أن الصالح إسماعيل ملك دمشق والناصر داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص حلفاء الصليبيين -لم يجسروا على التدخل فى ذلك الأمر لحماية مصالح الصليبيين فى بيت المقدس من هجوم الخوارزمية لأن ذلك يعرضهم لنقمة الرأى العام فى البلدان الإسلامية.[٢]

وبالرغم من ذلك فإن بعض فلول الصليبيين في بلاد الشام حاولوا تدارك الامر قبل فوات الأوان، فسار البطريرك روبرت وبصحبته زعيما الداوية والإسبتاريه إلى بيت المقدس بقصد تعزير الحامية المرابطة في الإستحكامات التى بناها الداوية بعد الصلح مع الصالح إسماعيل، وفعلاً استطاعوا تعزيز الحامية، غير أنهم لم يجرؤ على البقاء بها خوفاً من أن يقعوا لقمة سائغة بيد الخوارزمية.[٣]

اقتحم الخوارزمية بيت المقدس فى سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م " وبذلوا السيف بمن كان فيه من النصارى ولم يبقو على أحد منهم، وسبوا ذراريهم

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٧، عفاف صبرة، التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ص ٢٩١، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٦.

(٢) عفاف صبرة، المرجع السابق، ص ٢٩١، سعيد عاشور المرجع السابق، ص ٩٩٧.

(٣) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٩٢.

ونساءهم"[١] ويفصل رنسيمان فى ذلك الهجوم فيذكر أن بداية القتال وقع فى شوارع المدينة ثم تقدمت الخوارزمية وشقوا طريقهم نحو دير الارمن المعروف بدير القديس يعقوب وقضوا على من به من الرهبان والراهبات، عندئذ قرر أحد المسئولين عن القلاع الخروج لايقاف الخوارزمية عندحدهم لكنه لم يتمكن من ذلك حيث لقى مصرعه على ايديهم كما هلك معه مقدم الاسبتارية.[٢]

عجزت الحامية الصليبية عن الإستمرار فى مقاومة الهجوم الخوارزمى، خاصة بعد أن فقدوا الامل فى قدوم نجدات الصليبيين فى بلاد الشام وقبرص، فأرسلوا يستغيثون بالناصر داود صاحب الكرك لتأمين خروجهم باعتباره أحد حلفاء الصليبيين ضد الصالح أيوب صاحب مصر، وكره الناصر داود الوقوف إلى جانبهم لأنه لم يكن يميل إليهم، إلا أنه توسط لهم عند الخوارزمية بشرط أن يقوموا بتسليم القلعة، فوافقت الحامية الصليبية على ذلك وسلمت القلعة سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م وغادروا بيت المقدس قاصدين يافا.[٣]

وهكذا خرج من بيت المقدس حوالى ستة الاف من الصليبيين من الرجال والنساء والاطفال وعليهم الذلة والصغار، وتركوا المدينة للخوارزمية، الذين حز فى نفوسهم أن يسلم هؤلاء الصليبيون - وهم الذين فعلوا بالمسلمين الأفاعيل عند استيلائهم على بيت المقدس فى المرة الأولى سنة ٤٩٢هـ- فدبروا لهم خدعة حربية ليقتلوهم عن آخرهم، وفعلاً انطلت هذه الخدعة على الصليبيين فبينما هم يسيرون باتجاه الساحل إلى يافا نظر جماعة منهم إلى الوراء، فشاهدت أعلام الصليبيين ترفرف على أبراج المدينة حيث اعتقدوا أن نجدة قد وصلت لحماية بيت

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٣، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٦،، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٣.

(٢) رنسيمان،تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٢.

(٣) رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٢، عاشور، الحركة الصليبية، ص٩٩٧.

المقدس من الخوارزمية[١]

عندئذ اصر عدد كبير منهم على العودة إلى المدينة، فلما رجعوا وقعوا فى كمين تحت اسوار المدينة وقتل منهم اكثر من الفين، فى حين تعرضت البقية الباقية منهم للمطاردة طوال طريقهم إلى يافا من قبل المجاهدين، ولم يسلم منهم سوى ثلثمائة رجل فقط[٢]

ومافعله الخوارزميون يحسب لهم فلقد عاد بيت المقدس نهائياً إلى المسلمين، ولم يستطع أى جيش صليبى أن يقترب منها بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى بعد حوالى سبعة قرون[٣] ؛ ولم يظهر الخوارزمية شيئاً من الرأفة بالصليبيين وبمقدساتهم الموجودة فى بيت المقدس، فدخلوا " كنيستهم المعروفة بالقيامة، فهدموا المقبرة التى تعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام، ونبشوا قبور النصارى وقبور ملوك الفرنج التى بالقيامة، واحرقوا عظام الموتى"[٤]، وكان من ضمن الذين لقوا مصرعهم فى كنيسة القيامة مجموعة من القسس اللاتين المتقدمين فى العمر حيث رفضوا مغادرة المدينة وانشغلوا بإقامة القداس، واحرق الخوارزمين جميع الكنائس الموجودة فى بيت المقدس بما فيها كنيسة القيامة، ونهبوا الدور والدكاكين الموجودة فى انحاء المدينة ولما اضحت المدينة خاوية على عروشها

---

(١) رنسيمان،تاريخ الحروب الصليبية،ج٣، ص ٣٩٢، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص٩٩٧-٩٩٨.

(٢) رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٢، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص٩٩٨.

(٣) عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٧، شفيق جاسر أحمد محمود، القدس تحت الحكم الصليبى ودور صلاح الدين فى تحريرها، ص ٨٩، رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٣، عاشور، المرجع السابق، ص٩٩٨.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٧، السلوك، المقريزى، ج١،ق٢، ص ٣١٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٣٥٣.

خرج منها الخوارزمية ولحقوا بالجيش المصرى المعسكر فى غزة. [١]

وهذا الأمر لم يكن مستغرباً من الخوارزمية وهم بذلك يحاكون الصليبيين عندما دخلوا إلى بيت المقدس أول مرة حيث فعلوا من الإجرام مالا مزيد عليه.

وهكذا هيأ الله عز وجل للمسلمين فى الشام من اعاد لهم أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وطهره من دنس النصارى ولم تقف قوة الخوارزمية الزاحفة إلى بلاد الشام صوب مصر من استرداد القدس بل تمكنوا من تلقين الصليبيين وحلفائهم من المسلمين درساً فى حطين الثانية وهذا ماسنراه فى المبحث التالي.

---

(١) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩٣.

# معركة غزة (حطين الثانية) ٦٤٢هـ

بعد أن قام الخوارزمية باسترداد بيت المقدس اتجهوا صوب غزة وعسكروا بها، وأرسلوا إلى الصالح أيوب صاحب مصر في صفر سنة٦٤٢هـ/١٢٤٤م يخبرونه بقدومهم لنصرته، ويطلبون منه ارسال العساكر إليهم لقتال عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم صاحب حمص والناصر داود صاحب الكرك والحلبيين، وخاف الصالح أيوب من دخول الخوارزمية إلى مصر فيعبثوا بها كما هي عادتهم، فأمرهم بالإقامة في غزة ريثما تصلهم عساكره، ووعدهم أن يعطيهم بلاد الشام مقابل مايقدمونه له من خدمات، وخلع الصالح أيوب على رسلهم وبعث معهم الهدايا والتحف والخيل والاموال إلى المقدمين منهم وتوجه في الرسالة إليهم جمال الدين اقوش النجيبي وجمال الدين بن مطروح، كما حرص الصالح أيوب على سرعة انفاذ العساكر إليهم.[١]

تقدمت العساكر المصرية إلى غزة للانضمام إلى الخوارزمية وقد عين الصالح أيوب الامير ركن الدين بيبرس قائداً عاماً لهذا الجيش، وكان من أفضل مماليكه وأخصهم به، وهو الذى أشرنا إلى أنه كان معتقلاً معه بالكرك، ثم أمر الأمير حسام الدين الهذباني في أن يمضى بفرقة اخرى من الجيش ليرابطوا بنابلس.[٢]

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٧٧، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٦، اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص ١٠٥، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٣، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج٢، ص ٧، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص ١١٢، المختار من تاريخ ابن الجزرى ص ١٨٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٣.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٣٧، أبوالفدا، المختصر، ج٣،ص١٧٢-١٧٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٩، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٤٢هـ، مجير الدين الحنبلى، المصدر السابق، ج٢، ص٧.

عندئذ أخذ الصالح إسماعيل يعمل على الاعداد لمجابهة الخوارزمية وعساكر مصر وأرسل يستدعي حليفه المنصور صاحب حمص ليسند إليه مهمة قيادة عسكره، لما اشتهر به المنصور من الشجاعة والإقدام في قتال الخوارزمية، حيث تمكن من الانتصار عليهم مرتين، فتطلع الصالح إسماعيل أن يتحقق على يده هذه المرة النصر على الخوارزمية ومن معهم من العساكر المصرية[١] وحينما وصل المنصور إلى الصالح إسماعيل بدمشق " اقتضى رأيهما أن يقصدا الديار المصرية وأرسلوا إلى الفرنج وبذلا لهم جميع الأعمال الساحلية إذا ملكو مصر، واشترطا عليهم أن يخرجوا ويمضوا معهما إلى مصر بجموعهم، فارسهم وراجلهم، فأجابوا إلى ذلك وتحالفوا عليه"[٢]

وصل المنصور وعسكر دمشق وقدمت عليه نجدة من حلب، وتم الاتفاق على أن يكون المنصور قائداً عاماً على القوات المشتركة الشامية والصليبية على حد سواء وأن يقيم الصالح إسماعيل في دمشق، واثناء سير المنصور بالعساكر الشامية من دمشق إلى غزة عرج على رأس فرقة عسكرية صغيرة إلى عكا فدخلها ليطلع الصليبيين على ماتم الاتفاق عليه، ونزل في دار فرسان الداوية، واجتمع بقادة الصليبيين وتشاور معهم في الترتيبات اللازمة للوقوف في وجه الخوارزميين وعساكر مصر وبعد مداولات طويلة جرى الاتفاق على خروج الصليبيين جميعاً بما فيهم فرقتا الداوية والاسبتارية وجميع أمراء الصليبيين وفرسانهم، " واستعدوا وحشدوا وخرجوا معهم بالفارس والراجل ولم يتأخر منهم أحد[٣]

---

(١) ابن واصل،مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٣، اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٥، علي عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص ٢٨٣.

(٢) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، وانظر علي عودة، المرجع السابق، ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق،ج٥،ص٣٣٨، ابن العميد، المصدر السابق،ص٣٣، أبوالفدا، المختصر،ج٣،ص١٧٢، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى،ج٢،ص٢٤٩، الخطيب العمري، الدرر المكنون، حوادث سنة ٦٤٢، مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل،ج٢،ص٧، علي عودة، المرجع السابق، ص٢٨٤.

ومما يلفت الانتباه أن الجيش الصليبي يعتبر أضخم جيش تقدم للقتال منذ موقعة حطين التى قررت مصير الفرنج[١]، ويبدو أن السبب الذى اغراهم على الخروج بهذه الكثرة هو طمعهم فى ملك الديار المصرية، حيث أن المنصور إبراهيم والصالح إسماعيل وعداهم " أن يكون لهم جزء من الديار المصرية"[٢]، ولقد تألف الجيش الصليبي من ستمائة فارس علمانى بقيادة فيليب مونتفورت صاحب تبنين وصور، ووالتربرين صاحب يافا، وأرسل الداوية والاسبتارية من رجالهم مايناهز الثلاثمائة فارس، بقيادة زعماء الفرقتين ارمان بريجورد ووليم شاتونيف وانضم إليهم كتيبة من الفرسان التيوتون[٣] وأرسل بوهمند الخامس امير انطاكية مجموعة من الامراء والقادة لينضموا إلى جيش الحلفاء، وصحب القوات البطريك دوبرت ومعه رئيس أساقفة صور والرملة، وغيرهم من طوائف الصليبيين.[٤]

وسارت جميع القوات إلى غزة ولم يتأخر عنهم إلا الناصر داود، فبعث إليه المنصور يطلب منه الحضور لخوض المعركة، ولكن الناصر داود لم يحضر بنفسه واكتفى بارسال مجموعة من عسكره إلى الحلفاء بقيادة اثنين من أكبر قواده وهما الظهير بن سنقر الحلبى، والوزيرى[٥]، وكان سبط ابن الجوزى شاهد عيان

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٤.

(٢) ابن واصل،مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٢٤٩.

(٣) هم اتباع المستشفى الألماني بيت المقدس الذين تحولوا إلى جماعة رهبانية عسكرية، وللمزيد من التفصيل عن طائفة التيوتون انظر حسن عبدالوهاب حسنين، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة.

(٤) رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٤.

(٥) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٣٨، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٧، اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص١٠٥، الذهبى، المختار تاريخ ابن الجزرى، ص١٩٠، ابن تغرى =

لتحركات الجيوش فى بلاد الشام فيقول " وكنت يومئذ بالقدس ولما وصلت نجدة الناصر داود إلى الحلفاء تحركوا جميعاً نحو الخوارزمية وعسكر مصر، وكانت اعلام الصليبيين مرفوعة فوق رؤوس العسكر الإسلامي وفى أعلى هذه الاعلام اشارات الصليب وبصحبتهم الرهبان والقسيسين يدورون على فرسان المسلمين يصلبون عليهم، وبأيديهم أوانى الخمر يسقونهم"(١)

وكيف ظن هؤلاء المسلمين الذين ساروا تحت الصلبان أن النصر سوف يتحقق لهم لكثرة عددهم ولم يدركوا أن الله لاينصر إلا من ينصره، فمن المعلوم أن الجيش الإسلامى قد هزم فى غزوة أحد بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ فكيف بهؤلاء الذين تحالفوا مع أعداء المسلمين ضد اخوانهم المسلمين وساروا تحت أعلامهم وصلبانهم وشربوا الخمور، هل يمكن أن يتحقق لهم النصر؟

وعلى اية حالة فلقد التقى الجمعان فى آربيا على بعد بضعة أميال إلى الشمال الشرقى من غزة يوم الاثنين ١٢جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/ ١٧اكتوبر ١٢٤٤م وقبل خوض المعركة بادر الحلفاء إلى عقد مجلس حربى، وبما أن المنصور صاحب حمص تقابل مع الخوارزمية وانتصر عليهم فإنه كان على علم بنقاط الضعف عندهم وحاول أن يستغل ذلك، فاشار على الحلفاء بالبقاء فى اماكنهم وتحصين معسكرهم امام كل هجوم من قبل الخوارزمية لأنهم يكرهون الهجوم على الاماكن الحصينة فيزداد حينئذ قلقهم وربما ينفصلون عن الجيش المصرى الذى لايستطيع أن يستغنى عنهم فى مواجهة الحلفاء، وأقره على هذا الرأى عدد كبير من الصليبيين إلا والتربرين فانه رفض هذا الاقتراح واصر على القيام بهجوم شامل ومباشر على الخوارزمية والقوات المصرية لأن قواته تفوق فى العدد الجيش المقابل لهم، ورأى أن هذه فرصة لايمكن اهدارها للقضاء على خطر الخوارزمية ولإذلال

---

= بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج٢، ص٧.

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٦، وانظر كذلك المقريزى، السلوك،ج١،ق٢، ص٣١٧، الذهبى، دول الاسلام،ج٢،ص١١٢،الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى،ص١٩٠.

الصالح أيوب صاحب مصر، ولكى يحقق والتر هدفه ويجبر الحلفاء على تنفيذه تحرك باتجاه القوات الخوارزمية المصرية.[١]

عندئذ تحركت جيوش الحلفاء لخوض القتال، وكان الصليبيون يكونون ميمنة الجيش بينما المنصور هو القائد العام للقوات المشتركة بعساكره وعساكر دمشق وكتيبة حلب فى القلب أما عسكر الناصر داود صاحب الكرك فقد كانوا فى الميسرة ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس أدت إلى انهزام العساكر المصرية إلى قرب العريش بعد أن رموا امتعتهم واثقالهم، غير أن الخوارزمية ثبتوا أمام هذا الهجوم الكاسح حتى حلت الهزيمة بالقوات الشامية[٢] وكان أول من انهزم عساكر دمشق التى لم تستطع الصمود فولت الأدبار[٣] ثم حملت الخوارزمية على ميسرة الجيش المكون من عساكرالناصر داود وكسرتهم وهرب الوزيرى وأسر القائد الاخر الظهير سنقر الحلبى وجرح فى عينه وأخذ جميع ماله وعاقبه الله بأن عاش بقية عمره فقيراً معدماً، ولم يكن باستطاعة المنصور أن يواصل القتال بعد تخاذل عسكر الناصر داود والدمشقيين وفرارهم من أرض المعركة فحذا حذوهم وانهزم من الميدان عندئذ احاطت الخوارزمية بالصليبيين وكان عددهم " ألف وخمسمائة فارس وعشرة الاف راجل" وماهى إلا لحظات حتى حصدتهم الخوارزمية بسيوفهم حصداً جيداً[٤] " فافنوهم قتلاً وسبياً،ولم يفلت منهم إلا

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٤٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٧، ابن الجزرى،المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٩٠، ابن العديم، بغية الطلب،ج٤، ص١٨١٠.

(٣) الذهبى، المصدر السابق، ص١٩٠، رنسيمان، المرجع السابق، ج٣، ص ٣٩٥.

(٤) سبط بن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٤٦، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣١٧، الذهبى، المصدر السابق، ص١٩٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٣.

الشارد والنادر"[١] ووقع فى الأسر منهم ثمانمائة أسير، أما العدد الإجمالى للقتلى من الصليبيين والشاميين فقد ذكر المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزى أنه شاهدهم بنفسه قائلاً " ولقد اصبحت ثانى يوم الكسرة إلى غزة فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب فقالوا هم زيادة على ثلاثين الفا" وقد ذكر هذا التقدير عدد كبير من المؤرخيين.[٢]

وحاز الخوارزمية وعسكر مصر فى هذه الموقعة من أموال الشاميين واسلحتهم مايجل وصفه وأموال وخزائن واسلحة المنصور صاحب حمص حتى أنه طلب شاشاً يتعمم به فما وجده وجعل يبكى ويقول " قد علمت أنا لماسرنا تحت صلبان الفرنج أنا لانفلح"[٣] ولقى عسكر المنصور وعسكر دمشق من الضيق والمشقة فلم يصلوا إلى دمشق إلا فى أسوء حال ودخل المنصور إلى دمشق وهو لايصدق النجاة وتأسف على مابدر منه بتحالفه مع الصليبيين ضد اخوانه المسلمين وأخذ يقول " والله لقد حضرت الحرب ذلك اليوم وأوقع الله تعالى فى قلبى إنا لاننتصر لانتصارنا بالكفار على المسلمين".[٤]

على أن ابن تغرى بردى غاظه ذلك وقال:" عليه من الله مايستحق من الخزى

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٤٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٧، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص١١٢، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٩٠.

(٣) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص٧٤٧ المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣١٧، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص١٤٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص٢٨٥.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٣٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٣-٣٢٤ الذهبى،دول الاسلام، ج٢، ص١١٢،المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٩١.

وايش يفيد تقصيره بعد أن صار هو والفرنج يداً وأحدة على المسلمين.[١]

وفي خامس عشر جماد الأولى سنة ٦٤٢هـ /١٢٤٤م وردت بشارة النصر إلى الصالح أيوب فأمر بإقامة الاحتفالات، وزينت القاهرة ومصر وضواحيها وقلعتي الجبل والروضة وبالغ الناس في ذلك حتى ذكر أنها زينت زينة لم يجر مثلها من قبل، وضربت بشائر النصر في البلد عدة أيام، ووصل إلى القاهرة اسارى الصليبيين ورؤس القتلى، معهم جماعة من القادة والاعيان من المسلمين الذين كانوا في صفوف الحلفاء من اتباع الناصر داود والصالح إسماعيل، ولكي يظهر المصريون مزيداً من الفرحة قاموا باركاب الصليبيين على الجمال اما القادة فقد أركبوهم على الخيل وشقوا بهم شوارع القاهرة فكان ذلك يوماً مشهوداً وعلقت الرؤس على مداخل القاهرة وملئت السجون بالأسرى.[٢]

وهكذا تمكن الخوارزمية من إنزال الهزيمة الساحقة بالصليبيين " ومن انضم إليهم من منافقي المسلمين"[٣] فكانت بذلك أعظم كارثة تحل بهم منذ موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م حتى أن بعض المؤرخين ذكر أنه لم يجر مثلها " لافي زمان نور الدين الدين ولا صلاح الدين"[٤] وأطلق البعض الآخر على هذه الموقعة إسم " حطين الثانية"، ويورد بعض المؤرخين احصائية عامة عن المعركة تبين مدى خسارة الصليبيين فيذكرون أنه اشترك في موقعة غزة الثانية من فرسان الداوية ثلثمائة فارس لم يسلم منهم سوى ثلاثة وثلاثون واشترك

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٣٩، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٧، أبوالفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٧٢، ابن ايبك الدوادا، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٤، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢٤ أبوالفدا، التبر المسبوك، حوادث سنة ٦٤٢هـ.

(٣) أبوشامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين، ص ١٧٤.

(٤) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٦.

فيها من فرسان الاسبتارية ما يقرب من مائتى فارس ولم ينج منهم سوى ستة وعشرون فقط أما البقية الباقية منهم فقد فقدوا بين القتلى والاسرى، واسر مقدم الاسبتارية بينما قتل مقدم الداوية، كما اشترك فيها أربعمائة من الفرسان التيوتون ولم ينج منهم إلا ثلاثة.(١)

نتيجة لذلك فإن الخسارة العظيمة التى لحقت بالصليبيين كانت نهاية المطاف لوجودهم في بلاد الشام، فقد عجزوا عن الدفاع عن البلدان التى استولوا عليها فى بلاد الشام ماعدا المناطق الساحلية وبعض القلاع الداخلية الحصينة، وفقدوا بذلك كل ما احرزته الدبلوماسية أو العسكرية من مكاسب هامة خلال العشر السنوات الاخيرة، ويذكر أحد المؤرخين الغربيين عند مقارنته بين حطين وغزة الثانية أن صلاح الدين عندما تم له النصر على الصليبيين كان سلطاناً على مصر والشام أما الصالح أيوب فى انتصاره هذا لم يكن سلطاناً إلا على مصر فقط ولكى يتحقق للصالح أيوب توحيد الشام وليتسنى له بذلك طرد الصليبين نهائياً من الشرق ومصركان لابد له من أن يقضى على خصمه الصالح إسماعيل فى دمشق.(٢)

على أن الخوارزمية الذين تحقق على ايديهم هذا النصر العظيم كانوا يتوقعون أن يكافئهم الصالح أيوب بأن يسمح لهم بالإقامة فى مصر، ولكنه خاف من سوء العاقبة فهم كما عهد عنهم لن يتورعوا عن ممارسة أعمالهم الاجرامية ممايؤدى إلى الأضرار بالبلاد والعباد واباح لهم الاستقرار فى بلاد الشام على حساب الصليبيين، ولم تلبث الخوارزمية أن قامت بشن الغارات على ممتلكات الصليبيين وقراهم

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٩، وانظر كذلك على عودة، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ص٢٨٦، عبدالرحمن الرافعى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٣٧٧، سعيد أحمد برجاوى، الحروب الصليبية فى المشرق، ص ٥٣٣.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٧.

حتى وصلوا إلى اطراف مدينة عكا[١]، ويبدوا أن من أهداف الصالح أيوب الاخرى فى بقاء الخوارزمية فى بلاد الشام هو اشغال الصليبيين عن التفكير فى الانتقام لما حل بهم فى موقعة غزة الثانية وحتى يكونوا شوكة في جنب اعدائه من أمراء البيت الأيوبى حتى يتفرغ هو الاخر للقضاء على خصومه فى بلاد الشام، ولتعزيز هذا الأمر نجده يرسل اثنين من قواده وهما الأمير ركن الدين بيبرس والأمير حسام الدين الهذبانى ويأمرهما بمنازلة عسقلان وانتزاعها من يد الصليبيين وكان الصليبيون قد بنوا اسوارها وحصنوها بعد تسلمهم لها من قبل الصالح إسماعيل. سارت القوات المصرية إلى عسقلان سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٦م وحاصرتها وضايقتها وتابعوا الزحف عليها بالجروخ والزنبورك[٢] إلا أن ذلك لم يجد بسبب حصانه المدينة، ثم ورد أمر الصالح أيوب إلى حسام الدين بالمضى إلى نابلس والإقامة بها، فامتثل للأمر وبقى ركن الدين بيبرس محاصراً لعسقلان.[٣]

وفى الوقت نفسه اتجه الصالح أيوب إلى معاقبة الناصر داود لتحالفه مع الصليبيين فاستولى جيشه على جزء كبير من املاكه فى غزة والساحل وبيت المقدس والخليل وبيت جبرين والأغوار، ولم يبق بيد الناصر داود إلا الكرك والبلقاء وعجلون والصلت وهى بيد سيف الدين بن قلج.[٤]

وبعد معركة غزة ومانتج عنها تفرغ الصالح أيوب لتوحيد بلاد الشام مع مصر

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص ٣٩٧، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٩٩٩.

(٢) الجروخ جمع جرخ وهو نوع من القوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب أو النفط، والزنبورك، والجمع زنبوركات تعنى نوعاً من القسى التى ترمى عنها السهام وقد تعنى نوعاً من السهام ذاتها، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٥٠، حاشية ٣، ص٢٤٤، حاشية ١.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٤٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٨، العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٢هـ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق،ج٥،ص٣٤٠، المقريزى، المصدر السابق،ج١، ق٢، ص٣١٨.

(٣٠١)

ومن ثم الاستعداد لطرد الصليبيين من بلاد الشام معتمداً في ذلك على الخوارزميين، إلا أن الخوارزمية سرعان ماانقلبوا عليه بسبب جشعهم وهذا ماسيتواصل عنه الحديث في الفصل الخامس.

# الفصل الخامس

# العلاقات بين الصالح أيوب والخوارزميين

# (٦٤٣-٦٤٥هـ)

- الصالح أيوب واسترداد دمشق سنة ٦٤٣هـ.
- خروج الخوارزميين عن طاعة الصالح أيوب وتحالفهم مع أعدائه.
- انتصار قوات الصالح أيوب على الخوارزميين سنة ٦٤٤هـ.
- طبيعة الدور الخوارزمي وأثره في قيام الحملة الصليبية السابعة.

(٣٠٤)

# الصالح أيوب واسترداد دمشق

تطلع الصالح أيوب بعد انتصار قواته في موقعة غزة إلى استغلال ذلك النصر لتحقيق أهدافه الرامية إلى إعادة الوحدة للدولة الأيوبية من جديد ورأى أن العقبة الكبرى التي تعترض طريقه في سبيل ذلك هو عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق فعزم على الانتقام منه جزاء خيانته واستعانته بالصليبيين، ثم الاستيلاء على دمشق باعتبارها المفتاح لبلاد الشام ولكي يمهد الصالح أيوب لهذه العملية بادر بإرسال نوابه للاستيلاء على أملاك الناصر داود صاحب الكرك.[١]

ومما زاد في حرص الصالح أيوب على الانتقام من عمه الصالح إسماعيل هو ما بلغه عن موت ابنه المغيث فتح الدين عمر[٢] بقلعة دمشق وهو محبوس في برج من أبراجها سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م " فاشتد جزع الملك الصالح أيوب عليه، وحنق على عمه الملك الصالح إسماعيل حنقاً شديداً واتهمه في قتله وجد في حربه[٣]"، أما الصالح إسماعيل فقد توقع أن يقوم ابن أخيه الصالح أيوب بالانتقام لابنه ولذلك أعد العدة واستعد للموقف الذي سيحل به " عندئذ وقع في قلب الصالح إسماعيل " فتهيأ للحصار وخرب رباعاً كثيرة حول البلد وغرقت المساكن التي على حافة بردى بين جسري بابي توما والسلامة وبسبب خراب جسر باب توما وسده رجع الماء وارتفع وصار بحراً فوقع ما كان

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٤٠، أبوالبركات الحنبلي، شفاء القلوب، ص ٣٧٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٧٥.

(٢) هو المغيث فتح الدين عمر بن الصالح أيوب، كان ولداً حسناً عاقلاً ديناً أسرة الصالح إسماعيل فى سنة ٦٣٨هـ وحبسه فى بعض ابراج قلعة دمشق، وكان عاقلاً لم يحفظ عنه كلمة فحش ولاكسر قلب أحد وكان جواداً، انظر سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٥١.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٤٦.

على حافته والله المستعان".[١]

أعد الصالح أيوب قواته وأسند قيادتها إلى وزيره الصاحب معين الدين أبى محمد الحسن بن شيخ الشيوخ[٢] وأمره بالمسير إلى الشام، ومنحه جميع الصلاحيات الخاصة بالسلطان فبعث معه الدهليز السلطاني، وحكمه في الجيوش، وأقامه مقام نفسه" أعطاه تفويضاً مطلقاً في تدبير الخزائن والأموال والبلاد[٣] ولم يكتف بذلك بل أذن له في أن يجلس على رأس السماط[٤] ويركب كما هي عادة السلاطين، وأمر الأستادار شهاب الدين الطوشي أن يقوم على خدمته، وأن يقف أمير جاندار[٥] والحجاب بين يديه كعادتهم في خدمة الملوك ويبدو أن الصالح أيوب قصد من ذلك تعزيز ولاء معين الدين له حتى لا يفكر في الانقلاب عليه بتحالفه مع أعدائه[٦]

لم يقف الصالح أيوب عند حد الاعتماد على قواته التي أرسلها من مصر بل

---

(١) أبوشامة، تراجم رجال القرنيين السادس والسابع، ص ١٧٤.

(٢) معين الدين الصاحب الكبير الحسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر الجوينى توفى فى رمضان سنة ٦٤٣هـ وقد قارب الستين، ولى عدة مناصب وتقدم عند صاحب مصر فأمره على جيشه الذى حاصر دمشق فأخذها وولى وعزل وعمل نيابة السلطنة فبغته الاجل بعد أربعة أشهر ووجد ماعمل، انظر الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٤٥.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٨-٣١٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤.

(٤) السماط: السماط هنا المائدة السلطانية، أو مايبسط على الأرض لوضع الاطعمة وجلوس الاكلين، المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٠٠-٢٠١.

(٥) الجاندار: كلمة مركبة من لفظين فارسيين أحدهما جان ومعناه سلاح، والثانى دار ومعناه ممسك، وموضوع وظيفة الجاندارية أن متوليها يستأذن للسلطان قبل دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان، انظر القلقشندى،صبح الاعشى، ج٤، ص٢٠.

(٦) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٨-٣١٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص٣٣.

أرسل إلى الخوارزمية وطلب منهم الانضمام إلى قواته المتجهة إلى دمشق، وبالرغم من الإعداد الجيد للقوات المصرية، والصلاحيات التي تمت لقائد هذه القوات، فإن الصالح أيوب قد فوجئ بنبأ وفاة حليفه وصديقه المظفر تقي الدين محمود[١] صاحب حماه الذي وافته منيته في جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م والذي " كانت مملكته ملجأ لأنصار الصالح أيوب" وعلى ما يبدو فإن هذا الخبر قد أخر خروج القوات المصرية حتى نهاية العام.[٢]

خرجت القوات المصرية بقيادة معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ من القاهرة ووصلت إلى غزة حيث انضمت إليهم الخوارزمية ومن بغزة من القوات المصرية ولم يستقروا بها بل واصلوا مسيرهم إلى بيسان[٣] فعسكروا بها وأقاموا بها فترة للترتيب والإعداد للحصار، ثم سار معين الدين بقواته إلى دمشق التي تحصن بها الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وضربت قوات الصالح أيوب الحصار حول دمشق في أواخر سنة ٦٤٢هـ أوائل سنة ١٢٤٥م.[٤]

---

(١) الملك المظفر هذا هو جد المؤرخ أبي الفدا إسماعيل، صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر، وقد ترجم له أبوالفدا فى كتابه هذا وذكر ماحدث فى حماه بعده ونصه: " وفى هذه السنة توفى جدى الملك المظفر تقى الدين محمود... وكانت مدة ملكه بحماه خمس عشرة سنة وسبعة اشهر وعشرة أيام... وكان شهماً شجاعاً، فطناً ذكياً، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم، انظر ترجمته فى أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٧٣-١٧٤.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٤٢، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٨-٣١٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٥.

(٣) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامى ويقال هى لسان الأ، وهى بين حوران وفلسطين، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٤١، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣١٩، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص٣٥٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، حوادث سنة ٦٤٢هـ، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص١٧٢-١٧٣، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص٢٨٢، على عوده، المرجع السابق، ص٣٢٩.

واصل الجيش المصري حصاره لدمشق " وعاثت الخوارزمية في أعمال دمشق"[١]، وقطعوا على الناس الطرق المؤدية إليها وزحفوا على المدينة من كل ناحية وضويقت المدينة مضايقة شديدة حتى احرق قصر الحجاج والشاغور وحكر السماق[٢] وشمل الحريق مساجد وخانات ودور عظيمة بما في ذلك مسجد جراح الواقع خارج باب الصغير وكان جامعاً تقام فيه الجمعات، وحمية المعركة ونصب منجنيق عند باب الصغير وآخر عند باب الجابية كما نصب من داخل البلد منجنيق إضافي وترامى الفريقان.[٣]

وفى يوم الاثنين ثامن محرم سنة ٦٤٣هـ / ٥ يونية ١٢٤٥م أراد الصالح إسماعيل أن يستفز معين الدين بن شيخ الشيوخ فبعث إليه بسجادة وإبريق وعكاز[٤]، وقال له: " اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك ".

فلما وصل ذلك إلى معين الدين رد على الصالح إسماعيل بجواب مفحم بعد أن جهز له جنكا وزمرا وغلالة حرير[٥]، وقال: " السجادة والإبريق والعكاز يليقون بي،

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣١٩.

(٢) من أحياء دمشق الخارجية، انظر ياقوت، معجم البلدان.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٥٢، أبوشامة، تراجم رجال القرنيين السادس والسابع، ص ١٧٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٧، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤،ص ١٠٥ النعيمى، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٢٨٢.

(٤) السجاد والابريق والعكاز هى ادوات الانقطاع للعبادة والزهد والتصوف، انظر ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٧، حاشية ٥.

(٥) الجنك: بكسر أوله وسكون ثانيه المشتغل بالرقص والغناء والطرب، أو هى من أدوات الغناء والطرب، والغلالة: قميص يرتديه الرجال والنساء، ابن ايبك، المصدر السابق، ج٧، ص٣٥٥، حاشية ٤.

وأنت أولى بالجنك والزمر والغلالة"[١] وكان قد عرف عن الصالح إسماعيل ميله إلى مجالس الطرب والشراب.

استمر معين الدين ومعه الخوارزمية في محاصرة دمشق فخاف الصالح إسماعيل من تدهور الوضع وانقلاب الموازين وفى المقابل نجد الخليفة المستعصم يبعث رسوله محي الدين بن الجوزي[٢] إلى الصالح أيوب ومعه خلعة " وهى عمامة سوداء، وفرجية مذهبة، وثوبان وطوق ذهب وعلمان حرير وحصان وترس ذهب" ولبس الصالح أيوب الخلعة كما هي العادة، وكأن الخليفة يقره على أخذ دمشق من الصالح إسماعيل[٣]. ويتضح لنا من خلال ذلك إطلاع الخليفة على بواطن الأمور إذ كان يدرك غيرة الصالح أيوب وأنه الشخص المناسب في المكن المناسب. بالإضافة إلى إدراكه للخطر المغولي، وفي المقابل لم يجاهر بمعاداة الصالح إسماعيل منعاً لتوسيع دائرة الصراع.

على أن الوضع في دمشق كان ينذر بزوال ملك الصالح إسماعيل على اثر الإنشطار والانشقاق الذي حدث بين حاشيته، فقد فسدت النية بين قاضى دمشق رفيع الدين[٤]

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨،ص٧٥٢ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢،ص٣١٩، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص٣٥٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٧٧، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٩٧، النعيمى،الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) محى الدين بن الجوزى الصاحب العلامة سفير الخلافة أبوالمحاسن يوسف بن الشيخ أبى الفرج عبدالرحمن بن على بن محمد التيمي البكري البغدادى الحنبلى، استاذ دار المستعصم بالله ولد سنة ٥٠٨هـ وقتل سنة ٦٥٦هـ، انظر الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٨٥.

(٣) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣١٩.

(٤) الرفيع الجيلي قاضي القضاة بدمشق أبوحامد عبدالعزيز بن عبدالواحد بن إسماعيل احد قضاة الجور، كان متكلماً بارعاً فى العقليات والفلسفة رقيق الديانة قبض عليه فى أخر سنة إحدى واربعين، ثم بعث مع من رماه فى هوة بأرض البقاع، انظر الذهبى، العبر،ج٣، ص ٢٤٣.

ووزير الصالح إسماعيل أمين الدولة[١]، وكان الأخير يشتغل عليه بعلم الطب وغيره، وهو الذي سعى في تقليده منصب القضاء في دمشق علماً بان رفيع الدين قد سار في القضاء سيرة سيئة جداً، فقد لجأ إلى ظلم الرعية والحكم عليهم بالجور حتى يتقرب إلى الصالح إسماعيل ووزيره أمين الدولة[٢]، وكان هذا القاضي يطمع في أن يرتقي منصب الوزارة فرفع إلى الصالح إسماعيل مطالعة يريد بها تشويه سمعة أمين الدولة عنده، فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن احضر أمين الدولة واطلعه على الأمر وكان الصالح إسماعيل يثق في أمين الدولة ويرجع إليه في كل أموره حتى أن سبط ابن الجوزى يعلق على ذلك بقوله " وكأن الله تعالى قد سخر إسماعيل للسامرى فلو قال له مت لقال لداعي الموت أهلاً ومرحباً ليكون سبب هلاكه " وأنكر أمين الدولة ما تقدم به القاضي ولكي ينتقم من القاضي اطلع الصالح إسماعيل على " ما يعتمد الرفيع من الظلم والعسف والجور في الأحكام وأشياء أخرى قبيحة يعتمدها في نفسه" وأشار على الصالح إسماعيل بعزله ليظهر للناس أن ما كان يصدر عن القاضي ليس بأمر منه.[٣]

وكيفما كان الأمر فإن ابن الشيخ زحف بقواته على دمشق من كل ناحية، واستخدموا المنجنيقات في ضرب المدينة ورموا النيران في قصر حجاج، فرد الصالح إسماعيل على ذلك بأن أحرق جوسق قصر والده وامتد الحريق من زقاق الرمان حتى العقيبة، وقطعت الأنهار الداخلة إلى دمشق، فاشتد الكرب على أهل

---

(١) أمين الدولة الوزير أبوالحسن الطبيب، كان سامرياً ببعلبك، فأسلم فى الظاهر والله أعلم بسريرته، ونفق على الصالح إسماعيل، حتى وزر له، وكان ظالماً نجساً ماكراً داهية، أخذ من دمشق بعد حصار الخوارزمية وسجن بقلعة مصر وشنق هناك، انظر الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٦١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٤١-٣٤٢.

(٣) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٤٤، ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٤٢.

دمشق وعظم الخطب وهلك كثير من الناس موتاً[١] وجوعاً وتغيرت رائحة البلد من كثر الموتى وارتفعت الأسعار وقلت الأقوات حتى بلغت " غرارة القمح ألف وست مائة درهم وبيع اللحم بتسعة دراهم" وانعدم الأمن داخل البلد فانتشرت أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض وغيرها من الأمور البشعة التي يندى لها الجبين[٢]، ويورد سبط ابن الجوزى مثالاً عل تلك الفضائح التي جرت داخل مدينة دمشق فيذكر " أن رجلاً كان له عشر بنات أبكار فقال لهن: اخرجن فقلن لا والله الحريق أولى من الفضيحة فاحترقت الدار واحترقن ولم يخرجن[٣]وهذه الرواية تدل على ما وصلت إليه الحال من أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض في المدينة.

ورغم هذه المصائب وذلك الضيق الذي أصاب سكان دمشق فإن الخمور والفاحشة والمكوس كانت منتشرة في دمشق[٤] فتحققت فيهم السنة الربانية التي تصيب من يجاهر بالمعاصي قال الله تعالى ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾[٥] وقال تعالى ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[٦]

واستمر الحصار بضعة أشهر، حتى فكر المنصور إبراهيم صاحب حمص بعد أن

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٥٢، الذهبى، العبر، ج٣، ص٢٤٤، دول الإسلام، ج٢، ص ١١٢-١١٣، الذهبي، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٩٧-١٩٨، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢،ص ٢٨٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٧-١٧٨، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص ١١٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٦.

(٣) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٥٢.

(٤) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣، ص ١٧٨، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص١١٣.

(٥) سورة الانفال، آية ١٣١.

(٦) سورة هود، آية ١١٧.

طفح به الكيل من تصرفات الصالح إسماعيل، أن يسلم دمشق إلى الخوارزمية من باب شرقي " نكاية في الملك الصالح إسماعيل" ولكنه عدل عن هذا العزم حماية للمسلمين من شر الخوارزمية.(١)

وبعد فترة وجيزة شعر الصالح إسماعيل والمنصور ومن معهم من العساكر داخل دمشق بعجزهم عن الصمود أمام عساكر مصر والخوارزمية لكثرتها وقلة عدد العساكر الموجودة داخل المدينة إضافة إلى نفاذ ما بقلعة دمشق من الذخائر والمؤن، فضلاً عن تخلى الحلبيين عنهم في هذه الساعة الحرجة بالنسبة لهم، ولم يكن هناك من الملوك من يستطيع تقديم المساعدة لهم، فالناصر داود كسرت شوكته مباشرة بعد موقعة غزة، والخليفة العباسي لم يحاول الإصلاح بينهم وأغلقت الأبواب في وجوههم.(٢)

عندئذ قرروا طلب الصلح، فخرج المنصور صاحب حمص من دمشق في ربيع الآخر سنة ٦٤٣هـ سبتمبر ١٢٤٥م إلى خارج المدينة واجتمع بزعيم الخوارزمية بركة خان واستبشر الناس خيراً باجتماعهما وعاد المنصور إلى دمشق، حيث اطلع الصالح إسماعيل على نتيجة المفاوضات، ويبدوا أنه أقنعه من خلال إطلاعه على قوة العساكر المحاصرة لدمشق وعزمها على فتح المدينة بأنه لا جدوى من المقاومة.(٣)

وفوض الصالح إسماعيل وزيره أمين الدولة السامرى بترتيب إجراءات الصلح مع معين الدين بن الشيخ، ولكي يأمن السامرى على نفسه عندما يخرج للمفاوضات مع ابن الشيخ أرسل إليه يطلب منه ملابسه " فبعث له فرجية وعمامة وقميصاً

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٨، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٣٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٤٨، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٦.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٢١، الذهبى،المختار من تاريخ ابن الجزرى،ص١٩٨، على عوده، المرجع السابق، ص١٧٦-١٧٧.

ومنديلاً" فلبسها السامرى وخرج من دمشق ليلاً وتقابل مع معين الدين ابن الشيخ وتحدث معه في تقرير قواعد الصلح بين الطرفين ويبدوا أن السامرى أراد إطلاع الصالح إسماعيل على نتائج المفاوضات فرجع إلى دمشق ثم خرج منها مرة أخرى للتوقيع على ذلك.[١]

وكان مما قرر في ذلك أن تسلم دمشق لابن الشيخ في مقابل أن يخرج منها الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص مع أتباعهم دون التعرض لشيء من أموالهم وكل ما يتعلق بهم، وأن يعطى الصالح إسماعيل كل ما كان له من قبل وهى بعلبك وأعمالها وبصرى وأعمالها وجميع بلاد السواد الواقعة نواحي البلقاء، وأن يكون للمنصور مملكة حمص وتدمر، والرحبة، وحلف معين الدين ابن الشيخ على ذلك، وغادر الصالح إسماعيل والمنصور دمشق على إثر ذلك.[٢]

ودخل معين الدين بن الشيخ بقواته إلى دمشق يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ أكتوبر ١٢٤٥م ونزل بدار أسامة، وكان أول قرار اتخذه هو منع الخوارزمية من الدخول لدمشق لكي لا يزيد الأمر سوء فهو لا يضمن تعففهم عن القتل والسلب والنهب فهي عادتهم في كل البلدان التي يدخلونها ولكي يأمن غدرهم بادر بمكافئتهم على مساندتهم له في الحصار واصدر مناشير بذلك اقطع فيها " ملوك الخوارزمية وأمراءهم من بلاد الشام والساحل".[٣] وبعد الاستيلاء على دمشق مباشرة وصل إلى معين الدين بن الشيخ أمر من الصالح أيوب بأن لا يعطى

---

(١) سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٥٣، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢١، ابن كثير، البداية النهاية، ج١٣، ص١٧٨، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص٢٨٣.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣٢١، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٣٣، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٤، الخطيب العمري، الدر المكنون، ورقة ٢٦٠، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ٣٥٨، على عوده، المرجع السابق، ص١٧٧.

(٣) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٢١، ابن العميد، المصدر السابق، ص٣٣.

عمه الصالح إسماعيل الآمان ويلقى القبض عليه ويرسله إلى مصر ولكن ذلك لم يأت إلا بعد فوات الأوان إذ أن الصالح إسماعيل كان قد خرج من دمشق وتسلم بعلبك فلما بلغ الصالح أيوب ذلك أنكر على قائده معين الدين بن الشيخ إطلاق سراح عمه الصالح إسماعيل " وتمكينه من ذهابه سالماً بحشاشة[1] نفسه، فإنه كان لا يرى إلا إعدامه حنقاً عليه بسبب اتهامه بقتل ولده ولما بدا منه في حقه"[2]

وذكر المقريزى أن الإنكار لم يقتصر فقط على معين الدين في إطلاق سراح الصالح إسماعيل بل وجه إنكاره إلى الطوشي شهاب الدين وبقية الأمراء وقال لهم: " أن معين الدين حلف له، وأما انتم فما حلفتم" ثم أمر الصالح أيوب بإرسال الركن الهيجاوى والوزير أمين الدولة السامري تحت الحوطة إلى مصر، فأرسلا إلى مصر حيث جرى اعتقالهما بقلعة الجبل[3]

ثم اخذ معين الدين بعد دخوله إلى دمشق بتنظيم شئونها واسند الوظائف الهامة إلى رجال يثق بهم فكلف الشهاب رشيد بدخول القلعة، وولى ابن الشيخ الجمال هارون المدينة وصدر الدين بن الدولة قاضى القضاة واستناب العزيز السنجارى والكمال التفليس وعزل القاضي محي الدين بن الزكي، ولما دخلت دمشق تحت حكم الصالح أيوب وأصبحت سيطرته على الشام قاب قوسين بادر بعض القادة بالانضمام إليه فانفصل سيف الدين بن قلج عن الناصر داود وسار من عجلون إلى دمشق معلناً دخوله في طاعة الصالح أيوب " وأوصى بعجلون وماله للصالح أيوب

---

(١) الحشاشة: بقية الروح فى المريض، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٧٢.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٤٩، علي عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٧٧.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢١، وانظر ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٣٤.

ونزل بدار فلوس".[(١)]

أقام معين الدين نائباً عن السلطان الصالح أيوب في دمشق وبعد فترة وجيزة مرض ابن الشيخ وتوفى في رمضان سنة ٦٤٣هـ/ فبراير ١٢٤٦م فأرسل الصالح أيوب إلى قائده حسام الدين بن أبى على الهذبانى " يأمره بالتوجه إلى دمشق متولياً لها"، فسار إليها نائباً عن السلطان بها، كما قرر في ولاية قلعة دمشق الطواشي شهاب الدين الكبير، وتعاون القائدان في إدارة الحكم في دمشق حيث " يجتمعان كل يوم ويتفقان على مصالح الدولة".[(٢)]

(١) سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٥٣، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص ١٧٨، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٩٨، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص٢٨٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٥٠، المقريزى، المصدر السابق،ج١،ق٢،ص ٣٢١-٣٢٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٧-١٧٨.

# خروج الخوارزمية عن طاعة الصالح أيوب وتحالفهم مع أعدائه

وبعد دخول جيش الصالح أيوب إلى دمشق أراد الخوارزمية أن يتقاضوا ثمن خدماتهم التي قدموها للصالح أيوب، فلقد ساعدوه في هزيمة الصليبيين وإذلال أمراء البيت الأيوبي واسترداد دمشق لاسيما وأنهم كانوا سبباً في إنقاذه في المرة الأولى من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل عندما حاصره بسنجار، فظنوا أنهم استحقوا بخدماتهم تلك " أن يقاسمهم البلاد، ويمكنهم من الاستيلاء على أكثرها "وأنه يكون لهم أخباز عظيمة بالديار المصرية".[(١)]

ولم يكن الصالح أيوب يرى أن يمكنهم من البلاد والعباد ولم يسمح لهم بالمسير إليه والدخول إلى مصر، بل نجد الصالح أيوب يشدد في ردعهم عن مزاولة أعمالهم العدوانية ضد المسلمين، إذ أنه لما كثر فساد الخوارزمية وانتهاكاتهم اللامحدودة بأعمال وقرى دمشق كتب ابن الشيخ فيهم تقريراً وأرسله إلى الصالح أيوب في مصر فما كان من الصالح إلا أن " كتب إليه بردعهم فتنمروا عليه .[(٢)]

على أن قائد قوات الصالح أيوب المقيم بدمشق حاول إرضاءهم فأقطعهم ساحل الشام " بمناشير كتبها لهم"[(٣)]، ويبدوا أنهم كانوا يرون أن تلك القسمة

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٤٩-٣٥٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٦، الخطيب العمري، الدر المكنون فى المأثر الماضية من القرون، ورقة ٢٦٠. والأخباز هنا تعني الإقطاعات.

(٢) ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٨.

(٣) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٢١.

كانت مجحفة بالنسبة لهم بسبب وقوع كثير من مدن ساحل الشام المهمة تحت سيطرة الصليبيين وهذا الأمر سوف يؤدى إلى دخولهم في صراع مستمر معهم حول تلك الإقطاعات، فوقع الخلاف نتيجة لذلك بينهم وبين الصالح أيوب " ونفرت نياتهم وفسدت واتفقت كلمتهم على الخروج عليه".[١]

وكان أول عمل انتقامي قاموا به ضد الصالح أيوب هو الهجوم على داريا وهي إحدى قرى دمشق فنهبوا سكانها أتلفوا ما كان بها، ثم سارعوا بالانسحاب إلى الشرق لإعداد العدة وتجميع الحلفاء ضد الصالح أيوب[٢] وكان يلي غزة من قبل الصالح أيوب الأمير ركن الدين بيبرس الصالحي[٣] وهو أكبر قادته، فوجد الخوارزمية أن تلك فرصة سانحة لتأليب هذا القائد على سيده، فراسلوه وعرضوا عليه أن يتفق معهم وأن يكونوا يداً واحدة وأن يزوجوه امرأة منهم، ويبدوا أنه استجاب لهم وعزم على الانفصال عن طاعة سيده، غير أن الصالح أيوب عندما بلغه ذلك خاف من عاقبة الأمر فاستدرج قائده واستدعاه إلى مصر فقدم عليه واعتقله بقلعة الجبل وكان أخر العهد به.[٤]

لم يلتفت الخوارزمية إلى ما قام به الصالح أيوب من استدراج قائده إلى مصر إذ

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥٠، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٨.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٥٣، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢٢، اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص ١٠٥-١٠٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٨، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٤٤، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٩٨.

(٣) هو غير السلطان المشهور بيبرس البندقدارى، ولايتعدى الأمر بين الرجلين أكثر من اتفاقهما فى الاسم والشهرة، انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٢٤٠، حاشية١٠.

(٤) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٥٠، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢،ص ٣٢٢، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٧٨.

أنهم كانوا يدركون طبيعة الوضع في بلاد الشام فلن يعجزوا عن إيجاد البديل فخصوم الصالح أيوب وكثيرون في المنطقة فمنهم الناصر داود صاحب الكرك والصالح إسماعيل صاحب دمشق والحلبيين والمنصور إبراهيم صاحب حمص، فكل واحد من هؤلاء يتطلع إلى اليوم الذي ينتقم فيه من صاحب مصر.[١]

وقد وجد الخوارزمية ضالتهم في الناصر داود صاحب الكرك وكانت أمه خوارزمية فاستمالوه وحسنوا له الانضمام إليهم ضد الصالح أيوب، فما كان منه إلا أن استجاب لهم وسار إليهم ليعزز ذلك الأمر فاجتمع بقادتهم واتفق معهم على مهاجمة دمشق ولتوثيق عرى ذلك الاتفاق عمد الخوارزمية إلى تزويجه منهم غير أنه لم يبق معهم بل رجع إلى الكرك محاولاً إعداد العدة واستثمار ذلك الاتفاق لاسترجاع جميع البلاد التي خرجت من يده بعد موقعة غزة على يد قوات الصالح أيوب، وفعلاً تحركت قواته من الكرك وتمكنت من استرجاع نابلس والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار وغيرها، وعين ولاة عليها من قبله بعد طرده ولاة الصالح أيوب.[٢]

ولم يكتف الخوارزمية بانضمام الناصر داود إليهم بل سعوا في إدخال الصالح إسماعيل في هذا الحلف، فراسلوه وطلبوا منه الانضمام إليهم ولأنهم كانوا يعلمون أنه ربما لا يوافقهم لخوفه منهم أعطوه اليمين على ذلك، فاطمئن إليهم وقدم عليهم وصاروا معه " واتفقت كلمة الجميع على محاربة السلطان الملك الصالح نجم

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٤.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص٣٥٠، المقريزى، المصدر السابق،ج١، ق٢، ص٣٢٢، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٦-٣٧٧، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٢٤-٣٢٥، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٧٨-١٧٩.

الدين "[١]

ويذكر البعض الآخر من المؤرخين أن الخوارزمية لم تراسل الصالح إسماعيل بل تذكر أن هذا الأخير عندما بلغه إنكار الصالح أيوب صاحب مصر على قادته لأنهم لم يحتاطوا عليه خاف على نفسه وراسل عز الدين صاحب صرخد وقادة الخوارزمية واتفقت كلمة الجميع على محاربة قوات الصالح أيوب المقيمة بدمشق[٢] وهذا ما نميل إليه إذ يتفق مع المنطق حيث أن الصالح إسماعيل يتوقع بين لحظة وأخرى أن يقبض عليه الصالح نجم الدين أيوب ويقتله ثأراً لولده الذي مات في سجن الصالح إسماعيل.

ولما بلغ الصالح أيوب اتفاق كلمة الجميع عليه خرج بقواته من القاهرة وعسكر بالعباسة وأقام بها ولكي يفسد على قوات التحالف أمرهم حاول أن يضفي على حكمه نوعا من الشرعية فأرسل القاضي عز الدين عبد الرحمن بن عبد العزيز إلى الخليفة العباسي في بغداد " يلتمس التقليد بالديار المصرية والشام والشرق، والتشريف الأمامي " فاستجاب له الخليفة العباسى وسير مع رسول الصالح أيوب رسولا كبيراً من الديوان ومعه التشريف والطوق والمركوب، وحضر رسول الخليفة إلى الصالح أيوب وهو معسكر في العباسة ودخل الدهليز السلطاني وكان ابن واصل حاضراً وقرىء التقليد على الناس، ثم لبس الصالح أيوب التشريف وركب المركوب وكان يوماً مشهوداً، ويبدو أن الصالح أيوب خاف من حدوث انقلاب داخلي عليه بسبب فرض الإقامة الجبرية على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥١، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٨،الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٩٨، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب،ص٣٧٧، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس،ج٢، ص ٢٨٣، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٧٩.

(٢) المقريزى، السلوك، ١، ق٢، ص٣٥٢، ابن العميد،أخبارالأيوبيين، ص٣٤.

فبادر بإطلاق سراحه وخلع عليه " وأمره وقدمه وأحسن إليه إحساناً كثيراً"[(١)]

تقدمت الخوارزمية ومن انضم إليهم من أهل الشام وعلى رأسهم الصالح إسماعيل إلى دمشق، وفرضوا عليها حصاراً شديداً في ذي القعدة سنة ٦٤٣هـ/ابرايل ١٢٤٦م، وأظهر حسام الدين بن أبى علي نائب الصالح أيوب في دمشق مقاومة صلبه، وتمكن من حفظ المدينة بعد أن حصن أبوابها وأسوارها بالرجالة والمقاتلة، وأشرف على ذلك بنفسه ليلاً ونهاراً وجهز المدينة لمقاومة الحصار.[(٢)]

وشدد الخوارزمية ومن معهم الحصار على المدينة، وكان حصاراً محكماً حرم المدينة من جميع الإمدادات التي تصل إليها حتى قاسى السكان من ذلك ولقوا من العنت والضيق والغلاء والجوع والوباء مالا يوصف، ولقد وصف المؤرخون الشدة التي قاستها دمشق بأنها " لم يسمع بمثلها"[(٣)]

وانتشرت المجاعة داخل مدينة دمشق فاضطر الناس إلى أكل الميتات والدم والقطط والكلاب ومات كثير من الناس على الطرقات وانتشرت الروائح الكريهة داخل المدينة " فكان الإنسان إذا مر بالجبل وشم روائح الناس مرض ومات"

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٥١-٣٥٢، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص٢١٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٥٢، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٢٢، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٧، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٥١، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٩.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٥٣، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣٢٢، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٧٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٨، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤، ابن الوردى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥١، أبوالفدا، التبر المسبوك، حوادث سنة ٦٤٣.

وضجر من بقى من السكان من تغسيل ودفن موتاهم ولجأو إلى حفر الآبار ورمى الجثث بها[١]، وهكذا عانت كل مدن الشام من آثار الاختلاف والشقاق بين أمراء البيت الأيوبي وتعطل النمو الطبيعي والتقدم الحضاري في بلاد الشام والجزيرة.

ومع هذه الشدة وذلك الضيق والجوع الذي كان يعانى منه سكان دمشق فان المعاصي والمنكرات كانت منتشرة داخل المدينة وبين الأهالى "فكانت الخمور دائرة والفسق ظاهر والمكوس بحالها"[٢] ويبدو أن الفساد السياسي أدى إلى فساد في عقائد الناس وسلوكياتهم وأخلاقهم وأنساهم الرجوع إلى الله فنسيهم الله وعاقبهم على جرمهم إذ لم يعتبروا بما حاق بهم في المرة الأولى عندما حاصرهم جيش الصالح أيوب، بل أصروا على تلك المعاصي قال تعالى ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.[٣]

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٥٤، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٢٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣ ص١٧٨، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص١٩٨-١٩٩، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص٢٨٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٧٩.

(٢) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٥٤، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٢٢، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ١٩٩، العبر، ج٣، ص٢٤٤ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣، ص ١٧٨.

(٣) سورة الاعراف، آية ٩٦-٩٩.

# انتصار قوات الصالح أيوب على الخوارزمية

ونتيجة للحصار الشديد الذي فرضه الخوارزمية والصالح إسماعيل على دمشق أرسل حسام الدين ابن أبي على الهذباني إلى سيده الصالح أيوب يطلب منه إرسال نجدة لفك الحصار عن المدينة، وكان الضرر قد لحق بالبلاد والعباد من جراء الأفعال التي قام بها الخوارزمية ويصور المقريزى ذلك فيقول " فيها عظمت مضرة الخوارزمية ببلاد الشام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء وانتهاكهم للحرمات".[١]

عندئذ أخذ الصالح أيوب يعمل على تفريق الحلف السابق لموقعة غزة والذي تم بين الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص والحلبيين والناصر داود، واستطاع أن ينجح في ذلك، فقد أخذ في إعمال الحيل والتدابير مع المنصور صاحب حمص واستمر معه في ذلك حتى تمكن من ضمه إلى صفه، ثم أرسل إلى الحلبيين وشرح لهم خطورة بقاء الخوارزمية في البلاد وقال لهم إن " هؤلاء الخوارزمية قد اخربوا البلاد والمصلحة أن نتفق عليهم " فما كان من الحلبيين وهم الذين سبق وأن تضرروا من الخوارزمية إلا أن استجابوا لدعوة الصالح أيوب[٢] واتفقت كلمة الجميع على حرب " الخوارزمية وطردهم من البلاد"[٣]

وشرع المنصور إبراهيم صاحب حمص في جمع الجيوش من العرب والتركمان وغيرهم لإنقاذ دمشق من الخوارزمية وخرج نائب حلب شمس الدين لؤلؤ بقواته

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٢٤.

(٢) سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٦٠، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢،ص٣٢٣، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٤٩، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص٢٠١، النعمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص ٢٨٤.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥٣.

وانضم إلى عسكر المنصور، فسمعت الخوارزمية بتلك التحركات والاستعدادات من قبل المنصور وقوات حلب وأنهم عازمون على قصدهم، فقرروا فك الحصار عن دمشق والرحيل لملاقاة هذا الحلف الجديد والقضاء عليهم قبل أن تكتمل استعداداتهم، وعبر بركة خان عن ذلك بقوله " دمشق لا تفوتنا والمصلحة أن نسير إليهم".[١]

فك الخوارزمية حصار دمشق، وكان ذلك سبباً في تخفيف وطأة الخناق عن دمشق، وساروا باتجاه حمص وتم خلال ذلك تجديد الحلف بين الخوارزمية والصالح إسماعيل والناصر داود وعز الدين ايبك صاحب صرخد واجتمعوا على مرج الصفر باستثناء الناصر داود الذي بقى في الكرك واكتفى بإرسال فرقة عسكرية لمساندة الخوارزمية، ثم خرجت حامية دمشق في إثرهم ولحقت بالمنصور.[٢]

وفى المحرم من سنة ٦٤٤هـ/ مايو ١٢٤٦م تقابل الفريقان على القصب وهى منزلة قبلي حمص علي مرحلة منها وقيل إنهم تقابلوا على بحيرة حمص ودارت بينهم رحى معركة عنيفة انتهت بهزيمة الخوارزمية وحلفائهم " هزيمة قبيحة" وقتل الكثير منهم، وكانت قاصمة الظهر بالنسبة للخوارزمية حيث تبدد شملهم، وتفرقوا " شذر مذر" " وانقطع دابرهم فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة"[٣]، ولم يؤد الخوارزمية والصالح إسماعيل بعد ذلك دوراً هاماً في السياسة

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٦٠، ابن واصل، مفرج الكروب،ج٥، ص٣٥٤، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص٢٠١، النعيمى، الدارس في تاريخ المدارس،ج٢،ص٢٨٤، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٨٠.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٥٢-٣٥٤، الذهبى،المصدر السابق، ص ٢٠١، النعيمى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨٤.

(٣) ابن واصل،المصدر السابق ج٥ ص ٣٥٩، ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص ١٨١٠، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٩،

استكمال الحاشية في الصفحة التالية

الشامية.[(١)]

ولعل أكبر سبب ساعد على القضاء على الخوارزمية هو مقتل زعيمهم بركة خان ويتضح ذلك فيما أورده سبط ابن الجوزى إذ يقول " حكى لي شمس الدين لؤلؤ لما أخذوا دمشق في سنة ثمان وأربعين وستمائة وكان يزورني فزارني يوماً فحكى حديث بركة خان قال: لما التقينا على حمص رأيتهم خلقاً عظيماً نحن بالنسبة إليهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض، فقال لي غلماني أيما أحب إليك نأخذ بركة خان أسيراً أو نحمل رأسه إليك قال: فقلت رأسه كأن الله أنطقني والتقينا، فلما كان بعد ساعة وإذا بواحد من أصحابنا يحمل رأساً مليح الصور وليس في وجهه سوى شعرات يسيرة ولم يعرفه ولا نحن وانهزموا، وجئ بطائفة منهم أسارى فلما رأوا الرأس رموا نفوسهم وبكوا.... يقول فعلمنا حينئذ أنه رأسه فبعثنا به إلى حلب".[(٢)]

وعلى أية حال فإن الله سبحانه وتعالى كفى الناس شرهم " فإن البلاد كانت منهم في بلاء عظيم من النهب والسلب وسفك الدماء، وانتهاك الحرمات " وتفرقت جموعهم فذهب جماعة منهم إلى المغول وانضموا إليهم وعلى رأسهم كشلوخان وجماعة أخرى ذهبوا إلى مصر، وفلول أخرى تفرقت في بلاد الشام لخدمة ملوكها[(٣)] ولا غرابة في ذلك فلقد عاشوا طوال عمرهم تحكمهم روح البدواة والقسوة وعدم التحضر فاضعفوا العالم الإسلامي بكثرة غاراتهم طوال عهدهم

---

أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٢٧٧، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٤٩، النعيمى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٥٧.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان ن ج٨، ص ٣٦٥- ٣٦٨.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٥٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٨٠.

وتركوا مهمتهم الأساسية وهى حماية السور الشرقي للدولة الإسلامية.

وكان لهذا النصر وقعه الكبير على الصالح أيوب، فما أن وصلت البشائر بذلك حتى أمر بتزين مصر وقلعة الجبل وقلعة الجزيرة، كما كان لهذا النصر نتائجه الإيجابية في تحسين العلاقات بين الصالح أيوب صاحب مصر والمنصور إبراهيم صاحب حمص – أعداء الأمس – " وحصل بينهما التصافي والتواد"، وكذلك تحسنت العلاقة بين الصالح أيوب والحلبيين أعداء الأمس أيضاً " واتفقت كلمة الجميع".[١]

أما الصالح إسماعيل وعز الدين ايبك ومن سلم من العسكر فقد هربوا بعد الهزيمة مباشرة عرايا جياعا بعد أن نهبت أموالهم وساروا إلى حوران وسار صاحب حمص في أثرهم فوصل إلى بعلبك واستولى على الربض وسلمه لبعض نواب الصالح أيوب ثم عادوا إلى حمص بعد أن ودع الحلبيين[٢] وخشي الصالح إسماعيل بعد ذلك من التوجه إلى بعلبك، خوفاً من إرسال جيش من قبل الصالح أيوب فيحاصره بها ويقع في قبضته فينتقم منه لاعتقاده بأنه قاتل ولده الملك المغيث، فلجأ الصالح إسماعيل إلى الناصر بن الملك العزيز صاحب حلب فأواه وأكرمه واحترمه وكان معه جماعة من الخوارزمية تم إلقاء القبض عليهم وأودعوا السجون[٣]

كان الصالح أيوب يظن أن صاحب حلب لن يتأخر في تسليم الصالح إسماعيل إليه بعد الاتفاق الذي حصل بينهما، فأرسل كاتبه بهاء الدين زهير إلى الناصر

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب ج٥، ص ٣٦١، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢٤.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان،ج٨، ص٧٦٠، ابن أبيك، كنز الدرر،ج٧،ص٣٥٨، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص٢٠٢، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢،ص٢٨٥.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق،ج٥، ص٣٦٠-٣٦١، المقريزى، المصدر السابق،ج١، ق٢، ص٣٥٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٧٩، أبوالبركات الحنبلى، شفاء القلوب، ص ٣٧٧.

صاحب حلب يطلب منه تسليم عمه الصالح إسماعيل إليه ولكن الناصر لم يستحسن ذلك وقال لرسول الصالح أيوب " كيف يحسن بي أن يلتجئ إلى خال أبي وهو كبير البيت وأسيره إلى من يقتله، وليس من المروؤة إذا استجار إنسان بإنسان أن يخفر ذمته ويسلمه إلى عدوه، هذا شيء لا يكون أبدا" وبالرغم من أن رفض الناصر صاحب حلب قوبل بعدم ارتياح من قبل الصالح أيوب إلا أنه سكت على ذلك ولم يلجأ إلى قطع العلاقات معه تقديراً لموقفه معه في مناصرته ضد أعدائه.[١]

ولكنه قرر تجريد عمه الصالح إسماعيل من جميع ممتلكاته في بلاد الشام فاصدر أوامره إلى حسام الدين بن أبي على نائبه على دمشق بالتوجه إلى بعلبك والاستيلاء عليها، فتوجه إليها حسام الدين في رجب سنة٦٤٤هـ /١٢٤٦م وحاصر قلعتها وضيق عليهم الخناق حتى اضطر المنصور نور الدين ابن الصالح إسماعيل إلى تسليم بعلبك وبلادها إلى حسام الدين الذي قام بترتيب أمورها وجعل فيها والياً، وعاد إلى دمشق ومعه أولاد الصالح إسماعيل حيث اعتقلهم فترة ثم سيرهم إلى الصالح أيوب في مصر[٢] الذي قام باعتقالهم في قلعة القاهرة " وكان أخذ بعلبك عند السلطان أحسن وقعاً من أخذ دمشق، حنقاً منه على عمه الصالح إسماعيل " لذلك زينت القاهرة ومصر لفتحها.[٣]

على أن الوضع لم يستتب بعد للصالح أيوب لوجود الناصر داود وبعض فلول الخوارزمية في بلاد الشام الذين انساقوا بعد هزيمتهم قرب حمص إلى بيت

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٦٠، المقريزى،السلوك، ج١، ق٢،ص٣٢٤، أبوالبركات الحنبلى،شفاء القلوب، ص ٣٧٧.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٦١-٣٦٢، سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٦١، أبوالبركات الحنبلى، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٦٢، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣٢٤.

المقدس والساحل " وعاثوا فيها وأخربوها"[١] ثم نزلوا في البلقاء، وأرسل إليهم الناصر داود صاحب الكرك يطلب منهم الدخول في خدمته فاستجابوا له وانعم عليهم وأكرمهم وتزوج منهم وأرسل عائلاتهم إلى قلعة الصلت وسار إليهم واجتمع بهم ".وقويت شوكته بإتيانهم إليه" وأصبحت تطمح نفسه إلى استعادة ملك أبيه وانضم إليهم عز الدين ايبك صاحب صرخد وساروا إلى نابلس واستولوا عليها.[٢]

سمع الصالح أيوب بالتحركات الجديدة التي قام بها الناصر داود وعز الدين ايبك والخوارزمية فخشي من تطور الأوضاع في بلاد الشام وتغير الموازين، وبادر بإعداد جيش كبير اسند قيادته إلى الأمير فخر الدين بن الشيخ وأوكل إليهم مهمة قتالهم وطردهم من البلاد، وسار ابن الشيخ بهذا الجيش متجهاً إلى الشام، فلما سمعت الخوارزمية بوصوله إلى غزة انسحبوا من نابلس إلى الصلت واجتمعوا بقوات الناصر داود وعز الدين ايبك، فسار إليهم ابن الشيخ بمن معه من العساكر والتقى الجمعان على الصلت في ربيع الآخر سنة ٦٤٤هـ / سبتمبر ١٢٤٦م وتمكن ابن الشيخ من إنزال الهزيمة الساحقة بهم وفرق شملهم[٣] واستولى ابن الشيخ على ما كان بيد الناصر داود من البلاد وهي بيت المقدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء وولى فيها نوابا من قبله.[٤]

---

(١) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥.

(٢) سبط ابن الجوزى، مرآة الزامان، ج٨، ص ٧٦١، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧، ص ٣٥٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٥، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ٢٠٢، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص٢٨٥، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٤٩.

(٣) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٦١، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ٣٥٩، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٥، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٥٠، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص ٢١٢، النعيمى، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٨٥.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٦٤.

أما الناصر داود فإنه عاد مسرعاً إلى الكرك وتحصن فيها ولحقت به فلول الخوارزمية ولم يمكنهم من دخول القلعة ولا الربض، كما رجع عز الدين ايبك إلى صرخد وتحصن بها، وتوجه ابن الشيخ بعساكره إلى الكرك[١] " فخرب ما كان حولها من الضياع وأضعفها إضعافاً شديداً"، ثم شدد الحصار حول قلعة الكرك لكنه لم يستطع دخولها لحصانتها ومناعة أسوارها، ومع ذلك فإن الناصر داود عندما ضيق ابن الشيخ عليه الخناق أرسل إلى ابن عمه الصالح أيوب قصيدة يعاتبه فيها ويذكره بالجميل الذي قدمه له عندما حماه من أخيه العادل وعمه الصالح إسماعيل وساعده في تملك الديار المصرية كما يذكره بصلة الرحم التي قطعها.[٢]

واصل ابن الشيخ حصاره للكرك وفي المقابل أصر الناصر داود على عدم التسليم وأرسل إلى ابن الشيخ يقول: -

صدور على قيس لخفر جواده | لأمنع عرضي إن عرضي ممنع

وكان يوجد عند الناصر غلام مستحسن من الخوارزمية يقال له طاش بورك ابن خان، أرسل إليه ابن الشيخ في طلبه إلا أن الناصر رفض ذلك وقال " هذا صوته طيب قد أخذته ليقرأ عندي القرآن"، فغضب ابن الشيخ وكتب إليه كتاباً شديد اللهجة يذكره بغدره وخبثه وإيمانه وانشده " لأبذل عرضي إن عرض مقطع" وأصر على قدوم الغلام ووعده أن يبعث له في المقابل بشيخ أعمى يجيد قراءة القرآن

---

(١) سبط ابن الجوزى، مراة الزامان، ج٨،ص٧٦١، ابن ايبك الدوادار، كنز الدرر، ج٧،ص ٣٥٩.

(٢) ومن ابياتها: -

قولوا لمن قاسمته ملك اليد | ونهضت فيه نهضة المستأسد
عمى أبوك ووالدى عم به | يعلو انتسابك كل ملك أصيد
ورثا الحماسة والسماحة عن أب | وراد حرب مورد للمعتدى

ثم يقول له: -

لتعيد وجه الملك طلقاً ضاحكاً | وترد شمل البيت غير مبدد
كيلا ترى الأيام فينا فرصة | للخارجين وضحكة للحسد

انظر ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٦٤-٣٦٥.

أحسن منه، ويبدوا أن الناصر داود خاف من ذلك التهديد فأرسل إليه ذلك الغلام[١]، كما أرسل إليه من عنده من الخوارزمية وفك ابن الشيخ بعد ذلك الحصار عن المدينة ورحل عنها، وحتى لا يخسر ابن الشيخ الخوارزمية ويأمن شرهم قام " وخلع عليهم وطيب قلوبهم واستصحبهم صحبته"، وتوجه بهم إلى قلعة بصرى وحاصرها وشدد في مضايقتها حتى كادت تسقط في يده لولا مرضه عليها ولما اشتد به المرض تم نقله في محفة إلى القاهرة، وبقى العسكر محاصرين لها حتى تم فتحها وتسلمها نواب الصالح أيوب.[٢]

ويذكر أحد المؤرخين أن أوضاع بلاد الشرق الفراتية لم تكن في هذه الفترة بأحسن حال منها في بلاد الشام فقد بقيت " ما بين نهب وخراب من بقايا الخوارزمية تارة ومن التتار أخرى"، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يعمد إلى إشعال الفتن بينهم متبعاً في ذلك سياسة فرق تسد حتى يأمن على نفسه وبلده منهم.[٣]

وعلى أية حال فان الصالح أيوب بعد أن حد من خطورة خصومه في بلاد الشام أراد أن يحقق الوحدة التامة بين مصر والشام حتى يتسنى له الوقوف في وجه أي عدوان خارجي وتطهير بلاد الشام من بقايا الصليبيين، وفي سبيل ذلك أرسل إلى المنصور صاحب حمص يشكره على خدماته الجليلة ويطلب منه القدوم عليه لتوثيق الاتفاق بينهما، واستجاب المنصور لهذه الدعوة فسار إلى دمشق، وقام باستقباله الأمير حسام الدين نائب الصالح أيوب وأحسن في خدمته، فسر المنصور لذلك وقال " والله لا بذلن مهجتي في خدمة السلطان، وأغسل بما افعله في خدمته من

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان،ج٨، ص٧٦١، الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى،ص٢٠٣.

(٢) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥، يوسف درويش غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص٢٨٤، نقلاً عن ابن دقماق، نزهة الانام، احداث سنة ٦٤٤هـ "مخطوط".

(٣) الذهبى، المختار من تاريخ ابن الجزرى، ص٢٠١.

المناصحة كل أمر تقدم من الإساءة " إلا أن المرض نزل بالمنصور فمات[١] في صفر سنة ٦٤٤هـ يونية ١٢٤٦م وحزن عليه الصالح أيوب وقام بالملك من بعده ابنه الأشرف مظفر الدين موسى.[٢]

ثم قرر الصالح أيوب أن يسير إلى بلاد الشام لتفقد أحوالها وترتيب أوضاعها، فتوجه إلى دمشق في شوال سنة ٦٤٤هـ / مارس ١٢٤٧م بعد أن استدعى الأمير حسام الدين بن أبى على من دمشق واستنابه عنه في مصر وفوض إليه التصرف في شؤون الدولة، ووصل الصالح أيوب إلى دمشق في ١٩ذى القعدة وتم استقباله في المدينة بكل حفاوة وتقدير وزينت المدينة لمقدمه، وكان ممن أحتفل بمقدمه كل من المنصور صاحب حماه والأشرف موسى صاحب حمص اللذان حضرا خصيصاً من أجل ذلك، وكان اليوم الذي دخل فيه الصالح أيوب إلى دمشق "يوماً مشهوداً"، وأحسن إلى أهل دمشق وخلع على أعيانهم، وانفق أربعين ألف درهم على أهل المدارس والربط وأرباب البيوت، ثم ذهب إلى بعلبك وتفقد أحوالها وأمر بتحسين أسوارها وعاد إلى دمشق.[٣]

---

(١) الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد اسد الدين شيركوه صاحب حمص كان ملكاً جليلاً شجاعاً مقداماً ذا همة عالية كسر الخوارزمية فى اغلب المواقع التى وقعت بينهم وفرق جمعهم، وكان على خلاف سياسة ابيه فى الرعية فإن أباه كان عنده حيف كثير وعسف فخربت بذلك حمص وبلادها وفرق أهلها فى البلاد فلما ولى المنصور أحسن إلى الرعية ولطف بهم فعمرت حمص فى ايامه وتراجع إليها من نزح من أهلها وبث فيهم العدل واطلق السجناء، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٧٠-٣٧١.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٦٩-٣٧٠، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٦٤، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٢٥، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ١١٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٥٦، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٨١.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٧٢-٣٧٣، سبط بن الجوزى، المصدر السابق،

استكمال الحاشية في الصفحة التالية

وأثناء إقامته في بلاد الشام قام بإخضاع بعض الحصون الهامة فتسلم حصن عجلون بعد وفاة صاحبة سيف الدين بن قلج، وأرسل بعض أتباعه إلى صرخد فتقابلا مع عز الدين ايبك وطلب منه التنحي عن صرخد ومازالا به حتى تنازلا عنها للصالح أيوب بعد أن كتب له منشوراً بقرقيسيا والمجدل وضياعاً في الخابور[(١)] ثم تسلم حصن الصبيبة[(٢)] من ابن عمه السعيد ابن العزيز بن العادل وأعطاه بدلاً منه إقطاعاً بمصر، ثم قفل الصالح أيوب عائداً إلى مصر في أوائل سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م، وفى طريقه إليها عرج على بيت المقدس وتفقد أحواله وأمر بعمارة أسواره وأمر بصرف خراج بيت المقدس على عمارة أسواره، وإذا حدث نقص طلب له المدد من مصر، وتصدق فيه بألفي دينار وواصل بعد ذلك سيره إلى القاهرة.[(٣)]

وبعد القضاء على الخوارزمية وحلفائهم عاود المسلمون جهادهم ضد الصليبيين في بلاد الشام، فقاد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ القوات المصرية ومن انضم إليهم من فلول الخوارزمية واتجه إلى طبرية في صفر سنة ٦٤٥هـ

---

ج٨، ص ٧٦٤، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣٢٦، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٧٦. ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٦، ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص ٢٠٣-٢٠٤، النعيمى، الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص ٢٨٥.

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٦٣،سبط بن الجوزى،مرآة الزمان، ج٨، ص ٧٦٣، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٢٦، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٣٦، ص ١٧٩، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص١٨٢.

(٢) الصبيبة اسم لقلعة بانياس وهى من الحصون المنيعة، وبانياس بلدة صغيرة تشتهر بأشجار الحمضيات وهى على مسافة مرحلة ونصف من مدينة دمشق، انظر أبوالفدا، تقويم البلدان.

(٣) سبط بن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٦٤-٧٦٦، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٢٧، ابن ايبك الدوادار، المصدر السابق، ج٧، ص ١٣٦، الذهبى،العبر، ج٣، ص ٢٥٩، اليافعى، مرآة الجنان، ج٤، ص ١١٢، أبوشامة، تراجم رجال القرنيين، ص ١٧٩.

/١٢٤٧م فحاصرها ودخلها عنوة[١]، ثم استرد الجيش الإسلامي بقيادة فخر الدين بن الشيخ جبل الطور وحصن شقيف ارنون، فاسترجعوا بذلك البلاد التي كان الصالح إسماعيل قد سلمها للصليبيين عندما أراد مساعدتهم له في حربه ضد الصالح أيوب. ولم يتوقف فخر الدين بن الشيخ عند هذا الحد بل سار بعساكره صوب عسقلان وكانت تحصيناتها قوية كما قدمت إلى المدينة فرقة عسكرية قوية من الاسبتارية لحماية المدينة، وطلب أهل المدينة إرسال نجدات لهم من عكا وقبرص فاستجاب الصليبيون لتلك النداءات وأرسلوا أساطيلهم إلى عسقلان[٢]، ولما استعصت المدينة على الجيش الإسلامي أرسل الصالح أيوب من الإسكندرية ودمياط أسطولاً مؤلفاً من اثنين وعشرين سفينة لإحكام الحصار على عسقلان من جهة البحر التي اتضح أن الأساطيل الإيطالية تقوم بإمداد المدينة بالمؤن والإمدادات[٣]، وفى نهاية المطاف استطاعت القوات الإسلامية اقتحام عسقلان في يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٥هـ/منتصف أكتوبر ١٢٤٧م، وبعد الفتح تقرر تدمير الحصن وتخريب المدينة حتى لا يفكر الصليبيون في العودة إليها مرة أخرى واتخاذها قاعدة للهجوم على المسلمين، واستبشر المسلمون بعودتها وتطهيرها من الصليبيين " وضربت البشائر لهذا الفتح"[٤]

---

(١) سبط ابن الجوزى، مراة الزامان، ج٨، ص ١٨٤،أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٦، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى ج٢، ص٢٥٥، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٣٦، أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص ١٨٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية،ص١٠٠١.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩٩.

(٣) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ١٠٠١، نقلاً عن العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٦٤٥هـ.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٧٨، وانظر سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ج٨، ص ٧٦٦، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٢٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٨٤، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٦، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص ١٧٦، أبوشامة، تراجم رجال القرنين، ص١٨٠.

وعلى الرغم من الانتصارات التي تحققت للصالح أيوب وسيطرته على بلاد مصر وكثير من ممالك الشام فإن الصراع لم ينته بين ما تبقى من الإمارات الأيوبية ففي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م تنازل الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص عن قلعة شميش للصالح أيوب وكان الوسيط في ذلك وزير الأشرف موسى الذي رغب في علو منزلته عند الصالح أيوب، وعندما بلغ ذلك الخبر إلى الناصر صاحب حلب ووزيره الأمير شمس الدين لؤلؤ الاميني خاف من أن يؤدى ذلك إلى طمع الصالح أيوب في الاستيلاء على حلب فقرر الهجوم على حمص وانتزاعها من الأشرف موسى.(١)

ولما بلغ الصالح أيوب تحركات الحلبيين لقصد حمص أمر قائده فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتوجه إلى الشام على رأس فرقة عسكرية ريثما يلحقه هو ببقية العساكر إلى دمشق، وفي الوقت الذي تحركت فيه الجيوش المصرية إلى الشام تمكن الحلبيون من السيطرة على حمص وتعويض الأشرف عنها بتل باشر، ووصل الصالح أيوب إلى دمشق سنة٦٤٦هـ/١٢٤٨م وقرر ضرورة توجه العساكر إلى حمص لاستردادها، وبعث قائده العام الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ لتنفيذ هذه المهمة، ولما وصل إليها ابن الشيخ حاصرها ونصب عليها المنجنيقات، ومن بينها منجنيق ضخم وزنه مائة وأربعون رطلاً، وكادت حمص تسقط في يد الجيش المصري لولا مرض الصالح أيوب الذي اشتد عليه وكذلك تواتر الأخبار بحركة الصليبيين وعزمهم على قصد مصر، ووجد الصالح أيوب الفرصة مواتية للاستجابة للصلح الذي تقدم به الخليفة العباسي المستعصم بالله، وترك حمص للحلبيين وأمر عساكره بالعودة إلى مصر

---

(١) ابن واصل،مفرج الكروب، ج٥، ص ٣٧٧، المقريزى،السلوك، ج١، ق٢، ص٣٢٨، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٥٢، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٨٣.

لحمايتها من العدوان الصليبي، وعاد وهو مريض إلى مصر[١]

وعندما كانت قوات الصالح أيوب تحاصر حمص، خاف الناصر داود من أن تدور الدائرة عليه بعدها فقرر تلطيف العلاقات مع ابن عمه الصالح أيوب، فأرسل إليه رسولاً يعرض عليه التنازل عن الكرك مقابل أن يعوضه بالشوبك وإقطاعاً في مصر، ووافق الصالح أيوب على هذا العرض، وكلف الأمير حسام الدين بن أبى على الهذباني بتنفيذ ذلك إلا أن حسام الدين خاف من عدم وفاء الناصر داود بما وعد فيلقى القبض عليه لذلك أرسل إلى الصالح أيوب يعتذر عن تنفيذ هذه المهمة فأعفاه الصالح أيوب وأوكل بها شخص آخر توجه إلى الكرك وتقابل مع الناصر داود وطلب منه تسليم الكرك إلا أن الناصر داود وكما توقع حسام الدين عدل عن رأيه عندما سمع بمرض الصالح نجم الدين أيوب وقدوم الحملة الصليبية السابعة، فأراد أن يستثمر الحوادث لصالحه ويعود إلى ما كان يحلم به من قبل.[٢]

وبما أن الناصر داود لا يستطيع وحده أن يقاوم الصالح أيوب لذا فكر في إيجاد حليف يقف معه في وجهه فتوجه إلى حلب سنة٦٤٧هـ/١٢٤٩م في محاولة لتكوين حلف جديد مع الناصر يوسف بن الملك العزيز لانتزاع بلاد الشام من الصالح أيوب وإيقاف تهديداته على بلدانهم، فأكرمه صاحب حمص وأحسن ضيافته، ويبدوا أن الأخير هذا وجدها فرصة أيضاً فمشكلة حمص لم تغب عن باله، وقام الناصر داود بإرسال مجوهراته إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله لتكون عنده

---

(١) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٧٠، المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٣٠-٣٣٢، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٦، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ١٠٩، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص١٥١، على عوده، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي،ص١٨٣-١٨٤.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص ٣٣٢، ابن واصل، تاريخ الواصليين، ورقة ٣٥٥، على عوده، المرجع السابق، ص١٨٤.

وديعة، وكانت هذه الوديعة تقدر بما يزيد على مائة ألف دينار.[١]

على أن الناصر داود ارتكب خطأً كبيراً عندما أناب ابنه الصغير المعظم شرف الدين عيسى على قلعة الكرك وترك ابنيه الآخرين الظاهر شادي والأمجد حسن وهما أكبر سناً فأدى ذلك إلى إثارة الضغينة فيما بينهم وقبضا على أخيهما المعظم، واستوليا على الكرك، واتفقا على تسليمها للصالح أيوب، فأقام الظاهر شادي في القلعة، وسافر الأمجد حسن إلى الصالح أيوب في المنصورة وعرض عليه استلام الكرك مقابل إقطاعاً بمصر يقوم بهما، فما كان من السلطان إلا أن أكرمه وأعطاه مالاً كثيراً، وأرسل معه بدر الدين الصوابى ليتسلم قلعة الكرك ويكون بها نائباً عنه بالإضافة إلى الشوبك، فتسلم بدر الدين الكرك وأرسل أولاد الناصر داود جميعهم إلى المنصورة حيث قام السلطان بإكرامهم وأقطعهم اقطاعات كبيرة في مصر، وكان لاستيلاء الصالح أيوب على الكرك في جمادى الآخرة سنة٦٤٧هـ/١٢٤٩م أكبر الأثر على إدخال السرور إلى نفسه فلم يبق على استكمال الوحدة بين مصر والشام إلا مملكة حلب، وجعل الكرك بمثابة مخزناً لأسلحته وذخائره وجواهره.[٢]

وهكذا يمكن القول أن الصالح أيوب قد تمكن بجهوده وجهود رجاله من القضاء على النفوذ الخوارزمي في بلاد الشام، فأراح الناس من الفتن التي سببتها فلول الخوارزمية فيها، وتفرغ مؤقتاً لاسترجاع بعض ما كان الصليبيون قد استولوا عليه من المسلمين زمن الصالح إسماعيل وحاول على قدر جهده أن يوحد الشام ويسيطر على خلافات البيت الأيوبي إلا أن الفتن بينه والأطماع الإقليمية الضيقة أطلت برأسها من جديد فعاد النزاع بين الأيوبيين الأمر

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ورقة ٣٧٩-٣٨٠، المقريزى، السلوك، ج١،ق٢،ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢) ابن واصل، تاريخ الواصليين، ورقة ٣٧٩،٣٥٨، المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٣٨، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ص٧٧٣، أبوالفدا المختصر، ج٣، ص ١٧٩، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص ١٥١، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٦٢.

(٣٣٥)
الذي صرف أنظار المسلمين عن جهاد الصليبيين في بلاد الشام.

ولما كان الصليبيون على درجة كبيرة من الغبن والحسرة على عودة القدس إلى أيدي المسلمين سنة٦٤٣هـ فقد أعد ملك فرنسا لويس التاسع حملته السابعة التي خرج بها إلى مصر لتحقيق أطماعهم.

# طبيعة الدور الخوارزمي وأثره في قيام الحملة الصليبية السابعة

بعد الاجتياح المغولي لممتلكات الدولة الخوارزمية حاول جلال الدين منكبرتى إعادة توحيد البلاد إلا أن سياسته العقيمة لم تكن تساعده لتحقيق أهدافه وطموحاته، فبدلاً من أن يعمل على اكتساب رضى الدول الإسلامية المجاورة ويكون معهم حلفاً إسلامياً يقف في وجه المغول نجده يعادى القوى الموجودة في ذلك الوقت ويعتدي عليها من ذلك الاعتداء على أملاك الخلافة العباسية وأملاك الأمراء المسلمين فيما بين النهرين كما ناصب طائفة الإسماعيلية العداء واعتدى على ممتلكاتها الأمر الذي أدى إلى وقوفه منفرداً في صراعه مع المغول.[١]

ولقد أوضح الأمر جلياً أحد المؤرخين المعاصرين بقوله " وكان جلال الدين سيئ السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته، فمن ذلك أنه أول ما ظهر في اصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان فحصر مدينة ششتر وهى للخليفة فحصرها، وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها فاكثر وهى للخليفة أيضا، ثم ملك أذربيجان وهى لأزبك فملكها، وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم، ثم عادى الملك الأشرف صاحب خلاط، ثم عادى علاء الدين صاحب الروم، وعادى الإسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر، وقرر عليهم وضيفه من المال كل سنة وكذلك غيرهم".[٢]

---

(١) ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص ٢٢٠-٢٢١، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢٣٩.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٣٨٣.

ونتيجة لذلك لم تحاول القوى المعاصرة له الوقوف إلى جانبه عندما عاود المغول ملاحقتهم له " فكل الملوك تخلى عنه" لأنهم يخشون من استفحال أمره مرة أخرى فلا يأمنونه على ممتلكاتهم.(١)

وبعد وفاة جلال الدين سنة ٦٢٨هـ لم يحاول أتباعه من الخوارزمية الاستفادة من الأخطاء التي وقع فيها جلال الدين منكبرتي، فيعملون على توحيد صفوفهم وكسب رضا القوى الإسلامية التي سبق أن عاداها جلال الدين حتى يتسنى لهم العودة إلى بلادهم وطرد المغول منها بل على العكس من ذلك نجدهم يتبعون أسلوباً آخر في التعامل مع القوى الإسلامية يزيدهم بعداً من تحقيق أحلامهم الضائعة وإعادة دولتهم الزائلة.(٢)

هذا الأسلوب يتمثل في عرض أنفسهم على القوى الإسلامية المتصارعة كجنود مرتزقة، فاتجهوا في بداية الأمر إلى خدمة علاء الدين كيقباذ لإعانته في حروبه ضد أعدائه وكان على رأسهم كبار القادة الخوارزمية أمثال بركة خان وكشلوخان وصاروخان وفرخان وبردى خان الذين شاركوه في حروبه مع الأيوبيين والأراتقة.(٣)

ونتيجة لهذا التعامل الجديد الذي اتبعه الخوارزمية بدأ غياث الدين

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٨٣.

(٢) الذهبي، دول الاسلام، ج٢، ص ١٣٤، ماجد اللحام، معجم المعارك الحربية، ص ١٣٠،سوسن محمد نصر مقال " بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك في شمال الشام والجزيرة"، المجلة التاريخية المصرية، ص ٧٠.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٣٢٥، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٥٩، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٣٧، حامد زيان غانم، الصراع السياسي والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ص١١٦، سوسن محمد نصر،مقال "بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك فى شمال الشام والجزيرة "المجلة التاريخية المصرية، ص٧١.

كيخسرو يسئ معاملتهم بعد وفاة أبيه علاء الدين كيقباذ باعتبارهم جنود مرتزقة يتصرف فيهم كيفما يشاء مما اضطرهم إلى تركه واتجهوا للإقامة في آسيا الصغرى يعرضون أنفسهم على قوة أخرى يتكسبون من ورائها، وكان من عادتهم أثناء انتقالهم من بلد إلى آخر أن يقوموا بنهب يمرون عليه في طريقهم[١] كما سبق أن بينا في اكثر من موضع مستدلين بالأدلة التاريخية على ذلك.

وفى الوقت الذي انضمت فيه مجموعة من الخوارزمية إلى خدمة سلاجقة الروم نجد فرقة أخرى تتجه إلى خدمة الخلافة العباسية حيث استخدم الخليفة العباسى المستنصر بالله منهم في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م أربعة آلاف فارس.[٢]

وعندما بدأت الحرب الأهلية بين ملوك بنى أيوب شارك الخوارزمية في القتال مع بعض ملوك بنى أيوب ضد بعضهم البعض، وكان أول من استخدمهم من بنى أيوب كجنود مرتزقة الصالح أيوب عندما كان حاكماً لحصن كيفا سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م وتمكن الصالح أيوب بفضل خدماتهم من الاستيلاء على سنجار ونصيبين إلا أن الخوارزمية لم تلبث أن خرجت عليه بعد وفاة والده الملك الكامل وطمعوا في الاستيلاء على ممتلكاته وخزائنه بل هموا بالقبض عليه فتنبه الصالح أيوب لذلك وتمكن من الإفلات منهم " فقصد سنجار وظل بها فترة تاركاً خزائنه وأشغاله، فانتهبها الخوارزمية وتحكموا في البلاد الجزرية" بعد سيطرتهم عليها فأساءوا السيرة في أهل تلك البلاد بأعمالهم الإجرامية.[٣]

وبعد فترة وجيزة عاد الخوارزمية مرة أخرى إلى طاعة الصالح أيوب إذ لم يكن

---

(١) أبوالفداء، المختصر، ج٣، ص١٥٩، عفاف صبرة، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص٢٧٢.

(٢) ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص٢٦٠، د.سوسن محمد نصر، مقال سابق،ص٧١.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٧٠، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص١٥٩،١٦٢، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٣٧،٢٣٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٢٧، الذهبى، العبر، ج٣، ص ٢٢١-٢٢٢، دول الإسلام، ج٢، ص١٣٨.

لهم ولاء ثابت وساعدوه في القضاء على الطامعين في ملكه أمثال بدر الدين لؤلؤ وغياث الدين كيخسرو، وكان ذلك مقابل منحهم إقطاعات كبيرة في حران وسنجار والرها[1] وكذلك استعان بهم الصالح أيوب وسامحهم على ما فعلوه به لأنه كان في حاجة إلى خدماتهم العسكرية ولا غرو في ذلك فهذه طبيعة العلاقات السياسية فليس هناك أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون في الوسط السياسي وإنما مصالح دائمة.

وبما أن الصالح أيوب كان يرغب في السيطر على ملك الدولة الأيوبية باعتباره أكبر من أخيه العادل الثاني، فقد قام بمنح الخوارزمية حران والرها وجميع البلاد الجزرية حتى يقفوا معه في تحقيق أحلامه، وفعلاً توجه بهم إلى دمشق وسيطر عليها، ثم عاد الخوارزمية إلى اقطاعاتهم في الجزيرة واخذوا يغيرون على البلدان الإسلامية من هناك كقطاع طرق ومجرمي حرب ومن البلدان التي لم تسلم منهم مملكة حلب التي بذلت كل جهد من أجل الحفاظ على البلدان من غارات الخوارزمية المدمرة وفعلاً نجحت في الحد من خطورتهم وكسر شوكتهم سنة ٦٣٨هـ[2] إلا أن الخوارزمية فتح المجال أمامهم مرة أخرى عندما راسلهم كل من المظفر صاحب حماه والناصر داود صاحب الكرك يستحثونهم على نصرة حليفهم الصالح أيوب الذي فقد ملك دمشق ووقع في اسر الناصر داود الذي حاول أن يبرر لهم ذلك بأنه حفاظاً على الصالح أيوب و" صيانة لمهجته خوفاً عليه من أخيه الملك العادل وعمه

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١،ق٢، ص٢٧١، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٦٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٢٧، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص١٣٨.

(٢) المقريزى،المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٢٧٩-٣٠٣، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص١٦٧-١٦٨، ابن العميد، المصدر السابق، ص٢٤، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص ٧٣،٧٩، الذهبى، دول الإسلام، ج٢، ص ١٤١،١٤٥، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٤، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج١، ص٤٨.

الملك الصالح عماد الدين".[١]

واستطاع الصالح أيوب أن يسيطر على مصر ويقبض على أخيه العادل سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م إلا أن الأمور لم تستقر له حيث أخذ عمه الصالح إسماعيل يعد العدة للقضاء عليه لتخوفه منه واستعان في سبيل ذلك بالصليبيين وتنازل لهم عن بيت المقدس وغيرها الأمر الذي دفع الصالح أيوب إلى الاستنجاد بالخوارزمية والاستعانة بهم في مواجهه الحلف الشامي الصليبي ومن هنا بدأت تتدخل الخوارزمية في الصراع الإسلامي الصليبي وتحركوا بقواتهم مباشرة من بلاد الجزيرة إلى الشام واكتسحوا البلدان التي مروا بها " فقد كانوا ينهبون ويقتلون ويسبون".[٢]

ثم وصل الخوارزميون إلى بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ودخلوا المدينة دون مقاومة تذكر "وبذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى ولم يبقوا على أحد منهم وسبوا ذراريهم ونساءهم" بل تعسفوا في الانتقام من الصليبيين حيث دخلوا كنيستهم المشهورة التي أطلقوا عليها القيامة وهدموا المقبرة التي يعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ونبشوا غيرها من المقابر حتى أنهم قاموا بإحراق عظام الموتى الأمر الذي افزع الصليبيين وزاد من قلقهم تجاه بيت المقدس.[٣]

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٢٩٢-٢٩٣، مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل، ج١، ص ٤٠٨.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٢٩٧،٣٠٣، ٣١٥، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٢،، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٢٩-٣١، محمد كرد على، خطط الشام، ج٢، ص٩٧-٩٨، سيد على الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص٢٤٥.

(٣) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣١٦، ابن العميد، المصدر السابق، ص٣٢-٣٣، فتحية النبراوى، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى، ص ٢٥٣، مقال د.سوسن محمد نصر " مقال، بنوأيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك فى

استكمال الحاشية في الصفحة التالية

قصد الخوارزمية بعد ذلك غزة لملاقاة الجيش الإسلامي القادم من مصر من قبل الصالح أيوب ومن ثم التقدم لمواجهة الحلف الإسلامي الصليبي بقيادة المنصور صاحب حمص وتقابل الفريقان في معركة حاسمة انتهت بهزيمة الحلف الإسلامي الصليبي وتفرقهم وتمكن الخوارزمية من سحق الصليبيين حيث " وضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلاً وأسراً ولم يفلت منهم إلا من شرد" وتعرف هذه الموقعة التي وقعت سنة٦٤٢هـ/١٢٤٤م بموقعة غزة ويقال لها أيضاً موقعة حطين الثانية لشدة الهزيمة التي لحقت بالصليبيين وكسرت شوكتهم[١] كما بينا آنفاً.

كان لهذا الانتصار الساحق الذي تحقق للخوارزمية في غزة على الصليبيين أثره الكبير في إثارة شعور الغرب نحو خطورة الموقف في بيت المقدس وبلاد الشام خاصة عندما علموا بما قام به الخوارزمية من اعتداء على المعابد والكنائس في بيت المقدس ونبش قبور الموتى وإحراق العظام[٢] كما أن بطريق بيت المقدس الذي سارع بإرسال سفارة إلى الغرب الأوربي هول من المصيبة التي حلت بهم وبين لهم عجز البقية الباقية من الصليبيين عن مقاومة الخوارزمية وأن مقامهم في بلاد الشام اصبح مهدداً بالزوال[٣] تماماً كما حدث من السلاجقة الذين انتصروا

---

شمال الشام والجزيرة"،المجلة التاريخية المصرية، ص٧٦.

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢،ص٣١٦-٣١٧، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٢، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص٣٣، ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٤٩، الذهبى، العبر، ج٣، ص٢٤٢، دول الإسلام، ص١٤٧-١٤٨، محمد كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص ٩٨، سيد على حريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص ٢٤٥.

(٢) فايد عاشور، الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبي، ص٣٦٤، سيد على حريرى، المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٣) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص٤٤٠، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص١٠٠٤، فتحية النبراوى، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى، ص٢٥٣.

على الروم في موقعة ملاذ كرد أو منزكرت وأسروا الإمبراطور البيزنطي فما كان منهم إلا أن استجاروا بأوربا التي سارعت بإرسال أول حملة صليبية إلى الشرق وعند قدومها كان السلاجقة قد دخلوا في بداية عصر الضعف فكانوا بذلك سبباً من الأسباب التي عجلت بدخول الصليبيين إلى بلاد المسلمين.

عندئذ بادر البابا انوسنت الرابع إلى عقد مجمع كبير في مدينة ليون سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م وناقش هذا المؤتمر مسألة فلسطين واخذ واليران أسقف بيروت يشرح للحاضرين الويلات التي تعرضت لها ارض الميعاد كما بين لهم الطريقة التي فقد على إثرها الصليبيون بيت المقدس وغيرها من البلاد التي يملكونها في بلاد المسلمين وصور لهم كيف فقدوا أعداداً هائلة من خيرة فرسانهم وصفوة أبطالهم في موقعة غزة سنة٦٤٢هـ /١٢٤٤م، ثم قام أحد الرهبان وقرأ على الحاضرين مجموعة من الخطابات التي أرسلها كبار الصليبيين في بلاد الشام وكانت تلك الخطابات تتضمن وصفاً دقيقاً لما حل بالصليبيين في بيت المقدس على يد الخوارزمية[1]، وخرج الاجتماع بتوصيات تقضي بضرورة إرسال حملة صليبية لإنقاذ الموقف قبل فوات الأوان والانتقام من المسلمين على ما فعلوه بمقدساتهم في بيت المقدس، إلا أن الغرب الأوربي لم يكن في حالة تسمح له بتكوين حملة صليبية متحدة بسبب الصراع القائم بين البابوية والإمبراطورية.[2]

ولم يستجب لهذه الدعوة من الغرب الأوربي سوى لويس التاسع ملك فرنسا

---

(١) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٥٤-٥٥، سيد على حريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص ٢٤٧-٢٤٨، فتحية النبراوى، العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى، ص٢٥٣، سعيد أحمد برجاوى، الحروب الصليبية فى المشرق، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٤١، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ١٠٠٤، سيد على حريرى، المرجع السابق، ص ٢٤٨، سعيد أحمد برجاوى،، المرجع السابق، ص ٢٤٦.

الذي عرف بحماسته الدينية وتقواه وورعه حتى أطلق عليه القديس، فقد أصيب هذا الملك بمرض خطير فنذر أن يقوم بحمله صليبية جديدة إذا من الله عليه بالشفاء، ووجد الفرصة مواتية عندما دعت البابوية في مجمع ليون لهذه الحملة فتزعمها وتحمس لها، كما أصدر البابا انوسنت الرابع المراسيم البابوية لحث الناس على الاشتراك في هذه الحملة ووعد كل من يشارك أو يساهم في إنفاذ هذه الحملة لإنقاذ بيت المقدس بالغفران التام عن خطاياه والتكفير عن ذنوبه بمجرد الانخراط في تلك الحرب الصليبية.[١]

وعلى الرغم من الدعاية الواسعة لهذه الحملة بين الغرب الأوربي والمراسيم البابوية التي تعد بالغفران إلا أنها لم تجد استجابة من قبل الصليبيين إذا لم تكن الظروف في تلك الفترة تسمح لهم بالقيام بحملة جديدة سوى ملك فرنسا الذي تعهد بالقيام بحملة صليبية لإنقاذ الصليبيين في بلاد الشام.[٢]

وفى سبيل ذلك أخذ ملك فرنسا يثير الحماسة الدينية بين جنوده ودعا إلى عقد مؤتمر كبير في باريس سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م حضره جمع غفير من الأعيان ورجال الدين والمندوب البابوي وخطب فيهم خطبة مؤثرة حثهم فيها على حمل الصليب والاشتراك في هذه الحملة وأثار بذلك غيرتهم الدينية فانخرط في صفوف الحملة جمع غفير من الأمراء والأشراف كان على رأسهم اخوته الثلاثة روبرت كونت ارتوا، والفونس كونت بواتيه وشارك كونت انجو كما انضم إليهم هيج الرابع دوق برجنديا وعدد كبير من البارونات وكبار ملاك الإقطاع بفرنسا في مقدمتهم بطرس

(١) فايد عاشور، الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبي، ص٣٦٤ سيد على حريرى، الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص ٢٤١، قدرى قلعجى، صلاح الدين الأيوبى قصة الصراع بين الشرق والغرب، ص٥٢٢.

(٢) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٥٨-٥٩، سعيد أحمد برجاوى، الحروب الصليبية فى المشرق، ص ٥٤٦، قدرى قلعجى، المرجع السابق، ص٢٥٢.

كونت بريتاني وهيج العاشر كونت لامارش وغيرهم وكان جوانفيل مؤرخ هذه الحملة واحداً من قادتها.[(١)]

وبما أن الإمبراطور الألماني فردريك الثاني كانت تربطه علاقات طيبة مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب ومن قبله مع أبيه الملك الكامل وكان حريصاً على إفشال هذه الحملة، فقد أرسل رسولاً في السر إلى الصالح نجم الدين أيوب يخبره بمسير الحملة الصليبية الفرنسية إلى مصر بقصد السيطرة عليها باعتبارها مركز قوة المسلمين وقد حكى رسول الإمبراطور مهمندار منفريد ابن الإمبراطور ذلك بقوله: أرسلني الإمبراطور في السر إلى الملك الصالح نجم الدين لأعرفه عزم ريدا فرنس على قصد الديار المصرية وأحذره منه، وأشير عليه بالاستعداد له" وحتى يضمن الإمبراطور عدم كشف الرسول فقد كان ذهابه إلى مصر ورجوعه في زي تاجر، وقد أوضح الرسول ذلك بقوله " لم يشعر أحد باجتماعي بالملك الصالح خوفاً من الفرنج أن يعلموا ممالأة الإمبراطور للمسلمين عليهم".[(٢)]

وقد ذكر ابن ايبك أن الإمبراطور فردريك حدد هدف الحملة الصليبية وهو ثغر دمياط ونصح الصالح أيوب بأن يتخذ كافة استعداداته لصده وذكر ذلك في كتابه للسلطان بقوله عن الملك لويس التاسع " بأنه قد وصل في خلق كثير وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على رده عن مقصده وخوفته فلم يرجع لقولي فكن منه على حذر"[(٣)]، كل ذلك يحدث من الإمبراطور وهو يمد لويس التاسع والصليبيين بالمساعدات

---

(١)جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٥٨-٥٩، سيد على حريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص ٢٤٨، عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٤٩.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٤٧، المقريزى، الخطط، ج١، ص٢١٩، قدرى قلعجى، صلاح الدين الأيوبي قصة الصراع بين الشرق والغرب، ص٢٢٣.

(٣) ابن ايبك، كنز الدرر، ج٧، ص٣٦٦.

المادية وكانت علاقته مع ملك فرنسا طيبة[١] وكانت أعماله تلك تجعله يظهر أمام العالم المسيحي في صورة المدافع عن حقوق الصليبيين في بلاد الشام.[٢]

وعلى أية حال فان الملك الفرنسي لويس التاسع اعد لهذه الحملة قرابة ثلاث سنوات فزودها بما تحتاج إليه من أسطول قوى لنقل الجند والسلاح عبر البحر واستعان في سبيل ذلك بعدد كبير من سفن جنوه ومرسيليا وابرم معهما اتفاقيات بهذا الشأن، كما اهتم بتوفير الذخيرة والمؤن لحملته فقام بإرسال فرقة من أتباعه إلى قبرص لتجهيز هذه الأمور قبل مقدم الحملة بحوالي عامين.[٣]

وبما أن تكاليف الحملة ستكون كبيرة فقد عمل لويس التاسع على توفير أكبر قدر من المال لتغطية نفقات الحملة، وكان للبابا انوسنت الرابع دور كبير في ذلك فقد أمر بجمع الضرائب والعشور من الأمراء والنبلاء ورجال الدنيا والدين وذلك مقابل عدم اشتراكهم في هذه الحملة ولقد أثارت هذه الضرائب الكثيرة سخط رجال الكنيسة إلا أنه لم يكن أمامهم إلا التسليم لقرارات البابا.[٤]

وبعد أن اكتملت الاستعدادات لهذه الحملة الصليبية السابعة انطلقت من فرنسا بقيادة لويس التاسع سنة٦٤٧هـ/١٢٤٨م ووصلت إلى قبرص في نفس العام ولم يشعر الصليبيون بغربة في هذه الجزيرة بسبب حسن الاستقبال والرعاية الحسنة من

---

(١) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص٧٨-٧٩، فايد عاشور، الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى، ص ٣٦٥.

(٢) عادل عبدالحافظ شحاتة، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامى، ص ٣٣٧.

(٣) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٦٠-٦١، عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغررب، ص ٤٩، جوزيف نسيم، علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية، ص٧٣.

(٤) أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٨، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر،ص٦١-٦٢، أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام، ص٢٣٥.

قبل هنرى الأول ملك قبرص وقبل تحرك القوات الصليبية من فرنسا كان الملك الصالح أيوب قد علم عن طريق حليفه الإمبراطور فردريك الثاني بمسيرها إلى مصر[١] فقام باتخاذ كافة الاستعدادات لمواجهة هذه الحملة وصدها عن مصر وكان في بلاد الشام فعاد مسرعاً إلى مصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م " ليكون في مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط " ومن الاستعدادات التي قام بها السلطان حشد الأسلحة والأقوات الكثيرة في دمياط باعتبارها الهدف الأول للحملة الصليبية، كما أمر الأمير حسام الدين على الهذباني بان يجهز السفن اللازمة للمقاومة وحماية الشواطئ الإسلامية من الصليبيين وشرع " في تجهيزها وسيرها شيئاً بعد شئ ". كما أمر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بأن يتوجه بقواته إلى دمياط ليكون في مقابلة الفرنج إذا قدموا، فتوجه إليها وكان معه جماعة من شجعان بنى كنانة.[٢]

وأخيراً وصلت الحملة الصليبية إلى دمياط في صفر سنة ٦٤٧هـ يونية ١٢٤٩م وحطت رحالها في بر دمياط وكان عددهم يقارب خمسين ألف مقاتل[٣]،هذا وقد قام لويس التاسع بإرسال كتاب إلى السلطان يتهدده ويتوعده جاء فيه ما نصه " أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك

---

(١) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٦١-٦٢، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٨، أحمد مختار العبادى، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص ٢٣٥.

(٢) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٣٣، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣،ص١٧٨-١٧٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٦، سيد على حريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، ص ٢٤٩، عفاف صبرة، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٧٤.

(٣) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٣٣، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص١٧٨.

النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، في أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة على، فيدك العليا ممتدة إلى، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا".[1]

وعندما وصل الكتاب إلى السلطان وقرىء عليه حزن لتطاول هذا العلج واستخفافه بالمسلمين " واغرورقت عيناه بالدموع" ورد عليه رداً مفحماً جاء فيه بعد البسملة والصلاة على خاتم الأنبياء والمرسلين " أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأيت الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا وأخره عليك، فهنالك تسئ بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل ﴿اتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وكن على آخر سورة ص:﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين:﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ وإلى قول الحكماء، إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام".[2]

أوردنا هاتين الرسالتين هنا ليتبين للقارئ مدى العداوة والحقد الذي يحمله لويس التاسع ومن معه على المسلمين واحتقاره لهم وهذه عقيدة يعتقدونها بغض النظر عما أحدثته الخوارزمية من قتل وتدمير لأتباعهم ومقدساتهم والتي كانت سبباً في قيام هذه الحملة كما نجد في المقابل شجاعة وبسالة من السلطان نجم الدين

---

(١) المقريزى، السلوك،ج١،ق٢،ص٣٣٤، سيد على حريرى، الأخبار السنية في الحروب الصليبية،ص٢٤٩.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٣٤-٣٣٥.

أيوب الذي لم ترهبه هذه التهديدات رغم الظروف الحرجة التي يمر بها.

ورغم الانتصار المؤقت -الإستيلاء على دمياط- الذي حصل للصليبيين في بداية هذه الحملة ورغم وفاة الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[١] إلا أن نهاية الحملة كانت مؤلمة وقاسية بالنسبة للصليبيين حيث وقعت أعداداً كبيرة منهم في الأسر وكان على رأسهم قائد هذه الحملة الملك لويس التاسع وبلغ عدد القتلى ما يقارب عشرة آلاف مقاتل "غنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال مالا يحصى كثرة " واستشهد من المسلمين مائة رجل.[٢]

---

(١) السلوك، ج١، ق٢، ص٣٣٥-٣٣٩، أبوالفدا، المختصر، ج٣، ص١٧٩، ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص ٣٧، ابن اياس الحنفى،بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج١، ق١، ص٢٧٧-٢٧٨، ابن الفوطى، الحوادث الجامعة، ص١١٩-١٢١، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص٣٣٥-٣٣٩، أحمد بن على الحريرى، الاعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، ص٩٦.

(٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١، ق٢، ص٣٥٤-٣٥٦، أبوالفدا، المصدر السابق، ج٣، ص١٨١، ابن العميد، المصدر السابق، ص ٣٧-٣٨، الهمذانى، جامع التورايخ، ص٢٣٢، ابن اياس الحنفى، المصدر السابق، ج١، ق١، ص٢٨٠، الذهبى، دول الاسلام، ج٢، ص ١٥٢-١٥٤، أحمد بن على الحريرى، المصدر السابق، ص٩٦.

# الخاتمة

بحمد الله وتوفيقه انتهى موضوع البحث الذي قام بدراسة شاملة للعلاقات بين الدولة الخوارزمية والقوى السياسية في بلاد الشام والجزيرة، وقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها : - أن الدولة الخوارزمية وعلى رأسها جلال الدين الخوارزمي عجزت عن تحقيق المهمة التي كان ينبغي أن تقوم بها وهي حماية السور الشرقي للعالم الإسلامي من الخطر المغولي. وكان من المفترض على أقل تقدير أن تقوم بالحفاظ على حدودها في وجه الزحف المغولي إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث بل على العكس من ذلك نجد جلال الدين الخوارزمي يهدد الخلافة العباسية مدعياً أنها كانت السبب في تحريض المغول للهجوم على بلاده ليخفى أطماعه في السيطرة على أملاك الخلافة العباسية وليحوز على المكانة التي كانت للسلاجقة من قبل. وكان هذا الأمر من شأنه أن ينفر المسلمين منه للمكانة التي تحملها الخلافة في نفوس المسلمين بغض النظر عن مدى أهلية الخليفة لهذا المنصب.

وقد بينت الدراسة أن تفرق الجسد الواحد إلى عدة أجزاء يؤدى إلى محاولة كل جزء أن يظهر على حساب الآخر فتسقط بذلك سائر الأعضاء وهذا ما حدث بالفعل في الدولة الأيوبية التي تفرقت وتجزأت إلى ممالك صغيرة يطمع كل واحد منهم في الآخر ولجأ كل جزء إلى الاستعانة بقوى أخرى غريبة عن المنطقة فاستعان المعظم عيسى صاحب دمشق بجلال الدين الخوارزمي وفي الجانب المقابل لجأ أخوه الملك الكامل إلا الاستنجاد بأعداء الأمة الحقيقيين ولم يراع في ذلك موقف الشرع من هذا العمل فاستعان بالإمبراطور الألماني فردريك الثاني ودخلت منطقة الشام والجزيرة بذلك دوامة الصراعات الداخلية من ناحية والأطماع الخارجية من ناحية أخرى.

وقد برهنت الدراسة على أن هذه الفترة تعتبر من المراحل المهمة جداً في التاريخ الإسلامي فقد كانت المنطقة في تلك الفترة تموج بالأحداث الجسام وتعيش في خضم تحولات ذات أهمية استثنائية في كافة المجالات السياسية منها والاقتصادية وكذلك في مجال التنظيمات العسكرية فقد استجد عامل جديد هو

ازدياد حدة الصراع بين المسلمين.

وأوضحت الدراسة أن بأس المسلمين كان بينهم شديد فلم يظهر جلال الدين ولا جيشه من الخوارزميين أي رأفة أو رحمة بأهل خلاط بل نجدهم يحاكون المغول عند هجومهم على البلدان الإسلامية - على الرغم من انهم مسلمون - فقاموا بتضييق الخناق على أهل خلاط وفرضوا عليهم حصاراً محكماً أضر بأهلها وعرض حياتهم للخطر بسبب نقص المواد الغذائية. بل ومما زاد الأمر سوءً إقدام الجيش الخوارزمي بعد دخول المدينة على القتل والنهب والسلب والتدمير. فكان لذلك أبعد الأثر على مدينة خلاط إذ كانت الحصن المنيع الذي وقف في وجه جميع الغزوات القادمة من الشرق.

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة أن في الاتحاد قوة وظهر هذا الأمر واضحاً جلياً عندما اتحد ملوك بنى أيوب مع سلاحقة الروم فقد خاف هؤلاء من تنكيل جلال الدين بهم وزحفه على ممتلكاتهم خاصة عندما بلغتهم الأخبار بما حدث في خلاط. فتناسوا الخلافات بينهم وجمعوا جيوشهم واعدوا عدتهم لإيقاف جلال الدين عند حده وفعلاً تحقق لهم الهدف المنشود فقد انزلوا به وبجيشه هزيمة منكرة في موقعة (ياسى جمن) سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م. ورغم أن هذا الاتحاد قد نجح في تحجيم قوة جلال الدين وإيقافه عند حده إلا انه كان سلبياً من ناحية أخرى فقد نجم عن هذه الهزيمة إضعاف لجيش كان بالإمكان أن يستفاد من طاقاته في الوقوف أمام الخطر الحقيقي للامة الإسلامية وهم جحافل المغول القادمة عبر أراضى خوارزم، والصليبيين الذين كانوا يعملون جاهدين على القضاء على المسلمين والسيطرة على أراضيهم. كما أن القوى الإسلامية الأخرى الموجودة في المنطقة لم تلعب دور الوسيط في حل النزاع بين الدول الإسلامية المتصارعة وعلى رأسها الخلافة العباسية فلم يثبت تدخلها في هذا الصراع ومحاولتها رأب الصدع بين القوات المتصارعة في الشام والجزيرة كل فترة.

وإلى جانب ذلك فقد برهنت الدراسة على أن ما يزرع في الرخاء يحصد في

الشدة وهذا ما حصل بالفعل لجلال الدين الخوارزمي فقد زرع الخوف والذعر في قلوب جيرانه من حكام المسلمين وغيرهم وفي مقدمتهم الخليفة العباسى، فمن ذلك انه أول ما ظهر بأصفهان جهز جيشه وقصد خوزستان وحاصر مدينة ( ششتر ) وهي للخليفة العباسى ثم سار إلى (دقوقا) وقتل ونهب كثيراً من سكانها ثم اخذ أذربيجان من صاحبها ازبك بن البلهوان وعادى الأشرف صاحب خلاط وعلاء الدين صاحب الروم، كما عادى طائفة الإسماعيلية وهزم الكرج النصارى ودخل عاصمتهم تفليس، ولم يبق له حليف قوى في المنطقة، وعندما جاءت الشدة وخرج المغول للقضاء عليه تركه حكام المسلمين يلقى جزاء ما صنع، ولم تجد صيحاته ولا نداءاته المتكررة لهم للوقوف معه صفاً واحداً في مواجهة المغول وسقط في نهاية المطاف بسبب سياسته العدائية. ولو أن معاملته لهم كانت حسنة لما تخلوا عنه في ساعة الشدة.

وأوضحت الدراسة عدم إدراك حكام المسلمين لخطورة موقفهم عقب سقوط الحاجز القائم بينهم وبين التتار، فلو قدر لهم أن يساندوا جلال الدين ويتغاضوا عن أعماله السابقة لكان بالإمكان على اقل تقدير أن يوقفوا زحفهم ويؤخروه لفترة أطول ريثما تأتى الفرصة المناسبة للقضاء عليهم. ولكننا يجب أن نلتمس لهم العذر فلقد عاشوا فترة من الرعب والهلع من هجوم الخوارزميين على ممالكهم.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن القوات الخوارزمية التي تفرقت في البلاد لم تلعب دوراً يذكر لاستعادة مجدها بل ولم تفكر في أن تنتقم ممن كان السبب في تفرقهم وتشتتهم بل رجعوا إلى طبيعتهم وانساقوا بذلك خلف كل من يمنيهم بمال أو يعدهم بإقطاع وفقدوا بالتالي قدرتهم على الرؤية الصحيحة وقدرتهم على العطاء الحضاري. وأصبحوا لعبة في يد كل ناعق سواء كان ذا صوت طبيعي أو مصطنع.

ولقد أثبتت الدراسة أن غياب القيادة المؤمنة الواعية في مراحل الصراع بين المسلمين كان أكبر عامل في تمزق وحدة المسلمين. فلقد راحت معظم القيادات

السياسية والعسكرية تتطاحن فيما بينها واستنزفت الكثير من قدراتها من جهة وأدارت ظهرها للغزاة من جهة أخرى، وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للخوارزميين والسلاجقة وظهر هذا الأمر واضحاً جلياً بالنسبة لملوك بنى أيوب في مصر والشام، إذ كان الصراع ينشب بينهم باستمرار وكانوا يحاربون بعضهم البعض على هذه القلعة أو المدينة أو تلك المساحة التافهة من الأرض.

كما بينت الدراسة الآثار السلبية السيئة التي أحدثها الخوارزميون في بلاد الشام والجزيرة فلقد استنزفوا طاقة الأيوبيين الذين كانوا يعيشون في رعب دائم منهم حيث قاموا بالهجوم على العديد من البلدان ونهبوها ودمروها وسلبوا ما فيها من أموال وخيرات، وعلى الرغم من اختلاف البيت الأيوبي إلا انهم كانوا يتحدون مرغمين أمام الخوارزميين لوحشيتهم، فاتحدت مملكة حلب مع حمص ضدهم بقيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص ولقنوا الخوارزميين درساً قاسياً فهزموهم عند الرها سنة ٦٣٨هـ، ولما عاودوا الهجوم مرة أخرى وقف لهم المنصور صاحب حمص بالمرصاد وهزمهم سنة ٦٤٠هـ.

وأوضحت الدراسة أن عدداً غير قليل من الأمراء المحسوبين على الأمة الإسلامية مارسوا أنماطاً وضروباً من الخيانة أجل منافعهم الدنيوية ومصالحهم العاجلة التي لعبت دورها في تفتيت وحدة الأمة الإسلامية وعرقلة حركة الجهاد ضد الصليبيين وغيرهم ومن ذلك تحالف الصالح إسماعيل صاحب دمشق ومن معه من ملوك الشام مع الصليبيين ضد الصالح أيوب صاحب مصر، ومنحهم مقابل ذلك الكثير من الإقطاعات التي ترضيهم وبقيت بذلك عبرة التاريخ للذين يطلبون النصر من الأعداء، والذين يطلبون الحياة من السم والذين ينسون قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث انه ترتب على الصراع في منطقة الشام والجزيرة أن صار بيت المقدس – ثالث الحرمين الشريفين ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم – ألعوبة بيد بعض ملوك بنى أيوب يسلمونه للصليبيين لتحقيق مصالحهم

الشخصية ومطامعهم الدنيوية ولم يراعوا في ذلك مشاعر المسلمين بل خرجوا بهذا العمل عن قيم دينهم وأهدروا تراث أسلافهم الذين حرروا القدس الشريف بدمائهم.

وألقت الدراسة الضوء على بعض الجوانب الإيجابية للخوارزميين فقد تمكنوا من استعادة بيت المقدس وتطهيره من دنس الصليبيين سنة ٦٤٢هـ بعد أن سلمه إليهم الصالح إسماعيل ومن معه، وبقى بعد ذلك بيت المقدس بيد المسلمين حتى العصر الحديث عندما وقع تحت بيد الأنجليز. وكذلك من الجوانب الإيجابية للخوارزميين ما تحقق على أيديهم من هزيمة ساحقة للصليبين ومن حالفهم من ملوك بنى أيوب في موقعة غزة الشهيرة سنة ٦٤٢هـ وكانت بذلك اعظم كارثة تحل بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ حتى أطلق عليها بعض المؤرخين اسم حطين الثانية. وكانت هذه الخسارة التي لحقت بالصليبيين بمثابة بداية النهاية لهم في بلاد المسلمين، فقد عجزوا عن الدفاع عن البلدان التي استولوا عليها في بلاد الشام ماعدا المناطق الساحلية وبعض القلاع الداخلية الحصينة.

وبينت الدراسة كذلك رجوع الخوارزميين إلى طبيعتهم السابقة فقد طلبوا من الصالح أيوب أن يمنحهم قدراً من الإقطاعات وأن يقاسمهم البلاد ويعطيهم الأموال. وعندما رفض الصالح أيوب مطالبهم الصعبة انقلبوا عليه بعد استعادة دمشق من الصالح إسماعيل وتحالفوا مع أعدائه وخرجوا عليه إلا انه تمكن من القضاء عليهم.

وأخيراً دلت الدراسة على أن سبب الحملة الصليبية السابعة هو ما قام به الخوارزميون من استعادة لبيت المقدس وهزيمة الصليبيين في غزة هزيمة منكرة فضجت أوربا لذلك وأعدت العدة للقيام بهذه الحملة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع.

# الملاحق

# ملحق رقم (١)

## نسخة كتاب الفتح[1]

نقلاً عن كتاب تاريخ فاتح العالم للجوينى الجزء الثاني صفحة ٨-١٢.

الشكر والحمد والثناء للخالق جل ذكره وعلا، الذي منحنا الظفر والنصر برأي من الدولة والمكللة برايات المملكة. وجعل التأييد والقدرة قريني النهضات الميمونة والعزمات الهمايونية، بنهضة الدولة والتصرف بتدبير عبيدها، أدامها الله، وبخطوات جيش حقق القهر ونفذ الأوامر، و " هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر؟ ". حتى خفقت رايات نصرنا، حفها الله بالنصر، على حدود ممالك الأرمن. وأحاطت بمدينة أخلاط مدة ثمانية أشهر، ووجهنا آيات الوعد والوعيد إلى جماعة المخالفين مرات ومرات، وكررنا عرض مقدمات الإنذار والتحذير بإلزام الحجة وإقامة البينة، حتى رأوا طريق سلامتهم بعينهم البصيرة، وعلموا أن لاقدرة لهم على معبر عواصف القهر وصواعق السخط التي لايتحملها جبل، وأن لاثبات لهم أمام تلاطم أمواج غضب حشم فاتح العالم ولا الجبل الجودي. فتقدموا يطلبون الاستغفار والأمان. ففتحوا الأبواب. في حين أنهم طوال هذه المديدة لم يعوا الدعاء : " اللهم اهد قومي فإنهم لايعلمون ".

(١) لقد جانب صاحب الرسالة الصواب في استخدامه لكلمة الفتح هنا فهذه الكلمة لها مدلول خاص متعلق بالفتوح الاسلامية، كما بالغ ايضاً في مدحه لجلال الدين وجيشه عند إقتحامهم لخلاط، ولقد بينا حقيقة هذا الأمر عند استعرضنا لهجوم الخوارزمية على خلاط في الفصل الأول.

فقد كان جماعة المخالفين يزدادون غواية وضلالة يوماً بعد يوم، " ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ". وكان قد ازدحم جيش كبير، توافد من ديار بكر وسواحل الفرات وبلاد مصر والشام وبعض البلاد الشرقية وطوائف التراكمة والأتراك، ومن كل أوب ووجهة فوق مختلفة، واعتمدوا على قوة سواعدهم وحصانة أحمالهم وكثرة استعدادهم من الدواليب والنبال والمجانيق والنفط وآلات الجر الثقيلة. والحق أن برود المدينة تبارت مع فلك البروج في الارتفاع. أ/ا خندقها فيحكى أن قعرة أبعد غوراً من قعر الثور السمكي. كما تعاضدت العوامل والمؤثرات بين الأرض والسماء على الزيادة من إحكام هذه الأسوار وتثبيت قواعدها.

تلاحمت سوداء غرورهم مه ما في ضمائر المتمردين حتى جعلهم يرفضون كل موعظة. وتخليهم الفاسد زاد من تثبت المخالفين والمعارضين في عنادهم.

حتى كان أواخر شهر جمادى الأولى، لمس فيها رجال فاتح العالم فرصة. نصرهم الله وقواهم، للحرب والإقدام. فقد جاءتهم الأوامر أن على كل جيدي أن ينقب في موضعه، ويجد منفذاً إلى داخل الأسوار. أما الشجعان المغاوير فقد ملوا المكوث فاحتالوا بحثاً عن وسائل والتماسات حتى حظوا بالموافقة على بدء الحرب. ودامت الحرب ثلاثة أيام بلياليها، وهم صابرون مثابرون، حتى تسرب عدد منهم إلى داخل المدينة.

وفي يوم الأحد في الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى، عند الشروق تزينت الأبراج والنوافذ بطلائع الرايات، تماماً كالسماء وقد تحلت بنجومها، بينما تحصن المعارضون في القلعة الواقعة في وسط المدينة، وهم يصرخون وينادون. وشغل رجال المنصور، لازال منصوراً، بالغارة والسلب.

ولم يكن لأهل أخلاط سبيل إلى طلب الرحمة لكثرة معارضتهم ونغماسهم

في الغواية. لكن الرأي العطوف العادل منحهم الأمان، وأوقف الغارة والسلب فعم فيض من المكرمات نحو الشعب، كما ساد الهدوء، ودعوا للدولة القاهرة بقولهم : شيد الله أركانها. حتى المخالفون الفارون شملتهم أبواب المرحمة بعد أن قدموا الاعتذار والاستغفار واعترفوا : ﴿ ربنا ظلمنا ﴾. فعفي عنهم وتجووز عن زلاتهم، وعن سائر المجرمين.

وقد انسلك في سلك العبودية روعاص أو طوعاص كل من إخوة الملك أشرف : مجير الدين وتقي الدين، وعز الدين أيبك، وصاحب أرزن، والأمير أقسم بأسرهم وأجمعهم. وأسد بن عبدالله وجميع أركان الأسرة الأيوبية المالكة اليوم. ولقد حالفتهم الحظوظ بمزيد من القدرة واستمرار الحكم وتحقيق الطموحات بما منحناهم من حق الحياة والسعادة التى نعموا بها. وبهذه النهضة المباركة وهذه العظمة في ممالكهم الموروثة والمكتسبة، زادها الله بسطة، اتسع حكمهم. حتى لم يكتفوا بما كان لهم في الأمس القريب من ممالك الشام والروم، بل تصرفوا أكثر وخلدت دولتهم، خلدها الله ونصرهم.

وزعت هذه السعادات، وتحققت المطالب والأماني. فأرسلنا الأمير الفلاني ليوزع هذه البشرى على الأمراء والأكابر والصدور والمعارف والقضاة والرؤساء والمشايخ والأعيان والمعتبرين وأهالي همدان كافة، عمرها الله وأحسن أحوال رعاياها. فابتهل الجميع إلى الله تعالى عز وعلا في حقنا الدعاء لهذه الألطاف وهذا السرور، وبما حظيت به دولتنا القاهرة، لازالت راسخة البنيان ثابتة الأركان. وعمت فوائدها على طوائف الأمم كافة، وشغلوا بالدعوات الصالحات، بما منحوا من وظائف وخير. إن شاء الله تعالى وحده.

# ملحق (٢)

## نبذة من سيرة جلال الدين الخوارزمي نقلاً عن كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢٢ ص ٣٢٦-٣٢٩.

السلطان الكبير جلال الدين منكوبري ابن السلطان الكبير علاء الدين محمد ابن السلطان خوارزمشاه تكش ابن خوارزمشاه أرسلان ابن الملك أتسز بن محمد بن نوشتكين الخوارزمي.

تملك البلاد، ودانت له الأمم، وجرت له عجائب وعندي سيرته في مجلدا.[١] ولما دهمت التتار البلاد الماوراء النهرية[٢] بادر والده علاء الدين وجعل جاليشه[٣] ولده جلال الدين في خمسة عشر ألفاً، فتوغل في البلاد، وأحاطت به المغول، فالتقاهم، فانكسر، وتخلص بعد الجهد، وتوصل.

وأما أبوه فما زال متقهقراً بين يدي العدو حتى مات غريباً سنة سبع عشرة وست مئة في جزيرة من البحر.

قال الشهاب النسوي الموقع[٤] :

---

(١) هي " سيرة السلطان جلال الدين منكوبري " تأليف محمد بن أحمد النسوي المتوفي حوالي نسبة ٦٣٩، نشرها حافظ حمدي في القاهرة سنة ١٩٥٣.

(٢) هذا من تعابير الذهبي الخاصة لم يستعمله أحد قبله.

(٣) كلمة فارسية يريد بها : مقدم الجيش.

(٤) صاحب السيرة التي ذكرناها قبل قليل.

كان جلال الدين أسمر تركيا قصيراً منعجم العبارة، يتكلم بالتركية وبالفارسية. وأما شجاعته فحسبك ما أوردته من وقعاته، فكان أسداً ضرغاماً، وأشجع فرسانه إقداماً، لاغضوباً ولاشتاماً، وقوراً، لايضحك إلا تبسماص، ولايكثر كلاماً، وكان يختار العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب.

وقال الموفق عبداللطيف : كان أسمر أصفر نحفياً سمجاً لأن أمه هندية، وكان يلبس طرطوراً فيه من شعر الخيل مصبغاً بألوان، وكان أخروه غياث الدين أجمل الناس صورة وأرقهم بشرة، لكنه ظلوم وأمه تركيه.

قلت: وكان عسكره أوباشاً فيهم شر وفسق وعتو.

قال الموفق: الزنى فيهم فاش واللواط غير معذوق بكبر ولاصغر والغدر خلق لهم، أخذوا تفليس بالأمان، ثم غدروا وقتلوا وسبوا.

قلت: كان يضرب بهم المثل في النهب والقتل، وعملوا كل قبيح، وهم جياع مجمعة، ضعاف العدد والخيل. التقى جلال الدين والتتار، فهزمهم، وهلك مقدمهم [ابن] جنكزخان، فعظم على أبيه وقصده فالتقى الجمعان على نهر السند، فانهزم جنكزخان ثم خرج له كمين فتفلل جمع جلال الدين وفر إلى ناحية غزنة في حال واهية، ومعه أربعة آلاف في غاية الضعف، فتوجه نحو كرمان فأحسن إليه ملكها، فلما تقوى غدر به وقتله، وسار إلى شيراز وعسكره على بقر وحمير ومشاة ففر منه صاحبها، وجرت له أمور يطول شرحها مابين ارتقاء وانخفاض، وهابته التتار، ولولاه لد اسوا الدنيا. وقد ذهب إليه محيي الدين ابن الجوزي رسولاً فوجده يقرأ في مصحف ويبكي، ثم اعتذر عما يفعله جنده بكثرتهم، وعدم طاعتهم، وقد تقاذفت به في البلاد إلى الهند ثم إلى كرمان ثم إلى أعمال العراق، وساق إلى أذربيجان، فاستولى على كثير منها، وغدر بأتابك أزبك، وأخرجه من بلاده، وأخذ زوجه ابنه السلطان طغرل، فتزوجها، ثم

عمل مصافاً مع الكرج فطحنهم، وقتل ملوكهم، وقوي ملكه، وكثرت جموعه، ثم في الأخر تلاشى أمره لما كسره الملك الأشرف موسى وصاحب الروم بناحية أرمينة، ثم كبسته التتار ليلة، فنجا في نحو مئة فارس، ثم تفرقوا عنه إلى أن بقي وحده، فألح في طلبه خمسة عشر من التتار فثبت لهم وقتل اثنين فأحجموا عنه، وصعد في جبل بناحية آمد ينزله أكراد فأجاره كبير منهم، وعرف أنه السلطان، فوعده بكل خير، ففرح الكردي، وذهب ليحضر خيلاً له ويعلم بني عمه، وتركه عند أمه ن فجاء كردي فيه جرأة فقال: ليش[1] (١) تخلوا هذا الخوارزمي عندكم ؟ قيل : اسكت هذا هو السلطان، فقال لأقتلنه فقد قتل أخي بخلاط، ثم شد عليه بحربة، قتله في الحال في نصف شوال سنة ثمان وعشرين وستمئة.

(١) لفظه عامية معناها : لأي شيء. لم نعثر على ترجمة في " تاريخ الاسلام ".

# ملحق (٣)

نص الكتاب الذي أرسله الملك الناصر داود أمير امارة الكرك الأيوبية إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٣٧هـ يبشره بفتحه للقدس وتطهيره من دنس الصليبيين. والرسالة من انشاء الناصر داود. نقلاً عن كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد. الجزء الثالث صفحة ٢٢٦-٢٣٣:

بسم الله الرحمن الرحيم

أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي مادامت الأيام والسنون، وفتح بعزمه مستغلق الحصون، وأذاع ببركته سر النصر المصون، وأطلع البشائر ببابه يانعة الثمار، ناضرة الغصون، وقضى لأوليائه بنيل المنى، ولأعدائه بنيل المنون.

العبد يقبل العتبة الشريفة التي تسير بتقبيلها القلوب، وتقر بتقريبها العيون، وتود لو اكتحلت بأثمد ترابها الجفون ويصف شوقه إلى الخدمة التي تحقق في نعمها الآمال وتصدق في كرمها الظنون، ومواظبته على الطاعة التي هو وأسلافه عليها يحيون، وعليها يموتون وعليها يبعثون.

وينهي أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، وانفساخ عقدتها، وعند ذلك أخلى الفرنج – خذلهم الله – القدس الشريف من سكانه، وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ماصيره من أوطانه، وأقام به كند من كنودهم، ومقدم من جنودهم، وهو فارس مشهور من فرسانهم، وطاغية يذكر من شجعانهم، كان قد عمر قلعة القدس في مدة الهدنة وحصنها، وملاها بالعدد والآلات وشحنها، ووصلها ببرج يقال له : " برج داود النبي – عليه الصلاة

والسلام – ابتناه لنفسه مسجداً، واتخذه لخلوته معبداً. وهو برج عظيم المقدار والحجم، مساو في المنعة الجبل وفي الرفعة النجم، ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير، ويتهم الراوي في خبره ولو أنه به خبير، قد بني بالصناع والعمد، وتأنق بانوه في احكامه فما طال عليهم الأمد.

وهو من أسفله إلى ثلثه قد صب فيه الحجر والكلس صباً وردم بقوة بحيث لو حضره يأجوج ومأجوج مااستطاعوا أن يظهروه ولا استطاعوا أو كأنه استعان في اتقانه بجن سليمانه، واستغرى اللعين معه طائفة من شجعان الأبطال وأبطال الشجعان، ومن المشهورين بالشدة والبأس اذ التقى الجمعان. قد ركبوا في الغي رؤوسهم، ووطنوا على القتل نفوسهم يتهافتون على نار الحرب تهافت الفراش، ويردون حياض المنون ورود الأبل العطاش، لايلتقون سهام القسي إلا بنحورهم، ولا حجارة المنجنيق الا بصدروهم، وبايعوه على الموت وحالفوا، وطاوعوه على الضلال فما عصوا ولاخالفوا. ثم عمدوا إلى القلعة والبرج فستروهما بالستائر المخلدة، والخشب المسندة، والغمد الممددة، وأوقدوا للحرب نار الشيطان الموصدة لابل نار الله الموقدة. فنزل العبد عليهم بطائفة من عسكره، ورواحهم وغاداهم بالمناوشة في أصائل الحصار وبكرة، ورجا بالمطاولة أن يسلموها من غير اراقة دم، أو قتل موحد يفتدي من المشركين بأمم، فتجمعوا على الضلال وتألبوا، وحادوا عن طريق الرشاد وتنكبوا، وتوثبوا لنصر الصليب وتصلبوا.

فقاتل العبد صليبهم بصليب من الرأي لايعجم عودة، وقابل حأشهم بجيش من المصابرة لايفل جنوده، وجرد لهم جماعة من عبيد الديوان ترسل إليهم البوائق من نبالها، وتشهر عليهم الصواعق من نصالها. ونصب عليها المجانيق التي تزاحم الحصون بمناكبها، وتحرق شياطينها برجوم حجارتها بدلاً من نجوم

كواكبها، ومـن شـأنها أنهـا إذا قـابلت بلـدة أخـذت بكظمهـا وقضـت برغمهـا، وأنزلتها على حكمها، قرمتهم بثالثة الاثافي من جبالهـا، وسـحرت أعينهـم إلا أن الله ما أبطل سحر عصيها ولاسحر حبالهـا، وأوجـد النقـابون فـي الأسـوار نقوبـاً سفرت نقابها، ورمى الزراقون في الستائر نيراناً هتكت لحجابها.

وكـان الملاعيـن قـد طمحـت إلـى الممانعـة عيونهـم، وغلقـت بالمصـابرة زهونهم، وظنا أنهم مانعتهم حصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وجزاهم بما كسبوا، ومكن أيدي المؤمنين من نواصيهم، وأنزل الذين ظاهروهم من أهـل الكتاب من صياصيهم، وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة، الرايـة التى أعادت يسناها آية الليل لكن من آياتـه النهـار أبصـاراً، وأعظـم مـن النيرين الشمس والقمر ضياء وأبداراً.

وأخذ العبد القلعة وتسلمها، وافـترع ذروتهـا العليـا وتسـنمها، وتـبرجت لـه أبراجها المصونة وتجلت، ومدت له أرضها فألقت مافيهـا وتخلـت ولجـأت مـن الملاعين طائفة إلى " برج داود" ترجو حقـن دمائهـا وتقنـع بسـلامة دمائهـا ومـا علموا أنهم دخلوا منه سجناً لاحصناً ونزلـوا بـه قـبراً عـدل لهـم، وهـم فـي قيـد الحياة دفناً. وسيروا رسولاً يطلب لهم الأمان على نفوسهم وأموالهـم والخـروج بما يقدرون عليه من أسلحتهم وأثقالهم فما سمع العبد كلاما ولاشفا لغلته أواما، ولاعرج على مخاطبته حتى يقول لجهالته سلاماً، بل أمر الحجارين أن يجدوا في ثقب جداره من جميع أقطاره، ويجتهدوا في قطع حد مأره بقلع أحجاره، ويوقـد على عدو الله ناراً تحرقه في الدنيا قبل أن يحرقه الله فـي الآخـرة بنـاره، فعـادوا بعد ذلك سألوا الأمان على نفوسهم والخروج بمجـرد نفوسـهم، فأجـابهم العبـد إلى هذه المسألة الهينة الممكنة، وخرجوا وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة.

وصارت إلى العبد القلعة ارثا عن ابيه، والبرج ارثا عن سميه، وهطـل عليهـم

سحاب بركة الديوان العزيز بوسميه ووليه، واجتمع شمل المساجد الثلاثة بما منح الله من التأييد، فاقترق شمل تثليت الشرك باجتماع ثلاثة التوحيد وعطف الله على حزب الايمان بالنصر، وعاد على حزب الطغيان بالكسر، وأضحى الباطل وقد عاوده ذله، ورد الله الحق إلى نصابه وإليه يرجع الأمر كله.

والعبد يظن أن الله تعالى ماأعاد هذا البيت إلى العدو بعد فتوجه، ولانقله عن الهداة من أمه محمد إلى الغواة من عبدة مسيحه، الا ليسطر فتحه في سيرة مولانا أمير المؤمنين، كما سطره في سيرة أمير المؤمنين جده، ويجري على يد العبد وذويه فيكون قد جرى على يد عبد الديوان ويد جنده.

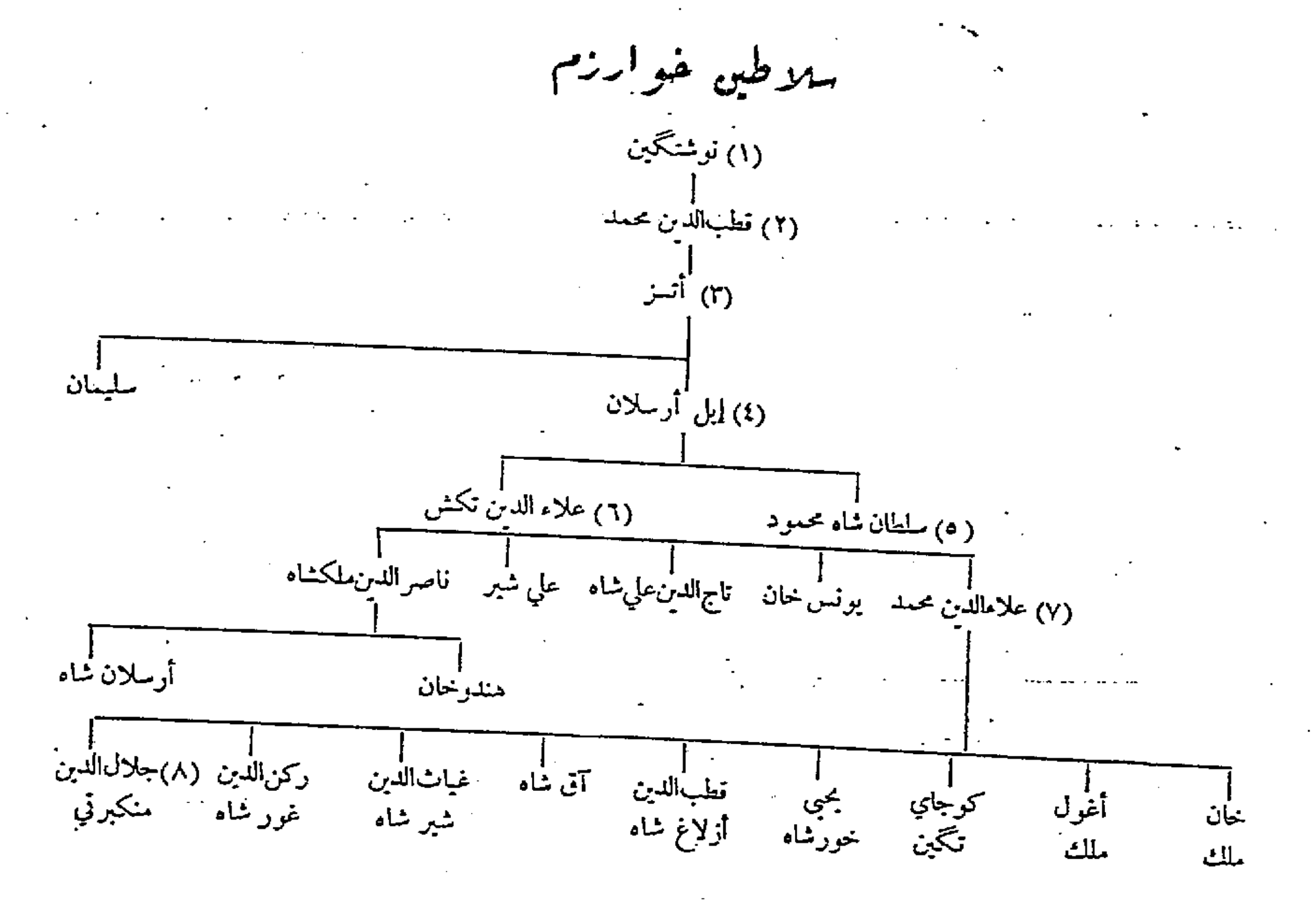
وكلما يجدد الله للعبد من قصر عزيز، وظفر وجيز، فهو بعناية امامه الذى يستخرج له التوفيق من وعائه، ويمد في القرب بجيوش عساكره وفي البعد عساكره وفي البعد بجيوش دعائه. وقد سير العبد عبدالديوان " سرخاب" رسوله ليتلو " سورة الفتح " من حفظه، ويشرح صورة الأمر من لفظه، فانه كان للفتوح حاضراً، ولقتال العدو مباشراً.

والعبد متردد بين أن يجعل عين هذه القلعة بالهدم أثراً، وعيانها بالردم خبراً، ليخمد سرر شرها، ويؤمن غائلة أمرها، وينقطع رجاء الكافر من نزالها وحصرها وبين أن يبقيها معقلاً لهذا البيت الشريف، وموئلاً للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف. وأما برج داود فقد تقدم عزم العبد على أن يغض من طرفه ويجدع من أنفه، ويقلل من ارتفاعه ويسهل من امتناعه ويجعله مسجداً للركوع والسجود، لا معقلاً للجموع والحشود، ومعبداً يلتزم بمزاره، لاحصناً يعتصم بأسواره.

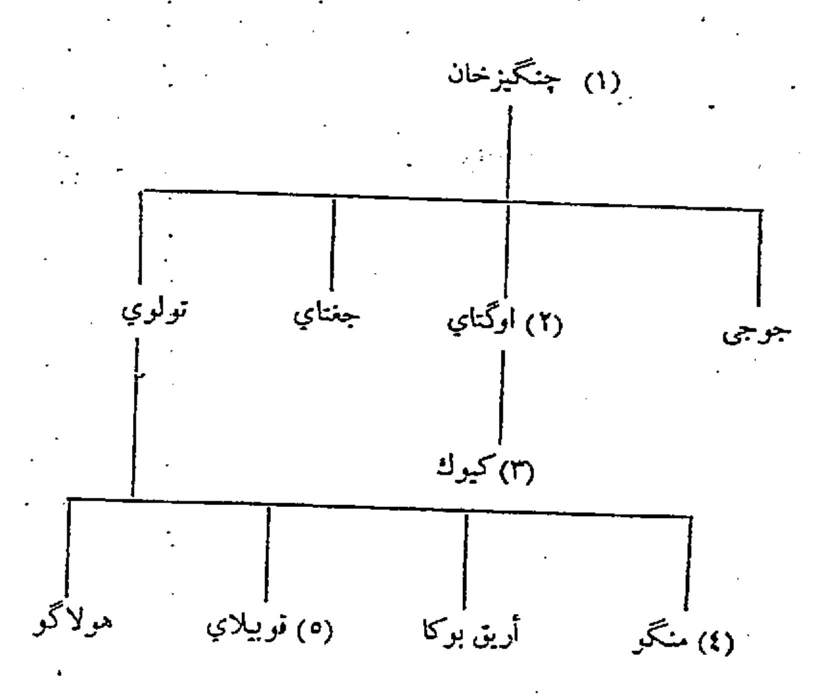
وهو يسترشد في ذلك الديوان العزيز الذي عليه معتمده، وإليه مرجعه فيما يصدره ويورده، والله تعالى يجعل حزب الديوان وعبيده حزب الله الغالب، وحزب عدوه وعدو دينه حزب الشيطان الهارب، ويقضي له ومن اعتلق به ببلوغ المالب والمآرب.

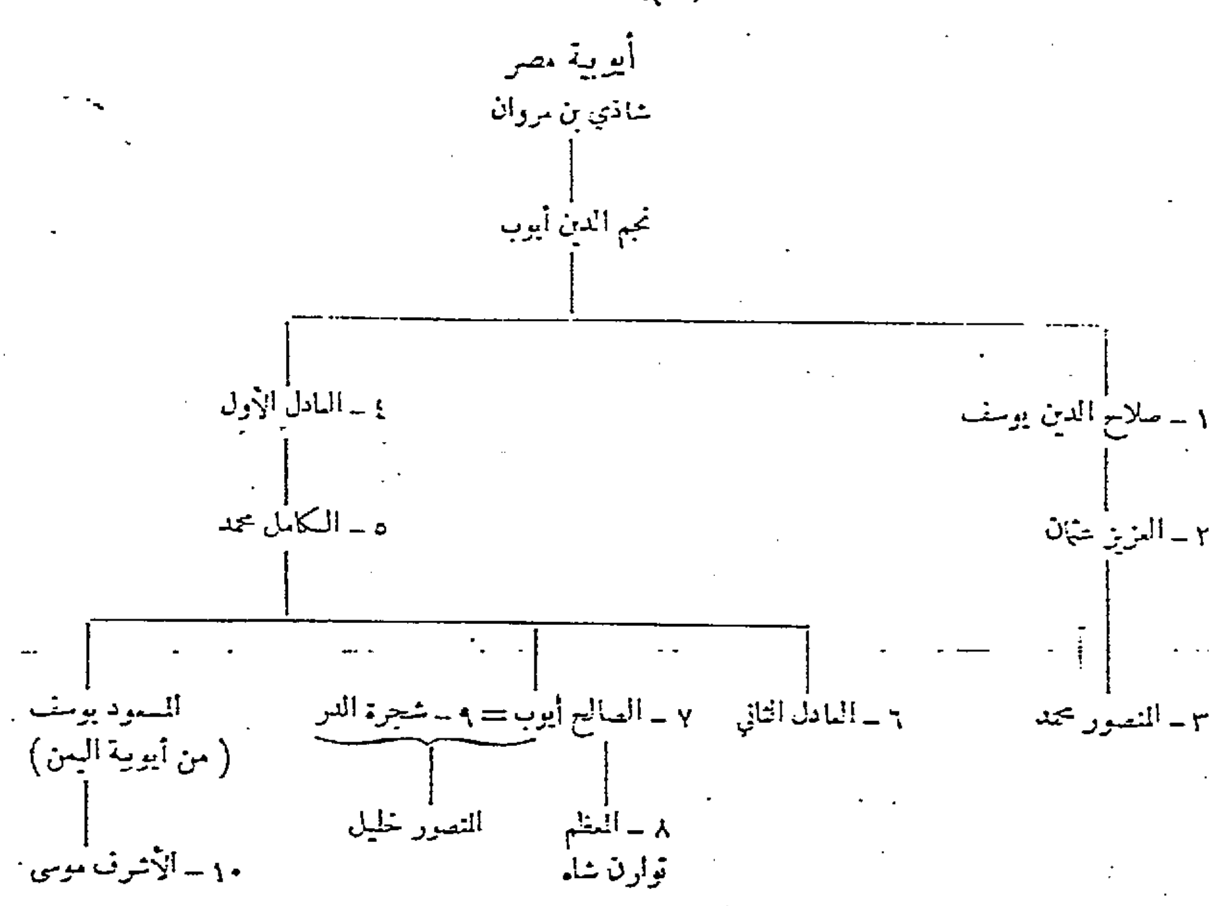
# الجداول والخرائط

## سلاطين خوارزم




## خانات المغول






أيوبية دمشق

نجم الدين أيوب

صلاح الدين يوسف — ٢ ـ العادل الأول

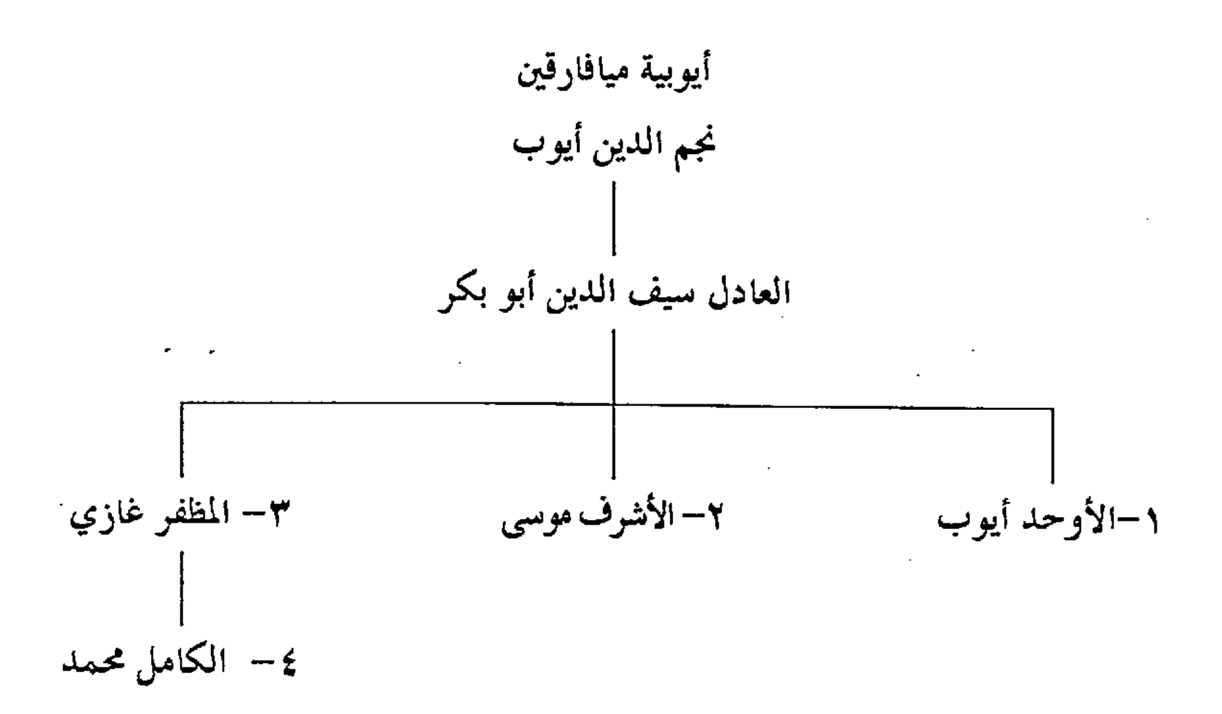
١ ـ الأفضل علي

٣ ـ المعظم عيسى — ٥ ـ الأشرف موسى — ٦ ـ الصالح إسماعيل — ٧ ـ الكامل محمد — مودود

٤ ـ الناصر داوود

٨ ـ العادل الثاني — ٩ ـ الصالح أيوب — الجواد يونس

المغيث عمر ٢ — ١٠ ـ المعظم توران شاه




---

أيوبية حمص

شادي بن مروان

أسد الدين شيركوه

١– محمد

٢– المجاهد شيركوه

٣– المنصور إبراهيم

٤– الأشرف موسى

الأيوبيون في حلب

الناصر صلاح الدين يوسف

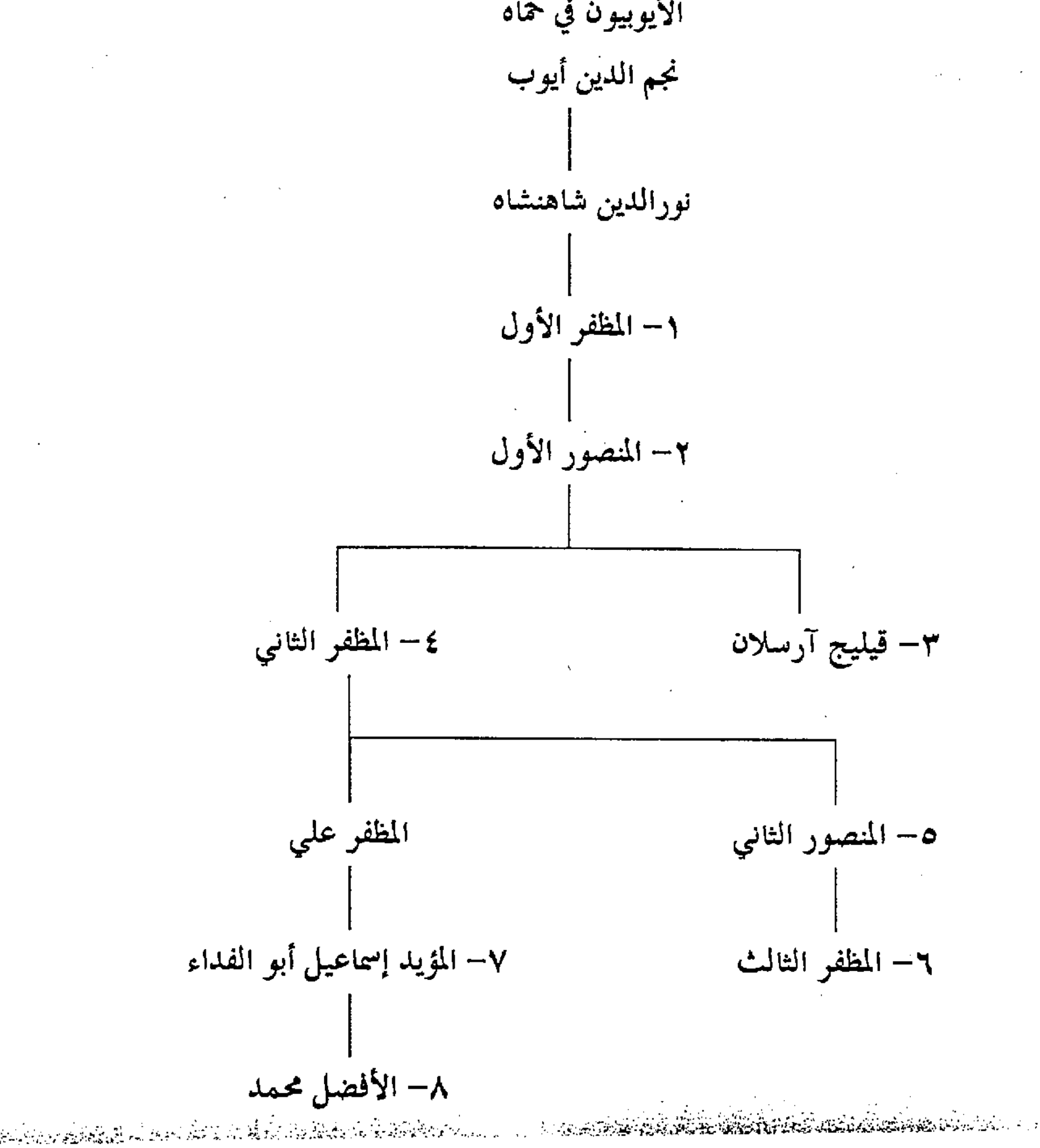
١- الظاهر غازي

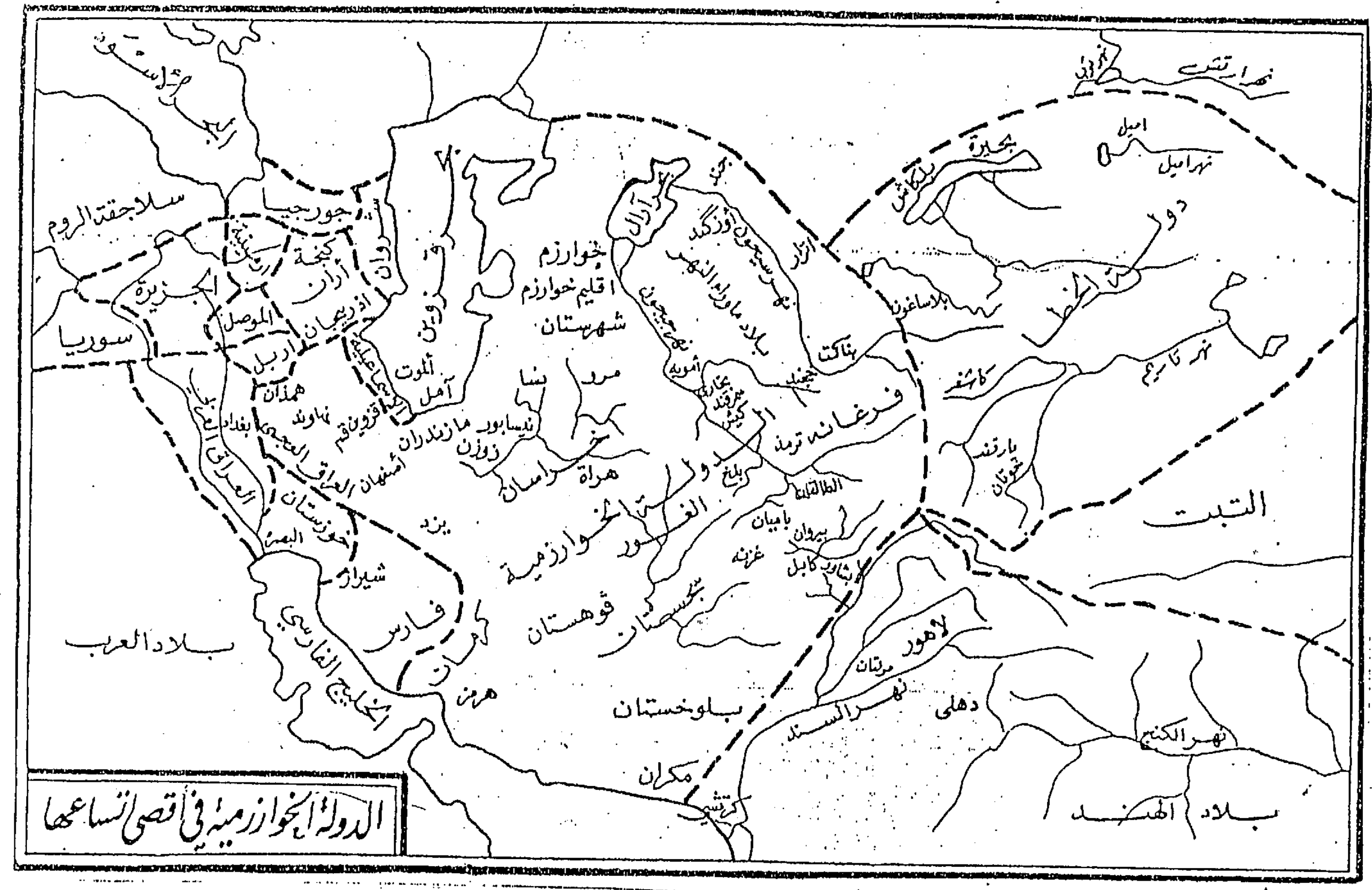
٢- العزيز محمد

٣- الناصر يوسف

العزيز

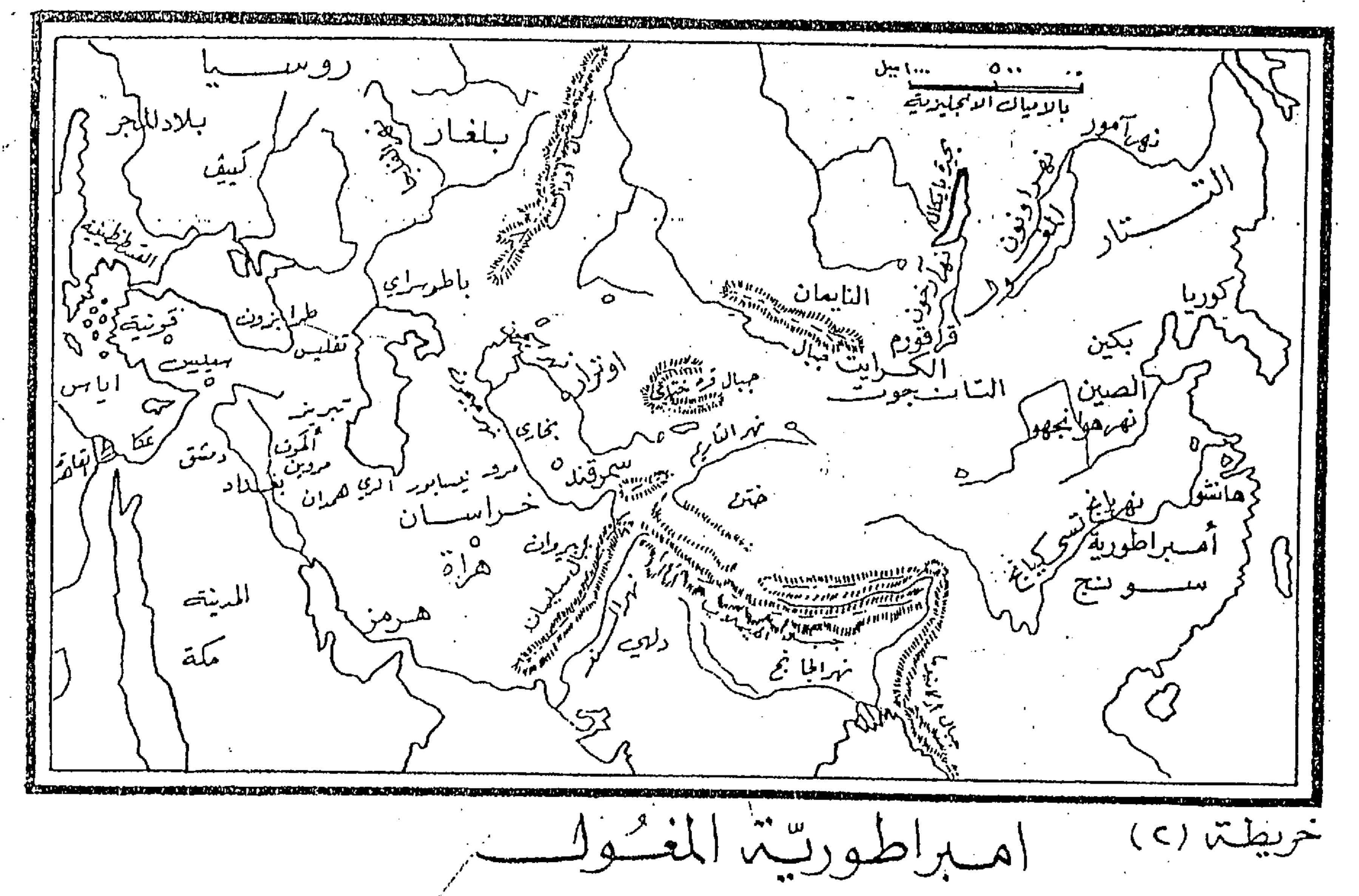
الظاهر غازي





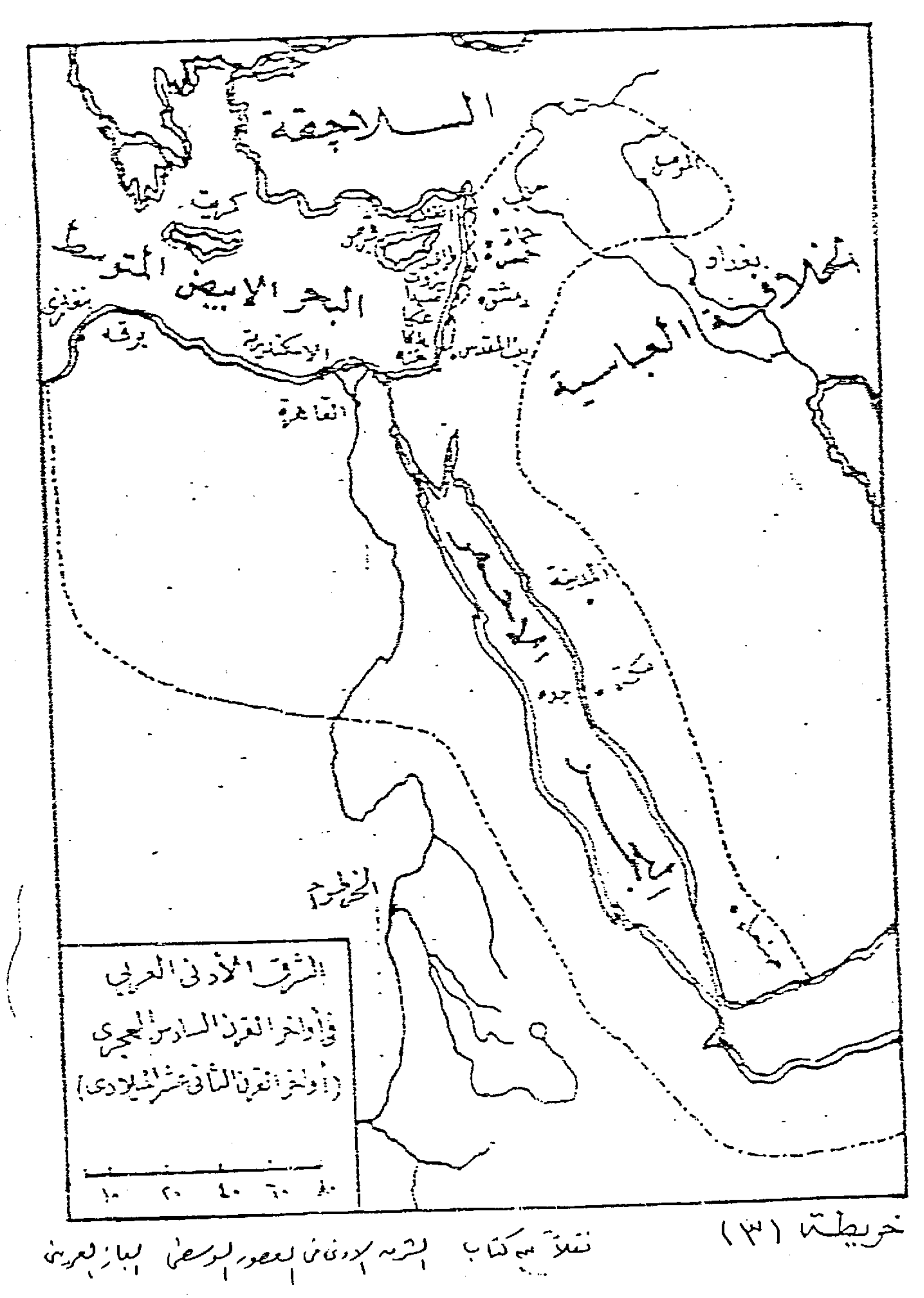

خريطة (١)

نقلاً عن كتاب سيرة جلال الدين للنسوي



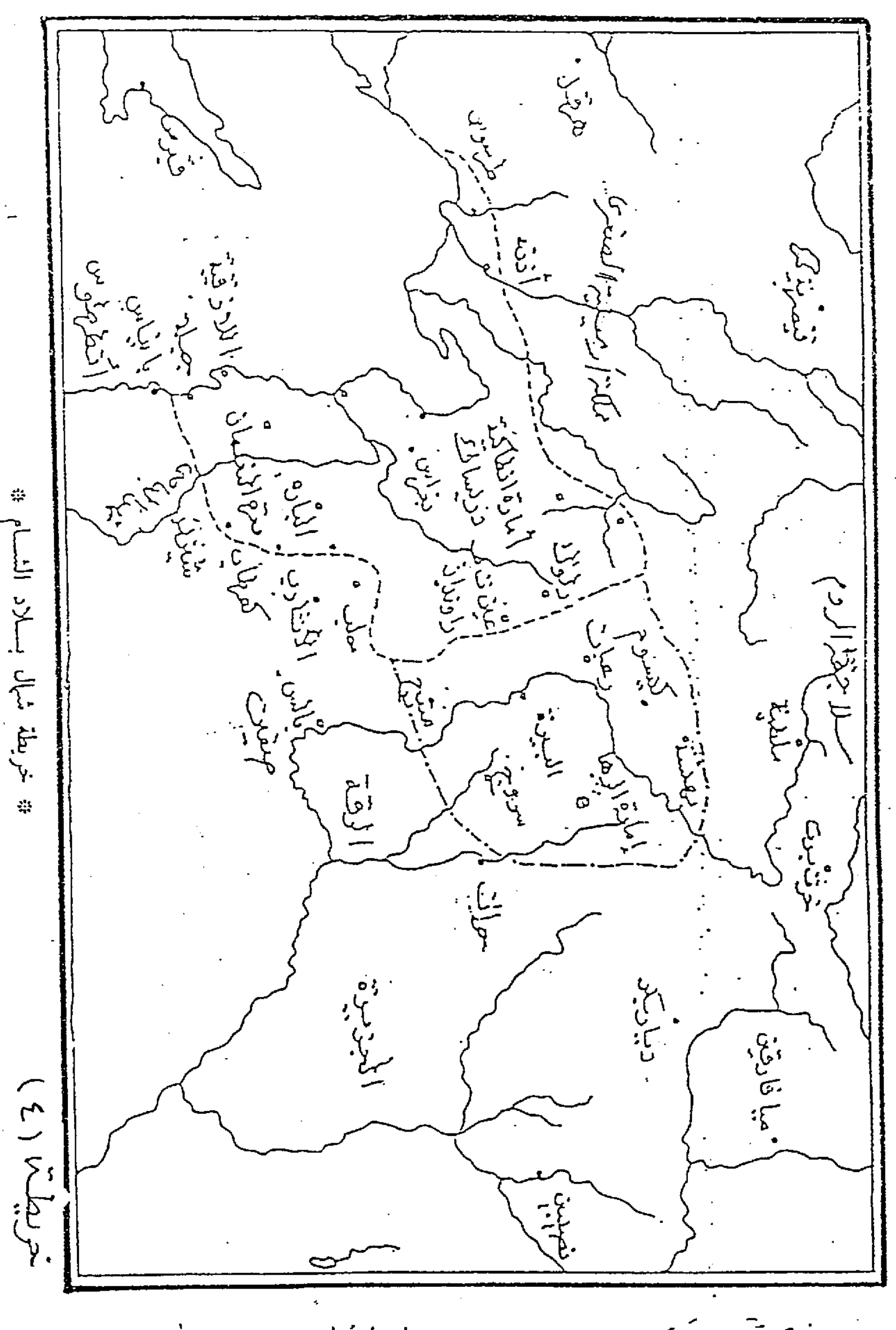

خريطة (٢) امبراطورية المغول

نقلاً عن كتاب المغول في التاريخ للصياد




خريطة (٣)

نقلاً عن كتاب الشرق الأدنى في العصور الوسطى الباز العريني




خريطة رقم (٤)

* خريطة شمال بلاد الشام *

نقلاً عن كتاب جهاد المماليك ضد المغول محمد الغامدي

اللاذقية
جبلة
شيزر
حماه
انطرطوس
حصن الأكراد
طرابلس
حمص
جبيل
بيروت
صيدا
بعلبك
صور
حوران
عكا
دمشق
هونين
تبنين
بانياس
حيفا
قيسارية
طبرية
أرسوف
بيسان
بصرى
يافا
عسقلان
الرملة
بيت المقدس
غزة
الكرك
العريش
مصر
الشوبك
أيلة

خريطة (٥) * خريطة جنوب بلاد الشام *

نقلاً من كتاب جهاد المماليك ضد المغول عبد الله الغامدي

# المصــادر والمـراجــع

## أولاً - المخطوطات :-

- ابن أبى الدم ( أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله بن عبدالمؤمن، ت ٦٤٢هـ) التاريخ المظفرى. صورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى برقم ١١٣١ عن نسخة مكتبة خدا بخنش بالهند رقم ٣٨٦٩.

- الأصفهاني ( محمد بن محمد بن حامد ت ٥٩٧هـ ) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان. مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى برقم ١٠٢٨ عن نسخة أحمد الثالث بتركيا رقم ١٢٩٥٩.

- الحلبي ( بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر بن حبيب، ت٧٧٩هـ) جهينة الأخبار في أسماء الخلفاء وملوك الأمصار. مصور بمركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى برقم ١٣٨٤ عن نسخة مكتبة البلدية بالإسكندرية رقم ٥١٥٧.

- الخطيب العمري ( ياسين الخطيب بن محمود بن موسى ت ١٢٣٢هـ) الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون. مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى برقم ١٠٤٥ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٩٤٩.

- السيوطي ( كمال الدين محمد بن أبي شريف ت ٩٠٦هـ) إتحاف الإخصا بفضائل المسجد الأقصى. دار الكتب المصرية رقم ١٨٢٩.

- العيني ( بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى، ت ٨٥٥هـ) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. ج١٣. مخطوط بدرا الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ وبمعهد المخطوطات العربية برقم ٣٣٤ تاريخ.

- أبوالفدا ( الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ) التبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك. معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٤٦٧.

- الناصر ( صلاح الدين داود بن الملك المعظم عيسى) جمعه ابنه الملك الأمجد مجد الدين أبو محمد الحسن. الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية. مصور بدار الكتب المصرية عن نسخة الآستانة رقم ٦٣٩.

- ابن واصل ( جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ )

١- التاريخ الصالحى. مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي برقم ١٠٦١ عن نسخة مكتبة فاتح باستامبول رقم ٤٢٢٤.

٢- تاريخ الواصليين. دار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩.

## ثانياً - المصادر العربية والمترجمة المطبوعة :-

- القرآن الكريم.

- ابن الأثير ( أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد عبدالكريم اجزري ت ٦٣٠هـ ). الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ت ٩٣٠هـ) بدائع الزهور في وقائع الدهور. الجزء الأول، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- ابن أيبك ( أبو بكر عبدالله بن أيبك الدواداری، ت ٧٣٢هـ) كنز الدرر وجامع الغرر. الجزء السابع المعروف، بالدرر المطلوب في أخبار بنى أيوب. تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور. القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م.

- البدليسى ( شرف خان) شرفنامه. ترجمه إلى العربية محمد على عوني دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

- أبو البركات الحنبلي ( عز الدين أحمد بن إبراهيم بن نصر الله لكناني العسقلانى، ت ٨٧٦هـ ). شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب. تحقيق ناظم رشيد، بغداد ١٩٧٨م.

- البندارى (قوام الدين الفتح بن على بن محمد، ت ٦٤٣هـ ) سنا البرق الشامي. تحقيق فتحيه النبراوى.

- البيهقي ( أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى ) السنن الكبرى. الطبعة الأولى، سنة ١٣٥٢، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد
- الهند.

- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف الاتابكى، ت ٨٧٤هـ).
١- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ط. دار الكتب المصرية، القاهرة.
٢- المنهل الصافى والمستوفي بعد الوافى. تحقيق محمد محمد أمين.
٣- الدليل الشافي على المنهل الصافى. تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط، مكة المكرمة.

- الجوينى ( عطا ملك الجوينى ). تاريخ فاتح العالم، جها نكشاى، في تاريخ الخوارزميين والإسماعيلية والحشاشين وفتح مدينة بغداد على يد هولاكو. نقله عن الفارسية محمد ألتونجي، دار الملاحة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- ابن حجر العسقلانى ( أحمد بن على بن حجر العسقلانى، ت ٨٥٢هـ) رفع الآسر عن قضاة مصر. تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٧م.

- الحريري ( أحمد بن علي). الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين. تحقيق سهيل زكار. مكتبة دار الملاح ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- ابن حنبل ( الإمام أحمد بن محمد، ت ٢٤١هـ) مسند الإمام أحمد. بيروت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ.

- ابن حوقل ( أبوالقاسم بن حوقل النصيبي (. صورة الأرض. ط. درا الكتاب الإسلامي القاهرة.

- ابن خلدون ( عبر الرحمن بن خلدون، ت ٨٠٨هـ ). تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر. ط. بيروت سنة ١٩٥٧، ١٩٥٨م.

- ابن خلكان ( أبوالعباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس. ط. بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

- ابن دقماق ( إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المعروف بابن دقماق، ت ٨٠٩هـ ). الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين. تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، بجامعة أم القرى.

- الديار بكرى ( حسين بن محمد الحسين، ت ٩٦٦هـ). تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس. مؤسسة شعبان بيروت.

- الذهبي ( شمس الدين محمد بن أحمد بن قايماز، ت ٧٤٨هـ)

١- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الطبقة ٦٣، تحقيق بشار عواد معروف وآخرون، ط - مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢- تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث.

٣-دول الإسلام، تحقيق محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

٤-العبر في خبر من غير. تحقيق أبوهاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول دار الكتب العلمية - بيروت، ط/ ١، ١٤٠٥هـ.

٥- سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م مؤسسة الرسالة بيروت.

٦- المختار من تاريخ ابن الجزرى، المسمى حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه. تحقيق خضير عباس، طبعة بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبوالمظفر يوسف بن قزاوغلي، ت ٦٥٤هـ ). مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، حيدر آباد، الهند، الطبعة الأولى ١٣٧٠هـ.

- السبكى ( تاج الدين أبونصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافى ٧٢٧-٧٧١هـ ). طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو وآخرون. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى.

- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد، ت ٩١١هـ).

١- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

٢- تاريخ الخلفاء. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- ابن شاكر الكتبى ( محمد بن شاكر الكتبى ). فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، طبعة - بيروت.

- أبوشامة ( شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي، ت ٦٦٥هـ).

١- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، دار الجيل بيروت.

٢- الروضتين في أخبار الدولتين ج١، ق٢ تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٢م.

- ابن الشحنة ( أبوالفضل محمد بن الشحنة، ت ٨٩٠). الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب. دار الكتاب العربي، سورية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- ابن شداد ( بهاء الدين أبوالمحاسن يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ ).

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤١٥هـ- ١٩٩٤.

- ابن شداد ( عز الدين محمد بن على بن إبراهيم الحلبى، ت ٦٨٤هـ ). الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. تحقيق يحي عبارة، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق ١٩٧٨م.

- ابن طولون ( محمد بن طولون الصالحى ت ٩٥٣هـ ). تاريخ الصالحية. تحقيق محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية ( ١٤٠١هـ- ١٩٨٠م ).

- ابن ظهيرة (ابوالسعادات جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين، ٨٢٥ -٨٨٥هـ). الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة. تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، دار الكتاب القاهرة ١٩٦٩م.

- ابن العبرى ( غريغورس أبى الفرج بن اهرون الطبيب الملطى ).
  ١- تاريخ مختصر الدول. دار الرائد لبنان ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
  ٢- تاريخ الزمان. ترجمة إسحاق أرملة. دار الشرق بيروت ١٩٨٦م.

- ابن العديم ( ابوالقاسم الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ابن أبى جرادة، ت ٦٦٠هـ ).
  ١- زبدة الحلب من تاريخ حلب. تحقيق سامي الدهان، الطبعة الأولى بيروت ١٣٨٧هـ.
  ٢- بغية الطلب في تاريخ حلب. تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت.

- العصامي ( عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامى المكى، ١٠٤٩
- ١١١١هـ ). سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالى. القاهرة ١٣٨٠هـ.

- ابن العماد الحنبلي ( أبوالفلاح عبدالحى أحمد بن محمد، ت ١٠٨٩هـ).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب. المكتبة التجارية – بيروت.

- ابن العميد ( المكين جرجس بن العميد ت ٦٧٢هـ ). أخبار الأيوبيين. مكتبة الثقافة الدينية بمصر.

- ابن فارس ( أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥هـ ).
معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٣٦٦–١٣٧١هـ.

- أبوالفداء ( الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماه، ت٧٣٢هـ).

١– المختصر في أخبار البشر. دار المعرفة بيروت لبنان.
٢– تقويم البلدان. باريس ١٨٤٠م.

- ابن الفرات ( ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن علي، ت ٨٠٧هـ).
تاريخ ابن الفرات. المجلد الرابع في قسمين، تحقيق حسن محمد الشماع، ط البصرة، ١٩٦٧م / ١٩٩٧م. المجلد السابع والثامن، تحقيق قسطنطين زريق، ط بيروت، ١٩٣٩ م.

- ابن فرحون ( المالكى ). الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. تحقيق محمد الاحمدى أبوالنور.

- ابن الفوطى ( كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق بن الفوطى، ت٧٢٣هـ). الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة. دار الفكر الحديث، بيروت لبنان ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- ابن قطلوبغا ( أبوالعدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا، ت ٨٧٩هـ).
تاج التراجم. مكتبة المتنبى بغداد.

- القلقشندى ( أبوالعباس أحمد بن علي بن أحمد، ت ٨٢١هـ ).
١- مآثر الإنافة في معالم الخلافة. تحقيق عبدالستار أحمد فراج، عالم الكتب بيروت ١٩٨٠م.
٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ١٩١٩- ١٩٢٢م.

- ابن قنفذ ( أبوالعباس أحمد بن حسن القسنطينى، ت ٨٠٩هـ ).
الوفيات. تحقيق عادل نويهض، ط بيروت ١٩٧١م.

- ابن كثير ( أبوالفداء إسماعيل بن عمر القرشي، ت ٧٧٤هـ ).
البداية والنهاية. دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- مجير الدين الحنبلى ( أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلى، ت ٩٢٨هـ ).
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب عمان الأردن.

- محي الدين الحنفي ( محي الدين أبي محمد عبدالقادر بن محمد القرشي الحنفي، ت ٧٧٥هـ ).

الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلوى.

- مخلوف ( محمد بن مخلوف ). شجرة النور الزكية في طبقات الشافعية.

- مسلم ( الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى ). صحيح مسلم.
تعليق محمد فؤاد عبدالباقى، دار البحوث العلمية والإفتاء – السعودية.

- المقريزى ( تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر ت ٨٤٥هـ ).
١- السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة الطبعة الثانية ١٩٥٧م.
٢- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. ط القاهرة، ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م.

- المطلى ( عبدالباسط بن خليل بن شاهين، ت ٩٢٠هـ).
نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين. تحقيق محمد كمال الدين عز الدين على، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

- ابن منظور ( أبوالفضائل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، ت٧١١هـ).لسان العرب، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

- النسوى ( محمد بن أحمد ). سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى.
تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي ١٩٥٣م.

- ابن نظيف الحموي (أبوالفضائل محمد بن علي).التاريخ المنصورى" تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان " تحقيق ابوالعيد دودو، دمشق ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- النعيمى ( عبدالقادر بن محمد لنعيمي الدمشقي، ت ٩٢٧هـ ). الـدارس في تاريخ المدارس. تحقيق جعفر الحسيني، دمشق ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

- الهمذاني ( رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة، ت ٧١٨هـ). جامع التواريخ، نقله إلى العربية فؤاد عبدالمعطى الصياد، دار النهضة العربية بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

- ابن واصل ( جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، ت ٦٩٧هـ ). مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، الجزء الرابع والخامس تحقيق حسنين ربيع، دار الكتب المصرية ١٣٩٥هـ.

- ابن الوردي ( زين الدين عمر بن المظفر أبي الفوارس، ت ٧٤٩هـ ). تاريخ ابن الوردي " تتمة المختصر في أخبار البشر " تحقيق أحمد رفعت البدراوى، ١٣٨٩هـ.

- اليافعى ( أبومحمد عبدالله بن اسعد بن على بن سليمان اليمنى المكي، ت ٧٦٨هـ ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر في حوادث الزمان. ط بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

- ياقوت الحموي ( شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، ت ٦٢٦هـ. معجم البلدان. دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

- اليونيني ( قطب الدين أبوالفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب اليونيني. ت ٧٢٦هـ). ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

## ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة : -


- أمين ( أحمد أمين ).

يوم الإسلام. دار الكتاب العربي، لبنان.

- برجاوى ( سعيد أحمد).

الحروب الصليبية في المشرق. بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- بول ( ستانلى لين بول ).

الدول الإسلامية. نقله إلى العربية محمد صبيحى فرزات، دمشق ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

- التكريتى ( محمود ياسين أحمد ).

الأيوبيين في شمال الشام والجزيرة، دار الرشيد بغداد ١٩٨١م.

- الجندى ( محمد سليم ).

تاريخ معرة النعمان، مطبعة الترقى بدمشق.

- الحبشي ( حسن).

نور الدين محمود والصليبيون. ط القاهرة، سنة ١٩٤٨م.

- الحريرى ( سيد على ).

الأخبار السنية في الحروب الصليبية. دار الفكر القاهرة ١٣١٧هـ.

- حسن ( إبراهيم حسن ).

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

- الحكمى ( حافظ محمد ).

مرويات غزوة الحديبية. دار ابن القيم الدمام الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

- حمدي ( حافظ أحمد ).

١- الدولة الخوارزمية والمغول. دار الفكر العربي ١٩٤٩م.

٢- الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي. دار الفكر العربي مصر ١٩٥٠م.

- خليل ( عماد الدين خليل ).

١- الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام. مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٢- هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي. مكتبة النور مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٣- عماد الدين زنكي، ط بيروت، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

٤- نور الدين محمود الرجل والتجربة. ط دمشق، سنة ١٤٠٠هـ.

الرافعي ( عبدالرحمن ) وسعيد عاشور.

مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٩٠م.

- رنسيمان ( ستيفن ).

تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت.

- زكي ( عبدالرحمن ).

السلاح في الإسلام. القاهرة ١٩٥١م.

- سبانو ( أحمد غسان).

مملكة حماة الأيوبية. دار قتيبه دمشق.

- شراب ( محمد محمد ).

معجم بلدان فلسطين، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

- الشيخ ( محمد محمد).

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ط القاهرة، ١٩٧٤م.

- صبره ( عفاف صبره ).

١- التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية. القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢- دراسات في تاريخ الحروب الصليبية. القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٣- العلاقات بين الشرق والغرب. علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م. دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٣م.

- الصياد ( فؤاد عبدالمعطي ).

المغول في التاريخ. دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠م.

- الطريقي ( عبدالله بن إبراهيم بن علي ).

الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

- عاشور ( سعيد عبدالفتاح ).

١- الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧١م.

٢-تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧١م

٣- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ط بيروت.

٤- الناصر صلاح الدين، ط القاهرة.

- عاشور ( فايد حماد).

الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

- العبادى ( أحمد مختار ) وآخرون.

تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام. بيروت ١٩٨١م).

- عبدالحافظ ( عادل عبدالحافظ عثمان حمزة ).

العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي.

القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

- عبدالله ( يسرى عبدالغنى ).

معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري. بيروت.

- عبدالمهدى ( عبدالجليل حسن ).

بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ٤٩٢-٦٤٨هـ. عمان الأردن ١٤٠٩م.

- العبود ( نافع ).

الدولة الخوارزمية. بغداد الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

- عرفات ( فتحي السيد عيد ).

مصر في عهد الصالح نجم الدين أيوب. رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي جامعة الأزهر كلية اللغة العربية قسم التاريخ والحضارة ١٤٠٦هـ.

- العريني ( السيد الباز ).

١- المغول. دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٢- الشرق الأدنى في العصور الوسطى. بيروت ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

- العسلي ( بسام ).

الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية. دار النفائس بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ/ ١٩٩٧م.

- علوان ( عبدالله ناصح ).

صلاح الدين بطل حطين ومحرر بيت المقدس.

- علي ( محمد كرد ).

خطط الشام. بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- عمران ( محمود سعيد ).

١- تاريخ الحروب الصليبية. بيروت ١٩٩٠م.

٢- الحملة الصليبية الخامسة " حملة جان دى بريين على مصر ". الإسكندرية ١٩٧٨م.

- عودة ( على محمد الغامدى ).

بلاد الشام قبيل الغزو المغولي. مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

- عويس ( عبدالحليم ).

دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية. دار الشروق جدة الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

- الغامدى ( سعد بن محمد حذيفة ).

أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- الغامدى ( عبدالله سعيد ).

١- جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين. أم القرى ١٤١٠هـ.

٢- صلاح الدين والصليبيون. المكتبة الفيصلية الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٣- مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين. أم القرى ١٤١٤هـ.

- الغامدى ( مسفر بن سالم ).

الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي. جدة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- غانم ( حامد زيان ).

الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية.

- الغزى ( كامل بن حسين بن محمد بن مصطفي البابى الحلبى ).

نهر الذهب في تاريخ حلب. حلب ١٣٤٥هـ / ١٩٢٧م.

- غنيم ( اسمت ).

الدولة الأيوبية والصليبيون. الإسكندرية ١٩٨٧م.

- غوانمه ( يوسف حسن درويش ).

إمارة الكرك الأيوبية. دار الفكر عمان الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- الفقي ( عصام الدين عبدالرؤوف ).

بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي. دار الفكر العربي.

- قلعجى ( قدري).

صلاح الدين قصة الصراع بين الشرق والغرب. دار الكتاب العربي بيروت.

- كي لسترنج.

بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة بشير عواد، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

- اللحام ( ماجد).

معجم المعارك الحربية. بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

- محمود ( شفيق جاسر أحمد ).

القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها ٤٩٢-٦٤٢هـ. القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

- المطوى ( محمد العروسي ).

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

- المعاضيدى ( خاشع ) وآخرون.

تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي. الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

- معروف ( ناجي ).

تاريخ علماء المستنصرية. القاهرة الطبعة الثالثة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

- المنسي ( محمد المنسي عاصي ).

تاريخ الحروب الصليبية وغارات المغول في العالم الإسلامي. ١٤٠٦هـ

- مصطفى ( شاكر).

التاريخ العربي والمؤرخون. جزآن، ١٩٧٩- ١٩٨٠م.

- مؤلف مجهول، خزانة السلاح، حققه نبيل محمد عبدالعزيز.

- مونروند ( مكسيموس).

تاريخ الحروب الصليبية المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب.

ترجمه إلى العربية / كيريومكسيموس مظلوم. ط ١٨٦٥م.

- النبراوى ( فتحية ).

العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى.

القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

- نسيم ( جوزيف يوسف )

١- العدوان الصليبي على مصر. بيروت ١٩٨١م.

٢- علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية.

٣- العدوان الصليبي على بلاد الشام. بيروت ١٩٨١م.

- اليوسف ( عبدالقادر أحمد ).

علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر.

بيروت ١٩٦٩م.

## رابعاً : المجلات

- المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثلاثون والواحد والثلاثون، ١٩٨٣-١٩٨٤م، القاهرة. مقال لسوسن محمد نصر بعنوان " بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك في شمال الشام والجزيرة ".
- مجلة المؤرخ العربي، العدد الحادي عشر، ١٩٧٩م. مقال لعماد الدين خليل بعنوان " صفحات مجهولة من تاريخ الغزو التترى، التتر في ديار بكر... ودور الأراتقة ".